

الموازين بين الشعراء

تأليف
د. زكي مبارك

دار البنية

١٩٧١

جميع الحقوق محفوظة لدار الجيل

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الموازنة بين الشعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين.

أما بعد : فهذا كتاب « الموازنة بين الشعراء » أقدمه مرة ثانية إلى المنصفين من أهل الأدب والبيان، ولولا الشواغل لقدمت إليهم هذه الطبعة منذ سنين، فقد طوقني القراء بالجميل حين أنفذوا نسخ الطبعة الأولى في أقل من سنتين وحين دأبوا على استعجال الطبعة الثانية عدداً من السنين.

أقدم إلى القراء هذا الكتاب، وما أنكر أني به مفتون، فقد أنشأت فصوله، وأنا في غاية من عافية الذوق، وشباب القلب، وعنقوان الروح. فجاء مجدول الحقائق، مصقول الأضاليل، وفي الأدب الحق هدى وضلال وربما كان من الخير أن أنبه القارئ إلى أن فصول الطبعة الأولى أنشئت في ربيع سنة ١٩٢٥، وأن ما أضيف إلى هذه الطبعة — وهو نحو مائتي صفحة — انشئ في ربيع سنة ١٩٣٦ فبين التلبد والطريف من فصول هذا الكتاب عشر سنين، ولست أدري أي العنصرين أقوى وأجزل، وإن كنت أعلم علم اليقين أني كنت في العهدين من أحرص الناس على الحق والصدق، ومن أزهدهم في اللغو والفضول.

هذا كتابي أقدمه يميني. وأنت يا رباه — تباركت وتعاليت — تعلم أنني
خدمت به لغة القرآن. ولم يبق عيرك — يا رباه — مَنْ أنتظر منه حُسْنَ الْجَزَاءِ.
(وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيرًا)

محمد زكي عبد السلام مبارك

البحث الأول

أهواء النقاد

— ١ —

فُطِرَ الناس على حُبِّ المفاضلة بين الوسائل التي ترمي إلى غرض واحد، والموازنة بين الأنواع التي نرجع إلى أصل واحد، وقد ظهرت هذه الفطرة واضحة جلية حين طهر الشعر، وتَبَارَى في قرضه الشعراء.

وليست الموازنة إلا ضرباً من ضروب النقد، يتميز بها الرديء من الجيد، وتظهر بها وجوه القوة والضعف في أساليب البيان : فهي تتطلب قوة في الأدب، وبصراً بمناحي العرب في التعبير، ومن هنا كان القدماء يتحاكمون إلى النابغة تحت قبته الحمراء، في سوق عكاظ، إذ كان في نظرهم أقدر الشعراء على وزن الكلام.

وقد كَلَفَ الأدباء في مختلف العصور بالموازنة بين من ينبغي من الشعراء في عصر واحد : فوازنوا بين امرئ القيس، والناخلة، وزهير، والأعشى في الجاهلية، وبين جرير، والفرزدق، والأخطل في الدولة الأموية، وبين أبي نؤاس، ومسلم بن الوليد، وأبي العتاهية، وبين ابن المعتز وابن الرومي، وبين أبي تمام والبحتري في الدولة العباسية، وكذلك عُقِدَت الموازنات بين من نبغوا بعد أولئك الفحول إلى

العصر الذي نعيش فيه، والعهد قريب بما كتب في الموازنة بين شوقي وحافظ ومطران في الجرائد المصرية والسورية، ولا يزال الأدباء مختلفين في حكمهم على من تقدّمهم، أو عاصرهم من الشعراء.

ونريد أن نبين في هذه الفصول أغلاط النقاد الذين تصدّوا قدماً أو حديثاً للموازنة بين شاعرين : جمع بينهما عصرٌ واحد، أو اشتراكاً في الإبانة عن غرضٍ واحد، وأن نضع ميزاناً يُعتمد عليه في وزن ما للشعراء من الحسنات والسيئات ليستطيع المتأدب الفصل بين شاعرين اختلف من أجلهما الناس.

وسبيلنا إلى ذلك أن نحدد شخصية الناقد الذي يرشح نفسه للموازنة، وأن نميز الوحدة الأدبية التي يرجع إليها الناقد فيما يُعنى به الشعراء من تحرير المعاني، واحتيار الألفاظ.

— ٢ —

يجب أن يصل من بنصدر للموازنة بين الشعراء إلى درجة عُليا في فهم الأدب، وأن يُصبح وله في النقد حاسة فنيّة تنأى به عما يُفسد حكمه من الأهواء والأغراض التي تحمل القاصريين من طلاب الأدب على البعد عن جادة الصواب، حين يوازنون بين الشعراء والكتاب والخطباء. فقد نجد من الناس من يطرب للشعر، لا لأنه شعر، بل لأنه طرق موضوعاً يحبه، وكشف عن معنى نمبل نفسه إليه، وقد لا يكون ما سمعه أو قرأه جميلاً من الوجهة الفنية، أفُعتبر هذا الإعجاب دليلاً على حُسن ما استَحَسَنَه هذا الذي تشبّعت نفسه بغرضٍ خاص ؟

— ٣ —

ومن هنا نستطيع غَضَّ النظر عن أحكام المتأدبين الذين يُفضّلون القديم مطلقاً على الجديد، بحيث يرون الجديد نوعاً من الهُراء، أو بفضلون الجديد مطلقاً على القديم بحيث يرون القديم صورة من صور الجمود، وإنما نغضّ النظر عن أحكام

هؤلاء لأن التشيع للقديم أو الجديد صَرَفَهُم عن الاستعداد للحاسة الفنية التي تَطْرُب للجيد المُمْتع من تروة القدماء والمحدثين.

وقد تنبه لهذا عبد العزيز الجرجاني حين قال : وما أكثر ما نرى ونسمع عن حُفَاط اللغة وجَلَّة الرواة ممن يَلْهَجُ بعيب المتأخرين، أن أحدهم بنشد الببت فيستحسنه ويستجده ويعجب منه ويختار، فاذا نُسب لبعض أهل عصره وشعراء زمانه، كذب نفسه، ونفض قوله، ورأى تلك الغضاضة أهون محملاً، وأقل مَرَزاً من التسليم بفضيلة لمُحدث، والإقرار بالإحسان لمُؤلِّد، وحكي عن إسحاق الموصلي أنه قال : أنشدت الأصمعي :

هَلْ إِلَى نَظَرَةٍ إِلَيْكَ سَبِيلُ فَيَلَّ الصَّدَى وَيُشْفَى الْغَلِيلُ
إِنَّ مَا قَلَّ مِنْكَ يَكْثُرُ عِنْدِي وَكَثِيرٌ مِمَّنْ تُحِبُّ الْقَلِيلُ
فقال : هذا والله الديباج الخسرواني ! ولن تنشديني ؟ فقلت إنهما ليلتهما.
فقال : لاجرَم، والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر ! !

ومن أجل هذا جاز ما ابتدعه خَلَفُ الأحمر من الشعر باسم شعراء الجاهلية، لأن غرام الناس إذ ذاك بالقديم يجعلهم يُسبغون أكثر ما أضيف إلى القدماء من ألوان الكلام ! !

— ٤ —

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التي تَنَسَّم بِسَمَةِ الغيرة على الجنس والدفاع عن النوع : كالموازنة التي كانت تعقدها السيدة سُكينة بين الشعراء، وليس بصحيح ما ذكره أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدي في محاضراته بالجامعة المصرية : من أن السيدة سُكينة كانت ترى فضل الشعر في الصدق، والرفق، وجميل الأحداث، استناداً إلى الحديث الذي نقله صاحب الأغاني، فسرى القارىء أن نقد السيدة سكينة متأثر بالعطف على المرأة، بلا نظر إلى قيمة الشعر من الوجهة الفنية.

وقد يخرج الشعر على التقاليد الاجتماعية والدينية، ولكنه يظل قيماً في نظر الأديب الفنان.

وأنا أشرك القارئ في الحكم على ذلك الحديث. ذكر صاحب الأغاني أنه اجتمع في ضيافة السيدة سَكينة جرير والفرزدق وجميل وكثير ونصيب، فمكثوا أياماً، ثم أذنت لهم فدخلوا عليها، فقعدت حيث تراهم ولا برونها وتسمع كلامهم، ثم أخرجت وصيفة لها وضيئة قد روت الأشعار والأحاديث، فقالت : أيكم الفرزدق ؟ فقال، هأنذا. فقالت : أنت القائل :

هُمَا دَلَّتَانِي مِنْ ثَمَائِينَ قَامَةً كَمَا انْحَطَّ بَارٌّ أَقْتَمُ الرَّيْشِ كَاسِرُهُ^(١)
فَلَمَّا اسْتَوَتْ رَجُلَايَ بِالْأَرْضِ قَالَتَا أَجَيِّ يُرْجَى أَمْ قَتِيلٌ نُحَاذِرُهُ
فَقُلْتُ ارْفَعُوا الْأُمْرَاسَ لَا يَشْعُرُوا بِنَا وَأَقْبَلْتُ فِي أَعْجَازٍ لَيْلٍ أَبَادِرُهُ^(٢)
أَبَادِرُ بَوَائِينَ قَدْ وَكَّلَا بِنَا وَأَحْمَرُ مِنْ سَاجٍ تَبْصُ مَسَامِرُهُ^(٣)

قال : نعم ! قالت : فما دعاك إلى إفشاء سرها وسرك ؟ هلا سترت عليك وعليها ؟ خذ هذه الألف والحق بأهلك !

ثم دخلت على مولاتها وخرجت، فقالت أيكم جرير ؟ قال : هأنذا. قالت : أنت القائل :

طَرَفْتِكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ دَا وَقَتَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ
نُجْرِي السُّوَاكَ عَلَى أَغْرٍ كَانَهُ بَرْدٌ تَحْدَرُ مِنْ مُتُونٍ غَمَامٍ
قال : نعم ! قالت : أولاً أخذت بيدها، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ أنت عفيفٌ وفيك ضعف ! ! خذ هذه الألف والحق بأهلك !

ثم دخلت على مولاتها وخرجت، فقالت أيكم كثير ؟ فقال : هأنذا؛ فقالت : أنت القائل :

(١) الباري : صرب من الصفور.

(٢) الأمراس : الحال.

(٣) بصر نلمع.

وَأَعْجَبَنِي يَا عَزُّ مِنْكَ خَلَائِقُ كِرَامٍ إِذَا عُدَّ الْخَلَائِقُ أَرْبَعُ
دُنُوكُ حَتَّى بَدَفَعَ الْجَاهِلَ الصَّبَا وَدَفَعَكَ أَسْبَابَ الْمُنَى حِينَ يَطْمَعُ
فَوَاللَّهِ مَا يَذَرِي كَرِيمٌ مُمَاطِلٌ أَيْنَسَاكِ إِذْ بَاعَدْتَ أَوْ يَتَصَدَّعُ

قال : نعم ! قالت : ملحت وشكلت ! خذ هذه الألف والحق بأهلك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : أيكم نصيب ؟ قال : هانذا. قالت :
أنت القائل :

وَلَوْلَا أَنْ يُقَالَ صَبَا نَصِيبٌ لَقُلْتُ بِنَفْسِي النِّسَاءُ الصُّغَارُ
بِنَفْسِي كُلِّ مَهْضُومٍ حَسَاها إِذَا ظَلِمَتْ فَلَيْسَ لَهَا انْتِصَارُ

قال : نعم، فقالت : ربيتنا صغاراً، ومدحتنا كباراً ! خذ هذه الألف والحق
بأهلك.

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : يا جميل ! مولاتي تُقرئك السلام
وتقول لك : والله ما زلتُ مشتاقةً لرؤيتك منذ سمعت قولك :
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَ لَيْلَةً بِوَادِي الْقَرَى إِنِّي إِذَا لَسَعِيدُ^(١)
يَقُولُونَ جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بِغَزْوِهِ وَأَيُّ جِهَادٍ غَيْرُهُنَّ أُرِيدُ
لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ وَكُلُّ قَتِيلٍ عِنْدَهُنَّ شَهِيدُ
جَعَلْتَ حَدِيثَنَا بَشَاشَةً وَقَتْلَانَا شُهَدَاءَ ! خذ هذه الألف والحق بأهلك.

وليس في هذا الحديث ما يدل على أن السيدة سكينه لم تهتم ولم تحرص إلا
على أخلاق الأدباء، وأنها ألقت عليهم درساً ما كان أحوجهم إليه — كما ذكر
أستاذنا المهدي — وإنما هو حديث صريح في الإبانة عن حرص السيدة سكينه
على نعيم المرأة بوجه خاص.

ألا نرى كيف أعقبت على قول جرير :
طَرَفَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا وَقْتِ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ

(١) وادي القرى : هو واد بين المدينة والشام أكثر من ذكره الشعراء.

إنها قالت له : أولاً أخذت بيدها، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ أنت عفيف، وفيك ضعف !

فالسيدة ترى أنه كان يجمل بالشاعر أن يأخذ بيدها، وأن يقول لها ما يقال لمثلها فكان يقول بالطبع « ادخلي بسلام » ونحن نعلم إلى أين يؤخذ بيد المرأة حين تطرق عاشقها بليل !

ثم ما معنى هذه الجملة « أنت عفيف، وفيك ضعف » أما والله إني لأحب أن يُعفيني القارئ من شرح ما في هذه الجملة من ألوان الفتون !.

وقد رضيت السيدة سكية عن تلك الفتاة اللعوب، التي تدنو حتى يركب الجاهل رأسه، ويُسخر لصباه، وتفر حتى تتقطع بالغيوي أسباب المني والمطامع والتي لا تزال تلعب حتى يُغلب الحب على أمره، فما يدري أيصدف وينسى، أم يُسمي وهو مُتيم مجروح الفؤاد.

وفي هذا الحكم خضعت السيدة لحاستها الفنية، فلم تذكر إلا أنه ملح وشكل^(١)، وأنه بلغ بذلك غاية البيان.

وما الذي أعجبها في شعر نصيب ؟ أعجبها أنه ربّاهنّ صغاراً، ومدحهنّ كباراً ! وهذا ما أردته من الغيرة على الجنس، والدفاع عن النوع، ولهذا أعجبها من جميل أنه جعل حديثهنّ بشاشة وقتلاهنّ شهداء !

ويؤيد هذا الرأي ما ذكر من أنها قالت مرة لراوية جميل : أليس صاحبك الذي يقول :

أَلَا لَيْتَنِي أَعْمَى أَصَمُّ تَقُودُنِي بُتَيْنَةُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا

قال : نعم ! قالت : رحم الله صاحبك إن كان صادقاً في شعره.
ألا تراها رَضِيَتْ بما رَضِيَ الشاعر لنفسه من العمى والصمم مع سلامة محبوبته، وهي التي أنكرت على الفرزدق أن يفرع ويُروّع حين فزعت ورُوعت من أحله صاحبتاه ؟

(١) شكل على وزن فرح . من الشكل بالكسر، وهو رقه العرل

ونستطيع أيضاً أن لا نبالي بأحكام المتأدين الذين يخضعون لغير الفكرة الأدبية : كالفقهاء والمتصوفة، ومن إليهم ممن يقيسون بمقياس العُرف، والمألوف، والمستحسن من خصال الناس، فقد قيل لعُمرو بن عُبيد : ما البلاغة ؟ فقال ما بلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشدك، وعواقب غيئك. فهو يقيس جودة الكلام بمقياس الدعوة إلى الرشد، والنهي عن الغي، والتنفير من طاعة الهوى. مع أن من الكلام ما يهوي بصاحبه إلى أعماق الجحيم، وهو في الوقت نفسه يسمو به إلى أعلى مراتب البيان.

ولقد أذكر أن بعض العلماء قرأ كتاب (حب ابن أبي ربيعة وشعره)، ثم قال بلهجة جدية : لا عيب في هذا الكتاب إلا أنه لم يختم بفصل في النهي عن العبث بالنساء (١)

وليس معنى هذا أن الشعر يفسد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن معناه أن للشعر نزعة أخرى غير النزعة الدينية، وأريد النزعة الدينية الصرفة التي تخلو من النفحة الشعرية، ومن ذلك ما حدثوا أن بعض الشعراء أنشد المأمون في مدحه :

أُضْحَى إِمَامُ الْهُدَى الْمَأْمُونُ مُشْتَغِلاً بِالْأَلَدِ وَالنَّاسِ بِالدُّنْيَا مَشَاغِلاً

فغضب لذلك ولوى وَجْهَهُ مع أن هذا البيت يُصَوِّر مطامع كثير من النفوس التي يحسب أصحابها أن الإنسان لا يقرب من ربه إلا إذا شغله دينه عن دنياه، ولكن نفس المأمون الوثابة الطمّاحة لم ترض عن هذه المنزلة، ولم تشأ الزهد في طيبات الحياة.

قلت لك : إن الشعر قد يُسائر الأغراض الدينية، وتبقى له حين تغلب فيه

تلك النزعة قيمته الفنية، وعندى لهذا شاهدٌ بديع، وهو قول بعض
في دم جماعة من عبید الراح :

لَوْ كُنْتُ أَحْمِلُ خَمْرًا يَوْمَ زُرْتُكُمْو لَمْ يُنْكِرِ الْكَلْبُ أَنِّي ص
لَكِنْ أَتَيْتُ وَرُوحَ الْمِسْكِ يَفْعَمُنِي وَعَنْبَرُ الْهِنْدِ أَذْكِيهِ ء
فَأَنْكَرَ الْكَلْبُ رِيحِي حِينَ أَبْصَرَنِي وَكَانَ بَعْرِفُ رِيحِ الزُّ

فهذا نبي عن الخمر، ولكنك لا تستطيع أن تضع في صفه قول ابر
ودع الخمرة إن كنت فني كيف يسعى في جنون
لأن هذا بقلبه ما يبنى عليه الشعر من رائع الجنال.

* * *

وأحب أن لا ينسى القارئ أننا نتكلم في الأدب لا في الأخلاق، فإ
نقول، على أنني قد أعود إليه لأحدد معه أغراض الشعر الجيد والنثر الب
معه نظرية « الفن للفن » لنعرف أكانت غاية الأدب تهذيب الأخلا
الأذواق^(١).

(١) عرض المؤلف لهذه النظرية في كتاب « النار المعنى ».

البحث الثاني

عود إلى أهواء النقاد

بينت للقارئ في الكلمة الماضية أنه يجب أن لا يخضع الناقد عند الموازنة لغير الحاسة الفنية، وذكرت له بعض الآفات التي نذهب بقيمة النقد : كالتعصب للقديم أو الجديد، والتشيع بالأفكار الدينية، أو الصوفية، والدفاع عن الجنس في حكم بعض النساء بين الشعراء.

والآن أسير مع القارئ في هذه السبيل لنعرف بقية الموانع التي تحول بين الناقد وبين الصواب حين يوازن بين الشعراء.

— ١ —

لا ينكر أحد أن ابن الرومي كان من الشعراء الفحول، والشاعر أبصر بالشعر من سواه، فلحكمه قيمة خاصة تفوق أحكام المتأدبين من رجال اللغة والرواية، ومع هذا فأنا أستطيع أن أحكم بأن ابن الرومي حكم مرة بالجمال لقطعة من الشعر، وكان في حكمه من الخاطئين، وإليك البيان :

كان ابن الرومي مُسرفاً في التطير، وكاد إسرافه فيه يصل به إلى الجنون، فقد كان يلبس أثوابه كل يوم ويتعوّذ، ثم يصير إلى الباب والمفتاح معه فيضع عينه

على ثقب في خشب الباب فتقع على جار له كان نازلاً بإزائه، وكان أحذب،
يقعد كل يوم على بابه، فاذا نظر إليه رجع، وخلع ثيابه، وقال : لا يُفتح الباب !
فكان بيته يظل مغلق الأبواب إلى أن يُشرف مَنْ فيه على الهلاك ! وعلم معاصروه
بافراطه في التطير، فأقبل عليه أحدهم وأنشده :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الدَّهْرَ يُؤْذِنُ صَرْفُهُ
بِتَفْرِيقِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْحَبَائِبِ
رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي فَوَطَّئْتُهَا عَلَى
رُكُوبِ جَمِيلِ الصَّبْرِ عِنْدَ النَّوَائِبِ
وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا عَلَى جَوْرِ حُكْمِهَا
فَأَيَّامُهُ مُحْفُوفَةٌ بِالْمَصَائِبِ
فَحَذِّ خِلْسَةً مَنْ كُلِّ يَوْمٍ تَعِيشُهُ
وَكُنْ حَذِيراً مَنْ كَامَنَاتِ الْعَوَاقِبِ
وَدَعْ عَنْكَ ذِكْرَ الْفَالِ وَالزَّجْرِ وَأَطْرَحْ
تَطْطِيرَ جَارٍ أَوْ تَقَاوُلَ صَاحِبِ

فبقي ابن الرومي باهتاً ينظر إليه، ثم تبين الحاضرون أنه شغل قلبه بحفظ
هذه الأبيات.

أفبحسب القارئ أن مثل هذه القطعة — وهي وَسَطٌ في ألفاظها ومعانيها —
كانت تشغل مثل ابن الرومي، وتظفر باحتلال قلبه، لولا بغضه للتطير، وملله
من تلك الوسوسة التي كدّرت عليه موارد الحياة ؟

إن الناقد مفروضٌ فيه البرء من جميع الأغراض، لأن النقد نوع من القضاء،
فاذا سيطرت عليه فكرة خاصة صيّرت حكمه طُعْمَةً للظنون، وسواء في ذلك
الأفكار الدينية، والنزعات الجنسية، والاتجاهات العقلية التي تصبغ التفكير بلون
خاص.

إن الشعر الوَسطَ قد يؤثرُ تأثيرَ الشعر البديع حين تستعد له النفس، ولكن هذا التأثير لا يسمو بالشعر الوَسط إلى منزلة الشعر الجيد، ومن أمثلة ذلك ما روي من أن بعض الأعراب تزوج جارية من رَهْطه وطمع في أن تلد له غلاماً، فولدت له جارية، فهجرها وهجر منزلها، وصار يأوي إلى غير بيتها، فمرّ بخبائها بعد حول، وإذا هي تُرقص ابنتها، وهي تقول :

مَا لِأَبِي حَمْرَةَ لَا يَأْتِينَا يَظُلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
غَضَبَانِ أَنْ لَا نَلِدَ الْبَيْنَا تَاللهَ مَا ذَلِكْ فِي أَيْدِينَا
وَأِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا وَنَحْنُ كَالزَّرْعِ لِزَارِعِينَا
نُنْبِتُ مَا قَدْ زَرَعُوهُ فِينَا

فلما سمع الأبيات أقبل يعدو نحوها حتى ولج عليها الخباء، فقبّلها وقبّل ابنتها، وقال : ظلمتكما ورب الكعبة !

فأنت ترى أن هذه أبياتٌ عادية في ألفاظها ومعانيها، ولكن لا تنس أن الرجل الذي نالت من نفسه، وراضته بعد جُمُوحه : رجلٌ ينزع قلبه بالرغم منه إلى زوجته وابنته، والشرارة الضئيلة كافيةٌ لاحتراق الهشيم ! فليست تدل هذه الحادثة على قيمة أدبية لهذه الأبيات، وإنما هي شاهدٌ « على ضرب من المعاملات، وعلى أحوال الاجتماع، وعلى ما للمرأة من لين الجانب ورقة الأخلاق »^(١). وكذلك يجب درس حالة الناقد النفسية قبل الاعتداد بما أصدر من الأحكام لأن الحكم يتبع ما للنقاد من ألوان النفوس، وصُورِ العقول.

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التي يخضع أصحابها لفكرة قومية، أو حزبية، فقد أسرف النقاد في الظلم حين تصدروا للفصل بين شعراء الأحزاب،

(١) كذلك قال الأستاذ الدكتور ضيف في مقدمته ص ٦٦.

وإنك لتجد أمثلة ذلك منشورة هنا وهناك : حين ترحع للعصور التي اصطدمت فيها الدولة العباسية بالدولة الأموية، وحين تُراجع التنافس الذي كان بين أدباء قرطبة وأدباء بغداد.

وهذا عبد الملك بن مروان كان من أبصر أهل عصره بنقد الشعر، فلما دخل عليه الأخطل وأنشده :

نَفْسِي فِدَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا	أَبْدَى التَّوَّاجِدَ يَوْمَ عَارِمٍ ذَكَرُ ^(١)
الْحَائِضُ الْعَمْرَةَ الْمَيْمُونُ طَائِرُهُ	خَلِيفَةُ اللَّهِ يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطَرُ
فِي نَبْعَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَعْصِمُونَ بِهَا	مَا إِنْ يُوَارَى بِأَعْلَى نَبْتِهَا الشَّجَرُ
حُشْدٌ عَلَى الْحَقِّ عَيَّافُو الْخَنَا أَنْفٌ	إِذَا أَلَمْتُ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا
لَا يَسْتَقِيلُ ذَوُو الْأَضْعَانِ حَرْبَهُمُو	وَلَا يَبِينُ فِي عِيدَانِهِمْ خَوَرُ
شُمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَفَادَ لَهُمْ	وَأَوْسَعُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا ^(٢)
هُمْ الَّذِينَ يُبَارُونَ الرِّيَّاحَ إِذَا	قَلَّ الطَّعَامُ عَلَى الْعَافِينَ أَوْ قَنَرُوا
بَنِي أُمَيَّةَ نِعْمَاكُمْ مُجَلَّلَةٌ	تَمَّتْ فَلَا مَنَّةَ فِيهَا وَلَا كَدْرُ

أقول : لما أنشد الأخطل هذه القصيدة طرب عبد الملك وقال : أناادي في الناس أنك أشعر العرب ؟ فقال الأخطل : حسبي شهادتك يا أمير المؤمنين !

ولم يكن الأخطل أشعر العرب إذ ذاك، فقد كان جرير والفرزدق في الميدان، ولكن عبد الملك خضع في حكمه للمصلحة الذاتية لا الحاسة الفنية، فمد كان الأخطل سليط اللسان، خبيث الهجاء، وكان عبد الملك قد استعان به على لدع من يُناوئه من رجال السياسة وشُعراء الأحزاب، ومن هنا كانت دالة الأخطل عليه، وكان ما رَوَوْا من أنه كان يجيئه وعليه جبة خز، وفي عنقه صليب ذهب، وفي ملاحه نشوة الصهباء، مع أن عبد الملك خليفة المسلمين، والدين في عفوانه، والناس على نصره حِراس، ولكن السياسة، وحاجة الملك إلى الدعاة من كُتَّاب

(١) العارم السديد، والواحد . الأناج.

(٢) شمس : جمع شمس، وهو الصعب المراس.

وخطباء وشعراء، والحرص على تحقير المعارضين، كل أولئك أغرى عبد الملك بـ
الأخطل، والحكم بأنه أشعر الناس !.

ولو أن ابن رشيقي تنبه لهذا الغرض لما ظن أن المسلمين سكنوا عن الأخطل
لجمال شعره، ولما عجب من جهره بتحقيق الفرائض الإسلامية حين قال :
وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمَضَانَ طَوْعاً وَلَسْتُ بِأَكِلٍ لَحْمِ الْأَصَاحِي
وَلَسْتُ بِزَاجِرٍ عَنَساً بُكُوراً إِلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ لِلنَّجَاحِ^(١)
وَلَسْتُ مُنَادِياً أَبَدًا بَلِيلٍ كَمَثَلِ الْغَيْرِ حَيٍّ عَلَى الْفَلَاحِ
وَلَكِنِّي سَأَشْرِبُهَا شُمُولاً وَأَسْجُدُ قَبْلَ مُنْبَلِّحِ الصَّبَاحِ^(٢)

ولكن ابن رشيقي حسب عبد الملك سكت عن هذا الشاعر لحسن شعره،
وتقدمه على معاصريه، ولذلك قال « ومن الفحول المتأخرين الأخطل، واسمه غياث
ابن غوث، وكان نصرانياً من تغلب، بلغت به الحال في الشعر إلى أن نادى عبد
الملك بن مروان وأركبه ظهر جرير بن عطية الخطفي، وهو تقي مسلم ». ثم
قال : « وهجا الأنصار ليزيد بن معاوية لما شَبَّ عبد الرحمن بن حسان بن ثابت
بعمته فاطمة بنت أبي سفيان، وقيل بل بأخته همد بنت معاوية، ولولا شعره لَفُتِلَ
دون أقل من ذلك، وقد ردّ على جرير أقبح ردّ، وتناول من أعراض المسلمين
وأشرافهم، مالا ينجو مع مثله علويّ فضلاً عن نصرانيّ ».

وقد بينت لك أن الشعر وحده لم يكن كافياً لنجاة الأخطل من أن يؤخذ
بجرائره، ولكنّ دفاعه عن بني أمية، وهجاءه لخصومهم، كانا سبباً في تعصب
الأمويين له حتى حكم عبد الملك بتقدمه على الشعراء.

— ٤ —

وكما كان عبد الملك يؤثر شعر الأخطل كان الرسيدي يُؤثّر شعر منصور التميمي
ولكن لانس أن رجال السياسة لا يحبون الشعر للشعر، ولا العلم للعلم، وإعما

(١) العنس : الناقه الصلبة.

(٢) الشمول : هي الحمر التي تعصف بالعمل كما تعصف بالبهات ريح الشمال

يتخذون الشعراء والعلماء مطايا لأغراضهم السياسية، فمن البله أن نظن أن جودة الشعر هي التي أدنت الثميري من الرشيد، أو أن اتصال النسب كان سبب تلك الخطوة كما توهم بعض مؤرخي الآداب العربية، وإنما أدنى الرشيد هذا الشاعر لميله إلى إمامة العباس وأهله ومنافرتة لآل علي بن أبي طالب، فقد ذكروا أنه قال في تسفيهم هذه الأبيات :

بني حَسَنٍ وَقُلْ لِبَنِي حُسَيْنٍ عَلَيْكُمْ بِالسَّوَاءِ مِنَ الْأُمُورِ
أَمِيطُوا عَنْكُمْ كَذِبَ الْأَمَانِي وَأَحْلَاماً يَعْدَنَ عِدَاتِ زُورِ
تُسْمُونَ النَّبِيَّ أَبَا وَيَئِي مِنَ الْأَحْزَابِ سَطْرٌ فِي سَطُورِ

يريد قوله تعالى في سورة الأحزاب ﴿ ما كان محمد أباً أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾. ويذكرون أن الرشيد قال له : ما عَدَوْتَ ما في نفسي ثم أمره أن يدخل بيت المال فيأخذ ما أحب، كما قال صاحب زهر الآداب، مع أن للآية وجهاً غير هذا الوجه، وتأويلاً غير هذا التأويل.

ويؤيد ما أسلفناه أن الرشيد لما بلغه قوله :

آلَ النَّبِيِّ وَمَنْ يُحِبُّهُمْ يَتَطَامَنُونَ مَخَافَةَ الْقَتْلِ^(١)
أَمِنَ النَّصَارَى وَالْيَهُودُ وَمَنْ مِنْ أُمَّةٍ التَّوْحِيدِ فِي أَزْلِ^(٢)
إِلَّا مَصَالِيَتٌ يَنْصُرُونَهُمْ يَطْبُأ الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا الذُّبْلِ^(٣)

لما بلغ الرشيد هذا القول أمر بقتله. فمضى الرسول فوجده قد مات. فقال الرشيد : لقد هَمَمْتُ أَنْ أَنبِشَ عِظَامَهُ فَأَحْرِقَهَا^(٤)

(١) يتطامنون : يسكنون.

(٢) الأزل : الشدة.

(٣) المصاليات : جمع مصلت، وهو المقدام، والقنا الذبل : هي الظماء إلى الدم، والمفرد ذابل، ويجمع أيضاً على ذوابل.

(٤) في كتاب : « المدائح النبوية في الأدب العربي ». فصل مطول عن إخلاص بعض الشعراء في حب أهل البيت.

وأنا أكتفي بهذين المثالين في تعرض من يوازن بين الشعراء للظنّة حين تسيطر عليه حزبية، أو قومية، ولولا أني أعرف في شعراء العصر ضيق الصدر لذكرت لك نماذج من شعرهم في مُسَايَرَةِ الأحزاب، خوفاً من النقد والموازنة تحت وَحْيِ الأغراض، ولهم العذر في هذا الدهاء، فإن الأمة التي تكاد تصدّق أكثر ما يقال، إنما تحمل الشعراء على أن يحسبوا حساباً لما يكتب عنهم في الصحف التي لا تعرف الفرق بين الشخصية الأدبية، والشخصية السياسية، فقد أكون عدوك لأنك تناصر حزباً غير الحزب الذي أناصره، وأكون في الوقت نفسه نصيرك كعالم أو أديب، أو فنان.

البحث الثالث

أنفس الشعراء

— ١ —

قد رَأَيْتَ أن الموازنة نوعٌ من النقد، وهي كذلك نوع من الوصف، فالذي يوازن بين شاعرين إنما يصف ما لكل منهما وما عليه بأدق ما يمكن من التحديد، فمن واجب الناقد إذاً أن يتعمق في دراسة حياة الشاعر الذي يضع شعره في الميزان، وأن يجتهد في أن يرى الأشياء بعينه، ويدركها بشعوره، ليستطيع وزن ما يقول، فإن الشاعر إنما يؤدي « رسالته » إلى جيل خاص في قُطر خاص، ومن التحكم أن تُطالبه بأن يرى الأشياء بعينك، ويدركها ببصيرتك، وتندوقها بوجدانك، مع أن بينك وبينه مئات الفروقات، وهو لم يعك معك ولا لك، وإنما خضع في شعوره لغير ما نخضع له من ظروف الزمان والمكان. وقد رأيتُ من الأدباء من يستنكر قول زهير في دار محبوبته، وقد نال منها العفاء :

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عَشْرِينَ حِجَّةً فَلَأْيَا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ نَوَّهِم^(١)

(١) لأيا عرفها، وعرفتها بعد لأي : أي بعد مشقة، وهو بعبير جاهلي لم يحيه في العصر الحديث إلا المفلوطي رحمه الله. والحجة : السنة

وهو يرى أن هذا وَصَفٌ ضئيلٌ للدُّروس والعفاء، وذلك غفلةٌ ظاهرة فإن
منازل الأعراب تغفو وتدرُس في أقلَّ من عشرين سنة، فكيف بطلب لدروسها
عشرات العقود ؟

ورأيت من يستهجن ابتداء كعب بن زهير بقوله :
بَانَتْ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَكْبُولُ
مُتِيَمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ
وَمَا سَعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا
إِلَّا أَغْنُ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ

وذلك أن هذه القصيدة أُنشِدت في حضرة النبي عليه السلام، فمن الأدب
أن لا تبدأ بالنسيب، وهذا أيضاً خطأ لأن بدء الشعر بالغزل كان من التقاليد
العربية المسملمحة، ولم يكن أحد ينكرها إذ ذاك حتى يُنسب كعبٌ إلى ما هو
منه براء.

— ٢ —

وكان الجاحظ يقول : لا أعرف شعراً يُفْضَلُ قول أبي نواس :
وَدَارِ نِدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَذْلَجُوا بِهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَرَّاسُ
مَسَاجِبُ مِنْ جَرِّ الزَّقَاقِ عَلَى الثَّرَى وَأَضْعَاثُ رِيحَانٍ جَنِيٍّ وَيَاسِسُ
حَبَسْتُ بِهَا صَحْبِي فَجَدَّدْتُ عَهْدَهُمْ وَإِنِّي عَلَى أُمْتَالِ تِلْكَ لَحَاسِسُ
نُذَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسَجَدِيَّةٍ حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ
قَرَارُهَا كِسْرَى وَفِي جَنَابَتِهَا مَهَا تَدْرِيهَا بِالْقَيْسِيِّ الْفَوَارِسُ
فَلِلْخَمْرِ مَا زُرْتُ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

ثم جاء صاحب المثل السائر، فقال « فصاحة هذا الشعر عندي هي الموصوفة
لا هذا المعنى، فانه لا كبير كُلفَةٍ فيه لأن أبا نواس رأى كأساً من الذهب ذات
تصاوير فحكها في شعره، والذي عندي في هذا أنه من المعاني المشاهدة، فإن

هذه الخمر لم تحمل إلا ماء يسيراً، وكانت تستغرق صور هذه الكأس إلى مكان جيوبها، وكان الماء فيها قليلاً بقدر القلانس التي على رؤوسها وهذا حكاية حال مشاهدة البصر».

فانظر كيف صَغُرَتْ قيمة الشعر في عين هذا الناقد حين كان : « حكاية حال مشاهدة البصر ». مع أنه إنما عَظُمَ لذلك في عين الجاحظ.

ورأيت من ينكر قول ابن الدمينية :
وَلَوْ أَنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّمَا ذَكَرْتُكَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيَّ ذُنُوبٌ^(١).
واستند في إنكاره إلى أن هذه (عبارة فقهية) وكان عليه أن يذكر أن روح الشاعر مصبوغ بصبغة دينية، وأنه قال هذه الكلمة العذبة، قبل أن يوجد التكلف في الفقه، وقبل أن تثقل أرواح الفقهاء !

ومن النقاد من فضّل قول مسلم بن الوليد :
تَظَلَّمُ الْمَالُ وَالْأَعْدَاءُ مِنْ يَدِهِ لَا زَالَ لِلْمَالِ وَالْأَعْدَاءِ ظِلَامًا
واستقبح قول أبي نواس :
بُحَّ صَوْتُ الْمَالِ مِمَّا مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ
استناداً إلى أن المال لا صوت له. وهذا أيضاً خطأ : لأن أبا نواس قريب العهد بجال الأعراب، ومال الأعراب ناطق، وطالما اضطربت الإبل لسكّين الجزار عند قدوم الضيّفان.

— ٣ —

فَعَلَى الناقد أن يتبين العهد الذي عاش فيه الشاعر، وأن يُعْنَى فوق ذلك بمعرفة ما درسه من الأدب القديم لما لذلك من الأثر في أذواق الشعراء.

(١) ابن الدمينية : شاعر رقيق النسيب، وهو صاحب هذا البيت النفيس :
وإنني لأستحييك حتى كأنما علي بظهر الغيب منك رقيب

فقد أنكروا على شوقي قوله :

ارْفَعِي السَّيْرَ وَحْيِي بِالْجَبِينِ وَأَرِينَا فَلَقَ الصُّبْحَ الْمُيِّنَ
وَقَفِّي الْهُودَجَ فِينَا سَاعَةً نَقْتَسِمُ مِنْ نُورِ أُمِّ الْمُحْسِنِينَ
وَأَتْرُكِي فَضْلَ زِمَامِيهِ لَنَا نَتَنَاقَشُ نَحْنُ وَالرُّوحُ الْأَمِينُ

مع أن أم المحسنين إنما ركبت يومئذ سيارة تنهب الأرض، ولكن هكذا بقي
الهودج في ذهن شوقي، لإمعانه في دراسة الشعر القديم...

وأنكروا عليه قوله في سيارة الدكتور محبوب :

لَكُمْ فِي الْخُطِّ سَيَّارَهُ حَدِيثُ الْجَارِ وَالْجَارَةِ
واستخفوا كلمة : « حديث الجار والجاراة ». وفاتهم أن الدكتور محبوب
يسكن في حيٍّ قد لا يعرف أهله غير الخيل، والبغال، والحمير !

واستنكروا قول حافظ على لسان اليتيم :

أَمْشِي يُرْنَحْنِي الْأَسَى وَالْبُؤْسُ تَرْنِيحَ الشَّرَابِ
لأن اليتيم البائس قد لا يعرف كيف يترنح السكران، ولكن حافظاً يرى هذه
المناظر في الصباح والمساء^(١).

واستضعفوا قول مطران في رثاء اسماعيل صبري :

شُهْبٌ تَبِينُ فَمَا تَوُوبُ فَكَأَنَّهَا حَبَبٌ يَذُوبُ
أَرَأَيْتَ فِي كَأْسِ الطَّلَا دُرّاً وَقَدْ صَعِدَتْ تَصُوبُ
هُوَ ذَاكَ فِي لُجِّ الدُّجَى طَفُو الدَّرَارِي وَالرُّسُوبُ
لَا فَرْقَ بَيْنَ كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا فِيمَا يُتُوبُ

لأن مقام الرثاء يجل عن ذكر الحب والكأس، وليس لك أن تشبه الشهاب
حين يغيب، بالحب حين يذوب، ولكن يجب أن نعرف كيف يعيش مطران
لنعرف قيمة هذا التشبيه في نفسه الممراح.

(١) عاتبنا حافظ رحمه الله على هذا التأويل.

وكذلك نقول في توجيه كلمة شوقي في رياء محمد تيمور :

صَرَبُوا الْقِيَابَ عَلَى السَّبَابِ	وَتَوَوُوا إِلَى يَوْمِ الْحَسَاتِ
هَمَدُوا وَكُلُّ مُحَرِّكٍ	يَوْمًا سَيَسْكُنُ فِي الشَّرَابِ
نَزَلُوا عَلَى ذُبِّ الْهَلَى	فَتَضَيُّقُوا شَرَّ الذُّنَابِ
وَكَانَهُمْ صَرَعَى كَرَى	بِالْقَاعِ أَوْ صَرَعَى شَرَابِ
فَإِذَا صَحَّوْا وَتَبَّهَوْا	فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْمَنَابِ

فإن تشبيه الموتى بصرعى الشراب لا يدل على غفلة الشاعر عن رعاية مقتضى الحال وإنما يشير بطرف خفي إلى ما لحياته من شتى الألوان، كما أفصح شعره عن ألوان حياته في قوله من كلمة تانية :

مَا أَنْتِ يَادُنْيَا أَرُونَا نَائِمٍ ؟ أَمْ لَيْلُ غُرْسٍ ؟ أَمْ بِسَاطُ سُلَافٍ
نَعْمَاؤُكَ الرَّيْحَانُ إِلَّا أَنَّهُ مَسَّتْ حَوَاشِيهِ نَقْبَعُ زَعَافٍ

وقال أحد أنصار ابن الرومي يلومه : لم لا تشبهه كنشبهات ابن المعنز ؟ فقال أنشدني من قوله الذى استعجزتني عن مثله. فأنشده قوله في الهلال :

أَنْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ أَثْقَلَتْهُ حَمُولَةٌ مِنْ عَنَبِرٍ

فقال له زدني، فأنشده :

كَأَنَّ آذْرِيُونَهَا غِبَّ سَمَاءٍ هَامِيَةٍ
مَذَاهِنٌ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا بَقَايَا غَالِيَةٍ

فصاح : واغوثاه ! لا يكلف الله نفسا إلا وسعها. ذلك إنما بصف ماعون بيته لأنه ابن حليفة، وأنا أي شيء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت أين يقع قولي من الناس، فهل لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام :

وَقَدْ نَسَرْتُ أَيْدِي الْجُنُوبِ مَطَارِفًا
مِنْ الْجَوِّ دُكْنًا وَالْحَوَاشِي عَلَى الْأَرْضِ
يُطَرِّزُهَا قَوْسُ السَّحَابِ بِأَخْضَرٍ
عَلَى أَحْمَرَ فِي أَصْفَرٍ إِنْزَرِ مُبَيَضُّ

كَأَذْيَالِ خَوْدٍ أَقْبَلَتْ فِي غَلَائِلِ
مُصْبَعَةٍ وَالْبَعْضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضِ

وقولي في صانع الرِّقَاقِ :

مَا أَنْسَ لَا أَنْسَ خَبَّازاً مَرَرْتُ بِهِ
يَدْحُو الرِّقَاقَةَ مِثْلَ اللَّحْرِ لِلْبَصْرِ
مَا يَبِينُ رُؤْيَاهَا فِي كَفِّهِ كُرَةً
وَيَبِينُ رُؤْيَاهَا قَوْرَاءَ كَالْقَمَرِ
إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا تَنْدَاحُ دَائِرَةً
فِي لُجَّةِ الْمَاءِ يُلْقَى فِيهِ بِالْحَجَرِ

فليس لك أن تقدم ابن المعتز على ابن الرومي لأنه استطاع نسيبه الآذريون بعد المطر بمداهن الذهب فيها بقايا الغالية، وليس لك أن تقدم ابن الرومي على ابن المعتز لأنه أجاد وصف الخباز، وهو يدحو الرقاق، فإن سبق هنا وهناك يرجع إلى الظروف التي أتاحت لكل من الشاعرين ومهدت السبيل إلى الوصف الدقيق، وإنما يجب عليك أن نعلم إلى الشاعر وتسبر أغوار نفسه لترى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء، فقد يكون ابن الرومي في وصف الرقاق أشعر من ابن المعتز في وصف الهلال.

— ٤ —

وكذلك ليس لك أن تقدم الأوصاف الحضرية على الأوصاف البدوية، لأن الحضارة في ذوقك أنضر من البداوة، فقد يكون البدوي في بداوته أشعر من الحضري في حضارته، كما قال أستاذنا المهدي، ومعنى ذلك أن البدوي قد يكون شعوره بالريح السَّمُوم في مجاهل البیداء أقوى من شعور الحضري بالنسيم العليل في الروضة الغناء.

فليس قول خزيمة بن نهد في ريق محبوبته :

فَتَاةٌ كَأَنَّ رُضَابَ الْعَبِيرِ بِفِيهَا يُعْلَى بِهِ الزُّنْجِيلُ

بأقل من قول الشريف الرضي :

يَيْسَمَنَّ عَنْ بَرْدِ الْفَحَامِ وَبَرْدِهِ رَيَّانَ يُعَبِّقُ بِالْمُدَامِ وَيُصْبَحُ

ولا يفضلهما من قال : « كأني ألتقط من فيها حبَّ الرمان ». لأن الأمر في ذلك يرجع إلى قوة إدراك الشاعر، بغضّ النظر عن تفاوت الأوصاف، فقد يكون الزنجيل أجمل ما تُعطر به الأفواه في البادية كما تكون الخمر، أو حبَّ الرمان، أحلى ما تُعطر به الثنايا في الحاضرة، ولكل شعب وجهة في تناول الأشياء.

ألم تر إلى المتوكل وقد أنشده ابن الجهم في مدحه :

أَنْتَ كَالْكَلْبِ فِي حِفَاطِكَ لِلوَدِّ وَكَالتَّيْسِ فِي قَرَاعِ الْخُطُوبِ

لقد طرب المتوكل لهذا الشعر، وإن كان جاسي اللفظ بادي الخيال، لأنه أعجب بما له من قوة الشاعرية، وهي روح البيان، ثم أسكنه قصراً من قصور بغداد، واستدعاه بعد ذلك، وقد صقلته الحضارة، فأنشده تلك الرائية البديعة التي يقول في أولها :

عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْجَسْرِ

جَلَبْنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَذْرِي وَلَا أَذْرِي

أَعْدَنَ لِي الشُّوقُ الْقَدِيمَ وَلَمْ أَكُنْ

سَلَوْتُ وَلَكِنْ زِدْنَ جَمراً عَلَى جَمْرٍ

سَلِمَنَّ وَأَسْلَمَنَّ الْقُلُوبَ كَأَنَّمَا

تُشَكُّ بِأَطْرَافِ الْمُتَّقَةِ السُّمْرِ^(١)

خَلِيلِي مَا أَخْلَى الْهَوَى وَأَمْرُهُ

وَأَعْرَفَنِي بِالْحُلُوِّ مِنْهُ وَبِالْمُرِّ

بِمَا بَيَّنَّنَا مِنْ حُرْمَةٍ هَلْ عَلِمْتُمَا

أَرَقَّ مِنْ الشُّكْوَى وَأَقْسَى مِنَ الْهَجْرِ

(١) المثقفة السمر : هي الرماح.

والخلاصة أن الناقد إنما يوازن بين عبقرية وعبقرية، ويفاضل بين بصيرة وبصيرة، ويقارن بين إدراك وإدراك، بغضّ النظر عن الفروق الموضوعية التي يقضي بها اختلاف الأقاليم، والفوارق الزمنية التي يوجبها اختلاف العصور. وهذا يتطلب من الناقد توضيح خطيرة، ولكنها ضرورية : يتطلب هذا أن ينسى الناقد شخصيته، وأن يفنى في شخصية الشاعر الذي يدرسه : بحيث يبصر بعينه، ويسمع بأذنه، ويفقه بقلبه، لَيْسْبُر كما قلت، أغوار نفسه، وليرى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء.

البحث الرابع

شعراء الأحزاب

— ١ —

ويجب على الناقد حين يُوازن بين شاعرين أن يعرف حياتهما بالتفصيل، وأن يثبت مما أحاط بهما من مختلف الظروف، وعلى الأخص إذا مرّت حياتهما في غمرة من الغمرات الدبئية، أو فتنة من الفتى السياسية، فقد يكون أحد الشعاعين من الحزب الغالب، وثنائهما من الحزب المغلوب، ثم تعصف الفتى بما ترك شاعر الأقلية من الشعر الرائع، وتبقى العصبية الحزينة على مانرك شاعر الأكثرية من العثّ والسّمين، والويل كل الويل للمغلوب !

ولقد حان الوقت لمحو تلك الخرافة التى كاد يجمع عليها مؤرخو الآداب العربية : وهى أن الشعر كان فى خمود فى زمن البعنة والخلافة الراشدة، استناداً إلى ندره ما روى من شعر ذلك العهد، وفلة مَنْ عُرِفَ فيه من الشعراء.

ولو تنبه الباحثون إلى تلك الحملة الشديدة التى وجهها الشريعة إلى الشعر والشعراء لتربّتوا فى الحكم أو احترسوا بعض الاحتراس، فقد كان الشعر فى زمن البعثة قوياً وعزيراً، وكان الشعراء فى كثرة وعزّة، ولكن النبى عليه السلام رأى أكثرهم من معارضيه، فعمد إلى إخفات صوته، وكان ما أراد.

فإن كنت في ريب من ذلك فحدّثني عن سبب نزول هذه الآية :
﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ
مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

ثم أذكر أن عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت قالوا: يا
رسول الله لقد أنزل الله هذه الآية، وهو يعلم أننا شعراء، هلكنّا ! فأنزل الله :
﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا
ظَلَمُوا ﴾ .

فدعاهم رسول الله فتلاها عليهم^(١).
ومعنى ذلك أن الشعر لا يُدَمَّ إلا إن أعدت به حملة على النبوة، وإلا فقد
روي أن النبي عليه السلام قال ليلة وهو في بعض أسفاره : أين حسان بن ثابت ؟
فقال حسان : لبك يا رسول الله وسعديك ! قال : اُحْدُ ! فجعل يُنْشِدُ وَيُصْغِي
إليه، فما زال يسمع إليه وهو سائق راحلته حتى فرغ من إنشاده، فقال عليه
السلام : لَهَذَا أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقْعِ النَّبْلِ، وروي أيضاً أنه قال له : اهجهم ! فوالله
لهجاؤك أشدُّ عليهم من وَقْعِ السهام، في غَلَسِ الظلام ! وكذلك كان حسان يقول
لأهل مكة :

عَدِمْنَا خَيْلًا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا	نُتِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كِدَاءُ ^(٢)
بُنَازَعْنَ الْأَعْنَةَ مُصْغِيَاتٍ	عَلَى أَكْنَافِهَا الْأَسْلُ الظَّمَاءُ ^(٣)
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّراتٍ	تُلَطِّمُهُنَّ بِالْحُمْرِ النَّسَاءُ ^(٤)
فَإِذَا تُعْرِضُوا عَنَّا آعْتَمَرْنَا	وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْعِطَاءُ
وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لِجِلَادِ بَوْمٍ	يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ بَنَاءُ
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا	هُمُ الْأَنْصَارُ عُرْضُهَا اللَّفَاءُ ^(٥)

(١) راجع أسباب النزول

(٢) كداء بفتح الكاف بأعلى مكة عند المحصب.

(٣) الأسل . الرماح، ومفردها أسلة، والأعنة جمع عنان، وهو اللجام.

(٤) مسمطراب : مسرعات، وتلطمهن النساء . تمسح ما عليهن من العبار.

(٥) العرضة بالضم . الهمة.

لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ سَبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءٌ
فَنَحْكِمُ بِالْقَوَائِي مَنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ جَيْنَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ
وَجِبْرِيلُ أَمِينُ اللَّهِ فِينَا وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
أَلَّا أُلْبِغَ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي مُغْلَغَةً فَقَدْ بَرَحَ الْخَفَاءُ^(١)
بِأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَّتْكَ عَبْدًا وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتْهَا الْإِمَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفٍّ فَثِيرُكُمَْا لَخَيْرُكُمَْا الْفِدَاءُ

ولما نقلت لك هذه القطعة من شعر حسان لأنها تمثل خصومة ذلك العهد
أصدق تمثيل، فليس عندي شك في أنه كان لقريش شعراء فحول يقارعون شعراء
الرسول، وليس عندي شك في أنه كان لليهود شعراء يجمعون بين حُسن القول
وظُلْمة الارتياب، وحسبك أن تعرف أنه كان فيهم من يقول :
فَلَوْ كَانَ مُوسَى صَادِقًا مَا ظَهَرْتُمُو عَلَيْنَا وَلَكِنْ دَوْلَةٌ ثُمَّ تَذَهَبُ

ولكن رأى النبي أن يقضي قضاء مُبرماً على من عارضه من شعراء قريش،
وشعراء اليهود : لأن الدين في نفسه أعزّ من أن يُهادن أعداءه أو يُفْتَر عن حرب
خصومه من الشعراء، وكذلك بادّ وانقرض ما ترك حزْب المعارضة لذلك العهد
من الآثار الأدبية والفنية، وما خلف من الآراء الفلسفية والاجتماعية، وأصبحنا
لا نعرف من الحركة العقلية في ذلك العصر غير ما رواه المسلمون، وهم لا يروون
بالطبع إلا ما فيه للإسلام نصر وتأيد، وصار من المتعذر على الباحث أن يضع
لذلك العصر صورة صحيحة مضبوطة، لم تلَوْنها الأغراض والأهواء، وأقول :
الأغراض والأهواء لأن القضاء على آثار الحزب المعارض لعهد النبوة إنما كان طاعة
للأهواء الجاحجة التي لم يعرف أصحابها خطر هذه الجناية على تقدير قوة الإسلام
من الوجهة الروحية، والعقلية والاجتماعية.

أفتحسب أن من مجد الإسلام أن تثبت أن العالم كان محطماً الأركان، مهتدماً

(١) المعلقة : الرسالة تحمل من بلد إلى بلد.

الجوانب، وأن العقول كانت خلت من روعة الإيمان، ثم جاء الإسلام، فلم يجد غير أنقاض من الهمم، وأطلال من العزائم، وخرائب من العقول والقلوب ؟

هيهات هيهات !

إن مجد الإسلام في أن تثبت خطر العهد الذي نشأ فيه من الوجهة العقلية، لترى كيف تقارعت الحجج، وتداولت البراهين، ولترى كيف انتصر النبي على خصومه الأقوياء، الذين وصفهم القرآن بقوة النطق حين قال :

﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللَّسَنَةِ جِدَادٍ ﴾. وبعنف الخصومة حين قال: ﴿ وَتَنْذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾. وبسحر البيان حين قال: ﴿ أَلَيْهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾. وبسدة المكر حين قال: ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَيَتَزَوَّلَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾. وبرجاجة العقل حين قال: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾.

— ٢ —

ونعود فنذكر أن الحملة التي وجهت إلى الشعر على أثر ما كان من لدن شعراء اليهود، وتوثب شعراء المشركين، أثرت تأثيراً عميقاً في حياة المسلمين من الوجهة الأدبية، فرأيناهم يسرفون في بعض الشعر، والنيل من الشعراء، وكان من ذلك أن قيل لسعيد بن المسيب : إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر فقال : نسكوا نسكاً أعجمياً ! وسئل ابن سيرين في المسجد عن رواية الشعر في رمضان — وقد قال قوم : إنها تنقض الوضوء — فقال :

نُبِّئْتُ أَنَّ قَتَاةً كُنْتُ أَخْطُبُهَا عُرْقُوبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ فِي الطُّولِ

ثم قام فأمّ الناس !

وسئل ابن عباس : هل الشعر من رفث القول ؟ فأشدد :
وَهُنَّ يَمْشِينَ بَنَاتُ هَمِيصَا إِنْ تَصَدَّقِ الطَّيْرُ نَزْلُكَ لَمِيصَا

وقال : إنما الرفث عند النساء، ثم أحرم للصلاة !
ثم جرى على السنة الجماهير أن الشعر لا يليق بالفقهاء والمحدثين، فرأيناهم

يسألون عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : أتقول الشعر في فقهك وورعك ؟
فأجاب : لا بُدَّ للمصدر أن ينفث !

وهذا الفقيه هو صاحب هذه الأبيات الرائعة :
شَقَقْتُ الْقَلْبَ ثُمَّ ذَرَرْتُ فِيهِ هَوَاكِ فَلَيْمَ فَالْتَأَمَ الْفُطُورُ
تَعَلَّلَ حُبَّ عَثْمَةٍ فِي فُؤَادِي فَبَادِيهِ مَعَ الْحَافِي بَسِيرُ
تَعَلَّلَ حَيْثُ لَمْ يُلْغُ شَرَابٌ وَلَا حُزْنٌ وَلَمْ يُلْغُ سُرُورُ

ورأيانهم يزعمون أن الإمام الشافعي قال :
وَلَوْلَا الشُّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُزْرِي لَكُنْتُ الْيَوْمَ أُسْعَرَ مِنْ لَبِيدِ
ولا يزال شيوخ الأزهر مختلفين في بدء الشعر بالبسملة لأنه فيما يرون ليس
من الأمور ذوات البال !

ولا أدل على هوان الشعر في نظر الفقهاء من قول الغزالي : « وأما الشعر فكلام
حَسَنَه حَسَنٌ وقبيحه قبيح ». وهذا كله من أثر الحملة التي وجهت إلى الشعر
والشعراء.

ولكن الشعر من الفنون الفطرية التي كلف بها الإنسان منذ عهد بعيد،
والمسلمون ككل الأمم لم يكن لهم بُدٌّ من حياة الفنون، وكذلك نهضوا داعين
إلى رواية الشعر وإجارة الشعراء، ولكنهم لم يَدْعُوا إلى الشعر باعتبار أنه فن جميل،
وإنما دَعَوْا إليه باسم الدين، فقالوا : إن النبي كان يرتجز بقول ابن رواحة، وقد
أصِيبَتْ إصبعه في إحدى المواقع :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيبِ
وحَبَّرُوا الفصول الضافية في أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء : فنسبوا لأبي
بكر الصديق قصيدة طويلة مطلعها :

أَمِنْ طَيْفِرٍ سَلَمَى بِالرَّمَّاحِ الدَّمَائِثِ أُرِقْتَ أَوْ أَمَرَ فِي الْعَشِيرَةِ حَادِثِ
ونسبوا إلى عمر وعثمان طائفة من المقطوعات، ونسبوا إلى عليّ طائفة من
القصائد، ونقل الفيروزآبادي عن المازني وصوبه الزمخشري أنه لم يصح

أَنْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ تَكَلَّمَ بِشَيْءٍ مِنَ الشَّعْرِ غَيْرِ هَذَيْنِ الْبَيْنَيْنِ :
تِلْكَكُمْ قُرْنَشٌ تَمَنَّانِي لِتَقْتُلَنِي فَلَا وَرَبِّكَ مَا بَرُّوا وَلَا ظَفِرُوا
فَإِنْ هَلَكَتُمْ فَرَهْنٌ ذِمَّتِي لَهُمْوُ بِذَاتِ وَدَقِينَ لَا يَعْفُو لَهَا أَثَرُ

وقال ابن رشيقي بعد أن ذكر طائفة من شعر الأئمة والقضاة :
« وقد كان جماعة من أصحاب مالك بن أنس يرون الغناء بغير آلة جائزاً، وهو مذهب جماعة من أهل مكة والمدينة والغناء حلة الشعر إن لم يلبسها طوبى، ومحال أن يحرم الشعر من يحل الغناء به ».

وحسب الشعر هواناً أن تقول إنه مباح !
أفترى بعد هذا البيان أن مقدور الناقد أن يوازن بين حسان بن ثابت مثلاً وبين واحد ممن عاصروه من شعراء المشركين واليهود ؟ كيف، وقد عصفت الحوادث بما ترك شعراء الحزب المغلوب، وبقي شعر حسان بفضل ما صاغ له رسول الله من عقود الثناء ؟ على أن هذا لا يمنع أن يكون حسان سيد الشعراء في عصره، ولكن هات ما ترك أقرانه لنستطيع الموازنة، ولنصل بها إلى علم اليقين، فقلما تنفع الظنون.

وإنك لتجد ما يدعوك إلى الحذر إذا نخطيت عهد النبوة، وانحدرت إلى عهد بني أمية، أو عصر بني العباس : هياك ترحم نفسك من التوغل في بيداء الضلال، وهناك تجد شعراء العلويين في عهد بني أمية، وشعراء الأمويين في عصر بني العباس، تجد هؤلاء وأولئك يقاسون ألوان العنت وصنوف الجهد في كتم ما ينم عن مشاربهم الاجتماعية، ومنازعهم السياسية، وأكتفي الآن بمثال واحد، ولو شئت لضربت لك عشرات الأمثال :

ذكروا أن المتوكل على الله كان في اجتيازه إلى دمشق قد وجد في حائط من حيطان دير الرصافة رقعة ملصقة فيها هذه الأبيات :

أَيَا مَنْزِلًا بِالْدَّيْرِ أَصْبَحَ خَالِيًا تَلَاعَبُ فِيهِ شَمَالٌ وَدُبُورُ
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْكُنْكَ بَيْضٌ أَوْ أَيْسٌ وَلَمْ تَتَبَخَّرْ فِي فِنَائِكَ حُورُ
وَأَبْنَاءُ أُمَلَاكِ عَبَاشِمُ سَادَةٌ صَغِيرُهُمْوُ عِنْدَ الْأَنَامِ كَبِيرُ

إِذَا لَبَسُوا أَذْرَاعَهُمْ فَعَنَابِسُ وَإِنْ لَبَسُوا تَبِجَانَهُمْ فَبُدُورُ^(١)
 عَلَى أَنَّهُمْ يَوْمَ اللَّقَاءِ صَرَاعِمُ وَأَنَّهُمْ يَوْمَ النَّوَالِ بُحُورُ
 لَيْلِي هِشَامُ بِالرُّصَافَةِ قَاطِنُ وَفِيكَ ابْنُهُ يَا ذَيْرُ وَهُوَ أَمِيرُ
 إِذِ الْعَيْشُ غَضُّ وَالْخِلَافَةُ لَذَنُ وَأَنْتَ طَرِيرُ وَالزَّمَانُ غَرِيرُ
 وَرَوْضُكَ مُرْتَاضُ وَنُورُكَ نَيْرُ وَعَيْشُ بَنِي مَرْوَانَ فَبِكَ نَضِيرُ
 بَلَى فَسَقَاكَ اللَّهُ صَوَّبَ سَحَائِبُ عَلَيْكَ بِهَا بَعْدَ الرُّوَّاحِ بُكُورُ
 تَذَكَّرْتُ قَوْمِي خَالِيَا فَبَكَيْتُهُمْ بِشَجْوٍ وَمِثْلِي بِالْبُكَاءِ جَدِيرُ
 لَعَلَّ زَمَانًا جَارَ يَوْمًا عَلَيْهِمْ لَهُمْ بِأَلْتِي تَهْوَى النَّفُوسُ يَدُورُ
 فَيَفْرَحَ مَحْزُونٌ وَيَنْعَمَ بِأَيْسُ وَيُطْلَقَ مَنْ ضَبِيقِ الْوَثَاقِ أُسِيرُ
 رُؤْيَاكَ إِنَّ الْيَوْمَ يَتَّبَعُهُ غَدُ وَإِنْ صُرُوفَ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

قال ياقوت : فارتاع المتوكل عند قراءتها واستدعى الديراي وسأله عنها، فأنكر أن يكون علم من كتبها، فهم بقتله، فسأله الندماء فيه، وقالوا : ليس ممن يتهم بميل إلى دولة دون دولة. فتركه. ثم بان أن الأبيات من شعر رجل من ولد روح ابن زنباع الجذامي من أحوال ولد هاشم بن عبد الملك.

وكذلك عصفت السياسة بما ترك شعراء الأحزاب، وتهدمت صروح من الآداب بما ضاع من الشعر السياسي فيما خلا من العصور، وكلنا يذكر ما لقي شعراء البرامكة من عنف الرشيد.

ومن هنا وجب على الناقد حين يوازن بين شاعرين أن يعرف ما أحاط بهما من مختلف الظروف ليكون في حكمه قريباً من الصواب، فقد رأينا كيف تطمس القوة معالم الشعر البليغ.

(١) العباس : الأسود.

البحث الخامس

نفسية الناقد

— ١ —

قلت فيما سلف : إن الموازنة نوع من القضاء، والآن نريد أن نبين أن الناقد كالقاضي، فكما يجب على الحكم أن يُنَزَّه نفسه عن جميع الأغراض حين يتقدم للحكم بين الناس، كذلك يجب على الناقد أن يرى نفسه من جميع الأغراض حين يتقدم للموازنة بين الشعراء.

فإذا أردت أن توازن بين شاعرين فامتحن نفسك قبل ذلك، فإن رأيت في نفسك الميل لتفضيل أحدهما على الآخر لسبب لا تُسيطر عليه الحاسة الفنية، فاعلم أنك في ترجيحك متهم ظنين، وإن رأيت نصرة الأدب والحق تغلب على جميع ما لك من النوازع، وأنست في نفسك القدرة على مقاومة ما يعترضك من التقاليد — ولعالم الأدب أيضاً رسوم وتقاليد — فتقدم إلى الموازنة، وثق أن الرغبة في نصرة الحق حليفة الفوز المبين.

وأنا ذاكر لك من الشواهد على ما بفعل الغرض بالموازنة ما نقله صاحب زهر الآداب عن الحاتمي إذ قال :

جمعني ورجلين من مشايخ البصرة، ومن يؤبه إليه في علم الشعر، مجلس بعض

الرؤساء، وكان خبره قد سبق إليّ في عصبية للبحثري، وتفضيله إياه على أبي تمام، ووجدت صاحب المجلس مؤثراً لاستماع كلامنا في هذا المعنى، فأنشأت قولاً أنحيت فيه على البحثري إنحاءً أسرفت فيه، واقتدحت زناد الرجال : فتكلم وتكلمت، وخضنا في أفانين من التفضيل والمماثلة، غلوت في جميعها غلوّاً شهده جميع من حضر، وخضنا في أفانين في المجلس، وكانوا جِلَّةَ الوقت وأعيان الفضل، فاضطّرّ إلى أن قال : ما يحسن أبو تمام أن يبتدئ، ولا أن يخرج، ولا أن يختم، ولو لم يكن للبحثري عليه من الفضل إلا حسن ابتدائه، ولطف خروجه، وسرعة انتهائه، لوجب أن يقع التسليم له، فكيف بأوابده التي تزداد على التكرار غضاضة وجِدَّة ؟

ثم أقبل عليّ فقال : أين يُذهَبُ بك عن ابتدائه :
عَارَضْنَا أَصْلًا فَقُلْنَا الرَّبْرُبُ حَتَّى أَصَاءَ الْأَقْحَوَانُ الْأَشْنَبُ^(١)
وَأَخْضَرُ مَوْشِي الْبُرُودِ وَقَدْ بَدَأَ مِنْهُنَّ دِيْبَا جُ الْخُدُودِ الْمُذْهَبُ

وأين لأبي تمام مثل خروجه حيث يقول :
أَدَارَهُمُ الْأُولَى بِدَارَةِ جُلُجُلٍ سَقَاكَ الْحَيَا رِيْحَانُهُ وَبَوَاكِرُهُ
وَجَاءَكَ يَحْكِي يُوسَفَ بْنَ مُحَمَّدٍ فَرَوْتُكَ رِيَاهُ وَجَادَكَ مَاطِرُهُ

وأنتي لأبي تمام مثل حسن انتهائه حيث يقول :
إِلَيْكَ الْقَوَا فِي نَارِعَاتٍ شَوَارِدًا يُسِيرُ ضَا فِي وَشِيهَا وَيُؤَمِّنُ
وَمُشْرِقَةً فِي النَّظْمِ غُرًّا يَزِيدُهَا بَهَاءً وَحُسْنًا أَنَّهَا لَكَ تُنْظَمُ

وقوله في هذا المعنى :

أَلَسْتُ الْمُوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ هِيَ الْأَنْجُمُ أَفْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمًا
ثَنَاءً تَخَالُ الرُّوْضَ فِيهِ مُنَوَّرًا ضَحَى وَتَخَالُ الْوُشَى فِيهِ مُؤَمَّنًا

ولقد تقدم البحثري الناس كلهم في قوله :

(١) الأشنب : من الشنب بفتحين، وهو برد ورقة وعدوبة في الأسان.

لَوْ أَنَّ مُشْتَقًّا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمُنْبَرُ
هذه خلاصة الجزء الأول من هذه المحاوراة التي وضعت في الموازنة بين أبي تمام والبحتري، وقبل عرض الجزء الثاني نلفت نظر القارئ إلى اختبار « نفسية » الحاتمي صاحب هذا الحديث، فانا نجده يذكر أنه كان يعلم عصبية مناظره للبحتري، وتفضيله إياه أبي تمام، ويذكر أنه تعمد الإنحاء على البحتري ليقترح زناد خصمه وأنه غلا في المماثلة غلوّاً شهدته جميع من حضر، وأنه اضطرّ خصمه إلى أن يزعم أن أبا تمام لا يحسن الابتداء، ولا الخروج، ولا الانتهاء، إلى آخر ما قال.

فكيف إذن تقبل هذه الموازنة، وهي مصحوبة بهذا العمد، ومسبوقة بذلك الإصرار؟ ثم قال: « وكنت ساكناً إلى أن استتم كلامه، وكأن الجماعة أعجبهم ذلك عصبية عليّ لا على أبي تمام، لأنني كنت كالشحا معترضاً في لهواتهم، وأسرّ كل واحد منهم إلى صاحبه سرّاً يومئذ به إلى استيلاء الوجل عليّ، فلما استتم كلامه، وبرقت له بارقة طمع في تسليمي له ابتدأت فقلت: لست ممن يُقَعِّعُ له بالحصي، أو نقرع له العصا، لا إله إلا الله! استنّت الفصل حتى القرعى! هل هذه إلّا عَوَانُ مفترعة، قد تقدم أبو تمام إلى سَبْكِ نضارها، وافتضاض أبكارها: وجرى البحتري على وتيرته في انتزاع أمتالها وأتباعها ».

وهذه القطعة تدل كذلك على أن هذه ليست موازنة بين شاعرين، وإنما هي مُقَارعة بين خصمين يريد كل منهما أن يقهر صاحبه، وأن يفوز بإعجاب الحاضرين، ألا ترى كيف فطن الحاتمي إلى رضا الجماعة عن فوز البحتري، وأن ذلك كان عصبية عليه لا على أبي تمام، وكيف أسرّ كل واحد منهم إلى صاحبه مستيراً إلى استيلاء الوجل عليه، ثم انظر كيف غضب وكيف نار: لثرى أنه لم يغضب للحق، وإنما غضب لنفسه ولم ينتصر للأدب، وإنما انتصر لهواه.

ثم اندفع يذكر أن قول البحتري في صفة الغيث مخاطباً الدار:
وَجَاءَكَ يَحْكِي يُوسُفَ بْنَ مُحَمَّدٍ فَرَوْتُكَ رِيَّاهُ وَجَادَكَ مَاطِرُهُ

مأخوذ من قول أبي تمام :
وَيُوتُهَا فِي الْقَلْبِ نُؤْيُ شَفَّهْ
وَكَأَنَّمَا آسَسَقَى لَهُنَّ مُحَمَّدٌ
وَلَهُ بِظَاعِنِهَا وَبِالْمُتَخَلِّفِ
مِنْ سَوْمِهِنَّ مِنَ الْحَيَا فِي زُخْرُفِ

وأن البحترى أخذ قوله :
لَوْ أَنَّ مُشْتَقًّا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا
فِي وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمُنْبَرُ

من قول أبي تمام الذي تقدم فيه كل أحد لفظاً رقيقاً ومعنى دقيقاً :
دِيمَةٌ سَمَحَةُ الْقِيَادِ سَكُوبُ
لَوْ سَعَتْ بُقْعَةٌ لِإِعْظَامِ نُعْمَى
مُسْتَغِيثٌ بِهَا الثَّرَى الْمَكْرُوبُ
لَسَعَى نَحْوَهَا الْمَكَانُ الْجَدِيدُ

وأن قوله في صفة القوافي :
يُسِيرُ ضَافِي وَشَيْهَا وَيُنْمَنُ

وقوله في صفتها :
تَنَاءٌ تَخَالُ الرُّوضَ فِيهِ مُنَوَّرًا
لَمَّا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَامٍ :
ضَحَى وَتَخَالُ الْوَشَى فِيهِ مُنْمَنًا
حَلُّوا بِهَا عُقْدَ النَّسِيمِ وَنَمْنَمُوا
مِنْ وَشَيْهَا ثَرًّا لَهَا وَقَصِيدَا

ومن قوله الذي أبدع فيه :
وَوَاللَّهِ لَا أَنْفَكُ أَهْدَى شَوَارِدًا
تَخَالُ بِهِ بُرْدًا عَلَيْكَ مُحَبَّرًا
أَلَذُّ مِنَ السَّلْوَى وَأَطْيَبَ نَفْحَةً
وَأَقْصَرَ فِي قَلْبِ الْجَلِيسِ وَأَطْوَلًا
إِلَيْكَ نَحْمَلُنَ التَّنَاءَ الْمُبَجَّلَا
وَتَحْسَبُهُ عُقْدًا عَلَيْكَ مَفْصَلَا
مِنْ الْمِسْلِكِ مَفْتُونًا وَأُبْسَرَ مَحْمَلَا

وأن قول البحترى :

هِيَ الْأَنْجُمُ أَفْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمًا

مأخوذ من قول أبي تمام مقصراً عن استيفاء إحسانه حيث يقول :
أَصِيحٌ تَسْتَمِيعُ حُرَّ الْقَوَافِي فَإِنَّهَا
وَلَا يُمَكِّنُ الْإِخْلَاقُ مِنْهَا فَإِنَّمَا
كَوَاكِبُ إِلَّا أَنَّهُنَّ سُعُودُ
يَلْدُ لِبَاسُ الْبُرْدِ وَهُوَ جَدِيدُ

وبعد بيان هذه المآخذ يذكر الخاتمي أنه قال لمناظره :
 « فهذه خصال صاحبك فيما عدّته من محاسنه التي هتكت بها ستر عواره،
 ونشرت مطوي أسرارهِ. حتى استوضحت الجماعة أن إحسانه فيها عارية مرتجعة،
 وودبعة منتزعة ».

والعناد ظاهر في هذا الكلام.
 ثم أخذ يسرد طائفة من ابتداعات أبي تمام وانتهاءاته، ونماذج من حسن نخلصه،
 ولطف اقتضابه، وبراعة وصفه للقوافي، فاستحسن ابتداءه إذ قال :

وزعم أن لن يستطيع أحد أن يتدّى بمثل ابتدائه حيث يقول :
 طَلَلُ الْجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا وَكَفَى عَلَى رُزْئِي بَذَاكَ شَهِيدَا
 دِمْنٌ كَانَ الْبَيْنَ أَصْبَحَ طَالِبًا دَيْنًا لَدَى آرَامِهَا وَحُقُودَا

وحيث يقول :
 مَا فِي وَقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسٍ نَقْضِي حُقُوقَ الْأَرْبَعِ الْأَدْرَاسِ
 فَلَعَلَّ عَيْنَكَ أَنْ تَجُودَ بِدَمْعِهَا وَالْدَّمْعُ مِنْهُ خَاذِلٌ وَمُوَاسِي

واستملح اقتضابه حين قال :
 الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارٍ فَحَذَارٍ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارٍ

واستجاد تخلصه إذ يقول :
 إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْخَلَائِقَ قَاتَهَا أَقْوَاتَهَا لِتَصْرُفِ الْأَحْرَاسِ
 فَلْأَرْضُ مَعْرُوفُ السَّمَاءِ قَرَى لَهَا وَبَنُو الرَّجَاءِ لَهُمْ بَنُو الْعَبَاسِ
 الْقَوْمُ ظِلُّ اللَّهِ أَسْكَنَ دِينَهُ فِيهِمْ وَهُمْ جَبَلُ الْمُلُوكِ الرَّاسِي

وزعم أن أبا تمام هو الذي وصف القوافي بما لم يستطيع أحد وصفها به فقال :
 جَاءَتْكَ مِنْ نَظْمِ اللِّسَانِ قِلَادَةٌ سِمْطَانٍ فِيهَا اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ
 إِنْسِيَّةٌ وَحَشِيَّةٌ كَثُرَتْ بِهَا حَرَكَاتُ أَهْلِ الْأَرْضِ وَهِيَ سُكُونُ
 يَنْبُوغُهَا خَضِلٌ وَحَلْيٌ قَرِيضُهَا حَلْيُ الْهَدَى وَنَسِيْجُهَا مَوْضُونُ

قَدْ حَاكَمَهَا صَنَعُ الضُّبَيْرِ يَمْدُهُ حَسَبٌ إِذَا نَضَبَ الْكَلَامُ
أَمَّا الْمَعَانِي فَهِيَ أَبْكَارٌ إِذَا نُصَّتْ وَلَكِنَّ الْقَوَافِي ع

هذا أهم ما ورد في حديث الخاتمي، وهو طويل ذكره برمته صاحب الآداب، والذي يعنيني منه هو ما فيه من العمد إلى النيل من البحري والإلا على كَبْتِ منافسه، وظهوره عليه، وظفره به، وانظر كيف يقول في ختام الحديث: «هل يستطيع أحد أن ينسب هذا، أو شيئاً منه إلى الاختلاس؟ وهل يستطيع مماثلته بشيء من شعر البحري، أو أن المحدثين في عصره، من قبله؟ فعيي عن الجواب قصوراً، وأحجم المساجلة تقصيراً، وحكمت الجماعة لي بالقهر، وعليه بالنصر، ولم ينه عن المجلس حتى اعترف بتقديم أبي تمام في صنعة البديع واختراع اله على جمع المحدثين، وكان يوماً مشهوداً»^(١).

— ٢ —

وهذا النوع من النقد لا قيمة له، ولكنه مع الأسف ظاهر كل الظهور مناهج القدماء، فقد كان بشار يقول: أنا أشعر الناس، فإذا سُئِلَ في ذلك بأن له اثني عشر ألف قصيدة لا تخلو واحدة منها عن بيت نادر، ومن ثمة اثنا عشر ألف بيت فهو أشعر الناس. وكانوا يختلفون في الموازنة بين والفرزدق، ثم يفضلون جريراً لأنه قال:

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِبُكَ غَادَرُوا وَشَلَّ بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ
غَيْضٌ مِنْ عَبْرَاتِهِنَّ وَقُلْنَ لِي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهَوَىٰ وَ

فإذا سألتهم كيف سما جريراً بهذين البيتين حتى بدَّ الفرزدق؟ أجابوك الفرزدق في فسوقه وفجوره، لم يُجَدِّ التشبيب كما أجاده جرير في تحرجه وع

(١) ومع هذا التحامل كان الخاتمي من أئمة النقد الأدبي. انظر ما كتب عنه بالجزء الثاني كتاب «النثر الفني» لفرى قيمة هذا الناقد، وتعرف ما له وماعله.

وقد يقولون : جرير أشعر لأن الفرزدق ماتت امرأته فلم ييكها إلا برائية حرير
في امرأته، وهي القصيدة التي مطلعها :

لَوْلَا الْحَيَاءُ لَهَاجَنِي آسَتِغَبَارُ وَلَزُرْتُ فَبَرَكُ وَالْحَبِيبُ يُزَارُ

وكانوا إذا ذكر شعراء الجاهلية قدم فريق منهم امرأ القيس لقوله :

قِفَا نَبْلُكَ مِنْ ذُكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَخَوْمَلِ

وقالوا : إنه بكى واستبكى وذكر الأعبة في بيت واحد ! !

وقدم آخرون النابغة الذبياني لقوله :

نُبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أُوْعِدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرِ مِنَ الْأَسَدِ
أو لقوله :

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُتَنَائِي عَنْكَ وَاسِعُ

ومنها من زعم أن أغزل بيت قاله العرب قول بشار :

أَنَا وَاللَّهِ أَشْتَهِي سِحْرَ عَيْنِي لِي وَأَخْشَى مَصَارِعَ الْعُشَاقِ

وأن أحكم بيت قاله العرب قول أبي ذؤب الهذلي :

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

— ٣ —

وكان يجدر بأدباء هذا العصر أن يضعوا خطة جديدة، لنقد الشعر والنثر غير
ذلك المنهج الذي يركز على تأمل الشطرة في نقد الشعر، والفقرة في نقد النثر،
ولكنهم نسجوا على منوال المتقدمين، فتراهم يُعَنَوْنَ حين يظهر كتاب جديد
بالبحث عن مسلكه في استعمال الألفاظ وربما رجعوا إلى معجم اللغة ليتبينوا الفرق
بين الوضع القديم والوضع الجديد وقد أذكر أن الأستاذ صادق عنبر نقد كتاب
البؤساء، فلم يجد وجهاً لتخطئة المترجم غير استعمال بعض الألفاظ، فرد عليه
الأستاذ علام سلامة يصحح استعمال تلك الألفاظ، فحافظ إبراهيم مخطيء في

نظر صادق عنبر لبعده عن معجم اللغة، وهو مصيب في نظر علام سلامة لقربه من المعجم !

والحق أن الاعتماد على نقد الشطرة، والفقرة، واللفظة، لا يقدم ولا يؤخر في الموازنة بين الكتاب والخطباء والشعراء، فلا يمكن أن تصبح الخطبة، أو الرسالة، أو القصيدة جيدة : لأن ألفاظها جميعاً مختارة، ولا أن تسمي سقيمة لأن فيها ألفاظاً نائية، وإن كان تخير اللفظ من أهم ما يُعنى به الكاتب، والشاعر، والخطيب، وسأعود إلى هذا البحث حين أشرح نظرية : « الصور الشعرية ». وحين أتكلم عن إعجاز القرآن.

وأرجو أن يكون القارئ اقتنع بما بينته من عقم تلك الطريقة التي تركز على استقراء الأبيات المختارة في الموازنة بين الشعراء، فإن كان في ريب مما أسلفناه فليُجب على هذا السؤال : أبرضيه أن أقول إن شوقي أشعر الناس لقوله :
وَطَنِي لَوْ شِغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَازَعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي
ومطران أشعر الناس لقوله :

بناتِ الدَّهْرِ عُوجِي لَا تَهَابِي خلا الوادي من الأسدِ الغَضابِ
وحافظ أشعر الناس لقوله :

عَمِلْتُمْ عَلَى عِزِّ الْجَمَادِ وَذُلِّنا فَأَغْلَيْتُمُو طِيناً وَأَرْخَصْتُمُو دَمًا
إنك أيها القارئ لا ترضى عن هذه الخطبة المبهمة، لأنها تبيح لمثلي أن يزعم أنه أشعر الناس لأنه يقول :

بَقِيَّةٌ مِنْ صَبَاكَ الْغَضِّ بَاقِيَةٌ وَجَذْوَةٌ مِنْ غَرَامِي وَقَدْهَا بَاقِي
تَعَالِ نُحْيِ شَهِيدَ اللَّهِوَ ثَانِيَةً وَنَضْرَعِ الْهَمَّ بَيْنَ الْكَاسِ وَالسَّاقِي

البحث السادس

الحاسة الفنية

— ١ —

هذا تعبيرٌ حديثٌ يقابل : « سلامة الذوق ». أو : « الذوق السليم ». في عُرف المتقدمين، والحاسة الفنية في نظري أدق من سلامة الذوق لأن فيها من معنى الفاعلية والإحاطة مالا نجده في التعبير القديم، وهي ترجمة لكلمة sens التي يُراد بها في هذا المقام أن تؤدي معنى ملكة التمييز، أو قوة الإدراك، ومع أنها أدق فهي تشمل سائر الفنون بخلاف كلمة : « الذوق ». فإنها قد تكون بمعنى الشعور بالحسن، وقد تكون عبارة عن الميل الخاص.

وقد بينا في البحث الأول : أنه يجب أن يصل من يتصدر للموازنة بين الشعراء إلى درجة عليا في فهم الأدب، وأن يصبح وله في النقد حاسة فنية تنأى به عن كل ما يفسد حكمه من الأهواء والأغراض، وذكرنا أن من الناس من يطرب للشعر لا لأنه شعر، بل لأنه طَرَق موضوعاً يحبه، وكشف عن معنى تميل نفسه إليه، وقد لا يكون ما سمعه، أو قرأه جميلاً من الوجهة الفنية، ثم ضربنا لذلك الأمثال.

والآن نعود إلى « الحاسة الفنية » بشيء من التفصيل : فنذكر كيف عَوَّل عليها

المتقدمون من رجال البيان، ونبين الوسيلة إلى الظفر بهذه الموهبة العزيزة المثال، ثم نعطى اللثام عن حقيقة هذه الحاسة، التي لا تظهر ظهوراً جلياً إلا حين نمنع في الخفاء.

— ٢ —

يرى صاحب المثل السائر « أن مدار علم البيان على حكم الذوق السليم، الذي هو أنفع من ذوق التعليم، وأن الدربة والإدمان أحدى على القارئ نفعاً، وأهدى بصراً وسمعاً، وأنهما يُريانه الخير عياناً، ويجعلان عسره من القول إمكاناً، وكل جارحة منه قلباً ولساناً ». ويقول لقارئ كتابه « فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك، واستنبط بإدمانك ما أخطاك، وما منّلي فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طَبَعَ سيفاً، ووضعهُ في بمينك لتقاتل به، وليس عليه أن يخلق لك قلباً، فإن حمل النصال غير مباشرة القتال »^(١).

ومعنى هذا أن كتب القواعد لا تُورث القارئ « الذوق » ولا تمحبه « الحاسة الفنية ». وإنما يُكسب ذلك بالدربة والإدمان على مطالعة الكلام البليغ، والقواعد لا تنفع من لا ذوق له : كما لا ينفع السيف من لا قلب له. وَإِنَّمَا يَبْلُغُ الْإِنْسَانُ طاقتهُ مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِالرَّحْلِ شِمْلَالُ^(٢)

ولكن لا تحسب أن إدمان الاطلاع كاف لكسب الذوق، بل يجب أن نكون المطالعات مصحوبة بالفهم، والذوق لجمال القول وسحر البيان. أما إذا كان الغرض من القراءة حفظ الشواهد والأمثال — كما يفعل رجال اللغة والرواية — فإنه يبعد أن يظفر القارئ بالحاسة الفنية، وهذا أبو العباس المبرد كان في عمله واطلاعه يذكر أنه كان يحتاج إلى اعتذار من قَلْتة، أو التماس حاجة، فيجعل المعنى الذي قصده نصب عينيه، ثم لا يجد

(١) ص ٣ من المثل السائر.

(٢) الشمّال . الناقة الخفيفة.

سبيلا إلى التعبير عنه بيد ولا لسان.... ولا سبب لذلك فيما يرى إلا أن المبرد لم يَغْنِ بدرس أسرار البلاغة، وإنما انصرفت همته إلى اللغة والرواية، والنحو، والتصريف. ومن هنا لم يحسن الاختيار.

قال الجاحظ: طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينفل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت، لا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات.

ولم يبين الجاحظ سبب هذا ولا فسرهُ ابن رشيق، وقد بينت لك أن تقدم الكتاب على الرواة في فهم البلاغة إنما يرجع إلى كلف الكتاب وشغفهم بالوقوف على سر البيان، لأنهم يزاولون البلاغة من طريق الأداء، لا من طريق النقل، والفرق بين الوجهتين بعيد، ومن ثم كان الكتاب: «أرق الناس في الشعر طبعاً، وأملحهم تصنيفاً، وأحلامهم ألفاظاً وألطفهم معاني، وأقدرهم على التصرف، وأبعدهم من التكلف»^(١). وكانوا يرونهم دهاقين الكلام، ويستملحون ما يجودون به من حين إلى حين، كقول إبراهيم بن العباس الصولي:

ابْتَدَأَ بِالتَّجَنُّي	وَأَقْبَضَ بِلِثْنِي
وَأَشْتَفَاءَ بِتَجْنِي	لَكَ لِأَعْدَائِكَ مِنِّْي
بِأَبِي قُلْ لِي لِكَيْ أَغْ	لَمْ لِمَ أَعْرَضْتَ عَنِّي
قَدْ تَمَنَّى ذَاكَ أَعْدَا	ئِي فَقَدْ نَالُوا التَّمَنِّي

وكقول محمد بن عبد الملك الزيات:

قَامَ بِقَلْبِي وَقَعْدُ	لَمَّا نَفَى عَنِّي الْجَلْدُ
يَا صَاحِبَ الْقَصْرِ الَّذِي	أَسْهَرَ عَيْنِي وَرَقْدُ
وَأَعْطَشِي إِلَى فَمٍ	يُمِجُّ خَمْراً مِنْ بَرْدُ
إِنْ قَسِمَ النَّاسُ فَحَسُ	بِي بِكَ مِنْ كُلِّ أَحَدُ

(١) عبارة صاحب «العمدة» في أشعار الكتاب.

وكقول ابن رشيقي :

قَدْ أَحْكَمْتُ مِثِّي التَّجَا رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرِ جُودِي
أَبْدَأُ أَقُولُ لِمَنْ كَسْبُ تُلْ لَأَقْبِضَنَّ يَدَيَّ شَدِيدِ
حَتَّى إِذَا أَثَرَيْتُ عُذْ تُلْ إِلَى السَّمَاحَةِ مَنْ جَدِيدِ
إِنَّ الْمَقَامَ بِمَثَلِ حَا لِي لَا يَتِمُّ مَعَ الْقُعُودِ
لَا بُدَّ لِي مِنْ رَحْلَةٍ تُدْزِنِي مِنَ الْأَمَلِ الْبَعِيدِ

وكان أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدي يقول : « كما أن اللسان لا يمرن على النطق بالصواب إلا بالحاكاة كذلك الذهن لا يمرن على الفهم الصحيح، ولا يجول في ميدان فسيح من المعاني، ولا يقدر الأشياء قدرها، إلا بالمقارنات الكثيرة التي تمثل في النفس لكل شاعر صورة وتقرر له حكماً غير مززع ولا مدافع ».

وما نسميه (الحاسة الفنية) كان يسميه (ملكة الأدب)، وكانت السبيل عنده لتحصيل هذه الملكة هي المقابلة بين المعاني والألفاظ، والمقارنة بين المفردات والأساليب، وتعليل كل تحسين وتقبيح بما يقنع الناقد، ويدنيه من الفهم الصحيح.

— ٣ —

وأعود فأذكر أن الحاسة الفنية عزيزة المنال، ومع هذا يدّعيها جميع الناس، وإنما كانت عزيزة المنال، لأننا نزن بها البيان، والبيان كالحمال كثير التعقيد. ألا نرى أنك لا تعتدّ برأي من يحسب البياض نصف الحسن، ويرى تمام الصبابة في الجمع بين سواد الشعر وبياض الجبين ؟ وكان ذلك لأن الجمال نوعان : معقد وبسيط، وأريد بالجمال البسيط ذلك النوع من الوسامة الذي يدركه أكثر الناس، والذي يُعرف بتناسب الأعضاء، وهذا النوع في سهولته وبساطته يشبه الألوان الأتخاذه التي يَهْش لها صغار الأحلام من النساء والأطفال. أما الجمال المعقد — وما أروع الجمال المعقد — فهو ذلك النوع الخطر الذي لا يفهمه إلا أصحاب الأذواق،

وهذا النوع من الصبابة لا يرجع إلى فتنة الخدود، وسحر العيون، وإنما يرجع إلى ما هو أخطر من ذلك، يرجع إلى دقائق من الحس، وغرائب من الملاحظة، لا يعرف تأويلها غير الراسخين في علم الجمال.

حدثني برّك كم في هذه « الأعداد » التي تراها في طريقك ممن يتذوق جمال اللفتة، والخطرة، والمشية ؟، وكم فيهم ممن يتخطى سواد العين، ثم يحاول فهم ما في العين من رموز وألغاز، وفي العين ما شئت وشاء السحر من اللبس والتعقيد ! !

وكم فيهم يعذر أبا الأسود إذ يقول :

أَبَى الْقَلْبُ إِلَّا أَمَّ عَمْرُو وَحُبُّهَا عَجُوزًا وَمَنْ يُحِبُّ عَجُوزًا يُفْنِدُ
كِبَرُ الدِّيمَانِي قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ وَرُقِعَتْهُ مَا شِئْتَ فِي الْعَيْنِ وَالْيَدِ

وهذا الجمال المعقد هو الذي أسمعك صرخة الحكم الخضري حين قال :
فوالله ما أدري أزيدت ملاحه وحسناً على النسوان أم ليس لي عقل

وهو الذي صدق في وصفه أبو نواس إذ يقول :

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا

وكذلك البيان يا صاح فيه مُعَقَّد وبسيط. أما البيان البسيط فهو ذلك النوع السهل الذي يفهمه سواد الناس كقول طرفة بن العبد :

سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

وكقول لبّيد :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ

وكقول شوقي :

وَإِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُو ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

ويكثر هذا النوع في القرآن حين تمس الحاجة إلى ترغيب الجماهير، كقوله

تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ : وكقوله عز شأنه : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ . وكقوله تبارك اسمه : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وهذا النوع من البيان هو المرجع في المعاملات، وقد تجب فيه البساطة المطلقة حين يُسْتَحْدَم في تحرير الاتفاقات والمعاهدات والعقود، وما إلى ذلك مما تُحَدِّد به العلاقات بين الأمم والأفراد، وهذا النوع لا يحتاج إلى الحاسة الفنية، وإنما يحتاج إليها البيان المعقد الذي قيل فيه : « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا » . والذي قيل فيه : « شَيْعَانِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا : الْبَيَانُ وَالْجَمَالُ » . وفي الناس من بفتنه إشراق الدباجة، وتخلبه رشاقة الأسلوب كما يسحره الجبين المشرق، ويضله القدر الرشيق.

والتعقيد الذي أعنيه غير التعقيد المعروف في علم المعاني، فلست أريد اللبس والغموض المعقد، وإنما أصف البيان والحسن بالتعقيد حين يكون للوجه الوسيم، والأسلوب الجميل، قوة في التأثير يحار في تحليلها اللبيب، ومن هنا كان الأقدمون يظنون أن الشعر من وحي الشياطين، ومن أقدر من الشيطان على العبث بالعقول ؟.

والقصة المشهورة التي جاء فيها أن أحد أقيال اليمن قدم إلى دار الندوة فبُصِّرَ فيها بالنبي عليه السلام، وهو إذ ذاك غلام مراهق، فقال لمن حضر من القوم : إن هذا الغلام ينظر إليكم بعيني كَبُوءَةٍ، وتارة بعيني عذراء خَفِيرَةٍ، فلو أن نظرته الأولى كانت سهماً لانتظمت أفئدتكم فؤاداً فؤاداً، ولو أن نظرته الثانية كانت نسيماً لأنشرت أموانكم ! هذه القصة فيها شيء من التعليل للجمال المعقد، ولكن يظهر أننا انتقلنا إلى عالم النفس، ويظهر أيضاً أن الجمال لا يُعَقَّد إلا حين تُعَقَّد النفس، والنفس لا تُعَقَّد إلا حين تصبح كالبحر تصطبغ فيه الأمواج، أو كال ميدان تشتجر فيه الرماح أو كالقلب تقتل فيه الأشجان،

ومن يُدرينا لعل جمال يوسف عليه السلام كان من هذا القبيل... فما نظن أن صواحباته قَطَّعْنَ أيديهن، وعذرن فيه امرأة العزيز : لأسالة خدّه، وسواد شعره، وإشراق جبينه، وإنما نحسب أن تلك النفس النبوة التي تُضمّر ما تضمّر من دقائق الغيوب، تلك النفس الجبارة السحّارة، القاهرة، تلك النفس الممرّدة في عالم النفوس، هي التي جعلت لجمال يوسف ذلك السحر الذي تقطعت به الأبدى بعد تمزيق القلوب. وسبحان من يعلم ما كان يجول بخاطر ذلك الغلام الجميل أينظر بعيني لبُوءة، أم بعيني عذراء خَفيرة ؟ وحسبنا أن نذكر أن الله كان بُعْدَه لحمل الرسالة، ويرشّحه لتبليغ تلك الدعوة التي لا يزال صداها يَرِنُ في أجواز الوجود.

وللبياں المعقد مثل هذا النصيب من بُعْد الغور، ودقة المدلول، فهو ذلك النوع المعجز الذي تسكن إليه القلوب، وتحار في تعليله العقول، هو ذلك النوع الذي يقرؤه سواد الناس فيفهمونه، ثم يقرؤه الخاصة فيفتنون به، ويحارون في تعليله حُسْنِه، ثم لا يُحسن واصفهم إلا أن يقول : هذا هو السحر الحلال.

— ٤ —

على أنه يمكن الناقد أن يذكر بعض خواص هذا النوع من البياں : فهو تارة يرتكز على سمو الخيال، كقول بعض الحكماء : « من غَمَسَ يده في مال السلطان، فقد مَسَى بقدمه على دمه ». ففي هذه الكلمة من روعة التخييل، وحسن التصوير، ما يدهش العقول، ويحير الألباب. وكقول أُرطاة بن سُهيّة المُرِّي :
فَلَوْ أَنَّ مَا نُعْطِي مِنَ الْمَالِ نُبْتَغِي
بِهِ الْحَمْدَ يُعْطِي مِثْلَهُ زَانِحُ الْبَحْرِ
لَظَلَّتْ قَرَاظِيرُ صَيَّامًا بِظَاهِرٍ
مِنَ الصَّحْلِ كَانَتْ قَبْلُ فِي لُجَجٍ خُضِرٍ^(١)

(١) القراظير السم : والمفرد قرقور على وزن عصفور، وصيام السفن : ركودها والضحل : الماء الليل لاعمق له، واللجج الخضر : هي السود.

فقد صور لك البحر الذي عجزت عن حربه الليالي بصورة بشعة خفيفة يهابها الوهم وتحامها الظنون، فهو يذكر أن البحر الراخر، الذي يُجَنّ ما يُجَنّ، ويُظهر ما يُظهر، والذي يروعك منظره، ويهولك مخبره، يذكر أن ذلك البحر لو بذل مثل ما يبذل قوم هذا الجواد في سبيل الحمد لأصبحت السفن راکدة فوق ضبابات من الماء، وقد كانت قبل في لجج رهيبة السواد، وهذه الصورة هي التي بررت مبالغة الشاعر في وصف قومه الأجواد، وإن عزّ البحر عن النظائر، وجلّ عن الأشباه.

ومن رائع الخيال قول أبي نواس :

أَلَا لَا أَرَى مِثْلِي أَمْتَرَى الْيَوْمَ فِي رَسْمِ
تَعَصُّ بِهِ عَيْنِي وَيَلْفِظُهُ وَهْمِي
أَتَتْ صُورُ الْأَشْيَاءِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
فَظَنُّنِي كَلَاظِنٌ وَعِلْمِي كَلَا عِلْمِ

فأنت تراه، وقد وقف أمام ذلك الرسم الذي نال منه العفاء، وغيره الدروس حتى ارتاب فيه، وغصت به عينه، ولفظه وهمه، ثم أغرقك في بحر من التخیل حين قال :

أَتَتْ صُورُ الْأَشْيَاءِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
فَظَنُّنِي كَلَاظِنٌ وَعِلْمِي كَلَا عِلْمِ

وعليك أن تستوعب هذا المعنى، فقد فتحت لك الباب.

وكان الرشيد يعجب بقول صريع الغواني :

إِذَا مَا عَلَتْ مِنَّا ذُؤَابَةٌ شَارِبٍ تَمَشَّتْ بِهِ مَشْيَ الْمُقَيَّدِ فِي الْوَحْلِ

وكان يقول قائله الله ! ما كفاه أن جعله مقيداً حتى جعله في وحل ! وهذا كما ترى أبدع ما يُصور به النشوان.

ولا تنس القرآن، فإنه غاية الغايات في روعة الخيال، وانظر قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجْجٍ يَعِشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ، مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ۖ ﴾

ولا يدرك هذا المعنى الفخم إلا من ذاق بأساء الحياة، ورأى كيف يكون

هَوَجَ الرِّيحِ، وَجَنُونَ المَوْجِ، وَعَسَفَ الظَّلامُ، وَكَمْ فِي الحَيَاةِ مِنْ أَهْوَالٍ !
وقد يركز البيان المعقد على بساطة الأداء، وهذا أحسن تأويل لكلمة :
« المطمع الممتنع » فقد تقرأ الكلام السهل البسيط فتحسب أنك على مثله قدير،
حتى إذا حاولت أن تأتي بشيء من مثله عزّ عليك وامتنع، وإليك قول ابن الدمينه
يوصي حبيته بالقسوة على الوشاة، وبالصلابة حين يجور اللائمون :
وَكُونِي عَلَى الْوَاشِينَ لِدَاءِ شَعْبَةٍ كَمَا أَنَا بِالْوَاشِي أَلْدُ شَعُوبُ
وَكُونِي إِذَا مَالُوا عَلَيْكَ صَلِيبَةً كَمَا أَنَا إِنْ مَالُوا عَلَيَّ صَلِيبُ
فهذا كلام سهل، يسكن إليه القلب، وتخلد إليه النفس، ولكنه يعز على من
يرومه، ويطول على من يسمو إلى محاكاته. ومثله في بساطته ودقته قول بعض
الأعراب :

إِذَا أَجْتَمَعَ الْجُوعُ الْمُبْرَحُ وَالْهَوَى عَلَى الرَّجُلِ الْمُسْكِينِ كَادَ يَمُوتُ

وهي فكاهة رقيقة ييسم لها ثغر الحزين.
وأظرف منه قول الآخر، وقد تمردت عليه امرأته وضربت على إيدائه :
يَا رَبِّ إِنْ قَتَلْتَهَا فَعُدْ لَهَا فَلَنْ تَمُوتَ أَوْ تُجِيدَ قَتْلَهَا
فقد مثلها بالحية النضناض، التي يُقَتِّلُها المرء تفتيلاً، ثم لا تزال تبدو لعينيه،
وكأنها تسعى.

— ٥ —

وقد يرجع تعقيد البيان ودقته وسحره إلى نفس المبين : من شاعر، أو كاتب
أو خطيب، فإن هناك نفوساً خطيرة قد تُضِلُّكَ وقد تهديك حين يكتب أصحابها
وحين يتكلمون. وانظر قول موسى بن جابر، وقد رأى تجمع الأعداء وتوئهم :
وَقُلْتُ لِرَازِيْدٍ لَا تُتَرَتِّرْ فَإِنَّهُمْ
يَرَوْنَ الْمَنَايَا دُونَ قَتْلِكَ أَوْ قَتْلِي
فَإِنْ وَضَعُوا حَرْبًا فَضَعَهَا وَإِنْ أَبَوْا
فَعَرَضَةُ عَضِّ الْحَرْبِ مِثْلُكَ أَوْ مِثْلِي

وَإِنْ رَفَعُوا الْحَرْبَ الْعَوَانَ الَّتِي تَرَى
فَشُبَّ وَقُودَ الْحَرْبِ بِالْحَطَبِ الْجَزَلِ

فهذه النفس المعقدة في أغراضها ومراميها هي التي وقفتك موقف الحيرة أمام هذه الأبيات، فأنت ترى فتى شجاعاً مقداماً لم تنسه شجاعته، ولا إفدامه ما يحيط به من عظام الأخطار، فهو ينصح لرفيقه ويوصيه بالحذر والرفق، ويدعوه إلى وضع الحرب إن وضعها الأعداء، وإلى سبِّ وقودها بالخطب الجزل إن أبوا إلا القتال، وهذا هو الجمع بين الخزم والشجاعة، وقل من يجمع بينهما من أفذاذ الرجال.

وانظر قول الآخر يتوَّجّع من الوحدة والغربة في بلاد الأعداء :
وَقُلْتُ لِعَلَّاقٍ بَعْرَنَانِ مَا تَرَى
فَمَا كَاذَ لِي عَنْ ظَهْرِ وَاضِحَةٍ يُبْدِي
تَبَسُّمَ كَرِّهَا وَاسْتَبْنْتُ الَّذِي بِهِ
مِنْ الْحَزَنِ الْبَادِي وَمِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ
إِذَا الْمَرْءُ أَغْرَاهُ الصَّدِيقُ بَدَتْ لَهُ
بِأَرْضِ الْأَعَادِي بَعْضُ أَلْوَانِهَا الرُّبْدِ

— ٦ —

وتلك أيها القارئ خواص يُراد بها التقريب لا التحديد، فإن المرجع إلى الحاسة الفنية، وهي قد تدقّ حتى يعجز صاحبها عن تعليل ما يستجيده من الكلام البليغ، والآمدي يضرب المثل بالفرسين السليمين من كل عيب، وفيهما جميع علامات العتق والجودة والنجابة، ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية، وبالجاريتين البارعتين في الجمال السليمتين من كل عيب يفرق بينهما العالم بالرقيق حتى يجعل في الثمن بينهما فضلاً كبيراً، بدون أن بقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق، وإنما يعرفه بطبعه وكثرة دربته وطول

ملاسته، وكذلك الشعر كما يقول الآمدي، قد يتقارب البيتان الجيدان النادران، فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود : إن كان معناه واحداً، وأيهما أجود في معناه إن كان معناه مختلفاً^(١).

وحكى إسحاق الموصلي قال : سألتني محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما. فاخترت فقال : من أين فضلت هذا على هذا، وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتنا لأمكنني التبيين، ولكنهما تقارباً ففاضلت بينهما بشيء تشهد به الطبيعة ولا بعبر عنه اللسان.

والطبيعة في كلام إسحاق هي ما نريده من الحاسة الفنية. وفي هذا القدر كفاية فقد طال بنا الحديث.

(١) انظر تفصيل رأي الآمدي في الجزء الثاني من كتاب : « الثر الفني ».

البحث السابع

خطر الإبهام والغموض

— ١ —

ومن شروط الموازنة أن يكون النقد مؤسساً على قواعد واضحة صريحة لا إبهام فيها ولا غموض، ليظفر الناقد باقتناع القارئ، وليكون نقده مادة جديدة في عالم البيان.

وأخطر ما يعرض للنقد والمماثلة أن يعتمد الموازن إلى التعبيرات المصبوبة في قوالب المجاز، فإنها بئس الأداة في الفصل بين الشعراء، كأن يقول: « هذا شعر أبدت صدوره متونه، وزهت في وجوهه عيونه، وانقادت كواهله لهواديته، وأشبه الروض في وشي ألوانه وإشراق أنواره، وابتهاج أنجاده وأغواره، وأشبه الوشي في اتفاق رقومه واتساع رسومه، وتسطير كفوفه، وتخبير حروفه، وحكى العقد في التثام فصوله وانتظام وصوله، وازديان ياقوته بدره، وفريده بشدّره، قد كشف الإيجاز موارده وصقلت مداوس الدربة مناصله، وشحذت مدارس الأدب فواصله ».

وهذه التعبيرات المجازية المهمة مأخوذة من فصل لأبي العباس الناشيء في وصف الشعر الجميل، وهو صاحب هذه المنظومة :

الشَّعْرُ مَا قَوِّمَتْ زَيْغُ صُدُورِهِ وَشَدَّدَتْ بِالْتَهْذِيبِ أُسْرَ مُتُونِهِ

وَرَأَيْتَ بِالْأَطْنَابِ شَعْبَ صُدُوعِهِ وَفَتَحْتَ بِالْإِجَارِ عَوَرَ عُيُونِهِ
وَجَمَعْتَ بَيْنَ قَرِيْبِهِ وَبَعِيدِهِ وَوَصَلْتَ بَيْنَ مُجْمَعِهِ وَمَعِينِهِ
وَعَهَدْتَ مِنْهُ لِكُلِّ أَمْرٍ يَقْتَضِي شَبَهَا بِهِ فَقَرَنْتَهُ بِقَرِينِهِ

وهي منظومة طويلة عني بها المتقدمون، كما عنوا بمنظومته الأخرى التي يقول فيها :

إِنَّمَا الشَّعْرُ مَا تَنَاسَبَ فِي النَّظْمِ وَ إِنْ كَانَ فِي الصِّفَاتِ فُتُونًا
فَأَتَى بَعْضُهُ يُشَاكِلُ بَعْضًا قَدْ أَقَامَتْ لَهُ الصُّدُورُ الْمُتُونَا
كُلُّ مَعْنَى أَتَاكَ مِنْهُ عَلَى مَا تَتَمَنَّى لَوْ لَمْ يَكُنْ أَنْ يَكُونَا
فَتَنَاهَى مِنَ الْبَيَانِ إِلَى أَنْ كَادَ حُسْنًا يَبِينُ لِلنَّاطِرِينَا
فَكَانَ الْأَلْفَاظُ فِيهِ وَجُوهٌ وَالْمَعَانِي رُكْبَنٌ فِيهِ عُيُونَا

وعيب هذا الضرب من الوصف أنه لا يغني في تحديد الموصوف : بل يلقي عليه أستاراً من اللبس والغموض، فإنه لاقيمة لمدح الشعر بتقويم زَيْغ صدره، وَشَدُّ أَسْرِ مُتُونِهِ، والجمع بين قريبه وبعيده، والوصل بين مجمه ومعينه، وما إلى ذلك من الصفات المهمة التي يغرم بها المتكلفون.

— ٢ —

ومن أمثلة هذا النوع ما ذكره بديع الزمان في إحدى مقاماته إذ قال : « جلسنا يوماً نتذاكر الشعرَ والشعراء، وتلقأنا شاباً قد جلس غير بعيد ينصت وكأنه يفهم، ويسكت وكأنه لا يعلم، حتى إذا مال الكلام بنا ميله، وجر الجدل فينا ذيله، قال أصبتم عُدَيْقَهُ، ووافيتم جُدَيْلَهُ، ولو شئت للفظت، ولو أردت لسردت، ولجلوت الحق في معرض بيان يسمع الصُّمُّ، ويردي العُصم، فقلت : يا فاضل ادن فقد منيت، وهات فقد أثنيت، فدنا وقال : سلوني أجيبكم، واستمعوا أعجبكم.

قلنا : فما تقول في امرئ القيس ؟ قال : هو أول من وقف بالديار وعرصاتها،

واغتدى والطير في وكناتها، ووصف الخيل بصفاتها، ولم يقل الشعر كاسباً، ولم يُجد القول راغباً، ففضل من تفتق للحيلة لسانه، وانتجع للرجبة بنانه.

قلنا : وما تقول في النابغة ؟ قال : ينسب إذا عشق، ويثلب إذا حنق، ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب، فلا يرمي إلا صائباً.

قلنا فما تقول في طرفة ؟ قال : هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافي ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دفائنه، ولم تطلق عتاق خزائنه.

قلنا : فما تقول في جرير والفرزدق ؟ قال : جرير أرق شعراً، وأغزر عُدراً والفرزدق أمتن صخراً، وأكثر فخرأً، وجرير أوجع هجواً، وأشرف يوماً والفرزدق أكثر رَوماً، وأكرم قوماً، وجرير إذا نسب أشجى، وإذا ثلب أردى وإذا مدح أسنى، والفرزدق إذا وصف أوفى، وإذا احتقر أزرى.

قلنا : فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ قال : « المتقدمون أشرف لفظاً، وأكثر في المعاني حظاً، والمتأخرون أطف صنعاً، وأرق نسجاً ».

ولو عُدنا لهذه الموازنة لوجدناها جملة من الصفات الفضفاضة التي تصلح لبوساً لكل موصوف، فكل شاعر فيما أظن : « بنسب إذا عشق، ويثلب إذا حنق، ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب ». ومن اللبس أن نقول في وصف شاعر : « هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافي ومدينتها » أو أن نقول : « إنه أمتن صخراً أو أكثر روما ». ومن المجازفة أن نقول : « المتقدمون أشرف لفظاً، وأكثر في المعاني حظاً ». وقد ظُرف من لاحظ أن الاغتداء والطير في وكناتها من خواص اللصوص، وهذا بالطبع لا يقدر في سُمُو تلك العبارة إلا حين تُرسل بلا تقييد، وقد قيدها امرؤ القيس حين قال :

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ .

على أن هذا البيت لا يدل على أن : « صاحبه أول من اغتدى والطير في وكناتها » كما قال بديع الزمان .

وقال ابن دريد : سألت أبا حاتم عن أبي نواس فقال : إن جدّ أحسن، وإن هزل ظُرف، وإن وصف بالغ، يلقي الكلام على عواهنه لا ييالي من أين أخذه.
قلت : فبشار بن برد ؟ قال : نظار غواص مطيل مجيد يصف ما لم يره كأنه رآه، على أن في شعره خللاً كبيراً.

قلت : فمروان بن أبي حفصة ؟ قال : شاعر راض عن نفسه، يستحسن كل ما جاء منه، مُعجب لا يرى أن أحداً يتقدّمه، كثر الصواب، كثير الخطأ، ليس لشعره صعة.

قلت : فمسلم بن الوليد ؟ قال : خَلِيجٌ صافٍ ينزع من بحر كدر، كالزند، يورى تارة، ويصلد أخرى.

قلت : فأبو العتاهية ؟ قال غثاء جم، واقتدار سهل، وشعر كخرز الزجاج وربما أشبه الياقوت والزبرجد.

قلت : فعباس بن الأحنف ؟ قال : بُلْفى دلوه في الدلاء، فيغترف الصفو أحياناً والحماة أحياناً، على أن كدره أكثر من صفوه.

قلت : فسلم الخاسر ؟ قال : مُقْلٌ مداح، شعره ديباج وعِهن، يمّوه الرديّ حتى يُشبهه الجيد.

قلت : فأبو الشيص ؟ قال : جدّه كلّ فيه حلاوة وبشاعة، كالسّدرّة التي نفضت فيها المستعذب والمستبشع.

قلت : فعليّ بن جبلة ؟ قال : بحات عن الكلام الفخم، والمعنى الرائع، لا بنال مرتبة القدماء، ويجلّ عن منزلة النظراء.

قلت : فأبو تمام ؟ قال : مسيلٌ كثير الغثاء، غزير الغمار، جم النطاف، فإذا صفا فهو السلاف بالماء الزلال.

قلت : فعبد الصمد بن المعدّل ؟ قال : خراج ولّاج : يعتسف تارةً ويهتدي أخرى.

قلت : فعليّ بن الجهم ؟ قال : كلامٌ رصين، ومسلّك وعزّ، عقله أغلب على شعره من طبعه.

قلت : فبكر بن النطّاح ؟ قال : تشبّه بالأعراب فأفرط، وتجاوز حد المولّدين فأسهب، فهو الساقط بين القريّتين.

ولا ننكر أن في هذا الضرب من القول بياناً لبعض خصائص الشعراء، ولكننا نستنكر أن تحدّد شاعرية شاعر بأنه : « خراج ولّاج، يعتسف تارةً ويهتدي أخرى » أو بأنه : « خليج صاف ينزع من بحر كدر » أو بأنه : « لا ينال مرتبة القدماء ويجل عن منزلة النظراء ».

ومما يؤسف له أن الميل إلى الإبهام كان يغلب على المتقدمين، ولم يسلم منه الجاحظ على بصّره بالبيان والتبيين، فقد كان يصف شعر أبي العتاهية بأنه : « ملس المتون ليس له عيون » وهي عبارة مجازية لا تؤدي إلى معنى محدود.

— ٤ —

ويضاف إلى هذا إغفالهم ضرب الأمثال، وإطلاقهم الحكم بلا بينة ولا دليل في حين إن الموازنة لا يُراد بها غير التمييز والفصل بين ما قال الشعراء في مختلف الأغراض وقد سرت هذه العدوى إلى شعراء العصر وكُتّابه، فنجد مصطفى الرافعي يقول في وصف الشعر : « لو كان طيراً يُعَرَّد لكان الطبع لسانه، والرأس عشه، والقلب روضته، ولكان غناؤه ما نسمعه من أفواه المجيدين من الشعراء ».

ونجد محمداً السباعي يصف شكسبير بأنه : « منحة الطبيعة وجائزة الدهر ». ونجد حافظ إبراهيم يصف شعر فيكتور هيجو فتكون غايته أن يقول :
ما تُغورُ الزُّهرُ في أكابرها ضاحكات من بُكاء السُّحبِ

نَظَمَ الْوُسْمِيُّ فِيهَا لَوْلُؤًا كَثَايَا الْغَيْدِ أَوْ كَالْحَبِّ
عِنْدَ مَنْ يَقْضِي بِأَبْهَى مَنَظَرًا مِنْ مَعَانِيهِ الَّتِي تَلْعَبُ بِي
بَسَمَتْ لِلذَّهْنِ فَاسْتَهَوَتْ نُهَى مُغْرَمَ الْفَضْلِ وَصَبَّ الْأَدَبِ

ولا يزال الأدباء يذكرون قول المنفلوطي في الأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويز : « لولا مقامه في اللواء، ومذهبه في الهجاء، لكان هو وفريد وجدي سواء ».

وقوله في المرحوم قاسم أمين : « ما رأيت باطلاً أشبه بالحق من باطله ». وتلك كلها عبارات مبهمة لاتقنع طلاب البيان.

— ٥ —

- إنما يجب على الناقد الذي استوفى ما أسلفناه من الصفات :
- ١ — أن يذكر حياة من يُوازن بينهم من الشعراء، وأن يُعيّن ما في حياة كل شاعر من ألوان الشّدة، أو صنوف الرخاء.
 - ٢ — وأن يبين الحالة الصحية لكل شاعر ليعرف ما قد يعرض لمزاجه من الاعتلال.
 - ٣ — وأن يقدر السن التي قيل فيها ما يُريد وَزَنَهُ ونَقَدَهُ.
 - ٤ — وأن يحدّد الصفات التي اشترك فيها من يُوازن بينهم، والصفات التي انفرد بها كل واحد منهم، ثم يتغلغل في تحليل المعاني، والألفاظ، والأساليب، ويوازن بين القصائد والمقطوعات، والأبيات اليتيمة.
 - ٥ — وأن يدقّق النظر في تمييز المعاني المبتدعة من المعاني المسبوقة، ويبين كيف تناول الشاعر المعنى الذي سبق إليه، وكيف هذبّه، وكيف بسّطه، حين يَجُودُ أخذه، وتلطّف سرقته، وكم في الشعراء من سارق لطيف !
 - ٦ — وأن يعدّ ما برّز فيه الشاعر من المطالع والمقاطع، وما أجاد أخذه، وما ابتكره وما انفرد به، فقد يبتكر الشاعر المعنى، ثم يُغلب عليه حين يقصر في تأديته، وقد يبتكر المعنى، ثم ينفرد به حين يبلغ الغاية في الأداء.

- ٧ — وأن يبين الفرق بين الشاعرين حين يشتركان في الإبانة عن غرض واحد وحين يختلفان في ذلك.
- ٨ — وأن يبين أسباب السبق، وأسباب التحلف، مع التعمق في استقراء ما لكل شاعر من خطرات النفس، ولفترات القلب، ونوازع الوجدان.
- ٩ — وأن يعدّ ما لكل شاعر من المعاني الموضعية، التي اقتضاها زمانه ومكانه والمعاني الإنسانية، التي تصلح لجميع الناس، على تباين الأمكنة واختلاف العصور.
- ١٠ — وأن يذكر بعد ذلك كله ما لكل واحد من : « الصور الشعرية ». وسنعود إلى هذا المعنى الأخير بالبسط والبيان.

البحث الثامن

الصور الشعرية

— ١ —

هذا فن حديد في نقد الشعر والموازنة بين الشعراء. أُلقيت عنه محاضرة في الجامعة المصرية في سنة ١٩٢١، ثم اخترته للمناقشة العلنية في امتحان الدكتوراه، فساعدني ذلك على تحديده، وضبط المراد منه، وكشف ما يعتوره من الغموض، وإلى القارئ البيان :

الصورة الشعرية هي أثر الشاعر المُفلق الذي يصف « المرئيات » وصفاً يجعل قارئ شعره ما يدري أيقراً قصيدة مسطورة، أم بشاهد منظراً من مناظر الوجود والذي يصف « الوجدانيات » وصفاً يخيل للقارئ أنه بناجي نفسه، ويحاور ضميره لا أنه يقرأ قطعة مخنارة لشاعر مجيد.

والصورة الشعرية لا تكمل إلا حين يحيط الوصف بجميع أنحاء الموصوف فليس منها قول أي نواس في وصف الراح :

صَهْبَاءُ تَبْنِي حَبَاباً كُلَّمَا مُزِجَتْ	كَأَنَّهُ لَوْلُو يَتْلُوهُ عَقِيَانُ
كَانَتْ عَلَى عَهْدِ نُوحٍ فِي سَفِينَتِهِ	مِنْ حُرٍّ شَحَنَتِهَا وَالْأَرْضُ طُوفَانُ
فَلَمْ نَزَلْ تَعْجِمُ الدُّنْيَا وَتَعْجِمُهَا	حَتَّى تَخَيَّرَهَا لِلْخَبَاءِ دِهْقَانُ

فَصَانَهَا فِي مَغَارِ الْأَرْضِ فَاخْتَلَفَتْ عَلَى الدُّفِينَةِ أَزْمَانٌ وَأَزْمَانُ
بَيْلِدَةٍ لَمْ تَصِلْ كَلْبٌ بِهَا طَنْبًا وَلَا خِبَاءٌ وَلَا عَبَسٌ وَذُبْيَانُ
لَيْسَتْ لِذَهْلِ وَلَا شِيَانِهَا وَطَنًا لَكِنَّهَا لِبْنِي الْأَحْرَارِ أَوْطَانُ
أَرْضٌ تَبْنَى بِهَا كِسْرَى دَسَاكِرُهُ فَمَا بِهَا مِنْ بَنِي الْأَعْرَابِ إِنْسَانُ
وَمَا بِهَا مِنْ هَشِيمِ الْعُرْبِ عَرْفَجَةٌ وَلَا بِهَا مِنْ غِدَاءِ الْعُرْبِ خُطْبَانُ
لَكِنْ بِهَا جُلُنَارٌ قَدْ تَفَرَّعَهُ آسٌ وَكُلُّهُ وَرْدٌ وَسُوسَانُ

ولو عُرضت هذه القصيدة على رجل من أدباء العصر، أو لو أنها عُرضت على رجل من الأدباء في الأعصر الخالية لوصفت على الأقل بأنها رشيقة الأسلوب متينة التركيب، ولكننا سنبين أنها قصيدة جوفاء، لا حظ لها من الروعة، ولا نصيب لها من الجمال.

أراد أبو نواس أن يصف الخمر، ولكن هل وضع صورة شعرية تنتظم مع ما للخمر من اللون والعبير، وما لها من العبث بالعقول، واللعب بالنفوس ؟ كلا ! لم يصنع شيئاً من ذلك، ولكنه ذكر فقط أنها كلما مزجت تبني حباباً كأنه لؤلؤ يتلوه عقيان ثم اندفع يذكر أنها عتيقة، وأن عهدها بالوجود قديم، وقد جره ذلك إلى الإغراب في الكذب، فذكر أنها كانت خير ما شحن في سفينة نوح، وأنها ما زالت تغالب الدهر، وتصانع الحداث، حتى ظفر بها دهقان ماكر دفنها في مغار الأرض، وأخفاها عن عيني الزمان، ولم يكفه ذلك، بل ذكر أن الأرض التي دفنت فيها هذه الخمر أرض كسروية، لم ينصب فيها خباء لعبس ولا ذبيان، ولم ينبت بها عرفج ولا خطبان بل زينها الجلنار، والورد، والآس والسوسان.

إذاً أخطأ أبو نواس حين غلا في الإشادة بعشق الصبهاء، لأن عشاقها لا يشعرون بالحاجة إلى إقامة البيئة على أنها من عهد الطوفان، مهما أحبوا أن تكون قديمة العهد بالوجود، فقد يكفيهم أن توصف بالقدم، وأن تكون لقدمها كما قال ابن الرومي :

لَطُفْتُ فَقَدْ كَادَتْ تَصِيرُ مُسَاعَةً فِي الْجَوِّ مِثْلَ شُعَاعِهَا وَنَسِيمِهَا
أو كما قال ابن المعتز :

جَرَتْ حَرَكَاتُ الدَّهْرِ فَوْقَ سُكُونِهَا فَدَابَتْ كَذَوْبِ التَّبَرِّ أَخْلَصَهُ السَّبْكُ
فَقَدْ خَفِيتُ مِنْ صَفْوِهَا فَكَانَهَا بَقَايَا يَقِينٍ كَادَ يُدْرِكُهُ الشُّكُّ

ويكاد القارئ لقصيدة أبي نواس يتوهم أنه يقرأ شيئاً غير وصف الخمر ويكاد يحسب أنه يقرأ موازنة بين ما تنبت البلاد العربية، وما تنبت البلاد الفارسية إذ يرى الشاعر يشيد بما بنى كسرى من دساكر، وما بأرض الفرس من ورد وآس ويسخر مما للعرب من طُنب وخباء، وما بأرضهم من عرفج وخطبان.

ولو لم يضل في بيداء هذا الفضول لكان للغلو في وصف الخمر بالقدم شيء من الروعة، أو كان على الأقل مما تسيغه النفوس، فما نظن أحداً يستنكر قول البحرى في وصف الشُّمُول :

يَكُرُّ تَقَدَّمَ الزَّمَانَ بَعْرِيسَهَا إِنْ كَانَ قَبْلَ الدَّهْرِ شَيْءٌ يُعْرَسُ

ولنفرض أن أبا نواس أجاد في وصف الخمر بالقدم، وأنه في ذلك غير مسبوق أفيكفي أن يوصف الشيء من ناحية واحدة مهما كان وصفها سابغاً ليصبح الموصوف وهو ممثل من جميع الجوانب ؟ إن هذا لبعيد !

ولا ننكر أن الصفة الغالبة لشيء من الأشياء قد تصرف الشاعر عما عداها من الصفات، وليس قدم الخمر من ذلك في كثير ولا قليل، فقد تكون الراح جبارة قهّارة، وهي في مَبَعَةِ الصبا وعنفوان الشباب، وغيري عنده الحر اليقين.

— ٢ —

ولننظر قول أبي نواس من كلمة ثانية :

دَعَّ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
صَفْرَاءُ لَا تَنْزُلُ الْأَحْزَانُ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَاءُ
قَامَتْ بِإِبْرِيْقِهَا وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ فَلَاخَ مِنْ وَجْهَهَا فِي الْبَيْتِ لَأَلَاءُ
فَأَرْسَلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ صَافِيَةً كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ
جَفَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يُلَائِمُهَا لَطَافَةٌ وَجْفا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ

فَلَوْ مَزَجْتَ بِهَا نُورًا لَمَازَحَهَا حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ

وهذه صورة شعربة للراح، أَلَمْ فيها الشاعر بصفاتها المختلفة، أو بأشهر ما لها من الصفات، وقد ابتدأ ذلك بنبذ ملامة اللائمين، بل جعل اللوم نوعاً من الإغراء، واستصرخ الساقى ليسعفه بالتي كانت الدواء، لما أورثت من داء، ثم اندفع بذكر أنها صفراء اللون، وأن الحزن لا يجعل لها ساحة، وأن الحجر لو مسحها مسته السراء، وأنها حين قامت بابريقها هتكت الظلماء، بما لوجهها من لألاء، وأنها حين أرسلت صافيةً من فم الإبريق أخذت تلعب بالعيون كأنها الإغفاء، وأنها لطفت حتى ما تلائم الماء، ولا يشاكلها الماء، فلا سبيل إلى أن تشعشع بالعذاب الفرات، فإن عجز المصطبح أو المغتبق عن شرها صرفة فليمزجها بالنور فانه لها مزاج، وهي له لباس، ومنهما نتولد الأنوار والأضواء.

— ٣ —

وقد يلاحظ أن هذا الوصف بعيد عن تناول العقول، ونجيب بأنه لا جمال للشعر إلا إذا أضيف إلى الحقيقة شيء من الخيال، وقد يكون هذا الخيال حفيقة ثاني لا فرق بينها وبين الأولى إلا أن احدهما في الوصف وآخرهما في الموصوف، لأن الشاعر لا يصف شيئاً إلا متأثراً بحسنه أو قبحه، فهو حين يذكر الشيء الدميم يذكر بجانبه نفرته من الدمامة، وحين يصف الشيء الجميل يصف بجانبه غرامه بالجمال، وربما خضع الشاعر لعاطفته، فانتقل من وصف إلى وصف، كأن يترك الحديث عن الراح وينحدر إلى وصف الساقى مثلاً، وهنا لا مندوحة من أن ينتقل الناقد مع الشاعر ليعرف أقصر في وصف ما انتقل إليه أم أجاد، وتكون الصورة الشعرية للموصوف الثاني، مثال ذلك قول ابن عُنين :

ومُدَامَةٌ لَمْ يُقَيِّ طُولُ ثَوَائِهَا	فِي خِذْرِهَا إِلَّا وَمِیْضَ شُعَاعِ
مِنْ كَفِّ مَضْغُولِ الْعَوَارِضِ آيَسِ	يَرْنُو بِمُقْلَةٍ جُوْدَرِ مُرْتَاعِ
وَقَفْتُ عَوَارِضُ صُدْغِهِ فِي خَدِّهِ	خَيْرَى وَبَانَتْ فِي الْقُلُوبِ سَوَاعِ
رَاضَتْ خَلَائِقُهُ الْعُقَارُ وَبَدَّلَتْ	نَزَقَ الصَّبَا بِمَوْقَرِ مِطْوَاعِ

وعلماء الأدب يذكرون هذه القطعة في وصف الخمر، وليست من ذلك في شيء إنما هي تنسيب، ومثلها قول البحري، وقد صرعت نديمه الصهباء :
ونديم حُلِّو الشَّمَائِلِ كالدَّبِّ نَارِ مَحْضِ النَّحَارِ عَذْبِ الْمَصْفَى
بِتْ أَسْقِيهِ صَفْوَةَ الرَّاحِ حَتَّى وَضَعَ الْكَأْسَ مَائِلًا يَتَكَفَّى
قُلْتُ عَبْدَ الْعَزِيزِ تَفْدِيكَ نَفْسِي ! قَالَ لَبَّكَ ! قُلْتُ لَسَيْكَ الْفَا !
هَآكَهَا ! قَالَ هَاتِيهَا ! قُلْتُ خُذْهَا قَالَ : لَا أُسْتَطِيعُهَا، ثُمَّ أَغْفَى
وهذا النوع من الحوار يسمى عند علماء البديع بالمراجعة، ولبس جمال هذه الأبيات في ترديد القول كما يظنون، ولكن جمالها في هذه الصورة الشعرية البديعة التي تمثل لك رفق النديم، وجناية الكأس عليه، واستسلامه للإغفاء بعد هذا الحوار الرقيق.

— ٤ —

وفضل الصورة الشعرية هو تمكين المعنى في نفس القارئ والسماع، ألا نرى أن قول بعض الأندلسيين :
أَخَافُ عَلَيْكَ مِنْ عَيْنِي رَقِيبِي وَمِنْ عَيْنِي وَعَيْنِكَ وَالرَّيْمَانِ
وَلَوْ أَنِّي وَضَعْتُكَ فِي عَيْنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا كَفَانِي
أقل تأثراً في النفس من قول ابن الرومي :
أَعَانِيَهُ وَالنَّفْسُ بَعْدَ مَشْوَقَةٍ إِلَيْهِ وَهَلْ بَعْدَ الْعِنَاقِ تَدَانِ
وَالنَّمُ فَاهُ كَيْ نَزُولِ حَرَارِنِي فَيَسْتَدُّ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَبْمَانِ
وَلَمْ يَكْ مِقْدَارُ الدِّي بِى مِنَ الْجَوَى لِيُرْوِيَهُ مَا تَلْتُمُ الشَّفْتَانِ
كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَرُوي غَلِيلَهُ سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحَيْنِ يَمْتَرِجَانِ
لأن ابن الرومي وضع لكلفه صورة شعرية تامة الأجزاء، وتنقل بالقارئ السامع من حال إلى حال، وذكر أموراً فطرية يتشعر بمنزلها كل متيم منغوف، ثم علل شرهه في صبونه بخطر لوعته وفرط حواه، وتحليل المعنى وتعليله من أقرب الوسائل إلى تمكبه في النفوس، وفي تحليل المعاني وتعليلها تتفاوت أقدار الكتاب والخطباء والشعراء.

البحث التاسع

أهمية الصور الشعرية

عرف القارئ شيئاً عما أريده من الصور الشعرية، ولكنه شيء يسيراً لا يغني في إمطة اللثام عن هذا الفن الجديد، وسأعود بعد قليل إلى تحقيق الفرق بين الصورة الشعرية، والتثيل المعروف في علم البيان، فقد ظن بعضهم أن الصورة الشعرية هي الاستعارة التمثيلية، وهو خطأ مبين.

والآن أرجع إلى توضيح ما ذكرته في الكلمة الماضية من أن فضل الصورة الشعرية إنما هو تمكين المعنى في النفس، لأن غاية الكلام البليغ من نثر أو شعر إنما هي التأثير، والصورة الشعرية لما فيها من تحليل المعنى وتعليله كافية في تحقيق غاية البيان، ولنضرب لذلك الأمثال.

— ١ —

من الحكم المأثورة قول أبي الدرداء : « مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كَلَهُ ». يريد أن الصديق لن يكون من كل نواحيه ملكاً لأخيه. هذا هو أصل المعنى، وتلك هي صورته الأصلية، فلننظر كيف بَسَطَهُ بَشَّار بن برد حين قال :

إِذَا كُنْتُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِباً صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقَ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ

فَعِشْ وَاحِدًا أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَدَى ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ

فإذا وازنت بين هذه الأبيات وبين كلمة أبي الدرداء رأيت أن كلمة : « من لك بأخيك كله ». كلمة مُبْهَمَةٌ لا تقرر في النفس إلا بعد التأمل والترديد : ورأيت صاحب هذه الأبيات الثلاثة يخاطب عقلك ووجدانك، إذ يذكر أنك إن عاتبت صديقك في كل الأمور فلن تلقى الصديق الذي لا تعاتبه، لأنه يندر أن يخلو صديق من العيوب، وأنت مضطر إلى إحدى اتنتين : إما أن ترضى الوحدة، وإما أن تصل أخاك، فقد يقارف الذنب مرة ويحجبه مرة أخرى، وإذا لم تشرب « مراراً » على القذى ظمئت، وأي الناس تصفو مشاربه في هذا الوجود ؟ !

فأنت ترى أن كلمة بشار أوقع في النفس، وأملأ للقلب، من كلمة أبي الدرداء، وإليك كلمة الشريف الرضي في نفس المعنى :

وَكَمْ صَاحِبٍ كَالرُّمَحِ زَاغَتْ كُعُوبُهُ أَبِي بَعْدَ طُولِ الْغَمْرِ أَنْ يَتَّقَوْمَا
تَقَبَّلْتُ مِنْهُ ظَاهِرًا مُتَبَلِّجًا وَأَذْمَجَ دُونِي بَاطِنًا مُتَجَهِّمًا
فَأَبْدَى كَرُوضَ الْحَزَنِ رَقَّتْ فُرُوعُهُ وَأَضْمَرَ كَاللَّيْلِ الْخِدَارِيَّ مُظْلِمًا
وَلَوْ أَنَّي كَشَفْتُهُ عَنْ ضَمِيرِهِ أَقَمْتُ عَلَى مَا يَبْنِي الْيَوْمَ مَاتِمًا
فَلَا بِاسِطًا بِالسُّوءِ إِنْ سَاعَنِي يَدَا وَلَا فَاغِرًا بِالذَّمِّ إِنْ رَأَيْتَنِي فَمَا
كَعْضُو رَمَتْ فِيهِ اللَّيَالِي بِقَادِحِ وَمَنْ حَمَلَ الْعُضْوَ الْأَلِيمَ تَأَلَّمَا
إِذَا أَمَرَ الطَّبُّ اللَّيْبُ بِقَطْعِهِ أَقُولُ عَسَى ضِنًّا بِهِ وَلَعَلَّمَا
صَبَرْتُ عَلَى إِيلَامِهِ خَوْفَ نَقْصِهِ وَمَنْ لَمْ يَنْزِلْ يَرْغَوِي كَانَ الْوَمَا
هِيَ الْكَفِّ مَضَى تَرْكُهَا بَعْدَ دَائِهَا وَإِنْ قُطِعَتْ شَانَتْ ذِرَاعًا وَمِعْصَمًا
أَرَاكَ عَلَى قَلْبِي وَإِنْ كُنْتُ عَاصِيًا أَعَزُّ مِنَ الْقَلْبِ الْمَطِيعِ وَأَكْرَمًا
حَمَلْتُكَ حَمْلَ الْعَيْنِ لَجَّ بِهَا الْقَدَى فَلَا تَنْحَلِي يَوْمًا وَلَا تَبْلُغِ الْعَمَى
دَعِ الْمَرْءَ مَطْوِيًّا عَلَى مَا دَمَمَتْهُ وَلَا تَنْشُرِ الدَّاءَ الْعُضَالُ فَتَنْدَمَا
إِذَا الْعُضْوُ لَمْ يُؤْلَمَكَ إِلَّا قَطَعَتْهُ عَلَى مَضْضٍ لَمْ تُبْقِ لَحْمًا وَلَا دَمًا
وَمَنْ لَمْ يُوْطِنِ لِلصَّغِيرِ مِنَ الْأَذَى تَعَرَّضَ أَنْ يَلْقَى أَجَلٌ وَأَعْظَمًا

فهذه صورة شعرية يدر أن تجد مثلها في هذا المعنى لعبر الشريف الرضي، وانظر كيف حدثك عن صديقه الذي صبر عليه، وكيف شبّه بالرمح الذي زاغت كعوبه، وأنى بعد طول الغمز أن يتقوم، وكيف تقبل من ذلك الصديق ظاهره المتبلج، وتغافل عن باطنه المتجهّم، وكيف مثل ما أبداه بروض الحزن رفّ فروعها، وما أضمره بظلمة الليل، وانظر كيف راعك حين ذكر أنه لو كشف صديقه عن ضميره لأقام على ما بينهما مأتماً أيّ مأتم، ومع ذلك لا يبسط يده بالسوء إن ساءه، ولا يفتح فاه بالدم إن رابه، ثم انظر كيف صوّر هذا الصديق الذي كثر دغله وساءت طويته بصورة العضو الذي رمته الليالي بفادح، والذي يؤلم حمله، ولكنه مع هذا مرجو البرء مأمول الشفاء، ومن ذا الذي يجهل أن داء الكف مضّ بغيض، ولكن من ذا الذي برضى أن يشين بقطعها المعصم والذراع؟

ولم يقف الشريف الرضي، عند ذلك، بل مثل صديقه بالعين ليجّ بها القذى، وهو أفضل من العمى على كل حال، ثم أرسل هذه الحكمة الرائعة :
دع المرأة مطوّياً على ما ذممته ولا تنشر آلداء العضال فتندما
إذا العُضْبُ لَمْ يُؤْلَمْكَ إِلَّا قَطَعْتَهُ على مضضٍ لَمْ تُبْقِ لَحْماً وَلَا دَماً
وهل ينكر أحد بعد هذا التفصيل أن كلمة بشار أولاً، وكلمة الشريف الرضي ثانياً، أدعى لتمكين المعنى في النفس من كلمة أي الدرداء، لما فيهما من تحليل المعنى وتعليقه، وذلك داعية التأثير، وهو ثمرة الكلام البليغ؟

— ٢ —

رثى مؤيلك المزموم امرأته أم الغلاء فقال :
أمرز على الحدث الذي حلّت به أم الغلاء فناديها لو تسمع
أني حلّت وكنت جدّ فروفة بلداً يمرّ به السجاع فيفزع
صلى عليك الله من مفقودة إذ لا يلائمك المكان البلقع
فلقد تركت صغيرة مرحومة لم تدر ما جزع عليك فتجزع

فَقَدْتُ شَمَائِلَ مِنْ لِزَامِكِ حُلُوةً فَتَبَّيْتُ تُسْهِرُ أَهْلَهَا وَتُقَجِّعُ
وَإِذَا سَمِعْتُ أُنَيْنَهَا فِي لَيْلِهَا طُفِقْتُ عَلَيْكِ شُؤُونَ عَيْنِي تَدْمَعُ

وهذه قطعة مختارة في بكاء المرأة تخلي طفلها وتروح إلى عالم الفناء، وهي بعد التحليل ترجع إلى فكرتين : الأولى التعجب من قرار هذه المرأة الهيوب في ذلك المكان البلقع. والثانية الأسف على مالقيت طفلها من فقد شمائلها الحلوة. وقد سرد الشاعر هاتين الفكرتين بشيء من الجفاف، وكان في مقدوره أن يزيد الفكرة الأولى شيئاً من الوضوح، وأن يعتمد في الفكرة الثانية إلى أن يشرك معه القارئ في حزنه وبُتّه، لأن الغرض من الشعر إنما هو التأثير.

وإلى القارئ ما يقوله في هذا المعنى محمد بن عبد الملك الزيات :

أَلَا مَنْ رَأَى الطُّفْلَ الْمُفَارِقَ أُمَّهُ بُعِيدَ الْكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرُ
رَأَى كُلَّ أُمٍّ وَأَبْنَاهَا غَيْرَ أُمِّهِ يَبْتَائِنِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَتَجَيَّانِ
وَبَاتَ وَحِيداً فِي الْفِرَاشِ تَحْتَهُ بَلَابِلُ قَلْبٍ دَائِمِ الْخَفَقَانِ
أَلَا إِنَّ سَجْلاً وَاحِداً قَدْ أَرْقَتْهُ مِنْ الدَّمْعِ أَوْ سَجَلَيْنِ قَدْ شَفَّيَانِي
فَلَا تَلْحَيَانِي إِنْ بَكَيْتُ فَإِنَّمَا أُدَاوِي بِهِذَا الدَّمْعِ مَا تَرَيَانِ
وَأَنْ مَكَاناً فِي الشَّرَى خُطَّ لَحْدُهُ لِمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
أَحَقُّ مَكَانٍ بِالزِّيَارَةِ وَالْهَوَى فَهَلْ أَنْتُمَا إِنْ عَجْتُ مُنْتَظِرَانِ
فَهَبْنِي عَزَمْتُ الصَّبْرَ عَنْهَا لِأَنِّي جَلِيدٌ فَمَنْ بِالصَّبْرِ لَابِنِ ثَمَانٍ
ضَعِيفِ الْقَوَى لَا يَعْرِفُ الْأَجَرَ حِسْبَةً وَلَا يَأْتِسِي بِالنَّاسِ فِي الْحَدَثَانِ
أَلَا مَنْ أُمْنِيهِ الْمُنَى فَأَعْدُهُ لِعَثْرَةِ أَيَّامِي وَصَرْفِ زَمَانِي
أَلَا مَنْ إِذَا مَا جِئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسِي وَإِنْ غِبْتُ عَنْهُ حَاطَنِي وَرَعَانِي
فَلَمْ أَرْ كَالْأَقْدَارِ كَيْفَ يَصْبِنُنِي وَلَا مِثْلَ هَذَا الدَّهْرِ كَيْفَ رَمَانِي

فاذا وازنا بين هذه القطعة وبين تلك وحدنا في الأخيرة صورة شعرية بديعة، تمثل الطفل المفجع في أمه، والرحل المفجع في زوجه. وانظر كيف صور الطفل اليتيم بقوله :

رَأَى كُلَّ أُمٍّ وَأَبْنَاهَا غَيْرَ أُمِّهِ يَبْتَائِنِ تَحْتَ اللَّيْلِ يَتَجَيَّانِ

وَبَاتَ وَجِيداً فِي الْفِرَاشِ نَحْتُهُ تَلَابُلُ قَلْبٍ دَائِمٍ الْخَفَقَانِ
وانظر كيف علل جزع الطفل بضعف قواه، وجهله بالأجر والتأسي، وتأمل
كيف فهم قدر الحليلة، وكيف تغلغل في وصف ما للحلائل من الوفق، وما للرحل
من الأنس بزوجه حين يطارحها الأحاديث بالليل، وكيف اعتمد فأعدها لعنرة
أيامه وصرف زمانه، وكم في الأيام من عثرات، وكم في الدهر من صروف !
وأي كلام أبلغ في وصف الحليلة الرفيقة الأمينه من فوله في تلك الفقيده
الغالية :

أَلَا مَنْ إِذَا مَا جِئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسِي وَإِنْ غِبْتُ عَنْهُ حَاطِنِي وَرَعَانِي
وأحب لو أعاد القارئ المظر في هذين البيتين :
وَإِنَّ مَكَاناً فِي الثَّرَى خُطَّ لِحْدُهُ لِمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
أَحَقُّ مَكَانٍ بِالزِّيَارَةِ وَالْهَوَى فَهَلْ أَتَمَّا إِنْ عَجَبْتُ مُتَظَرِّانِ
فإنهما غابه في تمثيل الحنو على القبر المأهول برفات الحبيب، وسقى الله كل
بقعة من هذا القبيل !

— ٣ —

أراد الطغرائي أن يستعطف أحبابه، وأن يذكرهم بأن في صروف الدهر ما
بغني عن القطيعة، وذلك قوله:
وَيَا رُفْقَةً مَرَّتْ بِجَرْعَاءِ مَالِكٍ تُوِّمُ الْحَمَى أَنْضَاؤُهَا وَالْمَطَالِيَا
نَسَدْتُكُمْ بِاللَّهِ إِلَّا نَسَدُنُمُو بِهِ شُعْبَةً أَضْلَلْنَهَا مِنْ فُؤَادِيَا
وَقُلْتُمْ لِحَيٍّ نَازِلِينَ بِقُرْبِهِ أَقَامُوا بِهَا وَاسْتَبَدُّوا بِجَوَارِيَا
رُؤَيْدَكُمْو لَا نَسِيقُوا بِقَطِيعَتِي صُرُوفَ اللَّيَالِي إِنْ فِي الدَّهْرِ كَافِيَا

وأصل هذا المعنى لإياس بن القائف إذ يقول :
فَأُكْرِمَ أَخَاكَ الدَّهْرَ مَاعِشْتُمَا مَعَا كَفَى بِالْمَمَاتِ فُرْمَةً وَتَنَائِيَا
إِذَا زُرْتُ أَرْضاً بَعْدَ طُولِ اجْتِنَابِهَا فَقَدْتُ صَدِيقِي وَالْبِلَادُ كَمَا هِيَا

ولنظر كيف تناول سعيد بن حميد هذا المعنى حين قال :

أَقْلِيلُ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلُ وَالذَّهْرُ بَعْدِلُ تَارَةً وَبِمِيلُ
لَمْ أَبُكْ مِنْ زَمَنِ ذَمَّتْ صُرُوفُهُ إِلَّا بَكْتُ عَلَيْهِ حِينَ يَزُولُ
وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ أَلَمْتُ مُدَّةً وَلِكُلِّ حَالٍ أَقْبَلْتُ تَحْوِيلُ
وَالْمُنْتَمُونَ إِلَى الْإِخَاءِ جَمَاعَةً إِنْ حُصِّلُوا أَفْنَاهُمُ التَّحْصِيلُ
وَلَعَلَّ أَحْدَاثَ الْمَنِيَّةِ وَالرَّدى يَوْمًا سَتَصْدَعُ بَيْنَنَا وَتَحْوِلُ
فَلَمَّا سَبَقْتُ لَتَبَكِيٍّ بِحَسْرَةٍ وَلِيَكُثُرَنَّ عَلَيَّ مِنْكَ عَوِيلُ
وَلَتَفْجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لَكَ وَامِقٍ حَبْلُ الْوَفَاءِ بِحَبْلِهِ مَوْصُولُ
وَلَمَّا سَبَقْتُ وَلَا سَبَقْتُ لَيَمُضِينَ مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَيَّ خَلِيلُ
وَلَيَذْهَبَنَّ بَهَاءُ كُلِّ مُرُوءَةٍ وَلَيَفْقَدَنَّ جَمَالَهَا الْمَاهُولُ
وَأَرَاكَ تَكْلُفُ بِالْعِتَابِ وَوُدُّنَا صَافٍ عَلَيْهِ مِنَ الْوَفَاءِ ذَلِيلُ
وَدُّ بَدَا لِدَوَى الْإِخَاءِ جَمَالُهُ وَبَدَتْ عَلَيْهِ بِهِجَةٌ وَقَبُولُ
وَلَعَلَّ أَيَّامَ الْحَيَاةِ قَصِيرَةٌ فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَتَبُنَا وَيَطُولُ

وهذه غاية في تحليل المعنى وتعليقه : فانا نراه ابتدأ بشكوى الزمان، ونصح صديقه بانتهاب الفرص السوانح، ثم أخذ يقنع صديقه بأن الحرّ في الدنيا قليل، وبأن من الحزم ألا ينجنى المرء على صديق لا ذنب له، فقد صدع بينهما أحداث المنية، أو عاديات الليالي.

وقد بلغ غاية الرفق حين شرع يذكر لصديقه أنه إن سبقه إلى الموت فسيكثر عويله عليه، وستعظم فجيعة فيه، وهذا اعتراف منه لصديقه بالوفاء، وهذا الاعتراف نفسه نوع من التألف والاستعطاف. وانظر كيف دق ولطف في قوله :

وَلَمَّا سَبَقْتُ — وَلَا سَبَقْتُ — لَيَمُضِينَ

مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَيَّ خَلِيلُ

ولعل الجملة الاعتراضية لم تقع موقعاً أدق من هذا ولا أظرف. وهذه القصيدة من الصور الشعرية البديعة، وهي بلا شك أوفى من أبيات ابن القائف، وأبرع من أبيات الطغرأي، وهي فوق ذلك نص فيما قصد الشاعر إليه : من ردّ صديقه إلى شرعة الإلفة، وصرفه عن موارد الصدود.

أراد العباس بن مرداس السلمي أن ينصف أعداءه، وهو يفخر بقومه ويذكر صبرهم على الجلاء، وصدقهم في اللقاء، فقال :

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الْحَيِّ حَيًّا مُصْبِحًا وَلَا مِثْلَنَا يَوْمَ التَّقِينَا فَوَارِسَا
أَكْرَرُ وَأُحْمَى لِلْحَقِيقَةِ مِنْهُمْ وَأَضْرَبَ مِنَّا بِالسُّيُوفِ الْقَوَانِسَا^(١)
إِذَا مَا شَدَدْنَا شِدَّةً نَصَبُوا لَنَا صُدُورَ الْمَذَاكِي وَالرِّمَاحَ الْمَدَاعِيسَا^(٢)
إِذَا الْخَيْلُ جَالَتْ عَنْ صَرِيحٍ نَكُرْهَا عَلَيْهِمْ فَمَا يَرْجِعُنَّ إِلَّا عَوَابِسَا

ولهذه الأبيات قيمة أي قيمة : ولكن أتراها تبلغ في تقرير المعنى، وتمكينه في

النفس، ما يبلغه قول عبد الشارق بن عبد العزى الجهني :

أَلَا حُيِّيتَ عَنَّا يَا رُدَيْنَا نُحْيِيهَا وَإِنْ كَرُمْتَ غَلِينَا
رُدَيْنَةُ لَوْ رَأَيْتَ غَدَاةَ جِئْنَا عَلَى أَضْمَانِنَا وَقَدْ آخَتُونِنَا^(٣)
فَارُسَلْنَا أَبَا عَمْرٍو رَيْبًا فَقَالَ أَلَا أَنْعَمُوا بِالْقَوْمِ عَيْنَا
وَدَسُّوا فَارِسًا مِنْهُمْ عِشَاءَ فَلَمْ نَعْدِرْ بِفَارِسِهِمْ لَدُنْنَا
فَجَاءُوا عَارِضًا بَرْدًا وَجِئْنَا كَمِثْلِ السَّيْلِ نَرْكَبُ وَازِعَيْنَا
تَنَادَوْا يَا لِهَيْئَتِهِ إِذْ رَأَوْنَا فُقُلْنَا أَحْسِنِي ضَرْبًا جُهَيْنَا
سَمِعْنَا دَعْوَةً عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ فَجُلْنَا جَوْلَةً ثُمَّ أَرْغَوَيْنَا
فَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلًا أَنْخَنَّا لِلْكَلاَكِلِ فَارْتَمَيْنَا^(٤)
فَلَمَّا لَمْ نَدْعُ قَوْسًا وَسَهْمًا مَشِينَا نَحْوَهُمْ وَمَشَوْا إِلَيْنَا
تَلَالُؤُ مَزْنَةٍ بَرَقَتْ لِأُخْرَى إِذَا حَجَلُوا بِأَسْيَافٍ رَدَيْنَا^(٥)
شَدَدْنَا شِدَّةً أُخْرَى فَجَرُّوا بِأَرْجُلٍ مِثْلِهِمْ وَرَمَوْا جُونِنَا^(٦)

(١) جمع قونس، وهو أعلى الراس.

(٢) من الدعس، وهو الطعن.

(٣) الأضمانات : الأحقاد، والاحتواء : خلو الجوف من الطعام.

(٤) الكلاكل : الصدور.

(٥) حجل : تربث في مشيه على رجله، وردى : أسرع.

(٦) جوين : هو أخو الشاعر وسيرثيه أشرف رثاء بالبيت التالي.

وَكَانَ أَخِي جُؤَيْنٌ ذَا حِفَاطٍ وَكَانَ الْقَتْلُ لِلْفِتْيَانِ زَيْنًا
فَأَبَوْا بِالرَّمَاكِ مَكْسَرَاتٍ وَأَبْنَا بِالسُّيُوفِ قَدْ أَنْحَيْنَا
وَبَاتُوا بِالصَّعِيدِ لَهُمْ أَحَاخُ وَلَوْ خَفْتُ لَنَا الْكَلَمَى سَرِينَا

فهذه صورة شعرية مثل الشاعر بها الموقعة أحسن تمثيل. وإنك لتراه ينتقل من وصف إلى وصف في سهولة ورفق، ونراه في الوفت نفسه صادقاً فيما يقول، إذا لم يرد في قصيدته ما يحمل القارئ على تكذيبه، أو رمية بالغلو والإسراف، وانظر كيف اكتفى في رثاء أخيه حين صرع بهذا البيت السهل المقبول:

وَكَانَ أَخِي جُؤَيْنٌ ذَا حِفَاطٍ وَكَانَ الْقَتْلُ لِلْفِتْيَانِ زَيْنًا

وأي فتى لا يتمنى أن يرمي بنفسه في سعي تلك الحرب التي يقول فيها هذا الفتى النبيل، وهو فيما يقول غير ظنين :

تَنَادَوْا يَا بُهْتَةَ إِذْ رَأَوْنَا فَقُلْنَا أَحْسِنِي ضَرْباً جُهَيْنَا
سَمِعْنَا دَعْوَةً عَنْ ظَهْرٍ غَيْبٍ فَجَلْنَا جَوْلَةً ثُمَّ أَرْعَوَيْنَا
فَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلًا أَنْخَنَا لِلْكَلاَكِلِ فَأَرْتَمِينَا
تَلَالَوْ مُزْنَةً بَرَقَتْ لِأُخْرَى إِذَا حَجَلُوا بِأَسْيَافٍ رَدِينَا

والشاعر الواحد قد يكلف بترديد معنى من المعاني فلا يزال يبدأ ويعيد حتى يضع له صورة شعرية يصل بها إلى ما يريد، كالعباس بن الأحنف في ولوعه بكتمان الوجد، وجحود الحب، فقد افتن في هذا المعنى ووضع له صوراً عديدة، فتارة يعتذر عن هجره فيقول :

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا أَرَدْتُ بِهِجْرُكُمْ إِلَّا مُصَانَعَةَ الْعَدُوِّ الْكَاشِحِ
وَعَلِمْتُ أَنَّ تَبَاعُدِي وَتَسْتَرِي أَدْنَى لِرَوْضِكَ مِنْ دُنُوِّ فَاضِحِ

وأحلى من هذا قوله في تعيين نوع الصدود :

سَاهُجُرُ إِلْفِي وَهَجْرَانَهَا إِذَا مَا التَّقِينَا صُدُودَ الْخُدُودِ
كِلَانَا مُجِبٌّ وَلَكِنَّا نَدَافِعُ عَنْ حُبِّنا بِالصُّدُودِ

وتارة يُعلل الكتمان فيقول :

سَأَشْتُرُ وَالسَّتْرُ مِنْ شِيَمَتِي هَوَى مَنْ أُحِبُّ بَمَنْ لَا أُحِبُّ
ولا بد من كذب في الهوى إذا كان دفع الأذى بالكذب

وحيناً يصف اضطراب الناس في الحديث عن وجده فيقول :
قَدْ سَحَبَ النَّاسُ أَذْيَالَ الظُّنُونِ بَنَّا وَفَرَّقَ النَّاسُ فِينَا قَوْلَهُمْ فِرَقًا
فجَاهِلٌ قَدْ رَمَى بِالظَّنِّ غَيْرَكُمْ وَصَادِقٌ لَيْسَ يَدْرِي أَنَّهُ صَدَقَا

وأظنه لم يبلغ من البيان ما أراد إلا حين قال :
كَذَبْتُ عَلَى نَفْسِي فَحَدَّثْتُ أَنِّي سَلَوْتُ لِكَيْمَا يُنْكِرُوا جِينَ أُصْدَقُ
وَمَا مِنْ قَلْبٍ مِنِّي وَلَا عَنْ مَلَالَةٍ وَلَكِنِّي أُبْقِي عَلَيْكَ وَأُشْفِقُ
عَطَفْتُ عَلَى أَسْرَارِكُمْ فَكَسَوْتُهَا قَمِيصًا مِنَ الْكُثْمَانِ لَا يَتَخَرَّقُ

وللقارئ أن يحلل هذا المعنى، فقد مهدت له السبيل^(١)

(١) ارجع إلى هذه المعاني الوجدانية في الطبعة الثانية من كتاب : (مدامع العشاق).

البحث العاشر

اختلاف الصور الشعرية

— ١ —

وقد نجد للموصوف الواحد صورتين مختلفتين لاختلاف العاطفة عند شاعرين، فمن ذلك قول ابن الزيات في برذون أشهب كان المعتصم أخذه منه، وكان أحمد ابن خالد ذكره له، ووشى به إليه :

قَالُوا جَزَعْتَ فَقُلْتُ إِنَّ مُصِيبَةً ^(١)	جَلَّتْ رَزِيَّتُهَا وَضَاقَ الْمَذْهَبُ
كَيْفَ الْعَزَاءُ وَقَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ	عَنَّا فَوَدَّعْنَا الْأَحْمُ الْأَشْهَبُ
دَبَّ الْوُشَاةُ فَأَبْعَدُوهُ وَرُبَّمَا	بَعْدَ الْفَتَى وَهُوَ الْحَبِيبُ الْأَقْرَبُ
لِلَّهِ يَوْمَ غَدَوْتَ عَنِّي ظَاعِنًا	وَسُلِبْتُ قُرْبَكَ أَيَّ عِلْقٍ أُسْلِبُ
الآن إِذْ كَمُلْتَ أَذَاتُكَ كُلُّهَا	وَدَعَا الْعُيُونُ إِلَيْكَ لَوْ مُعْجِبُ
وَأَخْتِيرَ مِنْ سِرِّ الْحَدَائِدِ خَيْرُهَا	لَكَ خَالِصًا وَمِنْ الْحُلِيِّ الْأَغْرِبُ
وَعَدَوْتَ طَنَانِ اللَّجَامِ كَأَنَّمَا	فِي كُلِّ عُضْوٍ مِنْكَ صَنْجٌ يُضْرَبُ
وَكَأَنَّ سَرَجَكَ إِذْ عَلَاكَ غَمَامَةٌ	وَكَأَنَّمَا تَحْتَ الْعَمَامَةِ كَوَكَبُ

(١) ان — هنا — حرف جواب بمعنى نعم، ولها شواهد كثيرة ذكرها النحويون.

وَرَأَى عَلَيَّ بِكَ الصَّدِيقُ مَهَابَةً وَعَدَا الْعَدُوُّ وَصَدْرُهُ بَتَلَهَبٌ
أَنْسَاكَ؟ لَا بَرَحَتْ إِذَا مَنْسِيَّةٌ نَفْسِي وَلَا زَالَتْ بِمِثْلِكَ نُنْكَبُ

وهذه صورة شعيرية لجواد انتزع من صاحبه، فلنذكر صورة شعربة لحصان

لم يفجع صاحبه فيه، كقول البحري :

وَأَغَرَّ فِي الزَّمَنِ الْبَهِيمِ مُحَجَّلٍ قَدْ رُحْتُ مِنْهُ عَلَى أَغَرِّ مُحَجَّلٍ
كَالْهَيْكَلِ الْمَبْنِيِّ إِلَّا أَنَّهُ فِي الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلٍ
وَفِي الصُّلُوعِ يَسُدُّ عَقْدَ حِزَامِهِ يَوْمَ اللَّقَاءِ عَلَى مُعِمِّ مُخُولٍ
أَخْوَالُهُ لِلرُّسْتَمِينَ بِفَارِسٍ وَجُدُوهُ لِلتَّبْعِينَ بِمَوْكِلٍ^(١)
يَهْوَى كَمَا تَهْوَى الْعُقَابُ وَقَدْ رَأَتْ صَيْدًا وَيَتَصَيَّبُ أَنْتِصَابَ الْأَجْدَلِ
ذَنْبٌ كَمَا سُحِبَ الرِّشَاءُ يَدْتُ عَنْ عُرْفٍ، وَعُرْفٌ كَالْقِنَاعِ الْمُسْبَلِ
ذَهَبُ الْأَعَالِي حَيْثُ تَذْهَبُ مُقْلَةٌ فِيهِ بِنَاطِرِهَا حَدِيدُ الْأَسْفَلِ
صَافِي الْأَدِيمِ كَأَنَّمَا عُثِنَتْ بِهِ لِصَفَاءِ نَفْسِيهِ مَدَاوِسُ صَيْقِلٍ^(٢)
وَتَرَاهُ يَسْطَعُ فِي الْغُبَارِ لِهَيْبِهِ لَوْنًا وَشَدًّا كَالْحَرِيقِ الْمُشْعَلِ
هَزَجُ الصَّهِيلِ كَأَنَّ فِي نَعْمَاتِهِ نَبْرَاتٍ مَعْبَدٍ فِي الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ
مَلِكُ الْعُيُونِ فَإِنْ بَدَأَ أُعْطِيَنَّهُ نَظَرَ الْمُحِبِّ إِلَى الْخَبِيبِ الْمُقْبِلِ

والموازنة بين هاتين القصيدتين تتوقف على معرفة السبب الذي قيلت فيه القصيدة الأولى، والسبب الذي قيلت فيه القصيدة الثانية، ومتى عرفنا أن الشاعر الاول : وصف حصانه وهو جازعٌ محزون، وأن الشاعر الثاني : وصف حصانه وهو فرح مختال، استطعنا أن نعرف السبب فيما بين القصيدتين من الفروق، فقد ابتداء ابن الزيات فشرح حُزْنَه على ذلك الحصان المسلوب بما يشبه أن يكون مرثبة لغلام نكب به، وهذا الجزء من القصيدة اقتضته « ظروف » ابن الزيات، فهو في الوصف غير محسوب ثم انتقل إلى وصف الفرس فابتدأه بأبيات هي أنموذج في الرثاء، ألا تراه يقول :

(١) موكل على وزن مقعد : حبل أو حصص، وفرس ربهض من غزالة السكوني . « فاموس » .

(٢) الصيقل : شحاذ السوف، والمداوس جمع مدوس، وهو المصقله.

الآن إذ كملت أداتك كلها ودعا العيون إليك لوّن مُعجِب
وأختير من سرّ الحذائد خيرها لك خالصاً ومن الحليّ الأغرَب
وغدوت طنان اللجام كأنما في كلّ عضو منك صنّج يُضرب

وهذا النمط في التعبير كان شائعاً في الرثاء لذلك العهد، ومنه قول بعض الشعراء :

الآن لما صرت أكمل من مشى وأفترّ نابك عن شباة القارح
وتكاملت فيك الشمائل كلها وغدوت ربّ مذائح ومنايح

ويدلك على أن ابن الزيات إنما يصف حزنه على ذلك الجواد أنك تراه يُطنب في وصف المظاهر الأخاذة التي تبهر الناظرين، ليكشف عن سر الثيمة التي رزاه بها ابن خالد عدوّه اللدود، وإلا فما معنى قوله :

وكانّ سرّجك إذ علاك غمامةً وكأنما نحت الغمامة كوكب
ورأى عليّ بك الصديق مهابةً وغدا العدو وصدره يتلهّب

وكان ذلك لأن ابن الزيات محنق مغیظ لا يفكر في عتق فرسه أكثر مما يفكر في نكبته بذلك العدو الذي سدّ عليه طريق الخيلاء حين أغرى المعتصم بأخذ برذونه الجميل.

وجملة ما وصف به ابن الزيات برذونه أنه كامل الأداة، وأنه يروق العيون، وأنه اختار له من الحديد سره، ومن الحلي أغربه، وأنه طنان اللجام، وأن سرجه كالغمامة، وهو من تحته كالكوكب، وأنه يكبت العدو، ويسر الصديق.

وهذه أوصاف لاتماثل ولا توازن بأوصاف البحري لجواده، فقد ذكر أنه أغر محجّل، وأنه في نكوينه :

كالهيكَل المبنّي إلا أنّه في الحُسْنِ جاء كصورة في هيكَل

وأنه وافي الضلوع، وأنه أصيل : أخواله في بلاد الأكاسرة، وأجداده في بلاد التباغة، وأنه يهوي هويّ العقاب حين الصيد، ثم ينتصب انتصاب الأجلد، وأنه برّاق الجوانب : تتوهم في جبينه البدر، وفي أرساغه الجوزاء، وأن ذنبه لطلوله

كالرداء المسحوب، وأنه صافي الأديم كأنما سهرت على لونه الصياقل، وأنك تحسب بريق سناكه في الغبار ناراً يعلوها دخان، وأنه هَزَج الصهيل حتى لتحسب في نغماته نبرات معبد في صوته الرخيم، وأنه ملك العيون، حتى لتنظر إليه نظر المحب إلى الحبيب المقبل.

وليس عجباً أن يجيد البحري هذه الإجادة في وصف جواد كان يهتك بغرته ظُلْمة الليل، وينحدر به في الفضاء، كما تنحدر الصخرة الصماء عن القمة السماء. أما ابن الزيات فهو حَرِيب سليب، لم يذكر من جواده غير شياته الظاهرة، التي أجمعت في صدر حسوده نار العداوة والبغضاء.

— ٢ —

ذلك هو اختلاف الصورة الشعرية، وفي مقدور الناقد أن يتبين الصورة الموحدة عند شاعرين، ثم يوازن بين براعهما في التصوير، ولنضرب المثل بوصف الحمامة الباكية، فقد أكثر منه الشعراء، فنجد قول أبي محلم الشيباني من قصيدة اقترحها عليه طاهر بن الحسين، وقد كبرت سنه، وطالت غربته :

وَأَرْقَنِي بِالرَّيِّ نَوْحُ حَمَامَةٍ فَنُحْتُ وَذُو الشَّجْوِ الْعَرِيبُ يَنْوُحُ
عَلَى أَنَّهَا نَاحَتْ وَلَمْ تَذِرْ دَمْعَةً وَنُحْتُ وَأَسْرَابُ الدُّمُوعِ سُفُوحُ
وَنَاحَتْ وَفَرَّخَاهَا بِحَيْثُ تَرَاهُمَا وَمِنْ دُونِ أَفْرَاحِي مَهَامُهُ فَيَحُ^(١)

وتجد قول ابن الدمينه :

أَلَا يَا حَمَامَاتِ اللَّوَى عُدْنَ عَوْدَةً فَإِنِّي إِلَيَّ أَصَوَاتِكُنَّ حَزِينُ
فَعُدْنَ فَلَمَّا عُدْنَ كِدْنَ يُمِئْتَنِي وَكِدْتُ بِأَشْعَابِي لَهُنَّ أُيْسُنُ
فَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُنَّ بَوَاكِياً بَكَيْنَ وَلَمْ تَذْرِفْ لَهُنَّ عُيُونُ

ونجد قول ديك الجن :

(١) فبح : جمع أفبح، وهو الراسع العرض.

حَمَائِمُ وُرُقٍ فِي حِمَى وَرَقٍ خُضِرٍ
لَهَا مُقْلٌ تُجْرِي الدُّمُوعَ وَلَا تَجْرِي
تَكَلَّفَنَ إِسْعَادَ الْغَرِيَّةِ إِنْ بَكَتْ
وَأِنْ كُنَّ لَا يَذَرِينَ كَيْفَ جَوَى الصَّدْرِ
لَهَا حُرْقٌ لَوْ أَنَّ خَنَسَاءَ أَغْوَلَتْ
بِهِنَّ لَأَدَّتْ حَقَّ صَخْرٍ إِلَى صَخْرٍ
فَقُلْتُ لِتَنْفُسِي هَاهُنَا طَلَبُ الْأَسَى
وَمَعْدِنُهُ إِنْ فَاتَنِي طَلَبُ الصَّبْرِ

ونحن إذا تأملنا أبيات أبي محلم، وأبيات ابن الدمينية، وأبيات ديك الجن لم نجد فيها صورة شعرية، ويظهر الفرق واضحاً إذا قابلناها بقول الطغرائي من قصيدة طويلة :

أَيُّكِيَّةٌ صَدَحَتْ شَجْوًا عَلَى فَنَنِ نَاحَتْ وَمَا فَقَدَتْ الْفَأْ وَلَا فُجِعَتْ طَلِيقَةٌ مِنْ إِسَارِ الْهَمِّ نَاعِمَةٌ تَشَبَّهَتْ بِي فِي وَجْدِي وَفِي طَرَبِي مَا فِي حَشَايَا وَلَا فِي جَفْنَيْهَا أَثَرُ يَارَبَّةَ الْبَانَةِ الْعَنَاءِ تَحْضُنُهَا إِنْ كَانَ نَوْحُكَ إِسْعَادًا لِمُعْتَرِبٍ فَقَارِضِيْنِي إِذَا مَا اعْتَادَنِي طَرَبُ أَوَّلًا فَقَصْرُكَ حَتَّى أُسْتَعِينَ بِمَنْ مَا أَنْتَ مِنِّي وَلَا يَعْنِيكَ مَا أَخَذْتُ كِلِي إِلَى الْعَيمِ إِسْعَادِي فَإِنَّ لَهُ	فَأَشْعَلْتُ مَاخَبًا مِنْ نَارِ أَشْجَانِي فَذَكَّرْتَنِي أَوْطَارِي وَأَوْطَانِي أَصَحْتُ تُجَدِّدُ وَجَدَ الْمُؤَنَنِ الْعَانِي هَيْهَاتَ مَا نَحْنُ فِي الْحَالَيْنِ سَيَّانِ مِنْ نَارِ قَلْبِي وَلَا مِنْ مَاءِ أَجْفَانِي خَضِرَاءُ تَلْتَفُ أَغْصَانًا بِأَغْصَانِ نَاءٍ عَنِ الْأَهْلِ مَمْنُونٌ بِهِجْرَانِ وَجَدًا يَوْجِدُ وَسَلَوَانًا بُسْلَوَانِ يَعْنِيهِ شَأْنِي وَيَأْسُو كَلَمَ أَحْزَانِي مِنْهُ الْهُمُومُ وَلَا تَذَرِينَ مَا شَانِي دَمْعًا كَدَمْعِي وَإِرْنَانًا كَارْنَانِي
---	---

وهذه صورة شعرية بديعة تمثل حال الموجه الحزين، وقد هاجته الحماسة الباكية، وإنك لترى الشاعر يوازن بين حاله وبين حال تلك الأيكة الساجدة موازنة دقيقة تروع القلب، وتهيج الوجدان، وانظر كيف يقول :

طَلِيقَةً مِنْ إِسَارِ الْهَمِّ نَاعِمَةً أَضَحَّتْ تُجَدِّدُ وَجَدَ الْمُوثِقِ الْعَانِي

وهذا غايته في وصف الحزن، واليأس من السلوان، فإن وصف الحمامة بالتصنع في بثها وشجائها أدل على لوعة الشاعر وأساها، ولا كذلك الافتناع بحزن الحمام الشاديات، فإن فيه شيئاً من الراحة لأنس الحزين بالحزين.

ولك أن تذكر أن هنا شيئاً من اختلاف الصورة، فإن أبا محلم يأسى لغربته، ويتفجع لبعده أطفاله، في حين إن الحمامة تبكي وقد جمع بينها وبين أفراسها غصن واحد، فماذا تبغي وقد وقاها الله بتبديد السمل وفرقة الأحباب !

وابن الدمينية تراجع حمامات اللوى، ويسألهن العوده، ثم يذكر أنه كاد يفصح عن أسرارهِ حين بكين بجانبه، وإن لم تذرف لهن عيون، ودبك الجن يردد معنى قريباً من معنى ابن الدمينية، أما الطغرائي فقد أتى بفكرة طريفة، وسلك مسلكاً يدل على عنايته بتحديد ما يقول.

وأريد بهذا الفصل الوجيز أن ألقت نظر الناقد إلى ما يجب عليه من اختيار الصور الشعرية وإدراك ما بينها من دقائق الاختلاف والائتلاف : فإن الموازنة نوع من الوصف وبيان ما بين الصور من مختلف الفروق.

البحث الحادي عشر

الصور الشعرية في القرآن

ولقد رأيت من رجال الأدب من يحسب الصورة الشعرية نوعاً من الاستعارة التمثيلية، وفي تصحيح ذلك الخطأ نسوق هذا الحديث.

— ١ —

الاستعارة التمثيلية هي ضرب من التشبيه يكون فيه المشبّه والمشبّه به هيئةً منتزعةً من عدّة أمور متحقّقة أو مُتخيّلة، ومن هذه الاستعارة ينكون أكثر الأمثال السائرة، فيكون لبعضها موارد حقيقية، ولأكثرها موارد خيالية.

وللأمثال — كما قال المرحوم أستاذنا المهدي — أربعة أضرب :

الأول — ما له مورد حقيقي كمواعد عُرقوب في قول كعب بن زهير :
كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ

الثاني — الخيالي الممكن، وهو ما نُسب الكلام والعمل فيه إلى عاقل كما جاء في أمثال لقمان أن صبيا كان يستحم في نهر، ولم يكن يحسن السباحة، فأشرف على الغرق، فاستغاث برجل عابر في الطريق، فأقبل عليه، وجعل يلومه على نزوله إلى النهر، فقال الصبي : « يا هذا ! خلّصني من الموت ثم لُمّني ! ».

الثالث — الخيالي المستحيل، وهو ما جاء على ألسنة الحيوان والجماد للاعتبار به، كما فعل نصر بن منيع، وكان خارجاً على المأمون، فسير إليه جيشاً ظفر به، فلما مثل بين يدي المأمون أمر بضرب عنقه، فقال : يا أمير المؤمنين ! أسمع مثلاً خطر على بالي ؟ فقال : قل، فانشأ يقول :

زَعَمُوا بَأَنَّ الصَّقَرَ صَادَفَ مَرَّةً عُصْفُورٌ بَرٌّ سَاقَهُ التَّقْدِيرُ
فَتَكَلَّمَ الْعُصْفُورُ تَحْتَ جَنَاحِهِ وَالصَّقَرُ مُنْقَضٌ عَلَيْهِ يَطِيرُ
إِنِّي لِمِثْلِكَ لَا أَتُمُّ لُقْمَةً وَلَئِنْ شُيْتُ فَإِنِّي لِحَقِيرُ
فَتَهَاوَنَ الصَّقَرُ الْمُدِلُ بِصَيْدِهِ كَرَمًا وَأَفْلَتَ ذَلِكَ الْعُصْفُورُ

الرابع — الخيالي المختلط من الممكن والمستحيل، وهو ما جمع بين الناطق وغيره، كحديث الحية والأخوين : فقد زعموا أن أخوين هبطا بغنمهما وادياً فيه حية تحميه، وبينما كان أحدهما يرعى غنمه إذ نهشته الحية فقتلته. فقال أخوه : والله ما في الحياة خير بعده، ولأطلبن الحية. فلما لقيها وهما يقتلها قالت : ألا ترى أنني قتلتته وندمت على ما كان مني ! فهل لك في الصلح، فأدعك في هذا الوادي آمناً، وأعطيك دية أخيك كل يوم ديناراً ؟ فصالحها على ذلك، وحلفت له وحلف لها، وما زالت تعطيه حتى كثر ماله. فلما أحس الغنى قال : كيف ينفعني هذا العيش، وأنا أرى قاتل أخوي ! فعمد إلى فأس فأحدها ثم انتظر، فلما مرت به ضربها فشجها وأخطأ مقتلها، فقطعت عنه الدنار وتوعدته فخاف شرها، وقال : هل لك أن نتعاهد على المودة كما كنا ؟ فقالت : لا ! لأنك كلما نظرت إلى قبر أخيك وجدت عليّ، وكلما ذكرت الشحة التي في رأسي وجدت عليك ! وفي ذلك يقول النابغة الذبياني من قصيدة يعاتب بها بني مرة :

وَإِنِّي لَأَلْقَى مِنْ ذَوِي الصُّنْعِ مِنْهُمْ وَمَا أَصْبَحْتُ تَشْكُو مِنَ الْوَحْدِ سَاهِرَةً
كَمَا لَقِيتَ ذَاتَ الصَّفَا مِنْ حَلِيفِهَا وَمَا انْفَكَّتِ الْأَمْثَالُ فِي النَّاسِ سَائِرَةً
فَقَالَتْ لَهُ أَدْعُوكَ لِلْعَقْلِ وَافِيًا وَلَا تَعْشِيَنِي مِنْكَ بِالظُّلُمِ نَادِرَةً^(١)

(١) العقل — هنا — هو الدية.

فَوَاقَتْهَا بِاللهِ حِينَ تَرَاضِيَا فَلَمَّا تَوَفَّى الْعَقْلُ إِلَّا أَقْلَهُ
تَذَكَّرَ أَنِّي يَجْعَلُ اللهُ فُرْصَةً فَلَمَّا رَأَى أَنَّ ثَمَرَ اللهِ مَالَهُ
أَكْبَ عَلَى فَأْسٍ يَحُدُّ غُرَابَهَا فَقَامَ لَهَا مِنْ فَوْقِ جُحْرِ مُشِيدٍ
فَلَمَّا وَقَاهَا اللهُ ضَرْبَةً فَأَسِهُ فَقَالَ تَعَالَى نَجْعَلُ اللهُ بَيْنَنَا
فَقَالَتْ يَمِينُ اللهِ أَفْعَلُ إِنَّنِي أَبِي لِي قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُقَابِلِي
فَكَانَتْ تَدِيرُ الْمَالَ غِبًّا وَظَاهِرَهُ وَجَارَتْ بِهِ نَفْسٌ عَنِ الْحَقِّ جَائِرَهُ
فَيُصْبِحُ ذَا مَالٍ وَيَقْتُلُ وَاتِرَهُ وَائِلٌ مَوْجُوداً وَسَدٌّ مَفَاقِرَهُ
مُذَكَّرَةً مَتْنِ الْمَعَاوِلِ بَاتِرَهُ لِيَقْتُلَهَا أَوْ تُخْطِئَ الْكَفَّ بَادِرَهُ
وَلِلْبَرِّ عَيْنٌ لَا تُعْمِضُ نَاطِرَهُ عَلَى مَالِنَا أَوْ تُنْجِزِي لِي آخِرَهُ
رَأَيْتُكَ غَدَّاراً يَمِينُكَ فَاجِرَهُ وَضَرْبَةً فَأَسٍ فَوْقَ رَأْسِي فَافِرَهُ

— ٢ —

وفي القرآن أمثال كثيرة لها موارد خيالية، من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ
وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي
فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِلَيَّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ
مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا
يُوعِدُونَ. وَالَّذِي قَالَ لَوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ
مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ
مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾

فإن هذا تشبيه وتمثيل يراد به تصوير حال الأبرار والفجار، وما لهؤلاء من
الحزى، وما لأولئك من النعيم.

وأُصرح من هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا
جَهُولًا ﴾

فإنه لم يحصل عرض ولا إباء ولا إسفاق، وإنما المراد تصوير التكليف وما
فيها من المشقة، وتصوير الإنسان وما يغلب عليه من الغرور والجهل بحقائق
الأشياء.

وكذلك قوله عز شأنه : ﴿ قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تُكْفَرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي
يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا
وَبَارَكْ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى
السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾

فإن الغرض تصوير القدرة الإلهية، وما لها من السلطان المطلق في الأرض
والسماء. وتظهر قيمة هذا التصوير إذا نظرنا في الآيات التي قصدها الترغيب
والترهيب كقوله تبارك اسمه :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ
اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ
الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ. وَوُفِّيَتْ
كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

فإنك تراه يصور ما سيكون بصورة الواقع الخيف، ثم تراه يتبع ذلك بقوله :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ
لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ
يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ. قِيلَ ادْخُلُوا
أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

هذا في الترهيب، ثم قوله في التشويق إلى دار النعيم :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾.

قال صاحب الطراز : ومن التمثيل الرائق قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾. وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

فَهُمْ لِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الدِّينِ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْخَالَفَةِ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَبَلُوغِ الْغَايَةِ فِي الصَّدِّ وَالنَّكَوَصِ، مُمَثِّلُونَ بِحَالٍ مِنْ جُعِلَ عَلَى قَلْبِهِ كَنَانٌ فَهُوَ لَا يَفْقَهُ مَا يُقَالُ لَهُ، وَلَا يَرْغَبُ لِقَبُولِهِ، وَبِحَالٍ مِنْ ضَرْبٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَرَادِهِ بَسَدٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ فَهُوَ لَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ، وَلَا يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَى بَغْيَتِهِ بِحَالٍ.

والتمثيل تشبيه حالة بحالة كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْإِیمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾.

فإن الشبه كما قال عبد القاهر الجرجاني منتزع من أحوال الإیمار، وهو أنه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم، ومستودع ثمر العقول، ثم لا يحس بما فيها، ولا يشعر بمضمونها، ولا يفرق بينها وبين سائر الأعمال التي لبست من العلم في شيء، ولا من الدلالة عليه بسبيل، فليس له مما يحمل حظاً سوى أنه يتقل عليه، ويكد جبينه، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة، ونتيجة لأشياء ألفت، وقرن بعضها إلى بعض^(١).

ولعلماء البيان كلام كثير في الفرق بين الاستعارة والكناية والتمثيل وإنما يعني أن يعرف القارئ أن هذا النوع من التعبير ليس من الصور الشعرية التي أسلفت عنها الحديث، وإن كان في ذاته نوعاً من التصوير لما فيه من روعة الخيال.

(١) راجع أسرار البلاغة.

ويمكن أن يقال إن الاستعارة التمثيلية صورة للمعنى، أما الصورة الشعرية فهي مثال للغرض، فقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ تمثيلٌ يراد به تقرير معنى خاص : هو قدرة الله. أما تصوير الغرض بصورة شعرية فكقوله تعالى في آخر سورة المائدة :

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ : يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

فإنه لا شك في أن هذا تصوير للغرض، لا للمعنى، والمعنى جزء من الغرض، فإن هذا الحوار البديع الذي جرى بين رب العزة وبين عبده ورسوله عيسى عليه السلام يمثل غرضاً كلياً يشتمل على طائفة من المعاني الجزئية، فتصوير المعنى الجزئي هو الاستعارة أو التمثيل، وتصوير الغرض الكلي هو الصورة الشعرية التي يراد بها الوصول إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من التأثير الذي هو غاية البيان.

ومن الصور الشعرية قوله تعالى في تحديد موقف المسلمين أمام أعدائهم من المشركين :

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ. فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ وَاحْضَرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ. كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاحِهِمْ وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ. أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ. فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ. أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾

وأحب أن يذكر القارئ أي أتكلّم عن القرآن من الوجهة الأدبية بغضّ النظر عما في مثل هذه الآيات من أحكام القتال، وما قد ينظر فيه الفقيه من وجوه النسخ وضروب التأويل، وأقرر أن هذه الصورة تكاد تكون خطبة في الدعوة إلى الجهاد.

وتمتاز الصور الشعرية في القرآن بتثبيت المعنى وتأكيد المعنى حين يقتضي المقام ذلك والقرآن لا يرى غضاضةً في التكرار حين يحتاج إليه، بل يراه واجباً محتوماً الأداء وإنك لتجد في هذه الآيات يُبدئ ويعيد في لعن المشركين وتحقيرهم، والدعوة

إلى تعذيبهم، وإذلالهم. وتقبلهم، إذ كان ذلك من أغراضه الأساسية. ألا تراه يوصي بالرفق حين يقول :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبِلْغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. ثم يصرخ صرخة الغضب تتفجّر من جوانبه الدماء، فيقول : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ. كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾. ثم لا يكتفيه هذا بل يقول : ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَسَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. ثم لا يكتفيه هذا بل يقول : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾. ثم يعود فيقول : ﴿ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾. ثم يثور فيقول : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ صُرُكُمُ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ. وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

وأودّ أن يذكر القارئ أن العهد الذي نزل فيه القرآن كان عهد فتنة وعمية وضلال، وكانت هذه الغضبة التي تفيض بها جواب القرآن غضبة طبيعية، لا إثم فيها ولا عدوان. أقول ذلك ليعرف القارئ السر في أي أجعل من القرآن صوراً شعرية، وإن لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام من الشعراء، فلبس القرآن من الكتب التي براد بها التشريع المحض، وإنما هو يذكر القوانين في بساطة وسهولة، ثم يدعو إلى تأييدها وتنفيذها بالقوة والبروت.

— ٥ —

ومن الصور الشعرية البديعة التي وردت في القرآن قوله عزّ شأنه : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ : إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَافِيَيْنَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ

يَضْرِبُونَ. قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدُمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ. رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْزِحْفَنِي بِالصَّالِحِينَ. وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ. وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ. وَاعْفُ عَنْ أَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ. وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَثُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٦﴾

اتل هذا أيها القارئ مرة وثانية وثالثة، وحدثني أتجد أعذب من هذا الحديث الممتع ؟ وهل تجد أخف منه على السمع، وأحب منه إلى القلب، وأرفق منه بالنفس ؟ ألا ترى الحسن يجري في هذا الحديث كما يجري السحر في الطرف الكحيل، ويتغلغل الإيمان في قلب قارئه كما يغلغل الحب في صدر الوالد يرفق به ابنه الوحيد ؟ ؟ .

— ٦ —

ومن الصور الشعرية الرائعة قوله تبارك اسمه :

﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعُظْتُ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ. إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ. فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

وأنا أستطيع إيراد المقامات من الصور الشعرية في القرآن، لو سمح الوقت، ولكن هيهات ! فليكتف القارئ بذلك، وليعلم أن في هذا المنهج غناء أيّ غناء، لمن يريد الموازنة بين الكتاب والخطباء، فإن التأثير يتركز على ما في الخطب والرسائل من الصور الشعرية التي تفعل ما تفعل بالعقول والقلوب. وكم في خطب علي بن أبي طالب ورسائل الجاحظ من الصور الفتانة، التي تسكن إليها شوارد النفوس !

البحث الثاني عشر

المعاني والأغراض

قد رأيتَ حينَ حدثناكَ عن الصور الشعرية في القرآن أننا فرقنا بين المعنى والغرض. والآن نعود إلى إيضاح هذا الرأي، الذي نرجو أن يكون له شيء من النفع في عالم البيان.

— ١ —

كان النقد يتركز على وحدة البيت عند نقد الشعر، وعلى وحدة الفقرة عند نقد النثر، بغض النظر عن وحدة الغرض الذي سيق من أجله الكلام، وكانوا يقولون فيمن يندر له بيت : لو قال هذا وسكت لكان أشعر الناس ! ونحن في تعويلنا على « الصور الشعرية » التي تُمثل الأغراض، لا ننكر أهمية الألفاظ المختارة، والأخيلة الرائعة، التي تأتي في نضاعيف المنظوم والمشور فتمثل المعاني أصدق تمثيل.

أما اللفظ المختار فكقول كثير :

بِأَبِي وَأُمِّي أَنْتِ مِنْ مَظْلُومَةٍ طَبَنَ الْعَدُوُّ لَهَا فَعَبَّرَ حَالَهَا^(١)

(١) طبن بمعنى فطن، وهو طبن : عالم. وطبنت النار : دفتها لئلا تطفأ في الطابون، وهو مدفها. وأهل مصر يسمون الخبز : « الطابونة » ولذلك أصل فصيح

لَوْ أَنَّ عَزَّةً خَاصَمَتْ شَمْسَ الضُّحَى فِي الْحُسْنِ عِنْدَ مُوَفَّقٍ لَقَضَى لَهَا
وَسَعَى إِلَيَّ بِصَرْمٍ عَزَّةً نِسْوَةً جَعَلَ الْمَلِكُ خُدُودَهُنَّ نِعَالَهَا

وهذه أبيات عادية، ولكن كلمة « موفّق » في قوله :

لَوْ أَنَّ عَزَّةً خَاصَمَتْ شَمْسَ الضُّحَى فِي الْحُسْنِ عِنْدَ مُوَفَّقٍ لَقَضَى لَهَا

كلمة دقيقة بارعة تمثل مراد الشاعر أصدق تمثيل، لأنه يريد أن يخيّل إليك أن عزة كالشمس في الحسن والإشراق، وأنها لو خاضعت الشمس في الحسن لاشتبه الأمر على من يفصل في هذه الخصومة، وأنه لا بُدّ من التوفيق ليحكم بتفوّق هذه المحبوبة على الشمس، ولا يحتاج الحكم إلى التوفيق إلّا حين يلتبس الحق، ويتعذر الفصل وحسب هذه الحسنة أن تفتن الناظر، وأن تكون في نفس المنصف أولى من الشمس بالجمال.

وأما الخيال الرائع فكقول النابغة الذبياني في وصف الليل :

تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ بَأَثَبِ

فقد صور النجوم بصورة الإبل نسرح وتمرح في أديم السماء، وصوّر الصبح بالراعي الغائب الذي يخشى أن لا يؤوب، وفي أوبته صرف هذه النجوم.

اذكر هذا ثم تعال ننظر : أهذا هو الغرض الذي سيق من أحله الحديث ؟ كلا ! فإن الغرض أوسع من ذلك، وغرض النابغة أن يشكو إلى محبوبته هجوم الهم على صدره في ظلمة الليل، وقد أفصح عن هذا الغرض في هذه الأبيات :
كَلَيْنِي لَهُمْ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءٍ الْكَوَكِبِ
تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ بَأَثَبِ
وَصَدْرِي أَرَاكِ اللَّيْلُ غَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وهذه صورة شعربة لتمثيل الغرض الذي قصد إليه الشاعر في مطلع قصيدته فقد تحدث عن همّ الممضّ الموجه، وليله الذي طال بطوله بثه وشجاه، وصدره الذي أراح الليل ما عذب من همّه، وهذا أيضا خيال رائع : فقد صوّر الهموم بصورة الإبل تسرح مهاراً، ثم نراح ليلاً إلى الحظيرة، وكذلك يُسْغَلُ المرء عن

همومه بالنهار فإذا انقطعت شواغله بالليل دبت الهموم إلى صدره فاحتلته من جديد.

وهذا المعنى أروع من قول امرئ القيس :
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطُّوبَى أَلَا أَنْجِلْ بِصُبحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْتَلٍ
وإن قال العتبي بغير ذلك في الحدث الذي ذكره صاحب زهر الآداب^(١).
وفي مثل الغرض الذي أفصح عنه النابغة يقول حندج بن حندج المري.
فِي لَيْلٍ صَوْلٍ تَنَاهَى الْعَرْضُ وَالطُّولُ
كَأَنَّمَا لَيْلُهُ بِاللَّيْلِ مَوْضُولُ
لَا فَارِقَ الصُّبْحِ كَفِّي إِنْ ظَفِرْتُ بِهِ
وَإِنْ بَدَتْ عُرَّةٌ مِنْهُ وَتَحْجِيلُ
لِسَاهِرٍ طَالَ فِي صَوْلٍ تَمْلَأُهُ
كَأَنَّهُ حَيَّةٌ بِالسَّوْطِ مَقْضُولُ
مَتَى أَرَى الصَّبْحَ قَدْ لَاحَتْ مَخَايِلُهُ
وَاللَّيْلَ فَذْ مُزَّقَتْ عَنْهُ السَّرَائِلُ
لَيْلٌ تَحِيرَ مَا يَنْحَطُّ فِي جَهَةِ
كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتْنِ الْأَرْضِ مَشْكُولُ
نُجُومُهُ رُكَّذٌ لَيْسَتْ بِرَائِلَةٍ
كَأَنَّمَا هُنَّ فِي الْجَوِّ الْقَنَادِيلُ
مَا أَقْدَرَ اللَّهَ أَنْ يُدْنِي عَلَيَّ شَحْطَ
مَنْ دَارُهُ الْحُزْنُ مِمَّنْ دَارُهُ صَوْلُ
اللَّهُ يَطْوِي بِسَاطِ الْأَرْضِ بَيْنَهُمَا
حَتَّى بُرَى الرَّبْعُ مِنْهُ وَهُوَ مَأْهُولُ
وفي هذه القصيدة يظهر الفرق واضحاً بين المعنى والغرض، ففي كل بيت

(١) ص ١٦٦ ح ٣ من الطبعة الأولى.

معنى خاص، ومن مجموع هذه المعاني يتكون الغرض، فليس هناك ريب في أن قوله :

لَا فَارَقَ الصُّبْحُ كَفِّي إِنْ ظَفِرْتُ بِهِ وَإِنْ بَدَتْ غُرَّةٌ مِنْهُ وَتَحْجِيلُ
فيه معنى جميل، وخیال رائع، ولكنه لا يمثل الغرض الذي قيلت من أجله القصيدة. وكذلك قوله :

لَيْلٌ تَحِيرُ مَا يَنْحَطُّ فِي جِهَةٍ كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتْنِ الْأَرْضِ مَشْكُولُ
فيه خیال یخلب العقول، وأی خیال أروع من حيرة الليل، وتقييده فوق متن الأرض بشكال ! ولكن هب الشاعر قال هذا البيت مفرداً لا سابق له ولا لاحق، فأی تأثير يكون له في النفس وهو في ذلة الیتیم !

وكذلك قول أشجع بن عمرو السلمي في رثاء محمد بن منصور بن زياد :

أُنْعَى فَنَى الْجُودِ إِلَى الْجُودِ مَا مِثْلُ مَنْ أُنْعَى بِمَوْجُودِ
أُنْعَى فَنَى مَصْرَ الثَّرَى بَعْدَهُ بَقِيَّةَ الْمَاءِ مِنَ الْعُودِ
وَأَنْتَلَمَ الْمَجْدُ بِهِ ثُلَمَةً جَانِبُهَا لَيْسَ بِمُسْدُودِ
فَالآنَ تُخَشَى عَثَرَاتُ النَّدى وَصَوْلَةُ الْبُخْلِ عَلَى الْجُودِ

ففي كل بيت معنى جميل، وفي كل بيت خیال رائع، ولكن الصورة الشعرية لا تتم إلا بضم هذه المعاني بعضها إلى بعض، ومنها يتكون الغرض، وهو ذهاب المجد بفقد هذا الجواد.

— ٢ —

على أن الغرض قد يتشعب حين يوجد ما يقتضي ذلك، فقد ذهب النكل برشد طريف بن أبي وهب العبسي، فقال يرثي ابنه بهذه الكلمات الموجعات التي أصبحت لذهوله كثيرة الأغراض :

أَرَابُعُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا وَأُجْمَلِي فَفِي الْيَأْسِ نَائِمٌ وَالْعَزَاءُ جَمِيلُ

فَإِنَّ الَّذِي تَبْكِينَ قَدْ حَالَ دُونَهُ تُرَابٌ وَزُورَاءُ الْمَقَامِ دُحُولُ^(١)
نَحَاهُ لِلْحَدِّ زِبْرَقَانٌ وَخَالِدٌ فِي الْأَرْضِ لِلْأَقْوَامِ قَبْلُكَ غُولُ
وَأَيُّ فَنَى وَارُوهُ ثُمَّتَ أَقْبَلَتْ أَكْفُهُو تَحْشُو مَعًا وَتَهِيلُ
وَوَظَلَّتْ فِي الْأَرْضِ الْفَضَاءُ كَأَنَّمَا نَصَعْدُ بِي أَرْكَانُهَا وَتَجُولُ
وَشَدَّ إِلَيَّ الطَّرْفَ مَنْ كَانَ طَرَفُهُ لِعَهْدِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَهُوَ كَلِيلُ
لَنْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ خَلَى مَكَانَهُ عَلَى حِينِ شَيْبِي بِالشَّبَابِ بَدِيلُ
لَقَدْ بَقِيتُ مِنِّي فَنَاءً صَلِيبَةً وَإِنْ مَسَّ جِلْدِي نَهْكَةٌ وَذُبُولُ
وَمَا حَالَةٌ إِلَّا سَتُصْرَفُ حَالُهَا إِلَى حَالَةٍ أُخْرَى وَسَوْفَ تَزُولُ

فقد تنقل الشاعر من معنى إلى معنى، ومن غرض إلى غرض، تحت وطأة الحزن الذي مشى به من العزاء إلى الجزع، ومن الجزع إلى العزاء، فإنك نراه يروض نفسه على الصبر حين يقول :

أَرَابِعُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا وَأَجْمِلِي فِيهِ الْيَأْسَ نَاهٍ وَالْعَزَاءُ جَمِيلُ
ثم تراه يغري بنفسه نائرة الحزن حين يقول :

وَشَدَّ إِلَيَّ الطَّرْفَ مَنْ كَانَ طَرَفُهُ لِعَهْدِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَهُوَ كَلِيلُ
ثم يعود فبقول :

وَمَا حَالَةٌ إِلَّا سَتُصْرَفُ حَالُهَا إِلَى حَالَةٍ أُخْرَى وَسَوْفَ تَزُولُ
وكذلك يطرب المحزون فلا يستقر على حال.

— ٣ —

والنثر كالشعر في المعاني والأغراض، وعندنا كتاب بديع الزمان الهمذاني^(٢) إلى القاضي أبي القاسم علي بن أحمد في شكوى أبي بكر الحبري، وفيه طائفة من الصور الشعرية بقدر ما فيه من الأغراض، وانظر قوله في وصف العلم :

(١) الدحول : هي الحفرة الغامصة.

(٢) راجع مذاهب بديع الزمان الإنشائية في الجزء الأول والثاني من كتاب (النثر الصي) .

« والعلم أطال الله بقاء القاضي شيء كما تعرفه بعيد المرام، لا يصاد بالسهم ولا يقسم بالأزلام، ولا يرى في المنام، ولا بضبط باللحام، ولا يورت عن الأعمام ولا يكتب للقام، وزرع لا يزكو في كل أرض حتى يصادف من الحرص ثرى طيباً ومن التوفيق مطراً صيباً، ومن الطبع جواً صافياً، ومن الجهد روحاً دائماً، ومن الصبر سقياً نافعا، والعلم علق لا يباع ممن زاد، وصيد لا يألف الأوغاد، وشيء لا يدرك إلا بنزع الروح، وغرض لا بصاب إلا بافتراش المدر، واستناد الحجر، وردّ الضجر، وركوب الخطر، وإدمان السهر، واصطحاب السفر، وكثرة النظر، وإعمال الفكر، ثم هو معتاص على من ركا زرعه، وكرم أصله وفرعه، ووعى بصره وسمعه، وصفا ذهنه وطبعه. فكيف يناله من أنفق صباه على الفحشاء، وشغل سلوته بالغنى وخلوته بالعناء، وأفرغ جده على الكيس وهزله على الكاس؟ والعلم ثمر لا يصلح إلا للغرس ولا يغرس إلا في النفس، وصيد لا يقع إلا في البذر، ثم لا ينشب إلا في الصدر وطائر لا يخدعه إلا قفص اللفظ، ثم لا يعفله إلا شرك الحفظ، وبحر لا يخوضه الملاح ولا تطيقه الألواح، ولا تهيجه الرياح، وجبل لا يتسنم إلا بخطا الفكر، وسما لا تصعد إلا بمعراج الفهم، ونجم لا بلمس إلا بيد المجدد، أيكفي أن يصبح المرء بين الزق والعود، ويمسي بين موجبات الحدود، حتى يتم شبابه، ويشيب أترابه، ثم يلبس دنّته، ليخلع ديبته، ويسويّ طيلسانه، ليحرف يده ولسانه، ويقصر سباله، ليطيل حباله، وييدي شقاشقه، ليغطي مخارقه، ويبيض لحيته ليسود صحيفته، ويظهر ورعه، ليعفي طمعه، ويعني مخراجه، ليملا جرابه، ويكثر دعاءه، ليحشو وعاءه، وبرجو أن يخرج من بين هذه الأحوال عالماً، ويفعد حاكماً ! هذا إذا المجد كالوه بقفزان ! »

فهذه طائفة من المعاني ترجع إلى غرض واحد : هو أن العلم شيء عزيز لا ياله بعد الجهد إلا كرام النفوس^(١).

ويمكن للناقد أن يجد في بعض هذه المعاني شيئاً من الضعف، ولكنه لن ينكر

(١) وهذا لا سائ أن عرض الكاتب هو التحريض على كبح عدوه الخيري.

على الكاتب أنه أفصح عن غرضه، وبلغ دعوته، بل وصل بها إلى قرار القلوب. وأهمية الصور الشعرية كما أسلفنا القول ترجع إلى تمكين المعاني في النفس، والوصول إلى التأثير الذي هو عابة البيان.

وانظر قول بديع الزمان في وصف هذا القاضي ووصف قومه :
« وأقسم لو أن اليتيم وقع في أنياب الأسود، بل الحيات السود، لكانت سلامته منها أحسن من سلامته إذا وقع بين غيابات هذا القاضي وأقاربه، وما ظنك بقوم يحملون الأمانة على متونهم، ويأكلون النار في بطونهم، حتى تغلظ قصراتهم من مال اليتامى، وتسمن أكفاهم من مال الأباى ؟ وما ظنك بدارٍ عمارتها حراب الدُّور وعطلة القدور، وخلاء البيوت، من الكسوة والقوت ؟ وما قولك في رجل يعادي الله في الفلُس، ويبيع الدين بالتمن البخس، ومن حاكم يبرز في ظاهر أهل السميت وباطن أصحاب السبت، فعله الظلم البحت، وأكله الحرام السحت ؟ وما رأيك في سوس لا بقع إلا في صُوف الأيتام، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام، ولصّ لا ينقب إلا خزانة الأوقاف، وكرديّ لا يُغير إلا على الضعاف، وذئب لا يفرس عباد الله إلا بين الركوع والسجود، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود ؟ ! وما زلت أبغض حال القضاء طبعاً وحبلاً، حتى أبغضتهم ديناً ومله، وألعنهم دربة حتى لعنهم قربة، مما شاهدت من هذا الحيريّ وقاست، وعانيت من خطبه وخطبه ما عانيت ».

وهذه صورة شعرية تمثل الظالمين من القضاة في جميع الأفطار، وفي جميع العصور، لأن نزعات الإنسانية واحدة، أو كآسها واحدة في الخير والشر. والوصف الصادق يعذب ويستملح في كل قطر وفي كل جيل.

— ٤ —

ولك أن تتخطى الثر الحبر إلى الكلمات المأنورة التي حاءت بها البديهة، لنرى كيف نكون المعاني والأغراض.

فمن ذلك ما ذكره الجاحظ عن تمّني يزيد الرقاشي وقد ممّى بحصره فومّ

فقال : أتمنى كما تمنيتم ؟ قالوا : تمتة ! قال « ليتنا لم نُخلَقْ، وليتنا إذا خُلِقْنَا لم نعصِ، وليتنا إذ عصينا لم نمتْ، وليتنا إذ متنا لم نبعثْ، وليتنا إذ بعثنا لم نحاسب، وليتنا إذ حُوسبنا لم نعدَّبْ، وليتنا إذ عُدِّبْنَا لم نخلد ».

وفي مثل هذا المعنى يقول الحجاج « ليت الله إذ خلقنا للآخرة كفانا أمر الدنيا فرفع عنا الهَمَّ بالمأكَل والمشرب والملبس والمنكح، أو ليتَه إذ أوقعنا في هذه الدار كفانا أمر الآخرة، فرفع عنا الاهتمام بما ينجي من عذابه ».

وفي هاتين الأمتيتين وصفٌ دقيقٌ لحيرة النفس الإنسانية التي مازالت تكذب وتكدهج في استكناه أسرار الغيب، ثم سقطت صريعة الإعياء، بعد مرارة الإخفاق !

وأحب أن لا يغفل القارئ عن دقة الترتيب في هذه الصورة الشعرية، وأريد بالترتيب السير مع حركات النفس، فقد ابتدأ الرقاشي بهذه الصرخة « ليتنا لم نُخلَقْ ! » وهي أول نفثة يجود بها المكروب، ثم أخذ يُجِيل نظر الحيرة، ويتمنى إذ خُلِقَ لو وقاه الله المعصية، ويتمنى إذ عصا لو نجا من الموت، إلى آخر ما قال. وقيل لبعض العرب: أي شيء تتمنى، وأي شيء أحب إليك ؟ فقال: لواء منشور، والجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير !

وهذه صورة ييسم لها القارئ، ولكنها على ذلك صورة صادقة لكثير من النفوس. وأدق منها قول الآخر، وقد قبل له، أجزعت من الموت ؟ وقد صلي ركعتين فأطال، وكان أمر بقتله. فأجاب « إن أجزع فقد أرى كفناً منشوراً، وسيفاً مشهوراً، وقبراً محفوراً ».

وهذه صورة دقيقة لذلك الموقف الرهيب !

وقال أعرابي لسليمان بن عبد الملك : إني أكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله، فإن وراءه إن قبلته ما تحبه. قال هاته يا أعرابي فنحن نوجد بسعة الاحتمال على من لا نأمن غيبته، ولا نرجو نصيحته، وأنت

المأمون عيباً، الناصح جيئاً. قال : فأني سأطلق لساني بما خرست عنه الألسن تأديةً لحق الله تعالى : إنه قد اكتنفك رجالٌ أساءوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، وخافوك في الله ولم يحافوا الله فبك، فهم حربٌ للآخرة وسلّمٌ للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه، فإنهم لم يألو الأمانة تضييعاً، والأمة كسفاً وخسفاً. وأنت مسؤول عما اجترموا وليسوا مسؤولين عما اجترمت. فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك : فإن أعظم الناس عند الله غبناً من باع آخرته بدنياه غيره. فقال سليمان : أما أنت يا أعرابي، فقد سللت لسانك وهو سيفك. قال : أجل يا أمير المؤمنين لك لا عليك !

وفي هذا الحوار كما يرى القارئ طائفة من المعاني ينكون منها غرضٌ واحد. وكذلك نستطيع حين نوازن بين الكتاب والخطباء والشعراء أن نفرق بين المعاني والأغراض.

* * *

وأرجو أن أوفق في الأبحاث الآتية إلى مراعاة ما وضعته من القواعد الأصول^(١).

(١) كل ما سلف من الفصول كان مقدمة لشرح قواعد النقد كما يفهمه المؤلف، وهي فصول كتبت أول مرة سنة ١٩٢٥ ومن المؤكد أن القارئ كان ينتظر أن يصيف المؤلف إلى هذه الطبعة ماجد له من الآراء في مدى عتسر سين. ولكنا اكتفينا بما أثبتناه في الطبعة الأولى : لأن كتاب « النثر الفني » انتهت كل ما وفقنا إليه بعد ذلك من الأفكار النقدية، وليس من الحزم أن نقل هنا ما سجلناه هناك.

البحث الثالث عشر

الحصري وشوقي

بينّا في الأبحاث الماضية ما يجب أن ينوفر في الناقد المُؤارن من الشروط، وبسطنا القول في نظرية الصور الشعرية التي نعتمد عليها في النقد بعد مراعاة ما عني به الأقدمون من اختيار الألفاظ والأساليب، والآن ندخل في بحث جديد لم يسلكه أحد من قبل : هو الموازنة بين القصائد المشهورة التي حترت بحرّى المعارضة والمماثلة كما فعل ابن المعتز في معارضة الحسين بن الضحّاك، وابن عبد ربه في معارضة مسلم بن الوليد، وابن درّاج في معارضة أبي نواس، والبارودي في معارضة أبي فراس، الخ.

ولهذا البحث أهمية كبيرة، لأنه سيمكّننا من دراسة عرائس الشعر دراسةً مطّمة دقيقة، وسيرينا كيف تتصاوال العقول، وكيف تتسابق القرائح، إذ كانت معارضة الشاعر للشعر نوعاً من السباق في عالم البيان.

ولنبداً بالموازنة بين دالية الحصري « يا ليل الصبّ متى عاده » ودالية شوقي « مضناك جفاه مرّقه » فإن لهاتين القصيدتين أثرا في أندية الأدب ومجالس العلماء، ومن الخير أن نميط اللثام عما فيهما من مواطن الحسن، ومظانّ الضعف، وأن نبين أي الشاعرين أبرع لفظاً، وأشرف معنى، وأسمى حيالا.

والحصري^(١) — بضم الحاء المهملة، وسكون الصاد المهملة، وبعدها راء مهملة هو أبو الحسن على بن عبد الغني الفهري المقرئ الضرير القيرواني، وهو ابن خاله أبي إسحاق الحصري صاحب كتاب رهر الآداب، وقد ذكر ابن بسام في الذخيرة أن أبا الحسن الحصري كان بحر براعة، ورأس صناعة، وزعيم جماعة، وأنه طراً على الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان، والأدب بأفق الأندلس يومئذ نافق السوق، معمور الطريق، فتهداه ملوك الطوائف نهادي الرياض بالنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأنس المقيم.

ولكنه فيما نقل لم يطمئ هناك، فاحتمل على مضض بين زمانه، وبعد قطره، ثم اشتملت عليه مدينة طجة بعد خلع ملوك الطوائف، وتوفي بها رحمه الله، سنة ٤٨٨ وله قصيدة طويلة في قراءات نافع، وله ديوان شعر^(٢)، وهو القائل :
أَقُولُ لَهُ وَقَدْ حَيًّا بِكَأْسٍ لَهَا مِنْ مِسْكِ رِقَّتِهِ خِتَامُ
أَمِنْ حَدِّكَ تُعَصِّرُ قَالَ كَلَّا مَتَى عُصِرَتْ مِنَ الْوَرْدِ الْمُدَامُ

ويقول ابن بسام في وصفه « على أنه كان فيما بلغني ضيق العطن، مشهور اللسن، تلتفت إلى الهجاء، تلتفت الظمان إلى الماء ».

وكنا نودّ لو حفظ لنا التاريخ صورة مضبوطة لأخلاق هذا الشاعر المجيد، فإن كلمة ابن بسام لا تفيد غير الظن، وأين الظن من اليقين.

ويمكن الحكم بأنه كان خبيراً بأسرار اللغة العربية، فإن في الاغتراب وصحة الملوك عوناً على فهم دقائق الوجود.

أما شوقي فشاعر معروف في مصر والشرق، وله كلف معارضة القدماء، وهو كذلك خبير بأسرار اللغة العربية، وبصير بشؤون الحياة، وهو كالحصري افتتح قصيدته بالنسيب، واختتمها بالمديح ولكنى سأقتصر في الموازنة على صدر

(١) ذكر ابن حلكان أنه منسوب إلى الحصر التي تفرش، وقد حدثنا السيد حسني عبد الوهاب أنه منسوب إلى « الحصر » وهي قرية قديمة بالقرب من القيروان.

(٢) راجع ومات الأعيان.

القصيدتين، إذ كان النسيب هو السبب فما برجى لهما من الخلود، إن كان لهذا العالم حظ من الخلود^(١).

قصيدة الحصري

يَا لَيْلُ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ	أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ
رَقَدَ السَّمَارُ وَأَرْقَاهُ	أَسْفُ لِلْبَيْنِ يُرَدِّدُهُ
فَبَكَاهُ النَّجْمُ وَرَقَّ لَهُ	مِمَّا يَرَعَاهُ وَيَرْضَاهُ
كَلِفَ بَعْزَالٍ ذِي هَيْفٍ	خَوْفُ الْوَاشِينَ يُشَرِّدُهُ
نَصَبَتْ عَيْنَايَ لَهُ شَرَكَا	فِي النَّوْمِ فَعَزَّ تَصِيُّدُهُ
وَكَفَى عَجَبًا أَنِّي قَنَصُ	لِلسَّرْبِ سَبَانِي أَغْيِدُهُ
صَنَمٌ لِلْفِتْنَةِ مُنْتَصِبٌ	أَهْوَاهُ وَلَا أَتَعَبِدُهُ ^(٢)
صَاحِ وَالْخَمْرُ جَنَى فِيهِ	سَكْرَانُ اللَّحْظِ مُعْرِبِدُهُ
يَنْضُو مِنْ مُقْلَتِهِ سَيْفًا	وَكَانَ نُعَاسًا بُعْمِدُهُ
فَيَرِيْقُ دَمَ الْعُشَّاقِ بِهِ	وَالْوَيْلُ لِمَنْ يَتَقَلَّبِدُهُ
كَأَنَّ لَا ذَنْبَ لِمَنْ قَتَلَتْ	عَيْنَاهُ وَلَمْ تَقْتُلْ يَدُهُ

يَأْمَنُ جَحَدَتْ عَيْنَاهُ دَمِي	وَعَلَى خَدَّيْهِ نَوْرُدُهُ
خَدَاكَ قَدْ آغْتَرَفَا بِدَمِي	فَعَلَامَ جُفُونِكَ تَجَحَّدُهُ
إِنِّي لِأَعِيدُكَ مِنْ قَتْلِي	وَأُظْلِمُكَ لَا تَتَعَمَّدُهُ
بِاللَّهِ هَبِ الْمُشْتَاقَ كَرِي	فَلَعَلَّ خَيْالَكَ يُسْعِدُهُ
مَا ضَرَّكَ لَوْ دَوَّيْتُ ضَنْيَ	صَبِّ يُذْنِبِيكَ وَتُبْعِدُهُ

(١) للشاعر شوقي حظ عظيم من عناية المؤلف، وقد كتب عنه فصولاً أخرى نقد بها مدامه الشعرية والاجتماعية، ويمكن الرجوع إليها في الجزء الأول والثاني من كتاب (الدائع).

(٢) الصم: هو التمال، ولا تزال هذه الكلمة على ألسنة أهل المغرب، وإن كانت في مصر مما بكر الدوق.

لَمْ يُبْقِ هَوَاكَ لَهُ رَمَقًا فَلَيْبِكِ عَلَيْهِ عَوْدُهُ
وَعَدًا يَقْضِي أَوْ بَعْدَ غَدٍ هَلْ مِنْ نَظَرٍ يَزِيدُهُ
يَا أَهْلَ الشَّوْقِ لَنَا سَرَقٌ بِالدَّبْعِ يَفِيضُ مُورِدُهُ
يَهْوَى الْمُشْتَاكِ لِقَاءَكُمْ وَصُرُوفُ الدَّهْرِ تُبْعِدُهُ

مَا أَخْلَى الْوَصْلَ وَأَعْدَبَهُ لَوْلَا الْأَيَّامُ تَنَكُّدُهُ
بِالْبَيْنِ وَبِالْهَجْرَانِ فَيَا لَفُؤَادِي كَيْفَ تَجَلُّدُهُ

قصيدة شوقي

مُضْنَاكَ جَفَاهُ مَرْقَدُهُ وَبَكَاهُ وَرَحْمَ عَوْدُهُ
خَيْرَانُ الْقَلْبِ مُعَذِّبُهُ مَقْرُوحُ الْجَفْنِ مُسَهِّدُهُ
أَوْدَى حُرْقًا إِلَّا رَمَقًا يُبْقِيهِ عَلَيْكَ وَتُفِيدُهُ
يَسْتَهْوِي الْوُرُقَ تَأْوُهُهُ وَيُذِيبُ الصَّخْرَ تَنْهَدُهُ
وَيُنَاجِي النُّجُومَ وَيَتَّبِعُهُ وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيُقْعِدُهُ
وَيَعْلَمُ كُلَّ مَطْوِقَةٍ سَجَنًا فِي الدَّوْحِ تُرَدِّدُهُ
كَمْ مَدَّ لَطِيفِكَ مِنْ شَرِّكَ وَتَأَدَّتْ لَا بَتَّيْدُهُ
فَعَسَاكَ بَعْمُضٍ مُسْعِفُهُ وَلَعَلَّ خَيْالَكَ مُسْعِدُهُ
الْحُسْنُ حَلَفْتُ بِيُوسُفِهِ وَالشُّوْرَةَ أَنْكَ مُقَرِّدُهُ
قَدْ وَدَّ جَمَالَكَ أَوْ قَبَسًا حَوْرَاءُ الْخُلْدِ وَأَمْرَدُهُ
وَتَمَنَّتْ كُلُّ مُقْطَعَةٍ يَدَهَا لَوْ تُبْعَثُ تَشْهَدُهُ
جَحَدْتُ عَيْنَاكَ زَكَاةَ دِمِي أَكْذَلِكَ خَدُّكَ يَجْجِدُهُ
قَدْ عَزَّ شُهُودِي إِذْ رَمَتَا فَأَشْرَتْ لِحْدُكَ أَشْهَدُهُ
وَهَمَمْتُ بِجِيدِكَ أَشْرُكُهُ فَأَبَى وَأَسْتَكْبِرُ أَضِيدُهُ
وَهَزَرْتُ قَوَامَكَ أَعْطِفُهُ فَنَبَا وَتَمْنَعُ أَمْلِيدُهُ
سَبَبَ لِرِضَاكَ أَمْهَدُهُ مَا بَالُ الْخَضِرِ يُعْقِدُهُ

بَيْنِي فِي الْحُبِّ وَبَيْنَكَ مَا	لَا يَقْدِرُ وَاشِ بِفُسْدِهِ
مَا بَالُ الْعَازِلِ يَفْتَحُ لِي	بَابَ السُّلُوفِ وَأَوْصَدُهُ
وَيَقُولُ تَكَادُ تُجَنُّ بِهِ	فَأَقُولُ وَأَوْشِكُ أُغْبِدُهُ
مَوْلَايَ وَرُوحِي فِي يَدِهِ	قَدْ ضَيَّعَهَا سَلَمْتُ بِهِ
نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ	وَحَنَائِي الْأَضْلَعِ مَعْبِدُهُ
حُسَادِي فِيهِ أَغْدِرُهُمْ	وَأَحَقُّ بَعْدَ رِي حُسَّادِهِ
قَسَمًا بِثَنَائِي لَوْلِيَّهَا	فَسَمِ الْيَاقُوتِ مُنْضَدُهُ
وَرَضَابُ يُوَعِدُ كَوْنَهُ	مَقْتُولُ الْعُنُقِ وَمُشْهَدُهُ
وَبِخَالٍ كَادَ يُحْجُّ لَهُ	لَوْ كَانَ يُقْبَلُ أُسْوَدُهُ
وَقَوَامٍ يَرُوي الْعُضُنُ لَهُ	نَسَبًا وَالرَّمْحُ يُفْنَدُهُ
وَبِخَصْمٍ أَوْهَنَ مِنْ جَلْدِي	وَعَوَادِي الْهَجْرِ تُبَدِّدُهُ
مَا خُنْتُ هَوَاكَ وَلَا خَطَرْتُ	سَلْوَى بِالْقَلْبِ تُبَرِّدُهُ

الموازنة

ولنذكر أولاً ما في القصيدتين من الأغراض، وإننا لنجد الحصري تكلم عن طول الليل، وطيف الخيال، وخمر الرضاب، وسيف المقلّة، وجناية العين، وحمرة الخد، واستعطاف الحبيب، وفناء المحب. ونجد شوقي تكلم عن لوعة المضني، وطيف الخيال، وجمال المحبوب، وجناية العين، وحسن القدّ والجيد، ودقة الحصر، والصبر على الوشاة، وتفدية الحبيب، والرفق بالحساد، والحرص على الحب، والبراءة من السلوان، فقصيدة شوقي إذاً أحفل بالأغراض.

مواطن الحسن

ولنوازن بين المطالع، وإننا لنجد الحصري يقول :

يَأْيَلُ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ	أَيَّامُ السَّاعَةِ	مَوْعَدُهُ
رَقَدَ السُّمَّارُ وَأَرْقَاهُ	أُسْفُ لِلْبَيْنِ	بُرْدَدُهُ

فَبَكَاهُ النَّجْمُ وَرَقَّ لَهُ مِمَّا يَرْعَاهُ وَيَرْضُودُهُ

ونجد شوقي يقول :

مُضْنَاكَ جَفَاهُ مَرْقَدُهُ	وبَكَاهُ وَرَحَّمَ عُودُهُ
حَيْرَانُ الْقَلْبِ مُعَذِّبُهُ	مَقْرُوحُ الْجَفْنِ مُسَهِّدُهُ
أَوْدَى حُرْقًا إِلَّا رَمَقًا	يُثْقِيهِ عَلَيْكَ وَتَنْفِدُهُ
يَسْتَهْوِي الْوُرْقَ تَأْوُهُ	وَيُذِيبُ الصَّخْرَ تَنْهَدُهُ
وَيُنَاجِي النَّجْمَ وَيَتَّبَعُهُ	وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيُقْعِدُهُ
وَيُعْلِمُ كُلَّ مَطْوِقَةٍ	شَجَنًا فِي أَلْدَوْحِ تُرَدِّدُهُ

والمطلع في رأبنا هو أول صورة شعرية، لا أول بيت، ومطلع شوقي أوفى وأروع من مطلع الحصري، وخطاب الحبيب في قول شوقي :

مُضْنَاكَ جَفَاهُ مَرْقَدُهُ وَبَكَاهُ وَرَحَّمَ عُودُهُ

أرق من خطاب الليل في قول الحصري :

يَا لَيْلِ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ أَفَيَا أَمِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ

وقول شوقي في حيرة الحب وعذابه وفنائه :

حَيْرَانُ الْقَلْبِ مُعَذِّبُهُ	مَقْرُوحُ الْجَفْنِ مُسَهِّدُهُ
أَوْدَى حُرْقًا إِلَّا رَمَقًا	يُثْقِيهِ عَلَيْكَ وَتَنْفِدُهُ
يَسْتَهْوِي الْوُرْقَ تَأْوُهُ	وَيُذِيبُ الصَّخْرَ تَنْهَدُهُ

هذه الأبيات أوفى وأمتع من قول الحصري :

رَقَدَ السُّمَارُ وَأَرَقَّ قَدْ أَسْفَ لِلْبَيْنِ يُرَدِّدُهُ

وقول شوقي :

وَيُنَاجِي النَّجْمَ وَيَتَّبَعُهُ وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيُقْعِدُهُ

أقرب في صدقه إلى الواقع من قول الحصري :

فَبَكَاهُ النَّجْمُ وَرَقَّ لَهُ مِمَّا يَرْعَاهُ وَيَرْضُودُهُ

وقول الحصري في تصيّد الطيف :
 نَصَبْتُ عَيْنَايَ لَهُ شَرَكًا فِي النَّوْمِ فَعَزَّ تَصْيِيدُهُ
 وَكَفَى عَجَبًا أَنِّي قَنَصُ لِلسَّرْبِ سَبَانِي أَغْيِيدُهُ

أبرع من قول شوقي :
 كَمْ مَدٌّ لَطِيفُكَ مِنْ شَرَكٍ وَتَأْدَبَ لَا يَتَصَيَّدُهُ
 فَعَسَاكَ بِعَمُضٍ مُسْعِفُهُ وَلَعَلَّ خَيْالَكَ مُسْعِدُهُ

لأن الحصري حدثنا عن حقيقة صادقة، وهي تمنع الطيف : فليس في طوق
 المحب أن يظفر بطيف حبيبه كلما مدّ له الأشرار.

ولا يعجبني تأدب شوقي في قوله :
 كَمْ مَدٌّ لَطِيفُكَ مِنْ شَرَكٍ وَتَأْدَبَ لَا يَتَصَيَّدُهُ
 لأن التأدب هنا ضعف، ولو ذكر أنه يهاب أن يتصيده لحمدنا له هيبة الحسن،
 وإن الحسن لمهيب الجناح^(١).

ويروقني قول شوقي :
 مَوْلَايَ وَرُوحِي فِي يَدِهِ قَدْ ضَيَّعَهَا سَلِمَتْ يَدُهُ
 نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَدُوقُ لَهُ وَخَنَائِبُ الْأُضْلَعِ مَغْبِيدُهُ
 حُسَادِي فِيهِ أُغْذِرُهُمْ وَأَحَقُّ بِغُذْرِي حُسْنُهُ

فإن فيه صورة للوعة المحب يشفق بمحبوبه ويحنو عليه، في ظلمه وغدوانه،
 ولم يعرض الحصري لمثل هذا المعنى البديع، وأخلق بهذه الأبيات أن تكون
 صلاةً للحسن، إن قَضَى اللهُ أَنْ نَصَلِّيَ لَهُ، كما يصلي فريق للشمس عند
 الشروق، والهوى — كما قيل — إله معبود.

وما أرفق شوقي وأرقه حين يقول :

(١) هذه اللمعة تذكر بقول الشاعر :
 حمى نفسه الحسن أضعاف ما حمى نفسه الجمهر لما التهب

قَدْ وَدَّ جَمَالَكَ أَوْ قَبَسَا حَوْرَاءُ الْخُلْدِ وَأَمْرَدُهُ
فإن الحسن لا يُعبد بأرق من هذا الوصف، وهل العبادة إلا وصف المعبود
بالتفرد والجلال.

وقول الحصري :
صَاحِ وَالْخَمْرُ جَنَى فَمِهِ سَكْرَانُ اللَّحْظِ مُعْرِبُهُ
أروع وأبدع من قول شوقي :
وَرُضَابِ يُوَعِدُ كَوْنَهُ مَقْتُولُ الْعِشْقِ وَمُشْهَدُهُ
وأرى من الظلم أن نوازن بين هذين البيتين، فإن بيت الحصري بيت فذ نادر
المثال، وفيه وحده صورة شعرية رائعة، وما ردّدت به فتنة جديدة وظهر
لي منه معنى جديدة، كالوجه المشرق لا نهاية لحسنه، ولا حدّ لقدرته على تصريف
القلوب.

ولك أن تتأمل كلمة « جنى » في قوله :
صَاحِ وَالْخَمْرُ جَنَى فَمِهِ سَكْرَانُ اللَّحْظِ مُعْرِبُهُ
وما هذه العريضة يا صاح ؟ إنها الأشرار التي يقيدك بها اللحظة، وأنت تنهل
من وريده العذب الجميل !

وقول شوقي :
جَحَدْتُ عَيْنَاكَ زَكِيَّ دَمِي أَكْذَلِكْ خَدُّكَ يَجْحَدُهُ
قَدْ عَزَّ شُهُودِي إِذْ رَمَتَا فَأَشْرْتُ لِحَدِّكَ أَشْهَدُهُ
أرق من قول الحصري :
يَا مَنْ جَحَدْتُ عَيْنَاهُ دَمِي وَعَلَى خَدَّيْهِ تَوَرَّدُهُ
خَدَّاكَ قَدْ اعْتَرَفَا بِدَمِي فَعَلَامَ جُفُونِكَ تَجْحَدُهُ
لأن الاستفهام في قول شوقي أعطى المعنى شيئاً من الحسن، وزاده تمكيناً في
النفس، على ما فيه من الابتدال.

وقد أجاد الحصري في استعطاف الحبيب إذ يقول :
لَمْ يُتَقِ هَوَاكَ لَهُ رَمَقًا فَلَيْبَكْ عَلَيْهِ غُودُهُ
وَعَدًا يَقْضِي أَوْ بَعْدَ غَدٍ هَلْ مِنْ نَظَرٍ بِنَزْوَدُهُ
ولا نجد هذه النعمة المحزنة في قصيدة شوقي. وإنما لتذكرنا بهذا البيت الحزين :
وَأَرَى الْأَيَّامَ لَا تُدْنِي الدِّيَّ أُرْتَجِي مِنْكَ وَتُدْنِي أَجْلِي

مِظَانُ الضَّعْفِ

وإني لأستثقل الصنم المنتصب في قول الحصري :
صَنَمٌ لِلْفَتْنَةِ مُنْتَصِبٌ أَهْوَاهُ وَلَا أُتَعَبُهُ
لأن كلمة « الصنم » كلمة غير شعرية^(١). والعرب تسنملح « الدمية » في وصف المرأة الجميلة. والدمية هي الصورة المنقشة من الرحام، والجمع دُمى، قال بعض الأعراب :

وَإِنِّي لِأَهْدَى بِالْأَوَانِسِ كَالدُّمَى وَإِنِّي بِأَطْرَافِ الْقَنَا لِلْعُوبِ
وَإِنِّي عَلَى مَا كَانَ مِنْ عُنْجُهَيْتِي وَلَوْثَةِ أَغْرَابِيَّتِي لِأَدِيبِ

وكذلك أستضعف قول الحصري :

مَا أَحْلَى الْوَصْلَ وَأَعَذْبَهُ لَوْ لَا الْأَيَّامُ تُنَكِّدُهُ
بِالْبَيْنِ وَبِالْهَجْرَانِ فَا لِفُؤَادِي كَيْفَ تَجْلُدُهُ

وأضعف منه قول شوقي :

بَيْنِي فِي الْحُبِّ وَبَيْنَكَ مَا لَا يَفْدُرُ وَاشِ بِنَفْسِهِ
مَا بَالُ الْعَاذِلِ يَفْتَحُ لِي بَابَ السُّلُوفِ وَأَوْصِدُهُ

ولا أدري ما قيمة التعجب في البيت الثاني من هادين البينين، وهو لا يزيد

(١) لكثرة ما ورد في ذم الأصنام، وقد أشربا في هامش سلف إلى أن هذه الجملة لا يراد بها على ألسنة أهل العرب، وهم يقولون « صنم » حميا بشدرون إلى المثال.

شيئاً عن الصوت العامي المشهور « كِيد العواذل كايذني بسّ اسمع شوف ».

وكذلك لا قيمة لقوله :

وَبَخَصِرْ أَوْهَنَ مِنْ جَلْدِي وَعَوَادِي الْهَجْرِ تُبَدِّدُهُ

وهي مبالغة مردودة، لأن الذي يستملح الخصر الدقيق لا يرضيه أن يكون
أوهن من صبر الحب تعدو عليه عوادي الصدود.

وقد ظلم شوقي نفسه حين قال :

وَقَوَامُ يَرْوِي الْعُصْنُ لَهُ نَسْباً وَالرُّمَحُ يُفْنِيْدُهُ

كما أساء الحصري إلى شعره إذ قال :

إِنِّي لِأَعْيِذُكَ مِنْ قَتْلِي وَأُطْلُوكَ لَا تَتَعَمَّدُهُ

فإن هذا خيال فقهاء، لا خيال شعراء !

روعة الخيال

وإنه لَيَجْمُلُ بنا بعد هذا أن نوازن بين ما للحصري وشوقي من الخيال الرائع،

وإننا لنستجيد قول الحصري :

يَنْصُو مِنْ مُقْلِتِهِ سَيْفًا وَكَأَنَّ نَعَاسًا يُعْمِدُهُ

فَيُرِيْقُ دَمَ الْعُشَّاقِ بِهِ وَالْوَيْلُ لِمَنْ يَتَقَلَّبُهُ

كَلاَّ لِأَذْنَبَ لِمَنْ قَتَلْتُ عَيْنَاهُ وَلَمْ تَقْتُلْ يَدَهُ

وإن البيت الأول لَمِنْ وَبَّاتِ الخيال، وفي البيت الثاني ضعف، والثالث مع

ضعفه مستملح مقبول.

ونستجيد كذلك قول شوقي :

نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ وَحَنَائِي الْأَضْلَعِ مَعْبَدُهُ

وللقارئ أن يلومنا في اسنجادة هذا البيت، وأن يذكر أن هذا أيضاً خيال

فقهاء، لا خيال شعراء. ولنا أن نذكر القارئ بأن المعابد والنواقيس من الألفاظ

التي استملحها العرب، لكثرة ما تحدث عنها الشعراء وهم يتغنون بمعالم اللهو، وملاعب الشباب، ولهم في الأديار شعر ممتع عُني بتفصيله في غير هذا الحديث^(١)، وكذلك ظرف شوقي حين تحدث عن المعبد والناقوس، وكان خباله قريباً في الحسن من خيال الحصري، إذ توهم اللحظ سيفاً يكادُ بغمده العاس، وإني لفتون بهذا الخيال.

البراعة في تناول المعاني

ولنا لنرى شوقي أبرع من الحصري في تناول المعاني، ومن السهل أن نعلل هذا : فإن الحصري لم يَجْرِ في قصيدته إلا على الفطرة، وكان من ذلك أن رَضِيَ بعفو الخاطر. أما شوقي فمعارض من همه أن يظفر بالسبق، وكان من ذلك أن عُنِيَ بترتيب المعاني، واختيار الألفاظ، وتنوع الأغراض. على أن هذا التكلف لم يمس بلا عيوب، فإنه لا معنى لقول شوقي :

وَبِخَالٍ كَادَ يُحَجُّ لَهُ لَوْ كَانَ يُقْبَلُ أَسْوَدُهُ
وَلَا رَوْنَقَ لِقَوْلِهِ :

وَتَمَنَّتْ كُلُّ مُقْطَعَةٍ يَدَهَا لَوْ تَبَعْتُ تَشْهَدُهُ

الحكم

وللقارئ — إن شاء الحكم — أن يرجع إلى ما أسلفنا القول عنه من مواطن الحسن، ومطآن الضعف، ومواقع الخيال : ليرى أيَّ الشعارين أولى بالسبق، وأيُّهما أرجح في الميزان. وحسبه أن دللناه على ما في القصيدتين من الخاسن والعيوب، فإننا لا نُعْنَى بالأشخاص، وإنما يعيننا أن ندرس الشعر، وأن نقف على ما فيه من القوة والضعف، والحسن والقبح. وكذلك ندرس البيان، ونحن نوازن بين الشعراء.

(١) تعد هذا البحث في كتاب « أثر الشعر في ربط الشعوب ».

البحث الرابع عشر

البحثري وشوقي

قلنا إن لشوقي كلفاً بمعارضة المتقدمين من الشعراء، ووازناً بين دالّيته ودالّية
الحصري في الكلمة السابقة، والآن نوازن بينه وبين البحثري، فقد عارض سينيته
في وصف إيوان كسرى بقصيدة سينية وصف بها قصر الحمراء. ولهاتين
القصيدتين قيمة كبيرة، ومن الخير أن نوازن بينهما موازنة دقيقة، ليقف القارئ
على ما فيهما من براعة الوصف وحسن البيان.

ولنذكر أولاً أن شوقي يتأثر البحثري منذ زمن بعيد، ويودّ لو ظفر شعره بتلك
الديباجة البحثرية، التي ضربت بها الأمثال.

ولننظر كيف يقول في خطاب « أم الحسين » :
النَّيْلُ فَجَّرَ مَشْرَعَيْنِ وَعَيْلِمًا وَتَفَجَّرَتْ يُمْنَاكِ خَمْسَةَ أَبْحُرِ
أُحْيَيْتَ فِي فَضْلِ الْمُلُوكِ وَعِزِّهِمْ مَا مَاتَ مِنْ أُمِّ الْخَلِيفَةِ جَعْفَرِ
إِنَّ الَّذِي قَدْ رَدَّهَا وَأَعَادَهَا فِي بُرْدَتِكَ أَعَادَ فِيَّ الْبُحْثَرِي

وسنرى كيف يقول وهو يطوف بقصر الحمراء :
وَعَظَّ الْبُحْثَرِيَّ إِيوَانُ كِسْرَى وَشَفَتْنِي الْقُصُورُ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ

حياة البحري

ولد أبو عبادة الوليد بن عبيد البحري في سنة ٣٠٦ بِمَنْبِج بين حلب والفرات. ومنبج — بالفتح، ثم السكون، وباء موحدة مكسورة وجيم — بلد قديم طيب الهواء. وُلد فيه جماعة من فرسان البلاغة منهم : البُحْري، وأبو فراس. ومن قبلهما عبد الملك بن صالح الذي قال له الرشيد لما دخل منبج : أهذا منزلك ؟ قال : هو لك، ولي بك يا أمير المؤمنين. قال : كيف بناؤه ؟ قال : دون منازل أهلي، وفوق منازل الناس.

وقال وكيف ذلك، وفدرك فوق أقدارهم ؟ قال : ذلك خُلقُ أُمير المؤمنين أتأسى به، وأقفو أثره، وأخذو حذوه.

قال : فكيف طيب منبج ؟ قال عذبة الماء، طيبة الهواء، قليلة الأدواء
قال : فكيف ليلها ؟ قال : سَحَرٌ كُلُّهُ !

وفي التشويق إلى منبج يقول إبراهيم بن المدبر، وقد خلى بها شُعْبَةً من فؤاده :
وَلَيْلَةٌ عَيْنِ الْمَرْجِ زَارَ خِيَالَهُ فَهَيَّجَ لِي شَوْقًا وَجَدَّدَ أَحْزَانِي
فَأَشْرَفْتُ أَعْلَى الدَّيْرِ أَنْظُرُ طَامِحًا بِالْمَحِ آمَاقٍ وَأَنْظُرُ إِنْسَانِ
لَعَلِّي أَرَى آيَاتَ مَنْبِجَ رُؤْبَةٍ نَسْكُنُ مِنْ وَجْدِي وَتَكْشِفُ أَشْجَانِي
فَقَصَّرَ طَرْفِي وَأَسْتَهْلَ بِعَبْرَةٍ وَفَدَيْتُ مَنْ لَوْ كَانَ بَدْرِي لَفَدَّانِي
وَمَثَّلَهُ شَوْقِي إِلَيْهِ مُقَابِلِي وَنَاجَاهُ عَنِّي بِالضَّمِيرِ وَنَاجَانِي

وإنما ذكرنا لك هذه الكلمات عن منبج لندرك بعض السرفي رقة البحري، وجمال شعره، فإن للبلد الطيب الهواء، العذب الماء، القليل الأدواء، أثرًا كبيرًا في تكوين نفس الشاعر، والكاتب، والخطيب^(١)، ولأن البحري كان كثير الحنين إلى منبج، وكان كثيرًا ما يتنهد بها في شعره ولننظر كيف يقول في خطاب أبي جعفر محمد بن حميد الطوسي :

(١) انظر تفصيل هذا المعنى في الكلام عن أبي الحسن الحرخاني في الجزء الثاني من كتاب : « الدر المني ».

لَا أَنْسِينَ زَمَنًا لَدَيْكَ مُهَذَّبًا وَظِلَالَ عَيْشٍ كَانَ عِنْدَكَ سَجَسَجٍ
فِي نِعْمَةٍ أَوْطِنْتُهَا وَسَكَنْتُ فِي أَفْيَئِهَا فَكَأَنِّي فِي مَنِيحٍ

بداية حياته

سَبَّ الْبَحْتَرِي وَتَرَعَّرَعَ فِي مَنِيحٍ. وَكَانَ مَدَحُهَا فِيْمَا يَقُولُونَ أَصْحَابُ الْبَصْلِ
وَالْبَازُنْجَانِ ! !

قالوا « وكان منه ما كان في علوة التي تسبب بها في كثير من أشعاره، وهي
بنت زريقة الحلبية، وزريقة أمها » ويظهر من هذه الكلمة أن زريقة الحلبية أم
علوة كان لها شأن في عالم الجمال، وأن البحتري حين أغرم بعلوة لم يرم فؤاده
إلا بين يدي فتاة لعوب، نشأت في مهد المرح، وتقلبت فوق أعطاف الدلال.
ولو أن العرب لم ينصرفوا عن التصوير لخلقوا لنا دُمِيَّةَ لعلوة، وأرونا كيف كانت
هذه الفتاة التي أضرمت نار الوجد في صدر الوليد، وعلمنه كيف تكون
الشكوى، وكيف يكون الأنين ! وإن الشعر لمدين لهذه الإلهة التي أوحى إلى
البحتري أن يقول بعد أن خلاها بالشام، وسكن العراق:

أَعْيَدِي فِي نَظْرَةٍ مُسْتَشْيِبٍ	تَوَخَّى الْأَجَرَ أَوْ كَرِهَ الْأَثَامَا
تَرَى كِبْدًا مُحَرَّقَةً وَعَيْنًا	مُورِّقَةً وَقَلْبًا مُسْتَهَامَا
أَلَامٌ عَلَى هَوَاكِ وَلَيْسَ عَدْلًا	إِذَا أَحْبَبْتُ مِثْلَكَ أَنْ أَلَامَا
لَقَدْ حَرَّمْتَ مِنْ وَضْلِي حَلَالًا	وَقَدْ حَلَلْتَ مِنْ هَجْرِي حَرَامَا
تَنَاءَتْ دَارُ عَلْوَةٍ بَعْدَ قُرْبٍ	فَهَلْ رَكِبْتُ يُبْلِغُهَا السَّلَامَا
وَجَدَدَ طَيْفُهَا عَتَبًا عَلَيْنَا	فَمَا يَعْتَادُنَا إِلَّا لِمَامَا
وَرُبَّتْ لَيْلَةٌ قَدْ بَتُّ أَسْقَى	بَعَيْنَيْهَا وَكَفَيْهَا الْمُدَامَا
قَطَعْنَا اللَّيْلَ لَثْمًا وَاعْتِنَاقًا	وَأَقْنَيْنَاهُ ضَمًّا وَالْزِمَامَا
لَمِنَ أَصْحَتِ مَجَلَّتْنَا عِرَاقًا	مُشْرِقَةً وَجَلَّتْهَا شَامَا
فَلَمْ أَحْدِثْ لَهَا إِلَّا وَدَادًا	وَلَمْ أَزْدَدْ بِهَا إِلَّا غَرَامَا

وهناك نفس ثانية كان لها على قلب البحتري سلطان. ومن الوقار أن لا نعرض

لها في هذا الحديث، وقد بسطنا عنها القول في كتاب « مدامع العشاق » وكيفي
 أن نذكر أنموذجاً من شعره في وصف تلك النفس، وإنه ليقول :
 هَلْ لِي سَبِيلٌ إِلَى الظُّهْرَانِ مِنْ حَلَبٍ وَنَشْوَةٍ بَيْنَ ذَلِكَ الْوَرْدِ وَالْآسِ
 أُمْدٌ كَفِّي لِأَخْذِ الْكَاسِ مِنْ رَشَاءٍ وَحَاجَتِي كُلُّهَا فِي خَامِلِ الْكَاسِ
 بِقُرْبِ أَنْفَاسِهِ أَشْفِي الْعَلِيلَ إِذَا ذَنَّا فَقَرَّبَهَا مِنْ حَرِّ أَنْفَاسِي

اتصاله بأبي تمام

ولعل أظهر حادث نقل البحتري من عهد إلى عهد هو اتصاله بأبي تمام أمير الشعراء
 في ذلك الحين، فقد صار إليه وهو بحمص، وعرض عليه شعره. وكان أبو تمام
 يجلس فلا يبقى شاعر إلا قصده، وعرض عليه شعره. فلما سمع البحتري أقبل
 عليه وترك سائر الناس. فلما تفرقوا قال له : أنت أشعر من أنشدني، فكيف
 حالك ؟ فشكا إليه خلّة، فكتب إلى أهل مَعَرَّة النعمان يشهد له بالحدق ويوصيهم
 بإكرامه، قال البحتري « فأكرموني بكتابه، ووظفوا لي أربعة آلاف درهم، فكانت
 أول مال أصبته » وقال البحتري : أنشدت أبا تمام شيئاً من شعري، فأنشدني
 بيت أوس بن حَجَر :

إِذَا مُقَرَّمٌ مِنَّا ذَرَى حَدُّ نَابِهِ تَحْمُطُ فِينَا نَابُ آخِرِ مُقَرَّمٍ^(١)

وقال : نعتت إليّ نفسي ! فقلت : أعيذك بالله من هذا ! فقال إن عمري
 ليس يطول وقد نشأ لطيفاً مثلك. أما علمت أن خالد بن صفوان المنقري
 رأى شبيب بن شَبَّة وهو يتكلم، وهو من رهطه، فقال يابني : نعى نفسي
 إليّ إحسانك في كلامك، لأننا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات من
 قبله. قال : فمات أبو تمام بعد سنة من هذا.

وهذه بالطبع وسوسة من أبي تمام، ولكنها شاهد على حسن رأيه في شعر

(١) الفحل المكرم هو الذي أقرمه صاحبه : تركه عن الركوب والعمل وودعه للمحله ورمه،
 وتحمط الفحل : هدر. ومن المجاز : تحمط الرجل : تعضب وثار. والمراد هنا من تحمط الباب
 ظهوره وارتفاعه.

البحثري، وقد كان أبو تمام من أعلم الناس بالشعر، حتى قالوا إنه في اختياره أبلغ منه في شعره.

وقال البحثري : أنشدت أبا تمام شعراً لي في بعض بني حميد وصلت به إلى مال له خطر، فقال لي « أحسنت، أنت أمير الشعراء بعدي » فكان قوله أحب إليّ من جميع ما حوِيته.

ولا يفوتنا أن نذكر وصية أبي تمام للبحثري، فقد نوّه بها ابن رشيق، وساقها صاحب زهر الآداب، وهي تدلنا على رأي أبي تمام في نظم الشعر وذوقه في اختيار الأوقات، وتدلنا كذلك على أسلوب البحثري في حياته الأدبية، فقد ساس نفسه بما أوصاه به أستاذه. وفيها أيضاً نوع من التربية نجب أن نسجّل في هذا الحديث. قال البحثري : كنت في حدائثي أروم الشعر، وكنت أرجع فيه إلى طبعي، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه، ووجوه اقتضابه، حتى قصدت أبا تمام، وانقطعت فيه إليه، واتكلت في تعريفه عليه، فكان أول ما قال لي : يا أبا عبادة، تخيّر الأوقات، وأنت قليل الهموم، صِفْ من الغموم. واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السّحر، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة، وقسطها من النوم. وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً، والمعنى رقيقاً، وأكثر فيه من بيان الصبابة، وتوجّع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، فإذا أخذت في مديح سيد ذي أياذ، فاشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأبن معاملة وشرف مقامه، ونصّ المعاني، واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل شعرك إلا وأنت فارغ القلب. واجعل شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه : فإن الشهوة نغم المعين. وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين : فما استحسن العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه، ترشد إن شاء الله.

قال البحثري: فأعملت نفسي فيما قال، فوفقت على السياسة^(١).

(١) السياسة هنا حسن التدبير.

ولهذه الوصية أغراض، يرجع بعضها إلى رياضة النفس تأهباً للقريض، ويرجع بعضها إلى جوهر الفن، أما فيما يرجع إلى رياضة النفس فأبو تمام مسبوق بطائفة من الشعراء والخطباء، أوصوا باختيار الأوقات التي تصفو فيها النفس وبلطف الحس، ويستيقظ الوجدان، ومنهم من دعا إلى الاستنجاد بالمياه الجارية، والرياض الحالية، والأماكن الخالية. إلا أن أبا تمام — مع أنه مسبوق — وُفق كل التوفيق حين قال « واجعل شهونك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإن الشهوة نعم المعين » وهذه كلمة فاصلة في حياة الفنانين على الإطلاق، سواء كانوا شعراء أم كتاباً، أم مصورين، أم مثاليين، لأن الإجادة في الفنون تتوقف على الشهوة، وأكد أحكم بأن الفنان لا يبدع ولا يجيد، إلا إن كان له من فنه معبود جديد.

وأما فيما يرجع إلى جوهر الفن فأبو تمام قصر وصيته على العناية بالنسب والمدح، وسكت عن بنية الأغراض التي بهتم بها الشعراء، فلم ينكلم عن الرثاء، ولا الهجاء، ولا الفخر، ولا الوصف. مع أن الوصف من أهم ما يعنى به الشعراء، ولعله اكتفى بهذه الكلمة العامة التي تنطبق على كل موضوع إذ قال « ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد » وهي كلمة دقيقة على ما فيها من الابتدال.

ولا يحسن القارئ أن في إقبال البحري على ما أوصاه به أستاذه دليلاً على أن شعر أبي تمام وشعر البحري من نمط واحد.. كلا ! فإن أبا تمام في وصيته يمثل الأستاذ، ولا يمثل الشاعر، لأننا لو حاكمنا شعره إلى وصيته لراعنا بين المنزعين من الفرق البعيد، ولا سيما فيما يتعلق بالتشبيب، فإن أبا تمام لم يتغن بالحسن إلا قليلاً، وحظه من صدق اللوعة ضئيل.

شخصية شوقي

ومهما يكن من شيء، فإن عناية البحري بوصية أستاذه بياناً لأسلوبه في رياضة نفسه، وتهذيب شعره، فلننظر بهذه المناسبة، كيف يروض شوقي نفسه، وكيف يهذب شعره، وكيف يتناول ما يقصد إلى نظمه من شتى الأغراض، فقد صحبا

شوقي وعاصرناه، وهو بحمد الله يعيش معنا في مدينته واحدة، وقد نقرأ عليه سينيته في قصر الحمراء قبل أن يضعها في الميزان، وإنا لنزن بالقسطاس المستقيم.

صاحب شوقي إن شئت، فستراه قبل الحديث، وستعجب كيف يكون هذا الصيت الذائع، لهذا الرجل الصموت، وقد تصفّهُ بالتواضع كما وصفه كثير من المتأدبين، ولكن وقد عرفت شوقي، أحكم بأن هذا الرجل مجنون جديد من مجانين ليل، وليلاه هي الشعر، وهو بالشعر مجنون، لا مغرم ولا مفتون، فإن الغرام والفتنة من أيسر ما يعرض لأرباب القلوب.

يحدثك شوقي حديثاً عادياً لا روعة له، ولكنه لا ينفك يدور بنظرته الحائرة وكأنه يبحث عن شيء في لفائف قلبه، وحنايا نفسه، وأعماق ضميره — دخلت عليه، وهو يتأهب لثناء عبد اللطيف الصوفاني، فأخذ يحدثني عن الجامعة المصرية ونظامها الجديد، ثم بغتني بهذه الكلمة: « الصوفاني بك معضلة من المعضلات، هو تمثال إخلاص، ولكن هل له عقل الفلاسفة والزعماء؟ » فعرفت أن الرجل في واد آخر غير الحديث عن الجامعة المصرية وأن قلبه، ونفسه، وحسه، ووحدانه في شغل بما يعدّه لثناء الصوفاني بك « تمثال الإخلاص » وعرفت أنه لا بد أن يقول شيئاً في تحديده تلك الشخصية، ثم انتظرت يوم التأين، فإذا هو يقول عن أثر الفقيده في المجالس النيابية :

مَا كَانَ قُصّاً وَلَا زِيَاداً وَلَا يَسْحَرُ الْبَيَانَ جَاءَ
لَكِنْ إِذَا قَامَ قَالَ صِدْقاً وَجَانَبَ الزُّورَ وَالرِّيَاءَ

وقد وصفه الأستاذ خليل مطران وصفاً صادفاً حين قال :

« ينظم بين أصحابه فيكون معهم، وليس معهم، وينظم في المركبة، وفي السكة الحديدية، وفي المجتمع الرسمي، وحيث يشاء، ولا يعرف جلسيه أنه ينظم إلا إذا سمع منه بادئ بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد، ثم رأى ناظره، وقد برق وتواترت فيهما حركة المحجرين، ثم بصّره، وفد رفع يده إلى جبينه، وأمرها عليه إمراراً خفيفاً هنيهة بعد هنيهة — فإذا قوطع في خلال النظم انقل إلى أي بحث يباحث فيه حاضر الذهن صافيه، جميل البادرة، كعادته في

الحديث — ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال عاد إليه كأنه لم تنقطع عنه مستظهِراً ما تم منه حافظاً لبقية المعنى الذي يضمّره، يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تَمَّت ونسبها شهراً، ثم ذكرها فكتبها في جلسة واحدة — يكلف أحياناً بمعارضة المتقدمين، ولا يندر عليه أن يزيهم — ولا يجهد فكره ولا يكده في معنى أو مبنى، فأما المعنى فيجئيه على مرامه، أو على أبعد من مرامه، ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوّار الذكاء، ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب في لغات الأفرنج والأعراب وفلسفة الحقوق، وحقائق التاريخ، وغرائب السّير التي يحفظ منها غير يسير، إلى مشاركات علمية، وتنبيهات فنية، استقها من مطالعته في صنوف الكتب، واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب. وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول : ترى فيه من نسج البحري، ومن صياغة أبي تمام، ومن وثبات المتنبي، ومن مفاجآت الشريف، ومن مسلسلات مهيار، وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم، وهي أنه نظم شوقي : ذلك شعر العبقريّة والتفوق .»

ملاح وصفية

وإذا ذكرنا عادة البحري وشوقي في قرص الشعر فلنذكر كذلك أنهما يشتركان في العناية بالآداب العربية، فقد ترك البحري كتاباً سماه « معاني الشعر »^(١) وترك كتاباً آخر في الحماسة كالذي تركه أبو تمام ولكنه بسنار عنه بسهولة اللغة وتنوع الموضوعات. وشوقي — وإن لم يصنف كتباً في الآداب — يقرأ ويدرس بشراهة تفوق الوصف، ويتعقب الحركة الأدبية بنشاط عجيب. ويختلفان في إنشاد الشعر والإشادة به، فقد كان البحري يحتفي بإنشاد شعره، ويسلك في ذلك مسلك التلحين والتطريب، كان بطل النظر في وجوه الحاضرين، ليرى مبلغ إعجابهم به، وإكبارهم له، حتى نفر الناس

(١) قد يظن أن هذا كتاب في النقد، ولكننا نرحح أنه كان مجموعة من المختارات المرتبة على حسب المعالي.

منه، وعبث به أهل السفه، وأصحاب المجون. أما شوقي: فقلماً يتحدث عن شعره، وقلماً ينشده، وإنما يوكل بإنشاده من يتوسم فيه حسن الفهم وحسن الأداء. وهذا المسلك، مع ما فيه من دلائل الحياء أو الشمم، غير مأمون العواقب، وكثيراً ما آذى الشاعر، وعاد عليه بالضرر البالغ.

وفاء البحري وشوقي

ولقد كانت الشاعرية، ولا تزال، دالة على سمو النفس، وبقظة الوجدان والحوادث هي التي تميز عناصر النفوس، وقد وقع للبحري وشوقي من كبار الحوادث ما ظهر معه ما لهما من قوة النفس، ومتانة الخلق وكرم العنصر، ولم يحن الوقت لتدوين ما وقع لشوقي ! فلنكتف بهذا التلميح، ولنذكر ما صير البحري مثلاً في الوفاء.

كان المتوكل — كما ذكر صاحب زهر الآداب — عقد لولده المنتصر والمعتز والمؤيد ولاية العهد، ثم تغير على المنتصر دون أخويه، وكان يسميه المنتظر ويقول له : أنت تتمنى موتي، وتنتظر وقتي ! ويأمر الندماء أن يعيثوا به إلى أن أوغر صدره، وأقل صبره، فلما كانت ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين، كان المتوكل يشرب مع الفتح في قصره المعروف بالجعفري ومعه جماعة من الندماء والمغنين، وكان المنتصر معهم، فلما انصرف ثلاث ساعات من الليل، قال لزرافة التركي : ألا تسمعي ساعة حتى أشكو إليك ما يمرُّ بي ؟ قال بلى، وجعل يماطله ويطاولة، وغلق بُعا الشرابي الأبواب كلها إلا باب الماء، ومنه دخل الذين قتلوا المتوكل، وقد ضربوه ضربة قُطع بها حبل عاتقه، وتلقاه الفتح بنفسه فأكب عليه، فقتلا جميعاً، وبويع المنتصر من ساعته. قال الحصري « وكانت مدة التنصر في الخلافة مدة شيرويه بن كسرى حين قتل أباه ستة أشهر. » — وللظالم الويل.

كانت هذه القتلة الشنيعة التي تردى بها خليفة من خلفاء المسلمين، وكان هذا الخليفة ولي نعمة البحري، وكان استبداد المنتصر إذ ذاك كافياً في ردعه.

عن رثاء مولا، ولكنه رثاه بقصيدة وصفها أبو العباس تغلب بقوله : « ما قبلت هاشمية أحسن منها ! وفد صرح فيها نصرىخ من أدهلته المصائب عن تخوف العوافب » وفيها بقول :

تَغَيَّرَ حُسْنُ الْجَعْفَرِيِّ وَأَنْسَهُ	وَقُوضَ بَادِي الْجَعْفَرِيِّ وَحَاضِرُهُ
تَحَمَّلَ عَنْهُ سَاكُنُوهُ فُجَاءَةً	فَآضَتْ سَوَاءَ دُورُهُ وَمَقَابِرُهُ
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الْقَصْرِ إِذْ رِيْعَ سِرْبُهُ	وَإِذْ ذُعِرَتْ أَطْلَاؤُهُ وَجَاذِرُهُ
وَإِذْ صَبَحَ فِيهِ بِالرَّحِيلِ فَهْتِكَتْ	عَلَى عَجَلِ أَسْنَارِهِ وَسَتَائِرِهِ
إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ أَجَدَّ لَنَا الْأَسَى	وَقَدْ كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ يَبْهَجُ زَائِرُهُ
فَأَيَّنَ عَمِيدُ النَّاسِ فِي كُلِّ نَوْبَةٍ	تَنْوُبُ وَنَاهِي الدَّهْرِ فِيهِمْ وَآمِرُهُ
تَخْفَى لَهُ مُعْتَالُهُ تَحْتَ غِرَّةٍ	وَأُولَى لِمَنْ يَغْتَالُهُ لَوْ بُحَاهِرُهُ
صَرِيحٍ تَقَاضَاهُ السُّيُوفُ خُشَّاشَةً	يَجُودُ بِهَا وَالْمَوْتُ حُمْرٌ أَظْلَافِرُهُ
حَرَامٌ عَلَيَّ الرَّاحُ بَعْدَكَ أَوْ أَرَى	دَمًا بَدَمٍ يَحْرِي عَلَى الْأَرْضِ مَائِرُهُ
وَهَلْ يُرْتَجَى أَنْ يَطْلُبَ الدَّمُ طَالِبٌ	مَدَى الدَّهْرِ وَالْمَوْتُورُ بِالْدَّمِ وَابِرُهُ
فَلَا مُلِيَّ الْبَاقِي تَرَاثَ الَّذِي مَضَى	وَلَا حَمَلَتْ ذَاكَ الدُّعَاءَ مَنَابِرُهُ

ونظرة واحدة إلى ما كان يجري في تلك العصور من الظلم والاضطهاد تربك أن البحترى كان من أشجع الناس وأوفاهم بهذه القصيدة، على أنه لم يقف عند هذا الحد، بل كان يرتاح في كثير من شعره إلى ذكر المتوكل والفتح بن خاقان، وانظر كيف يفيض شعره بالأسى وهو يقول لبعض من بمدحه:

تَذَارَكْنِي الْإِحْسَانُ مِنْكَ وَنَالَنِي عَلَى فَافَةٍ ذَاكَ النَّدَى وَالنَّطُولُ
وَدَافَعْتَ عَنِّي جَيْنَ لَا الْفَتْحُ يُرْنَجِي لِدَفْعِ الْأَذَى عَنِّي وَلَا الْمُتَوَكَّلُ

وما أوجع ما يقول من كلمة ثانية :

مَضَى جَعْفَرٌ وَالْفَتْحُ بَيْنَ مُوسَدٍ وَيَيْنَ قَبِيلٍ فِي الدَّمَاءِ مُصْرَجٍ
أَطْلُبُ أَنْصَاراً عَلَى الدَّهْرِ بَعْدَ مَا نَوَى مِنْهُمَا فِي الثَّرْبِ أَوْسِي وَخَزْرَجِي

وانظر كيف يقول، وقد بان بعض من يهوى:

عَسَى آيسٌ مِنْ رَجْعَةِ الْوَصْلِ يُوصَلُ وَدَهْرٌ تَوَلَّى بِالْأَجْبَةِ يُقْبَلُ

أَيَّا سَكَاً فَاتَ الْفِرَاقَ بِنَفْسِهِ وَحَالَ التَّعَادِي دُوَهُ وَالتَّزْيِيلُ
أَتَعْجَبُ لَمَّا لَمْ يَغْلُ جِسْمِي الضَّنَى وَلَمْ يَخْتَرِمَ نَفْسِي الْجِمَامُ الْمَعْلُ
فَقَبْلَكَ بَانَ الْفَتْحُ عَنِّي مُودَّعَاً وَفَارَقْنِي شَفْعاً لَهُ الْمُتَوَكِّلُ
فَمَا بَلَغَ الدَّمْعُ الَّذِي كُنْتُ أَرْتَجِي وَلَا فَعَلَ الْوَجْدُ الَّذِي خِلْتُ يَفْعَلُ
وَمَا كُلُّ نِيرَانٍ الْجَوَى تَقْتُلُ الْحَشَا وَمَا كُلُّ أَدَوَاءِ الصَّبَابَةِ تَقْتُلُ

تلك هي نفس البحتري، الذي عذبتة علوة في بدايه حياته، وصهره الحزن
على المتوكل في أخريات أيامه، وقد عرف القارىء عنه شيئاً فيه بعض العناء،
وعرف كذلك ما بينه وبين شوقي من الاختلاف والائتلاف، ومن الواجب أن
يعرف منهج هذين الشاعرين في بكاء الممالك، والنفجع لنكبات الشعوب، قبل
أن يرى كيف وصف البحتري إخوان كسرى، وكيف وصف شوقي قصر الحمراء.

البحث الخامس عشر

بكاء الممالك عند البحري وشوقي

كانت عواطف الشعراء عواطف فردية، لا اجتماعية، فكان الشاعر يبكي وجده ونعيمه وهو يندب الرسوم ويتوجع للطلول، ولم يهتمّ العرب ببكاء الممالك، والتفجع للشعوب، إذ كانوا في بداية الحياة وكان الرجل منهم قلما يُعنى بغير نفسه، وأهله، وذويه، فكانوا في شغل بأنفسهم عن بلايا الإنسانية التي تصرخ من حولهم وهم عنها غافلون.

ثم جاء القرآن فسلك في الحديث عن الممالك البائدة مسلك التخويف والترهيب، فلم يعطف عليها بكلمة، ولم يَسْتُرْ لها عَوْرَةً، لأن القرآن لم يكن كتاب شعر، يرمي إلى روعة الفن وجمال الخيال، وإنما كان كتاب حكمة ومَوْعِظَة، فكان من حقه أن يقول بحزم ورزانة :

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ولو لم يكن الزجر والردع من أغراض القرآن الأساسية، لكان له شأن غير هذا الشأن، وهو يتحدث عن فرعون وإبليس، ومن إليهم من الجبابرة والطلعة،

فقد جرى حديثه عنهم مجرى الشماتة، وكانوا ينبوع سحر لا ينضب ولا يفيض،
لو كان القرآن كتاب فنّ وكتاب خيال.

على ان العرب لم يغفلوا عن الإشادة بما طوى الدهر لهم من حضارة، ولم
يفتهم التغني بما كان لأسلافهم من ضخامة المدنية، وإن شابوا ذلك بالتحسر على
مادرس من معالم اللهو، والتحزن لما عفا من ملاعب الشباب، فمن ذلك قول
الأسود بن يعفور التّهشلي :

نَامَ الْخَلِيُّ وَمَا أُجِسُ رُقَادِي	وَالْهَمُّ مُحْتَضِرٌ لَدَيَّ وَسَادِي
مِنْ غَيْرِ مَا سَقَمَ وَلَكِنْ شَفَنِي	هَمُّ أَرَاهُ قَدْ أَصَابَ فُؤَادِي
وَمِنْ الْحَوَادِثِ لَا أَبَالِكَ أَنَّي	ضُرِبَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِالْأَسْدَادِ
لَا أَهْتَدِي فِيهَا لِمَوْضِعِ ثَلْعَةٍ	بَيْنَ الْعِرَاقِ وَبَيْنَ أَرْضِ مُرَادِ
وَلَقَدْ عَلِمْتُ سِوَى الَّذِي نَبَّأَنِي	أَنَّ السَّبِيلَ سَبِيلُ ذِي الْأَعْوَادِ
إِنْ الْمِنْيَةُ وَالْحُتُوفُ كِلَاهُمَا	يُوفِي الْمَخَارِمَ يَرْقُبَانِ سَوَادِي
لَنْ يَرْضَيَا مِنِّي وَفَاءَ رَهِينَةٍ	مِنْ دُونِ نَفْسِي طَارِفِي وَتَلَادِي

ثم يقول في بكاء من ساد من الذاهبين :

مَاذَا أُؤْمَلُ بَعْدَ آلِ مُحَرَّقٍ	تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ
أَهْلِ الْخَوَرَنَقِ وَالسَّيْدِيقِ وَبَارِقِ	وَالْقَصْرِ ذِي الشُّرَفَاتِ مِنْ سِنَادِ
أَرْضٍ تَخَيَّرَهَا لِطَيْبِ مَقِيلِهَا	كَعْبُ بْنُ مَامَةَ وَابْنُ أُمِّ دُوَادِ
جَرَتْ الرِّيَاحُ عَلَى مَكَانِ دِيَارِهِمْ	فَكَأَنَّمَا كَانُوا عَلَى مِيعَادِ
وَلَقَدْ غَنَوْا فِيهَا بِأَنْعَمِ عَيْشَةٍ	فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ
نَزَلُوا بِأَنْقَرَةٍ بِسَبِيلِ عَلَيْهِمُو	مَاءُ الْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ
فَإِذَا النَّعِيمُ وَكُلُّ مَا يُلْهَى بِهِ	يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بَلَى وَنَفَادِ

ثم عاد إلى بكاء شبابه فقال :

إِمَّا تَرِنِي قَدْ بَلَيْتُ وَغَاظَنِي
مَائِلَ مَنْ بَصْرِي وَمِنْ أَجْلَادِي^(١)

(١) الأجلاد : جمع جلد بالتحريك، وهو القوة.

وَعَصَيْتُ أَصْحَابَ الصَّبَابَةِ وَالصَّبَا
فَلَقَدْ أَرْوَحُ عَلَى التَّجَارِ مَرْحَلًا
وَلَقَدْ لَهَوْتُ وَلِلشَّبَابِ لَذَاذَةٌ
مِنْ خَمَرٍ ذِي نَطْفٍ أَعَنَ مُنْطَلِقِ
يَسْعَى بِهَا ذُو نُومَتَيْنِ مُشَمَّرٌ
وَالْبَيْضُ بَرَمِينَ الْقُلُوبِ كَأَنَّهَا
يَنْطَلِفُ مَعْرُوفًا وَهَنَ نَوَاعِمُ
وَأَطَعْتُ عَاذِلِي وَلَانَ فِجَادِي
مَدَلًا بِمَالِي لَبْنَا أَجْيَادِي
بِسُلَافَةٍ مُزَجَّتْ بِمَاءِ غَوَادِ
وَافِي بِهَا لِدِرَاهِمِ الْأُمْحَادِ
فَأَتَّ أَنْأَمْلُهُ مِنَ الْفُرْصَادِ
أُدْحِي بَيْنَ صَرَبَةٍ وَجَمَادِ
بِصُرِ الْوُجُوهِ رَفِيقَةُ الْأَكْبَادِ

ونحا هذا المنحى متمم بن نويرة في عبينه النبي يقول فيها:
وَلَقَدْ عَلِمْتُ وَلَا مُحَالَةَ أَنْتِي لِلْحَادِنَاتِ فَهَلْ نَرَبْنِي أَجْزَعُ
أَفْتَيْنَ عَادًا ثُمَّ آلَ مُحَرَّقِ فَتَرَكْنَهُمْ بَدَأَ وَمَا فَذُ جَمَعُوا
وَلَهُنَّ كَانَ الْحَارِثَانِ كِلَاهُمَا وَلَهُنَّ كَانَ أَخُو الْمَصَانِعِ تَبَعُ^(١)
لَا بَدَّ مِنْ تَلَفٍ مُصِيبٍ فَانْتَظِرْ أَبَارِضَ قَوْمِكَ أَمْ بِأُخْرَى تُصْرَعُ
وَلِيَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ يَوْمٌ مَرَّةً يُنْكِي عَلَيْكَ مُقْتَعَا لَا نَسْمَعُ

وكذلك نجد في خطب العرب وأشعارهم شذرات في التوجع لما انقرض من الممالك والشعوب، لكنها لا تمثل الوقفات الفنية التي نُسِّدُ إليها الرَّحَال، كوقفه البحري عند رسوم الإيوان، ووقفه سنو في عند أطلال الحمراء.

إيوان كسرى

وقد يجمال أن نذكر أن إيوان كسرى، الذي استلم البحري أحجاره، وطاف بأركانه، كان مضرب المثل عند الأعراب، فقد قيل لأعرابي: كيف يصنع بالبادية إذا انتصف النهار، وانتعل كل شيء ظله؟ فأجاب: وهل العيش إلا ذاك؟ ثم شي أحدنا ميلاً فَيَرَفُضُ عَرَفَا كَأَنَّهُ الْحِمَانِ، ثُمَّ نَصَبَ عَصَاهُ، وَيَلْقِي عَلَيْهَا كِسَاءَهُ، وَنَقَبَ الرِّيحَ مِنْ كُلِّ حَانَبٍ، فَكَأَنَّهُ فِي إِيوَانِ كَسْرَى.

(١) المصانع: القصور.

وقد حُكِيَ فيما نَقَلَ ياقوت أن المنصور لما أراد بناء بغداد استشار خالد بن برمك في هدم الإيوان وإدخال آله في عماره بغداد، فقال له : لا نفعل يا أمير المؤمنين ! فقال : أبيت إلا التعصب للفرس ! فقال ما الأمر كما ظن أمير المؤمنين، ولكنه أثر عظم بدل على أن ملّة وديناً وقوماً أذهبوا ملك بانيه كدين ومُلك عظيم، فلم يصنع إلى رأيه وأمر بهدمه، فوجد النفقة عليه أكثر من الفائدة بنفضه وتركه، فقال خالد : الآن أرى يا أمير المؤمنين أن نهدمه، لئلا يقال إنك عجزت عن خراب ما عمره غيرك، ومعلوم ما بين الخراب والعمارة !

وفد تكون هذه الحكاية صحيحة، وفد تكون خرافة نناقشها الناس، ولكها على كل حال دليل على منزلة الإيوان في صدور العرب لذلك العهد.

أما قصر الحمراء الذي بكاه شوقي فهو من قصور الأندلس، والأندلس هي الفردوس المفقود، الذي ييكيه المسلمون، ولنتنظر فسيحدثنا شوقي عنه أصدق الحديث.

نفسية البحري

وأريد بنفسية البحري ذلك الخاطر الذي اسنول عليه حين هم بوصف الإيوان، وقد رأيناه يذكر لذلك علتين : إحداهما في بداية القصيدة، والثانية في النهاية، أما الأولى فهي الهرب من الهموم، ومن ظلم الأفارب، بالفزع إلى طُلُول الإيوان، ينسى في أكنافها حزنه وبثه، ويسنودها أساه وشجاءه، وذلك حيث يقول :

وَرَفَعْتُ عَنْ جَدَا كُلَّ حَبْسٍ ^(١)	صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدْنِسُ نَفْسِي
رُ الْيَمَاساً مِنْهُ لِتَعْسِي وَنَكْسِي	وَتَمَاسَكْتُ حَيْثُ زَعَزَعَنِي اللَّهْ
طَفَفَتْهَا الْأَيَّامُ تَطْفِيفَ بَحْسٍ	بُلُغٍ مِنْ صُبَابَةِ الْعَيْشِ عِنْدِي
عَلَّ شُرْبُهُ وَوَارِدُ خَمْسٍ ^(٢)	وَبَعِيدٌ مَا يَنْ وَارِدُ رَفْه

(١) الحس : هو الدنيء الحنان

(٢) الخمس : شر الأظماء.

وَكَاَنَّ الزَّمَانَ أَصْبَحَ مَحْمُومًا
وَأَشْتَرَايَ الْعِرَاقَ خُطَّةً غَبْنًا
لَا تَرْزُنِي مُزَاوِلًا لِاخْتِيَارِي
وَقَدِيمًا عَهْدَتَنِي ذَا هَنَاتٍ
وَلَقَدْ رَأَيْتَنِي نُبُوَّ ابْنِ عَمِّي
وَإِذَا مَا جُفِيتُ كُنْتُ حَرِيًّا
لَا هَوَاهُ مَعَ الْأَخْسَرِ الْأَخْسَرِ
بَعْدَ يَبْعِي الشَّامَ بَيْعَةً وَكُسْرٍ
عِنْدَ هَذِي الْبُلُوَى فَتَنْكَرَ مَسِيًّا^(١)
آيَاتٍ عَلَى الدَّنِيَّاتِ شُمْسٍ
بَعْدَ لَيْلٍ مِنْ جَانِبِهِ وَأَنْسٍ
أَنْ أَرَى غَيْرَ مُصْبِحٍ حَيْثُ أُمْسِي

ثم انتقل إلى الموضوع مباشرة فقال :

حَصَرْتُ رَحْلِي الْهَمُومَ فَوَجَّهْتُ
أَتَسْلَى عَنِ الْخُطُوبِ وَأَسَى
ذَكَرْتَنِيهِمُ الْخُطُوبُ التَّوَالِي
تُ إِلَى أَبْيَضِ الْمَدَائِنِ عَنِّي
لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرْسٍ
وَلَقَدْ تَذَكَّرُ الْخُطُوبُ وَتُنْسِي

ونراه في نهاية القصيدة يذكر أنه بكى الايوان، وليست الدار داره ولا الجنس
جنسه، لأن لأهله نعيم عند أهله، ولأنهم أيدوا ملكهم وشدوا قواه، بما أمدوهم
به من الكتائب في أيام القتال، وذلك حيث يقول :

عُمِّرْتُ لِلشُّرُورِ دَهْرًا وَصَارْتُ
فَلَهَا أَنْ أُعِينَهَا بِدُمُوعٍ
ذَاكَ عِنْدِي وَلَيْسَ الدَّارُ دَارِي
غَيْرَ نَعْمَى لِأَهْلِهَا عِنْدَ أَهْلِي
أَيَّدُوا مُلْكَنَا وَشَدُّوا قُوهَا
وَأَعَانُوا عَلَى كَتَائِبِ أَرِيَا
وَأَرَانِي مِنْ بَعْدِ أَكْلَفٍ بِالْأَشْ
لِلتَّعْزِي رِبَاعُهُمْ وَالتَّأْسِي
مُوقَفَاتٍ عَلَى الصَّبَابَةِ حُبْسٍ
بِاقْتِرَابٍ مِنْهَا وَلَا الْجِنْسُ جِنْسِي
غَرَسُوا مِنْ ذَكَائِهَا خَيْرَ غَرْسٍ
بِكَمَاةٍ تَحْتَ السَّنُورِ حُمْسٍ^(٢)
طِ بِطُغْنٍ عَلَى الثُّحُورِ وَدَغْسٍ
رَافٍ طُرًّا مِنْ كُلِّ سِنَخٍ وَأُسٍّ^(٣)

وفي هذا البيت الأخير يذكر أنه يكلف بالأشراف من كل جنس، ويكيي المجد
الذاهب، وإن تقطعت بينه وبين أهله الأسباب.

(١) لا ترزني : لا تمتحنني.

(٢) السور : السلاح.

(٣) الأصل والجنس.

نفسية شوقي

أما شوقي فقد حدثنا عن خاطره حين همّ بوصف الحمراء، فترك لنا قطعة منشورة تصف حسه ووجدانه، وهو بطوف بذلك البيت، وقد سلك شوقي هذا المسلك غير مرة، فإننا نراه قدم قصيدته في وصف رومة برسالة بعث بها إلى أستاذنا الجليل إسماعيل بك رأفت، ونجده فعل مثل ذلك حين قدم للأستاذ مرجليوت قصيدته في وصف النيل، وإلى القارئ كلمته عن رحلته إلى وطن ابن خفاجة وابن زيدون :

« لما وضعت الحرب الشؤمى أوزارها، وفضحها الله بين خلقه وهتك إزارها، ورّم لهم ربوع السلم وجدد مزارها، أصبحت وإذا العوادي مقصرة، والدواعي غير مقصرة، وإذا الشوق إلى الأندلس أغلب، والفس بحق زيارته أطلب، فقصدته من برشلونة، وبينهما مسيرة بومين بالقطار المجدّ، والبخار المشتد، أو بالسفن الكبرى الخارجة من المحيط، الطاوية القدم نحو الجديد من هذا البسيط، فلغت النفس بمرآه الأرب، وكحلت العين في تراه بآثار العرب، وإنها لشتى المواقع، متفرقة المطالع، في ذلك الفلك الجامع، يسري زائرها من حرّم إلى حرّم، كمن يمسي بالكركنك ويصبح بالهّرم، فلا يتقارب غير العتق والكرم، طليطلة تطل على جسر البالي، واشيلية تشبل على قصرها الخالي، وقرطبة منتبذة ناحية بالبيعة الغراء، وغرناطة بعيدة مزار الحمراء، وكان البحري رحمه الله رفيفي في هذا النرحال، وسيمري في الرحال، والأحوال تصلح على الرجال، كل رحل لحال، فإنه أبلغ من جلّى الأثر، وحيّا الحجر، ونشر الخبر، وحشر العبر، ومن قام في مآثم على الدول الكبر، والملوك البهاليل الغرر، عطف على الجعفريّ حين نحمل عنه الملا، وعطل من الحلّى، ووكل بعد المتوكل لليلى، فرفع قواعده في السير، وبني ركنه في الخبر، وجمع معالنه في الفكر، حتى عاد كقصور الخلد امتلأت منها البصيرة وإن حلا البصر، وتكفل بعد ذلك لكسرى بايوانه، حتى زال عن الأرض إلى ديوانه، وسينيته المشهورة في وصفه ليست دونه، وهو نحت كسرى في رصه ورففه، وهي تريك حسن قيام الشعر على الآثار، وكيف ننجد الديار في بيوته بعد

الاندنار. قال صاحب (الفيح القسّي في الفتح القدسي) بعد كلام : « فانظروا إلى إيوان كسرى وسيية البحترى في وصفه، تجدوا الانوار فد حرت سُعْفَانِه وعُفِّرَتْ سُرفَاتِه، وتجدوا سينية البحترى قد بفي بها كسرى في ديوانه، أضعاف ما بقي تشخصه في إيوانه » وهذه السينية هي التي يقول في مطلعها :
صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدْنِسُ نَفْسِي وَتَرَفَعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جَبَسٍ

والتي اتفقوا على أن البديع الفرد من أياتها قوله :
وَالْمَنَابَا مَوَائِلُ وَأَنْوِشُرُ وَأَنْ يُزْجِي الصُّفُوفُ تَحْتَ الدَّرَفَسِ^(١)

فكنت كلما وقفت بحجر، أو طُفْتُ بأثر، تمثلت بأبيانها، واسنرحت من موائل العبر إلى آبانها، وأنشدت فيما بيني وبين نفسي :

وعَظَّ الْبُحْثَرِيُّ إِيوَانُ كِسْرَى وَشَفَقْتَنِي الْقُصُورُ مِنْ عِبْدِ شَمْسٍ

« تم جعلت أروض القول على هذا الروي، وأعالجه على هذا الوزن، حتى نظمت هذه القافية المهلهلة، وأتممت هذه الكلمة الرقيقة، وأنا أعرضها على القراء، راجياً أن يلحظوها بعين الرضاء، وبسحبوا على عبوبها ذيل الإعضاء »

وهذه الكلمة تمثل نثر شوقي، فهو بسجع ولا بكاد يُبين^(٢)، غير أنه قد يوفق إلى تشابهه مبتكرة نسير مسير الأمثال، كقوله في وصف آثار العرب في بلاد الإسبان : « يسري زائرهما من حَرَمٍ إِلَى حَرَمٍ، كمن يَمْسِي بالكرك وبصبح بالهرم ».

ونلك والله عبادة صريحة لآثار الفراعنة على ضفاف النيل.
وهي كذلك تمثل رأيه في شعر البحترى فهو عنده « أبلغ من جَلَى الأثر، وحيّا الحجر، ونشر الخبر، وحشر العبر » وتصور لنا تلك الكلمة ما كان بجول في نفس شوقي، وكبف كان روح البحترى يُطيف به وهو يطوف بالحمراء.

(١) الدرّفس : العلم، وهي كلمة فارسية، ومبها جاءت الكلمة الفرنسية.
(٢) غصب شوقي رحمه الله من هذه الكلمة، وكان يرى نفسه أكب الناس، ونحن لا يؤمن بعوته الكتابية، ولكننا مع ذلك نراه بلغ العانه في رسالته عن ماه السويش.

ولا بدري من هم الدين يذكر شوفي أنهم اتقفوا على أن البديع الفرد من
 قصيدة البحري هو قوله :
 والمنايا مواتل وأنوتير وان يرجي الصُفوف تحت الدُّرُفِ
 وكنا نحب لو نبه لقوله في وصف الإيوان :
 ليس بُدري أصنع إنسٍ ليجسَّ سكُوه أم صُنع جنٍ لإنسٍ
 وفوله في بكائه :
 لو تراه علمت أن الليلي جعلت فيه مائماً بعد عرسٍ
 ولشوقي رأبه، فقد يختلف النقد أحياناً باختلاف الأذواق.

البحث السادس عشر

حنين شوقي إلى مصر

قد رأيت في الكلمة الماضية أن البحري ابتداءً سينيته بالترم بالعيش وشكوى الزمان، والتكرار لظلم الأقرين، وكان ذلك لأن نزعتهم لم تكن اجتماعية، وإنما كانت فردية. أما شوقي فقد ابتداءً سينيته بقطعة وجدانية، نفيض بالحنين إلى مصر، وتزخر بالشوق إلى النيل، وهو كأنما يتكلم عن نفسه، ويحدث الناس عن شجونه، ولكنه في الواقع يتوجع لما يعاني وطنه من وطأة الظلم، ويتفجع لما تقاسي بلاده من قسوة الاضطهاد، وإنه ليكي ملاعب شبابه، وعهود صباه، حين بقول في مطلع هذه السينية :

أَخْتِلَافُ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ يُنْسِي فَادْكُرَا لِي الصَّبَا وَأَيَّامَ أَنْسِي
وَصِفَا لِي مُلَاوَةً مِنْ شَبَابٍ صُورَتْ مِنْ تَصَوُّرَاتٍ وَمَسْرُ
عَصَفَتْ كَالصَّبَا اللَّعُوبِ وَمَرَّتْ سِنَّةٌ حُلُوءَةٌ وَلَذَّةٌ خَلَسَ

ثم يأخذ في الحديث عن مصر فيقول :
وَسَلَا مِصْرَ هَلْ سَلَا الْقَلْبُ عَنْهَا أَوْ أَسَا جُرْحَهُ الزَّمَانُ الْمُؤَسِّي
كُلَّمَا مَرَّتْ اللَّيَالِي عَلَيْهِ رَقٌّ وَالْعَهْدُ فِي اللَّيَالِي تُقَسِّي
مُسْتَطَارًّا إِذَا الْبُؤَاجِرُ رَنَّ أَوَّلَ اللَّيْلِ أَوْ عَوْتُ بَعْدَ جَرَسِ
ولا أحب أن أنتقل إلى خطاب شوقي للباخرة قبل أن أنبه القارئ إلى روعة

الحسن في قوله :

وَسَلَا مِصْرَ هَلْ سَلَا الْقَلْبُ عَنْهَا أَوْ أَسَا جُرْحَهُ الزَّمَانُ الْمُؤَسِّي

فقد جعل حبه لبلاده أعز من أن تنال منه الليالي، وجعل جرحه في هوى مصر أعضل من أن يطب له الزمان، وانظر كيف وصف قلبه حين قال :

كُلَّمَا مَرَّتِ اللَّيَالِي عَلَيْهِ رَقَّ وَالْعَهْدُ فِي اللَّيَالِي تُقَسِّي
مُسْتَطَارًا إِذَا الْبَوَاخِرُ رَنَّتْ أَوَّلَ اللَّيْلِ أَوْ عَوَتْ بَعْدَ جَرَسِ

وهو هنا لم يذكر أن قلبه كان يخفق كلما أومض البرق، أو هبّ النسيم، كما كان يحدث الأعراب، وإنما يصف ما يحسه الغريب على شواطئ المحيط. وأين وميض البرق، وهبوب الريح، من أصوات البواخر في غسق الليل ؟ ! — ثم قال :

بَا آبَتَةَ الْيَمِّ مَا أَبُوكِ بِخَيْلٍ مَالَهُ مُوَلَعًا بِمَنْعٍ وَحَبْسِ
أَحْرَامٍ عَلَى بِلَالِيهِ آلدُو حُ حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ
كُلُّ دَارٍ أَحَقُّ بِالْأَهْلِ إِلَّا فِي خَبِيثٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ رِجْسِ

والقارئ يتلقى هذه الآيات الآن بشيء من الطمأنينة، أما الذين قرؤوها يوم قالها شوقي فلهم فيها رأي، ومن كان في ريب من هذا فليذكر الأحكام العرفية، لاقدّر الله لها رجعة، ولا كتب لها أوبة، فقد كنا نتغنى بقول شوقي :

أَحْرَامٌ عَلَى بِلَالِيهِ آلدُو حُ حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ

ثم تتمثل مصر في صورة الشجرة الوريقة، نُفرت عنها اللابل المعردة، ثم صارت مأوى للبوم، ومقيلاً للغربان، وكذلك كانت مصر في ذلك الحين، فكان شهيد الحرية محمد بك فريد، يرسل الأمانى عساها تقبل ثرى مصر، وتنهل من سلسيل النيل، ثم لاتجاب له طلبه، ولا يبدو منه مأمول، في حين أن بلاد الفراعنة كانت مفتحة الأبواب لكل أتم القلب، وقاح الوجه، خبيث اللسان !! وسيظل قول شوقي :

أَحْرَامٌ عَلَى بِلَالِيهِ آلدُو حُ حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ

سيظل هذا البيت مثاراً للشجى والأسى، حتى تغدو تلك الشجرة دات الظلال

والأفنان، وهي للبلابل مأوى وللطواويس مقيلا. أما قوله :
كُلُّ دَارٍ أَحَقُّ بِالْأَهْلِ إِلَّا فِي خَيْتٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ رَجَسٍ
فهو رمبة مسددة في صدر الظلم، ونحر الاستبداد، وسيظل غصة يشجي بها
بعض الخلق — ثم قال في خطاب الباخرة :

نَفْسِي مِرْجَلٌ وَقَلْبِي شِرَاعٌ بِهِمَا فِي آلِ الدُّمُوعِ سِيرِي وَأُرْسِي
وَأَجْعَلِي وَجْهَهُ « الْفَنَارَ » وَمَجْرَا لِي يَدُ « التَّعْرِ » بَيْنَ رَمْلٍ وَمَكْسٍ
وَطَنِي لَوْ شِغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَازَعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي
وَهَفَا بِالْفُؤَادِ فِي سَلْسِيلٍ ظَمًا لِلَسَّوَادِ مِنْ عَيْنِ شَمْسٍ
شَهِدَ اللَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْ جُفُونِي شَخْصُهُ سَاعَةً وَلَمْ يَخُلْ حَسِّي
بُضِيحُ الْفِكْرِ وَالْمَسَلَّةُ نَادِي — وَبِالسَّرْحَةِ الزَّكِيَّةِ يُمَسِّي

وأي نفس يمثلها شوفي في هذا الشعر البديع، إنه والله يمثل النفس المصرية،
وحسبي أن أقول : النفس المصرية، وهل في الدنيا — ولولا التقى لأضفت إليها
الآخرة — وطن خليق بأن يعذب في سبيله أبناءه مثل وادي النيل ؟

إن الذي يعيش في مصر، وله ذوق شوقي وإحساسه، ليس بكثير عليه أن
يقول :

وَطَنِي لَوْ شِغِلْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَازَعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الْخُلْدِ نَفْسِي
وَهَفَا بِالْفُؤَادِ فِي سَلْسِيلٍ ظَمًا لِلَسَّوَادِ مِنْ عَيْنِ شَمْسٍ
شَهِدَ اللَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْ جُفُونِي شَخْصُهُ سَاعَةً وَلَمْ يَخُلْ حَسِّي

ولقد كانت مصر، ولا تزال باباً من الفتنة لكل من يمسي وله فيها
رأي مُطاع وبفضلها يقول فرعون :

﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ .
ولقد يذكرون أن المأمون قال لجوده، وهو يشاهد الأهرام : « أهذه كفر
فرعون بربه ! » فقال له أحد وزرائه : يا أمير المؤمنين إن الله يقول :
﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ .

فإذا كانت هذه بقايا ما دمر الله فلفرعون العذر إن غلب عليه الضلال.
وطغيا ملوك مصر دليل على ما تورث أهلها من العزة، وتغرس فيها من
الجبروت، كالسبف الصقيل يحمل صاحبه على الفك، ويحبب إليه العدوان.
وسبحان من لو شاء لرزقنا قسطاً من أسباب الفتنة في هذه البلاد !

ثم يقول شوقي وهو يمثل الجزيرة والنيل :

وَكَأَنِّي أَرَى الْجَزِيرَةَ أَيُّكَأً	نَعَمْتُ طَيْرُهُ بَارِخَمٍ جَرَسِ
هِيَ بَلْقَيْسُ فِي الْخَمَائِلِ صَرْخُ	مِنْ عُبابٍ وَصَاحِبِ غَيْرِ نَكْسِ
حُسْبُهَا أَنْ تَكُونَ لِلنَّيْلِ عِرْساً	قَلْبُهَا لَمْ يُجَنَّ يَوْماً بِعَرَسِ
لَبَسْتُ بِالْأَصِيلِ حُلَّةً وَشِي	بَيْنَ صُعَاءٍ فِي الثِّيَابِ وَقَسِ ^(١)
قَدْهَا النَّيْلُ فَاسْتَحَتْ فَتَوَارَتْ	مِنْهُ بِالْجَسْرِ بَيْنَ عُرْيٍ وَلُبْسِ
وَأَرَى النَّيْلَ كَالْعَفِيقِ بِوَادِي	هـ وَإِنْ كَانَ كَوَثَرُ الْمُتَحَسِّي
أَبْنُ مَاءِ السَّمَاءِ ذُو الْمَوَكِبِ الْفَخْمِ	الَّذِي بِحَسْرِ الْعُيُونِ وَيُخْسِي
لَا تَرَى فِي رِكَابِهِ غَيْرَ مُثْنِ	بِجَمِيلٍ أَوْ شَاكِرٍ فَضْلَ عَرَسِ

وهذا خيال وادع جميل، ولكن شوقي لم يصبر عليه، بل عاد إلى هجّيره من
النوح على مجد خوفو ورمسيس، وأخذ يقول :

وَأَرَى الْجَزِيرَةَ الْحَرِينَةَ ثَكَلَى	لَمْ نَفِقْ بَعْدُ مِنْ مَنَاحَةِ رَمْسِي ^(٢)
أَكْثَرْتُ ضَجَّةَ السَّوَافِي عَلَيْهِ	وَسُؤَالَ الْبِرَاعِ عَنْهُ بِهَمْسِ
وَقِيَامَ النَّخِيلِ ضَفَرْنَ شَعْرًا	وَتَجَرَّدْنَ غَيْرَ طَوْقٍ وَسَلْسِ ^(٣)
وَكَأَنَّ الْأَهْرَامَ مِيزَانُ فِرْعَوُ	نَ يَوْمٍ عَلَى الْجَبَابِرِ نَحْسِ
أَوْ فَنَاطِيرُهُ تَأَنَّقَ فِيهَا	أَلْفُ جَابٍ وَأَلْفُ صَاحِبِ مَكْسِ
رُوعَةً فِي الضُّحَى مَلَاعِبُ حِنِّ	حِينَ يَغْشَى أَلْدُحَى جِمَاهَا وَيُغْشِي

وكذلك يحسب شوقي، وهو يدب مجد الفراغة، أن ما في الطبيعة من ماء

(١) فس : بالفتح موضع بن العريش والفرما من أرض مصر تنسب إليه الثياب القسية.

(٢) يريد رمسيس.

(٣) السلس : من قولهم سلسلت النحلة إذا ذهت بها أصول السعف.

ونبات وجهاد يبكي معه ذلك الملك الذي بطش به القدر وعدا عليه القضاء. والشاعر حين يرضى يحسب الكون يبتسم لابتسامه؛ وحين يغضب يحسب الكون يكتئب لاكتئابه، ولعل هذه السداجة هي أظرف ما في الشعراء؛ إذ كانت سمة من سمات الطفولة البريئة، وكم في الطفولة من معان تسكن إليها شوارد النفوس.

ثم انتقل شوقي إلى الحديث عن أبي الهول فقال :

وَرَهِيْنُ الرُّمَالِ أَفْطَسُ إِلَّا أَنَّهُ صُنْعُ جِنَّةٍ غَيْرِ فُطْسٍ
تَنْجَلِي حَقِيقَةُ النَّاسِ فِيهِ سَمِعُ الْخَلْقِ فِي أُسَارِيرِ إِنْسِي
لَعَبَ الدَّهْرِ فِي ثَرَاهُ صَبِيًّا وَاللَّيَالِي كَوَاعِبًا غَيْرَ عُثْسٍ^(١)
رَكَبْتُ صَيْدَ الْمَقَادِيرِ عَيْنُهُ لِنَقْدِ وَمُخْلِئِهِ لِفَرَسِ
فَأَصَابَتْ بِهِ الْمَمَالِكُ كِسْرَى وَهَرَقَلًا وَالْعُقَرَى الْفَرْنَسِي

وهذا أيضاً خيال شعراء، فهو يتوهم أن المقادير ركبت عيني أبي الهول لنقد الحوادث، وأعدت مخليه لافتراس الطغاة، ولكن هيات لما بظن هيات، والويل لأمة تنتظر في خمود حتى يثار لها قعيد الصحراء !

على أن من الحق أن نبين أن شوقي لم يسق هذه الخرافة، وهو يحسبها حقيقته، إنما هو الفن يقضي على صاحبه باستغلال موارد الخيال، وأبو الهول — رضي الله عنه إن كان ولياً، وجل جلاله إن كان إلهاً — معبود قديم طالما قُدمت له القرايين، ولا يزال المصريون يقيمون بما كان بنمين به آباؤهم من قبل، وبتشاءمون مما كانوا يتشاءمون منه، كما لا يزال العرب يحسبون حساب السائح والبارح، أسوة بما كان يفعل آباؤهم الأقدمون، ولولا اتقاء الفتن لذكرت نماذج من أساطير الأولين ترينا كيف كان « هداة الأمم » يثيرون ما ركذ فيها من العواطف بالإشادة بما عرف لهم من المعبودات، وعلى هذا المنهج جرى شوقي فسبح بحمد أبي الهول في جملة من قصائده الطوال، والساعر كالخطيب لا تهمة العقول إذا ظفر بالملوب.

(١) عس : جمع عاس، وهي الفاه بطول مكنتها في دار أبيها بعد إدراكها حتى نخرج من عداد الأكار.

ثم عاد شوقي إلى قلبه، وقد غمره الحزن، فأخذ يباحيه بهذا الترحيع الحزين، وانظر كيف يقول :

بَا فُؤَادِي ! لِكُلِّ أَمْرٍ قَرَارٌ	فِيهِ يَبْدُو وَيَنْجَلِي بَعْدَ لَبْسٍ
عَقَلْتُ لُجَّةَ الْأُمُورِ عُقُولاً	كَانَتِ الْحُوتَ طُولَ سَحْرِ وَعَسَّ ^(١)
عَرِفْتُ حَيْثُ لَا يُصَاخُ بِطَافٍ	أَوْ عَرِيقٍ وَلَا يُصَاخُ لِجَسٍّ
فَلَكَ يَكْسِفُ الشُّمُوسَ نَهَاراً	وَيُسُومُ الْبُذُورَ لَيْلَةً وَكُسٍ
وَمَوَاقِيتُ لِلْأُمُورِ إِذَا مَا	بَلَعَتْهَا الْأُمُورُ صَارَتْ لِعَكْسٍ
دَوْلٌ كَالرَّجَالِ مُرْتَهَنَاتٌ	بِقِيَامٍ مِنَ الْجُدُودِ وَتَعَسٍ
وَلَيَالٍ مِنْ كُلِّ ذَاتٍ سِوَارٍ	لَطَمَتْ كُلَّ رَبِّ رُومٍ وَفُرسٍ
سَدَدَتْ بِالْهَلَالِ قَوْساً وَسَلَّتْ	خَنْجَراً يَنْقُذَانِ مِنْ كُلِّ تُرسٍ
حَكَمَتْ فِي الْقُرُونِ خَوْفَ وَذَارَا	وَعَفَتْ وَائِلًا وَاللَّوْتَ بَعْبَسٍ
أَيْنَ مَرْوَانُ فِي الْمَشَارِقِ عَرْشُ	أُمُويٍّ وَفِي الْمَغَارِبِ كَرْسِي

وقفه قصيرة

لاحظنا أن شوقي تحدث عن نفسه قليلا في بداية القصيدة، ثم اندفع في الحديث عن شوقه إلى مصر، وتفجعه لما تقاسي من عاديات الخطوب، فرأيناه يصور الجزيرة ويمثل استحياها حين قدها النيل، ثم رأيناه يذكر أن الجزيرة لا تزال في أثواب الحداد على رمسيس، وأن السواقي لا تبرح ترسل على ذكره الدموع والأنين، وأن النخيل تحردت في الحزن عليه، فلم يبق عليها غير الشعور والاطواق، ورأيناه كذلك يتكلم عن أبي الهول وعن الأهرام، ويتخيل أبا الهول قارعة عتيقة لإهلاك الطغاة، ثم رأيناه وقد عاوده القلق على مصر ولم يقنعه السكون إلى الخيال، فأخذ يزفر من جديد ويقول :

بَا فُؤَادِي ! لِكُلِّ أَمْرٍ قَرَارٌ فِيهِ يَبْدُو وَيَنْجَلِي بَعْدَ لَبْسٍ
وَأَيْنَ هَذَا الْقَرَارِ، يَا بَلْبَلُ النَّيْلِ ! هَاتِهِ، هَاتِهِ، وَخُذْ مِنْ أَرْوَاحِنَا مَا تَشَاءُ !

(١) الغس : مرادف للسيح.

ثم شرع يصف القدر بهذه الصورة الشعرية البديعة وهو يقول :

عَقَلْتُ لُجَّةَ الْأُمُورِ غُفُولاً كَانَتْ الْحُوتَ طُولَ سَبْحٍ وَغَسَّ
غَرَقْتُ حَيْثُ لَا يُصَاحُ بِطَافٍ أَوْ غَرِيْبٍ وَلَا يُصَاحُ لِحَسٍّ
فَلَكْ يَكْسِفُ الشَّمْسُ نَهَاراً وَيُسُومُ الْبُذُورَ لَيْلَةً وَكُسَّ

ولم تظفر النفس الإنسانية برثاء أبرع من هذا الرثاء، ولا وجدت العقول من يذرف عليها مثل هذه الدمعة، وهي على جبروتها ألوعة القدر وأضحوكة القضاء، ومن ذا الذي وقف على القبر الذي ثوت فيه آمال الأمم المعذبة، ثم جاد عليها بمثل هذه الدمعة الغالية، يذرفها مثل شوقي على تلك العقول التي عقلتها لجة الخطوب، والتي غرقت حيث لا يصاح لحس، ولا يصاح بطافٍ أو غريق.

ولقد كانت هذه النفثات مقدمة جميلة لرثاء الحمراء، فقد مهد شوقي لوقفته على أطلالها تمهيداً هو غاية الغايات في إعداد النفس لبكاء المجد الذاهب، والملك السليب. والنفس المصرية يذكرها مجد الفراعنة بمجد العرب، كما يذكرها ملك العرب بملك الفراعنة، والسجى يبعث الشجى، وهذا كله قبر مالك، لو يعلم اللائمون !

ولم يصنع البحري هذا الصنيع، وإنما حدثنا عما طففت الأيام من ضبابية عبثه، وما كان من غبته حين باع الشام واشترى العراق، وكيف رآه بُؤ ابن عمه بعد أن كان أنيس المحضر، لين الجانبين، ثم قال :

حَضَرْتُ رَحْلِي الْهُمُومُ فَوَجَّهْتُ إِلَى أَبْيَضِ الْمَدَائِنِ عَنِّي
أَتَسَلَّى عَنِ الْحُطُوطِ وَأَسَى لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسَ

وهذا هو عين الاقتضاب، ولا يبعد عندي أن يكون الزمن قضى على جزء من هذه القصيدة، وإن لم يوجد ما يرجح هذا الظن، فقد كانت هذه القصيدة بلا ريب موضع عناية الرواة، ولكن المربب هو أن يزهد البحري في حسن التخلص وهو يجبر قصيدة من أروع قصائده إن لم تكن أجمل ما قال. وكان من عادته كذلك أن يخبر للبدابة ما يمت بصلة وثيقة إلى ما سينتقل إليه، وأشهر ما له في هذا الأسلوب قصيدته الميمية في عتاب الفتح بن خاقان، فقد ابتدأها بقطعة

من النسيب هي أيضاً عتاب، وذلك حيث يقول :
يَهُونُ عَلَيْهَا أَنْ أَبَيْتَ مَتِيماً
أُعَالِجُ شَوْقاً فِي الضَّمِيرِ مُكْتَمَا
وَقَدْ جَاوَزْتُ أَرْضَ الْعِرَاقِ وَأُضْبَحَتْ
جَمِي وَضَلِيلَهَا مَذْ حَاوَرَتْ أَبْرَقَ الْحِمَى
بَكَتْ حُرْقَةً عِنْدَ الْفِرَاقِ وَأَرْدَفَتْ
سُلُوءاً نَهَى الْأَحْشَاءُ أَنْ تَتَضَرَّعَ مَا
فَلَمْ يَبْقَ مِنْ مَعْرُوفِهَا غَيْرُ طَائِفٍ
يُلِمُّ بِنَا وَهْنًا إِذَا الرِّكْبُ هَوَا

وفي هذه القصيدة يقول :
وَلَمْ أَعْرِفْ الذَّنْبَ الَّذِي سُوِّتَنِي لَهُ
فَأَقْتُلَ نَفْسِي حَسْرَةً وَتَنْدُ مَا
وَلَوْ كَانَ مَا خُبْرَتُهُ أَوْ ظَنَّنَتْهُ
لَمَا كَانَ غَرَوًا أَنَّ الْوَمَّ وَتَكْرُمَا
أَذْكُرُكَ الْعَهْدَ الَّذِي لَيْسَ سُودُ دَا
نَنَاسِيهِ وَالْوَدَّ الصَّحِيحَ الْمُسْلَمَا
أَقْرُّ بِمَا لَمْ أَجْنِهِ مُتَنَصِّلاً
إِلَيْكَ عَلَى أَنِّي إِحَالُكَ الْوَمَا
لِي الذَّنْبُ مَعْرُوفًا وَإِنْ كُنْتُ جَاهِلًا
بِهِ وَلَكَ الْعُتْبَى عَلَيَّ وَأَنَعَمَا
وَمِثْلُكَ إِنْ أَبْدَى الْفَعَالُ أَعَادَهُ
وَإِنْ صَنَعَ الْمَعْرُوفَ رَادَّ وَتَمَمَا

نقول : إن البحري لم يؤثر التخلص في قصيدته السينية، وإنما آثر الاقتضاب،
ولا كذلك شوقي، فقد أخذ يتكلم عن ويلات الممالك وبكبات الشعوب، ثم
دخل في الموضوع برفق وهو يقول :

أَيْنَ مَرَوَانُ فِي الْمَشَارِقِ عَرَسُ
أُمُويُّ وَفِي الْمَغَارِبِ كُرْسِي
سَقَمَتْ سَنَمُسُهُمْ فَرَدَّ عَلَيْهَا
نُورَهَا كُلُّ ثَاقِبِ الرَّأْيِ نَطَسِ
نُفْ غَابَتْ وَكُلُّ شَمْسٍ يَسُوى هَاتِيكَ
تَبْلَى وَتَنْطَوِي تَحْتَ رَمْسِ
وَعَظَ الْبُحْتَرِيَّ إِيوَانُ كِسْرَى
وَشَفَنِي الْقُصُورُ مِنْ عَبْدٍ شَمْسِ

نقرر هذا، ثم نذكر أن البحري لا لوم عليه في أن خلت قصيدته من مثل المقدمة
الممتعة التي افتتحت بها قصيدة شوقي، لأن ظروف البحري، وقد ضاق به عيشه،

وظلمه أهله، غير ظروف شوقي وهو يحاول العودة إلى وطن أسير تحالفت عليه الرزايا وتنكر له الزمان، وأصلاه أهله نار العقوق، وهو قد خلّف في هذا الوطن أحلام شبابه وأوهام صباه، وترك فيه ما كان يملك من أسباب الحياة، ثم هو لا يدري إذا عاد أيقّر قراره فيلقي عصا التسيار، أم تعصف به وشاية جديدة، تحمله إلى المنفى من جديد... ولو كان للبحثري مثل هذا القلب المشرد، وهو يشد رحاله إلى الإيوان، لكان له شأن آخر، ولكانت شكواه مضرب الأمثال، ولكن الشاعر له « رسالة » يؤدبها إلى أهل عصره، ولا مفر له من أدائها ما دام له قلب ووجدان، وكانت « رسالة » شوقي حين قال سينيته أن يصف ما يلاقي أهل مصر من الكمد، وهم يودعون كل يوم فريقاً من أبنائهم الأحرار، ويستقبلون بالرغم منهم ما يُلقى إليهم البحر من نفايات الأمم وأوشاب الأقطار، وكان له في ذلك هذا البيت الذي يصلح لكل أمة ولكل جيل :

أَحْرَامٌ عَلَى بَلَابِلِهِ أَلَدُّوْ حُ حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ

وفي مقابله البحثري، وهو يتحدث عن نفسه :

وَأَشْتَرَايَ الْعِرَاقَ خَطَّةً غَبْنٍ نَعْدُ بَيْعِي السَّأَمَ بَيْعَةَ وَكَسٍ

ولكن أين هذا من ذاك ؟ ! وأين قول البحثري في عنف الدهر وجوره :
وَكَاَنَّ الزَّمَانَ أَصْبَحَ مَحْمُومًا لَا هَوَاهُ مَعَ الْأَخْسَرِ الْأَخْسَرِ

من قول شوقي في المعنى نفسه :

عَقَلْتُ لُجَّةَ الْأُمُورِ عُقُولًا كَانَتْ الْحَوْتَ طُولَ سَبَحٍ وَعَسْرٍ
غَرِقْتُ حَيْثُ لَا يُصَاخُ بِطَافٍ أَوْ غَرِيقٍ وَلَا يُصَاخُ لِجَسٍّ

فإن هذه صورة شعرية نادرة المثال.

ومطلع البحثري :

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدْنَسُ نَفْسِي وَتَرَفَعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جَبْسٍ

فيه ضعف واختلال، وليس بقاطع الدلالة على الإباء، وخير منه مطلع شوقي :
اِخْتِلَافُ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ يُنْسِي فَأَذْكُرَا لِي الصَّبَا وَأَيَّامَ أَنْسِي

وإن كنا لا ندري بمن يستنجد، وقد نسي أيام صباه، ورحم الله ابن الأحنف
إذ يقول :

نَزَفَ الْبُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فَاسْتَعِرَ عَيْنًا لِغَيْرِكَ دَمْعُهَا مِذْرَارُ
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنُهُ تَبْكِي بِهَا أَرَأَيْتَ عَيْنًا لِلدُّمُوعِ تُعَارُ

ويذكرون أن لُورد كرواير حضر عرساً مصرياً وسمع المغنّي يقول « حبيبي
غاب، هاتوه لي يا ناس » فلما سأل المترجم عن معنى هذا الصوت ووقف على
مدلوله قال : « إن المصري لكسول، وإنه ليطلب حتى من يعينه على رد محبوبه
الغائب ». وكذلك يطلب شوقي من يحدثه عن أيام الأُنس في عهد الشباب،
وإنه لمَطلب عجيب !

البحث السابع عشر

بين البحري وشوقي

ولقد أخذ البحري : بعد مقدمته الوجيزة يتكلم عن إيوان كسرى، ويتحدث عن بُناته، ويعرّض بسكان القفار من الأعراب، فيقول :

أَتَسَلَّى عَنِ الْخُطُوبِ وَآسَى	لِمَحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسَ
ذَكَرْتَنِيهِمُ الْخُطُوبُ التَّوَالِي	وَلَقَدْ تُذَكِّرُ الْخُطُوبُ وَنُثْيِي
وَهُمُو خَافِضُونَ فِي ظِلِّ عَالٍ	مُشْرِفٍ يَحْسِرُ الْعُيُونُ وَبُحْيِي
مُعَلِّقٌ بَابَهُ عَلَى جَبَلِ الْفَبَقِ	إِلَى دَارَتِي بِخِلَاطٍ وَمَكْسِ
حَلَلٌ لَمْ تَكُنْ كَأُطْلَالٍ سَعْدَى	فِي فِقَارٍ مِنَ الْبَسَائِسِ مُلْسِ
وَمَسَاعٍ لَوْ لَا الْمُحَابَاةُ مِنِّي	لَمْ تُطَفِّهَا مَسْعَاةُ عَنَسٍ وَغَيْبِ
نَقَلَ آلَ دَهْرٍ عَهْدَهُنَّ مِنَ الْجَدَّةِ	حَتَّى غَدَوْنَ أَضَاءَ لُبْسِ
فَكَأَنَّ الْجِرْمَا زَ مِنْ عَدَمِ الْإِنْسِ	وَإِخْلَاقِهِ بَيِّنَةُ رَمْسِ
لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَالِي	جَعَلَتْ فِيهِ مَائِمًا بَعْدَ عُرْسِ
وَهُوَ يُنْبِيكَ عَنْ عَجَائِبِ قَوْمٍ	لَا يُسَابُ الْبَيَانُ فِيهِمْ بَلْسِ

وهذا البيت الأخير تمهيد مباشر لوصف ما في الإيوان من النقوش والنهاويل، ولنا إليه عودة، فلنلاحظ الآن أن البحري بتحس، وهو يبين عن أثر الإيوان في نفسه، ويتوقف وهو يفصح عما بين العرب والفرس من شتى الفروق، ونرجع

هذه الحبسة إلى اتقاء الفتنة، وكبح ما يجمع عن هذه المفارقة من شهوة التنافر وإثارة الأحقاد، ولهذا يقول في هدوء :

حَلَلْ لَمْ تَكُنْ كَأَطْلَالِ سَعْدَى فِي قِفَارٍ مِنَ الْبَسَائِسِ مُلْسٍ
وَمَسَاعٍ لَوْلَا الْمُحَابَاةُ مَنِّي لَمْ تُطِفْهَا مَسْعَاةُ عُنْسٍ وَعَبْسٍ

وقد صدق، وإن جرح الإيوان، وإلا فما هي أطلال سعدى، ورسوم ليل ونوى عفرأ ! ولم يحد شوقي ما بضطره إلى مثل هذه المواربة، إذ كان يتكلم عن مجد المسلمين والعرب، في بلاد إسلامية مجموعته الأهواء، ومن هنا نراه يقول في وضوح وجلاء :

رُبَّ لَيْلٍ سَرَيْتُ وَالْبَرْقُ طَرْفِي أَنْظِلْمُ الشَّرْقُ فِي (الْجَزِيرَةِ) بِالْعَرِ فِي دِيَارٍ مِنَ الْخَلَائِفِ دَرْسٍ وَرُبًّا كَالْجِنَانِ فِي كَنْفِ الزَّبْتُونِ لَمْ يَرْعِنِي سِوَى ثَرَى قُرْطَبِي يَا وَقَى اللَّهَ مَا أَصْبَحُ مِنْهُ قَرِيَّةً لَا تُعَدُّ فِي الْأَرْضِ كَانَتْ غَشِيَتْ سَاحِلَ الْمُحِيطِ وَغَطَّتْ رَكِبَ الدَّهْرُ خَاطِرِي فِي ثَرَاهَا فَتَجَلَّتْ لِي الْقُصُورُ وَمَنْ فِيهَا مَا صَفَتْ قَطُّ فِي الْمُلُوكِ عَلَى نَدِّ	وَبَسَاطِ طَوَيْتُ وَالرَّيْحُ عَنِّي بِ وَأَطْوِي الْبِلَادَ حَزَنًا لِدَهْسِ وَمَنَارٍ مِنَ الطَّوَائِفِ طَمْسِ خَضِرٍ وَ فِي دَرَا الْكَرَمِ طُلْسِ لَمَسْتُ فِيهِ عِبْرَةَ الدَّهْرِ حَمْسِي وَسَقَى صَفْوَةَ الْحَيَا مَا أُمْسِي تُمْسِكُ الْأَرْضَ أَنْ تَمِيدَ وَثُرْسِي لُجَّةَ الرُّومِ مِنْ شِرَاعٍ وَقَلْسِ فَأَنَّى ذَلِكَ الْجَمَى بَعْدَ حَدْسِ مَنْ الْعِزُّ فِي مَازِلِ قُعْسِ لِ الْمَعَالِي وَلَا تَرَدَّتْ بِجَسِ
---	---

ومن الخير أن ندل على الأبيات المختارة هنا وهناك. ونحن نستعيد قول البحتري :

ذَكَرْتَنِيهِمُ الْخُطُوبُ التَّوَالِي وَلَقَدْ تُدَكِّرُ الْخُطُوبُ وَتُتْسِي

ولعجز هذا البيت مغزى بديع، ونستعيد كذلك قوله :

نَقَلَ الدَّهْرُ عَهْدَهُنَّ مِنَ الْجَدَّةِ حَتَّى غَدَوْنَ أَنْصَاءَ لُبْسِ
فَكَانَ الْجَرَمَازُ مِنْ عَدَمِ الْأُنْسِ وَإِخْلَاقِهِ بَيِّنَةُ رُمْسِ

وفي هذين البيتين دقة وخيال، وللقارئ أن يتأمل كيف صارت هذه الخلل :
« أنضاء لبس » وكيف أمسى الجرماز وكأنه : « بنية رمس ». فأما قوله :
لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَالِي جَعَلَتْ فِيهِ مَاتِمًا بَعْدَ عُرْسٍ
فهو غاية الغايات في بكاء المغاني، بتحكّم فيها البلى، وتبطش بها أبدي العفاء.

ونستجيد قول شوقي :
لَمْ يَرُعْنِي سِوَى ثَرَى قُرْطُبِي لَمَسْتُ فِيهِ عِبْرَةَ الدَّهْرِ خَمْسِي
ولمس العبرة من المعاني الدقيقة. وقد بلغ غاية الرفق، وهو يقول في
تحية هذا الثرى :

يَا وَقَى اللَّهِ مَا أَصْبَحَ مِنْهُ وَسَقَى صَفْوَةَ الْحَيَا مَا أَمْسَى
ونستجيد كذلك قوله :

رَكِبَ الدَّهْرَ خَاطِرِي فِي ثَرَاهَا فَاتَى ذَلِكَ الْجَمَى بَعْدَ حَدْسٍ
يصف تلك البقعة بالدروس، ويذكر أنه ضل ولم يهتد إلا بعد أن ركب خاطره
الدهر، ومع هذا لم يصل إلا بعد توهم وحس، وتلك وثبة من وثبات الخيال.

ثم أخذ البحري يصف ما في الإيوان من صور المعارك فقال :
فَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَا كِيَّةَ آرْتَعَتْ بَيْنَ رُومٍ وَفُرْسٍ
وَالْمَنَايَا مَوَائِلَ وَأَنُوشِرَوَانَ يُزْجِي الصُّنُوفَ تَحْتَ الدَّرَفْسِ
فِي أَخْضَرَارٍ مِنَ اللَّبَاسِ عَلَى أَصْفَرٍ يَخْتَالُ فِي صَبِيعَةٍ وَرْسٍ
وَعِرَاكِ الرِّجَالِ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي خُفُوتٍ مِنْهُمْ وَإِغْمَاضٍ جَرَسٍ
مِنْ مُشِيحٍ يَهْوِي بِعَامِلِ رُمَحٍ وَمُلِيحٍ مِنَ السُّنَانِ بُرْسٍ
تَصِفُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا ءَ لَهُمْ بَيْنَهُمْ إِشَارَةُ خُرْسٍ
يَعْتَلِي فِيهِمْ آرْتِيَابِي حَتَّى تَقْرَأَهُمُ يَدَايَ بِلَمْسٍ

وهذه القطعة من أدق ما قيل في الوصف، بذكر أنه شهد في الإيوان صورة
كسرى، وهو يحاصر أنطاكية وأنتك لو رأيت هذه الصورة لارتعت من حملة
الفرس على الروم، وكيف يرتاع المرء، وهو يشاهد صورة على الحائط ؟ هذا هو

وجه الحسن فهو يذكر أنك حين ترى هذه الصورة، لا يخطر ببالك أنها صورة، وإنما تحسب لصدق التصوير أنك في ميدان القتال، والمنايا موائل أمامك، فيما أنوشروان يزجي الصفوف تحت اللواء. ولم يفته أن يصف ما على الجنود من ألوان الثبات، وما هم عليه من إثثار الخفوت، بين مُشيح بالرمح، ومُليح بالسنان، وانظر كيف يقول :

تَصِفُ الْعَيْنُ أَنَّهُمْ جِدُّ أَحْيَا ءَ لَهُمْ بَيْنَهُمْ إِشَارَةُ خُرْسِ
يَعْتَلِي فِيهِمْ أَرْتِيَابِي حَتَّى تَتَقَرَّاهُمْ يَدَايِ بِلَمْسِ

فهو يراهم جدّ أحياء، وإن لم يُسمع لهم صوت، لأن في سماتهم مايدل على اكتفائهم بالإشارة كما يكتفي الخرس، ثم يعود إلى نفسه فيذكر أنه أمام صورة، ثم يُغلب على حسه فيرتاب فيما يراه : فيلمس الصورة بيده ليعرف أحقيقة هي أم خيال !، والمصور الحاذق هو الذي يُسبغ على صورهِ أثواب الحياة. ولقد أذكر أني شهدت في أطلال الفراعنة بالأقصر صورة سمكة، ولم أكد أملاً منها عيني حتى خلتها تتقلب، وكذلك يسحر الفن الجميل.

ولقد نحا شوقي منحى البحري في الوصف، وإن اختلف الموصوف، فقال وقد تجلت له تلك القصور :

وَكَأَنِّي بَلَغْتُ لِلْعِلْمِ بَيْتًا فِيهِ مَالُ الْعُقُولِ مِنْ كُلِّ دَرَسِ
قُدْسًا فِي الْبِلَادِ شَرْقًا وَغَرْبًا حَجَّهُ الْقَوْمُ مِنْ فَقِيهِ وَقَسِ
وَعَلَى الْجُمُعَةِ الْعِجَالَةُ وَ (النَّا) نُورُ الْخَمِيسِ تَحْتَ الدَّرَفَسِ
يُنْزِلُ النَّاجِ عَنْ مَفَارِقِ (دُونِ) وَيُحَلِّي بِهِ جَبِينِ (الْبَرْنِسِ)
سِنَةً مِنْ كَرِيٍّ وَطَيْفٍ أَمَانٍ وَصَحَا الْقَلْبُ مِنْ ضَلَالٍ وَهَجَسِ
وَإِذَا الدَّارُ مَا بِهَا مِنْ أَنْيسٍ وَإِذَا الْقَوْمُ مَا لَهُمْ مِنْ مُحْسِ
وَرَقِيقٍ مِنَ الْبُيُوتِ عَتِيقٍ جَاوَزَ الْأَلْفَ غَيْرَ مَذْمُومِ خُرْسِ
أَثَرٍ مِنْ (مُحَمَّدٍ) وَثَرَاتٍ صَارَ (لِلرُّوحِ) ذِي الْوَلَاءِ الْأَمْسِ
بَلَغَ النَّجْمُ ذُرْوَةً وَتَنَاهَى يَبْنَ (تَهْلَانِ) فِي الْأَسَاسِ وَ (قُدْسِ)
مَرَمَرٍ تَسْبَحُ النَّوَظِرُ فِيهِ وَيَطُولُ الْمَدَى عَلَيْهَا فَتْرِيسِ

وَسَوَارٍ كَانَتْهَا فِي آسْنَوَائِهِ
فَتَرَهُ الدَّهْرَ فَذَكَرَتْ سَطْرِيهَا
وَنَحَهَا كَمْ تَزَيَّنْتُ لِعَلِيمٍ
وَكَانَ الرَّفِيفَ فِي مَسْرَحِ الْعَيْ
وَكَانَ الْآيَاتِ فِي جَانِبِيهِ
مُبِيرٌ تَحْتَ (مُنْذِرٌ) مِنْ جَلَالِ
وَمَكَانَ الْكِتَابِ يُعْرِيكَ رِيَا
أَلْفَاتُ الْوَزِيرِ فِي عَرْضِ طِرْسِ
مَا أَكْتَسَى الْهَدْبُ مِنْ قُتُورٍ وَنَعْسِ
وَاحِدِ الدَّهْرِ وَاسْتَعَدَّتْ لَخَمْسِ
مِنْ مُلَاءٍ مُدْنَرَاتُ الدِّمَقْسِ
بَتَنَزَّلْنَ مِنْ مَعَارِجِ قُدْسِ
لَمْ يَزَلْ يَكْتَسِيهِ أَوْ تَحْتَ قُسْ
وَرَدِهِ غَائِبًا فَتَدْنُو لِلْمَسِ

وهذه القطعة على طولها لا تسمو إلى ما وصلت إليه النفثة البحترية من فتنة القلب والوجدان، ولعل السر في هذا أن البحتري وجد في الإيوان صورة الحرب بين الفرس والروم، وصورة الحرب هز النفس، وتثير ما كمن فيها من عناصر القوة والفتوة. أما شوقي فقد وجد بالقصر آيات من القرآن، لم يذكر أكانت في وصف الجنة، أم في الدعوة إلى القتال؟ والفن الذي يستمد قوته من الأصول الدينية، الوداعة الهادئة، لا يصلح إلا للكهول، والويل للأعم إذا لم تغلب عليها نزعات الفروسية، ولم بسند بها ما في الشباب من نشاط وجنون.

وما أبعد الفرق بين قول البحتري :
وَالْمَنِيَا مَوَائِلُ وَأَنْوِشُرُ وَأَنْ يُزْجِي الصُّفُوفَ تَحْتَ الدَّرَفْسِ
وبين قول شوقي :

وَعَلَى الْجُمُعَةِ الْجَلَالُ وَالنَّاصِرُ نُورُ الْخَمِيسِ تَحْتَ الدَّرَفْسِ
وشوقي يصف ما رآه، فلا لوم عليه ولا نثر، وصدق من قال :
فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقْتَنِي رَمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَّتْ

وقد لا نجد في هذا العصر من يسمح بأن نوضع في المساجد والمعابد صور المعارك والحروب. ولم بظلم أحد أهل الشرف، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون : فقد حولوا جهودهم العلمية والفنية إلى الآخرة، كما بينا ذلك في كتاب « الأخلاق

عند الغزالي « وتركوا الدنيا لمن هم أحق بها من شياطين الغرب، وحيّا الله أولئك الشياطين، فهم ملائكة هذا الجيل، وإن رذائل القوة لحير من فضائل الصعف، لو يعلم الشرقيون.

ولشوقي أن يذكر أن جلالة الدين كانت لذلك العهد من أقوى البواعث على حراسة الملك، ولم تكن صورة رسميه بسنق إليها طلاب الرق، وللرزق أبواب ! ! يدل على هذا قوله :

سِنَةٌ مِنْ كَرِيٍّ وَطَيْفٌ أَمَانٍ وَصَحَا الْقَلْبُ مِنْ ضَلَالٍ وَهَجَسِ
وَإِذَا الدَّارُ مَا بِهَا مِنْ أُنَيْسٍ وَإِذَا الْقَوْمُ مَا لَهُمْ مِنْ مُحَسِّ

فهو يأسى على أن تبين أن ذلك الحرم ومن فيه من الملوك، وما فيه من آثار العقول، ليس إلا سنة من الكرى، وطيفاً من الأمان.

ويعجبني قوله في وصف القصر :

مَرْمَرٌ تَسْبَحُ التَّوَاطُرُ فِيهِ وَتَطُولُ الْمَدَى عَلَيْهَا فُرْسِي
وَسَوَارٍ كَانَتْهَا فِي اسْتَوَاءٍ أَلْفَاتُ الْوَزِيرِ فِي عَرْضِ طُرْسِ

وإن كان تشبيه سوارى القصر بألفات ابن مقلة فيه شيء من الضعف إذ كان جمال الخط لا يتعدى الحسن إلى الجلال، والفرق بعيد بين الحسن الفاتن، والجمال الرائع، فجمال النهر في اللبالي المقمرة فيه حسن وفتنة، وفيه أيام السرار، روعة وجلال.

وقول شوقي :

وَمَكَانُ الْكِتَابِ يُعْرِبُكَ رِيًّا وَرَدِّهِ غَائِبًا فَتَذُنُو لِلْمَسِ

مأخوذ من قول البحري :

يُعْتَلِي فِيهِمْ ارْتِيَابِي حَتَّى تَفْرَاهُمُو يَدَايَ بِلَمْسِ

وبيت البحري أجود في معناه، وهو كذلك بفتضيه السياق، أما بيت شوقي فهو في مكانه غريب.

وقول شوقي بعد ذلك الوصف :
صَنَعَةَ (الدَّاحِلِ) الْمُبَارَكِ فِي الْعَرُ بِ وَآلٍ لَهُ مَيَّامِينَ شُمْسِ
فيه ضعف، وكأنه لم يقله إلا على سبيل التكملة، وما أغنى الشعر عن مثل
هذا التذييل !!

البحث الثامن عشر

الفصل بين البحري وشوقي

رأينا كيف وصف البحري ما رآه في الإيوان من رسم الواقعة بين الفرس والروم، ونذكر الآن أنه انتقل من ذلك الوصف إلى الحديث عن تلك الكأس الروية التي اصطبغ بها في الإيوان، فقال :

قَدْ سَقَانِي وَلَمْ يُصَرِّدْ أَبُوالْعَوِ	ثِ عَلَى الْعَسْكَرَيْنِ شَرْبَةَ خَلَسِ
مِنْ مُدَامٍ تَقُولُهَا هِيَ نَجْمٌ	أُضْوَاءُ اللَّيْلِ، أَوْ مُجَاجَةُ شَمْسٍ
وَتَرَاهَا إِذَا أَجَدَّتْ سُرُورًا	وَارْتِيحًا لِلشَّارِبِ الْمُتَحَسِّي
أَفْرَعَتْ فِي الرُّجَاجِ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ	فَهِيَ مَحْبُوبَةٌ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ
وَتَوَهَّمْتُ أَنَّ كِسْرَى إِبْرَوِي	زَ مُعَاطِيٍّ وَالْبَلَهَبُذُ أَنْسِي
حُلْمٌ مُطَبِّقٌ عَلَى الشُّكِّ عَيْنِي	أَمْ أَمَانٍ غَيْرَنَ ظَنِّي وَحَدْسِي

وهذه القطعة لا تجد ما يقابلها في سينية شوقي، لأن صاحب الشوقيات لم يزر أطلال الحمراء ليغرق همومه هناك في أكواب الشمول، كما فعل البحري وهو يزور الإيوان، فكان لنا أن ندرس هذه الأبيات على سبيل الاستطراد، إذ لا تقتضيها الموازنة، ولا يدعو إليها التفضيل، ونحن نستملح قوله :

مِنْ مُدَامٍ تَقُولُهَا هِيَ نَجْمٌ أُضْوَاءُ اللَّيْلِ أَوْ مُجَاجَةُ شَمْسٍ

ووصف الخمر بمجاجة الشمس فيه شيء من روعة الخيال، وعجز هذا البيت

يشفع لصدره، وقد تدخل اللفظة في شفاعة اللفظات، ويمر البيت في خلال الأبيات، كما يقول صاحب زهر الآداب، وكذلك نستجيد قوله في وصف تلك الصهباء :

وتراها إذا أجذت سرورا وارتياحا للشارب المتحسّي
أفرغت في الزّجاج من كلّ قلب فهي محبوبّة إلى كلّ نفس

ولك أن تتأمل كيف يرنو الشارب المتحسّي إلى المدام، ثم يخالها أفرغت في الزجاج من كل قلب ! ولا تنس أنه يقول (من كل قلب) وأنها لذلك (محبوبّة إلى كل نفس) فإن لهذا الشمول والتعميم معنى يروع أصحاب الأذواق من علماء المعاني. وانظر كيف دارت الخمر بعد ذلك برأس البحرّي فتوهم — ومن ذا الذي لا يتوهم وهو في مثل حاله ! — أن كسرى نديمه، والبلهذ أنيسه، وكيف ثاب إلى رشده، وأخذ يفكر أهو في حلم أطبق عينيه على الشك، أم هي أمان غير ظنه وحده ! وفي هذا التردد ما فيه من تمثيل الحيرة والارتياب في رأس المتعلّق النشوان.

ثم عاد إلى وصف الإيوان فقال :
وَكَانَ الْإِيوَانَ مِنْ عَجَبِ الصَّنْ
يَتَنَظَّنِّي مِنَ الْكَأَبَةِ أَنَّ يَسْ
مُرْعَجًا بِالْفِرَاقِ عَنْ أَنْسِ الْف
عَكَسَتْ حَظَّهُ اللَّيَالِي وَبَاتَ الْ
فَهُوَ يُبْدِي تَجَلُّدًا. وَعَلَيْهِ
لَمْ يَعْبه أَنَّ بُزَّ مِنْ بُسْطِ الدِّي
مُشْمَخِرٌ تَعْلُو لَهُ شُرَفَاتُ
لَا يَسَاتُ مِنَ الْبَيَاضِ فَمَا تُبْ
لَيْسَ يُدْرَى أَصْنَعُ إِنْسٍ لِحْنُ
غَيْرَ أَنِّي أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنَّ لَمْ

عَةِ جَوِّ فِي جَنْبِ أَرْغَنِ جَلَسَ
دُوَ لِعَيْنِي مُصْبِحٍ أَوْ مُمَسِّي
عَزَّ أَوْ مُرْهَقًا بِتَطْلِيْقِ عِرْسِ
مُشْتَرِي فِيهِ وَهُوَ كَوَكْبُ نَحْسِ
كَكَلَّ مِنْ كَلَاكِلِ الدَّهْرِ مُرْسِي
بَاجٍ وَاسْتَلَّ مِنْ سُتُورِ الدَّمَقْسِ
رُفِعَتْ فِي رُؤُوسِ رَضْوَى وَقُدْسِ
حَصْرُ مِنْهَا إِلَّا فَلَايِلَ بِرْسِ
سَكْنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنِّ لَإِنْسِ
يَكُ بَانِيهِ فِي الْمُلُوكِ يَنْكُسِ

وفي هذه القطعة نجد البحرّي يتمثل الإيوان في صورة الحب أترعت الليالي

كأسه بأنس أليفه، تم أزعجته بالفراق، والعروس أصفاه الدهر حلاوة الوصل،
ثم أرققه بالطلاق، ويراه يتظنى من الكآبة أن يبدو لعيى من يطالعه عند الصباح،
أو عند المساء، وكيف لا يكون كذلك وقد عكست حظه الليالي، فأصبح
مثار الشجى، ومبعث الأسى، بعد أن كان من مرايع الغزلان، وملاعب الحور
الحسان 11 وانظر كيف يقول:

فَهَوَّ يَدَيَّ تَجَلُّدًا وَعَلَيْهِ كَلْكُلٌ مِنْ كَلَاكِلِ الدَّهْرِ مُرْسِي

وفي هذا البيت صورة رائعة لذلك الإيوان الذي صور به البحتري « كائناً حياً »
أناخ الدهر عليه بكلكله، وأراه كيف تكون مضاضة الذل بعد نضارة العز،
وكيف يكون العدم بعد الوجود. وللتساعر في الديار الخالية وقفات تبعث ميت
الوجد، وتثير دفين الإحساس، فإن كنت في ريب من ذلك فحدثني أيّ شيطان،
أو أي ملاك، أوحى إلى البحتري : أن الإيوان أصبح — وقد استلّت منه ستور
الدمقس وبسط الديباج — شبيهاً بالغادة الحسناء نزع عنها البؤس ما كانت تملك
من الثباب، فأضحت متجردة تدعوك إلى الرحمة حياً وتعريك بالفتون أحياناً ؟
ونحن نعيد القارئ أن يرمينا بالغلو والإسراف، فهذا والله ما نفهمه من قول
البحتري

لَمْ يَعْبهُ أَنْ بُزَّ مِنْ بُسْطِ الدِّيبِ بَاجٍ وَاسْتُلَّ مِنْ سُتُورِ الدَّمَّقَسِ

وكذلك نزع الدهر ما كان بالإيوان من عارض التهاويل، وخلاؤه كالعادة
المتجردة لا تدري أكان تجردها من قسوة الفقر، أم من سكر الدلال... وما نريد
أن نزيد ! وللقارئ أن ينأمل حسن الأداء في قوله :

عَكَسَتْ حَظُّهُ اللَّيَالِي وَبَاتَ الْـ مُشْتَرِي فِيهِ وَهُوَ كَوَكَبُ نَحْسٍ

فإنه لم يقل : « بات المشتري فيه كوكب نحس » وإنما قال : « بات المشتري
فيه، وهو كوكب نحس ». وكلمة : « وهو » لها ما لها من الفضل في تأكيد
المعنى وتقريره، عند علماء المعاني... وكذلك قوله فيما صارت إليه شرفات

الإيوان :

لَا بَسَاتٍ مِنَ الْبَيَاضِ فَمَا تُبِّ صَبْرٌ مِنْهَا إِلَّا فَلَائِلَ بَرَسٍ

فإن كلمة « من » لها هنا موقع جميل، وهي أدل على التقليل من التثوين ...! أما قوله :

لَيْسَ يُذْرَى أَصْنَعُ إِنْسٍ لِّجِنَّ سَكْنُوهُ أَمْ صُنْعُ جِنَّ لِإِنْسٍ

فهو من عيون هذه القصيدة، والعرب ينسبون إلى الجن صنع كل عجيب، وهي خرافة قديمة، تزخر بها الأساطير، وهي كذلك مورد من موارد الخيال — وكان من المستهجن أن يعقب البحرى هذا البيت الفرد بقوله :

غَيْرَ أَنِّي أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنْ لَمْ يَكْ بَأْيِهِ فِي الْمُلُوكِ يَنْكَسِرِ

وهو بيت ضعيف بينه وبين سابقه بون بعيد... وقد عاد إلى وصف ما في

الإيوان فقال :

فَكَأَنِّي أَرَى الْمَرَائِبَ وَالْقَوُ	مَ إِذَا مَا بَلَغْتُ آخِرَ حِسِّي
وَكَأَنَّ الْوُفُودَ ضَاحِجِينَ حَسْرَى	مِنْ وَقُوفٍ خَلَفَ الزَّخَامَ وَخُنْسِ
وَكَأَنَّ الْقِيَانَ وَسَطَ الْمَقَاصِي	رِ يُرَجِّحَنَّ بَيْنَ حُوٍّ وَلُغْسِ
وَكَأَنَّ اللَّقَاءَ أَوَّلَ مِنْ أَمْسِ	سِ وَوَشْكَ الْفِرَاقِ أَوَّلَ أَمْسِ
وَكَأَنَّ الَّذِي يُرِيدُ اتِّبَاعاً	طَامِعٍ فِي لُحُوقِهِمْ صُبْحَ خَمْسِ
عُمَرَتْ لِلشُّرُورِ ذَهْراً وَصَارَتْ	لِلتَّعْزِي رِبَاعَهُمْ وَالتَّأْسِي
فَلَهَا أَنْ أُعِينَهَا بِدُمُوعِ	مُوقَفَاتٍ عَلَى الصَّبَابَةِ حُبْسِ

ولهذه الأبيات روعة يحسها من شهد من التصوير الصادق مثل ما شهد البحرى في أعطاف الإيوان. والبحرّى بهذا الوصف فنان، يقول على علم ويعرف ما يعني، ولك أن تتأمل كلمة « كان » موقعها الجميل في قوله :

وَكَأَنَّ الْوُفُودَ ضَاحِجِينَ حَسْرَى مِنْ وَقُوفٍ خَلَفَ الزَّخَامَ وَخُنْسِ

وقوله :

وَكَأَنَّ الْقِيَانَ وَسَطَ الْمَقَاصِي رِ يُرَجِّحَنَّ بَيْنَ حُوٍّ وَلُغْسِ

وقوله :

وَكَأَنَّ اللَّقَاءَ أَوَّلَ مِنْ أَمْسِ سِ وَوَشْكَ الْفِرَاقِ أَوَّلَ أَمْسِ

وقد دلت القارئ على مواطن الحسن في هذه القصيدة، فليهل بعد ذلك من رحيقها كما يشاء.

نفثة شوقي

أما شوقي فقد أخذ يكي الحمراء بعد وصفها فقال :

مَنْ لِحْمَرَاءَ جُلِّلَتْ بِغُبَارِ الدَّهْرِ	مِنْ كَالْجُرْحِ بَيْنَ بُرَى وَنُكْسِ
كَسْنَا الْبَرْقَ لَوْ مَحَا الضُّوْءُ لَحْظًا	لَمَحَتْهَا الْعُيُونُ مِنْ طُولِ قَبْسِ
حِصْنُ غِرْنَاطَةِ وَدَارُ بَنِي الْأَخِ	حَرٍ مِنْ غَافِلٍ وَيَقْظَانِ نَدْسِ
جَلَلِ الثَّلُجُ دُونَهَا رَأْسَ شِيرَى	قَبْدًا مِنْهُ فِي عَصَائِبِ بَرْسِ
سَرْمَدٌ شَيْئُهُ وَلَمْ أَرِ شَيْئًا	قَبْلَهُ يُرْجَى الْبَقَاءَ وَيُنْسِي
مَشَتْ الْحَادِثَاتُ فِي غُرْفِ الْحَمِّ	رَاءَ مَشْيِ النَّعِيِّ فِي دَارِ غُرْسِ
هَتَكَتْ عِزَّةَ الْحِجَابِ وَفَضَّتْ	سُدَّةَ الْبَابِ مِنْ سَمِيرٍ وَأَنْسِ
عَرَصَاتُ تَخَلَّتِ الْخَيْلُ عَنْهَا	وَاسْتَرَاخَتْ مِنْ اخْتِرَاسِ وَعَسِ
وَمَعَانٍ عَلَى اللَّيَالِي وَضَاءَ	لَمْ تَجِدْ لِلْعَشِيِّ تَكَرَّارَ مَسِ
لَا تَرَى غَيْرَ وَاهِدَيْنِ عَلَى الثَّا	رِيخِ سَاعِينَ فِي خُشُوعٍ وَنُكْسِ
نَقَلُوا الطَّرْفَ فِي نَضَارَةِ آسِ	مِنْ نَقُوشٍ وَفِي عُصَارَةِ وَرْسِ
وَقَبَابٍ مِنْ لَأَزُورْدٍ وَتَبْرِ	كَالرُّبَا الشَّمِّ بَيْنَ ظِلِّ وَشَمْسِ
وَحُطُوطٍ تَكْفُلْتُ لِلْمَعَانِي	وَلَا لَفَاطِهَا بِأَزِينِ لُبْسِ
وَتَرَى مَجْلِسَ السَّبَاعِ خَلَاءَ	مُقْفِرِ الْقَاعِ مِنْ طِبَاءِ وَخُنْسِ
لَا الثُّرَيَّا وَلَا جَوَارِي الثُّرَيَّا	يَتَنَزَّلْنَ فِيهِ أَقْمَارَ أَنْسِ
مَرْمَرٌ قَامَتْ الْأُسُودُ عَلَيْهِ	كَلَّةَ الظَّفَرِ لَيِّنَاتِ الْمَجْسِ
تَنْثُرُ الْمَاءَ فِي الْحِيَاضِ جُمَانًا	يَتَنَزَّى عَلَى تَرَائِبِ مُلْسِ

وفي هذه الكلمة نرى شوقي يتمثل الحمراء، وهي مجللة بغبار الدهر، وهذا خيال رائع، ولكنه ليس بكثير على شوقي، فقد ألف الحديث عن أسرار الحياة وطبائع الوجود، وكلف منذ بعيد بالابانة عن عدوان الحوادث، والإفصاح عن

عسف الخطوب، ويكاد يستنطق الموت، وهو يتحدث عن مصير من اسنراخوا من دار الختل والنفاق.. وانظر كيف يذكر أن الحمراء أصبحت كالجرح بين براء ونكس، وهذا أصدق تصوير لذلك الأثر الذي يعج إليه أحفاد بانه، فبعُدونه ويمثونه، لو تنفع الأماني، أو تصدق الوعود، ومن ذا الذي لم يفكر في نكبة الحمراء، ولم يتمن لو يصبح وهو خليفه ابن زياد ؟ ولكن أين فتوة العرب، وأين شباب الزمان ؟

وللقارئ أن يتصور كيف مشت الحادثات في غرف الحمراء مشي النعي في دار عرس، فهذا أيضاً خيال رائع، وهو مأخوذ من قول أبي نواس :
فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشِّي الْبُرِّ فِي السَّفَمِ
ما لنا ولهذا التكلف ؟ فقد ذكر النقاد أن أبا نواس كذلك مسبوق، على أن تشبيه هتك الحوادث لأستار الحمراء بهتك النعي لدار العرس، أروع من تشبيه أثر الخمر في مفاصل الندامى بأثر البرء في جسم السقيم، وقول شوقي :
مَشَّتِ الْحَادِثَاتُ فِي غُرْفِ الْحَمِّ رَاءَ مَشْيِ النَّعْيِ فِي دَارِ عُرْسٍ
هَتَكَتْ عِزَّةَ الْحِجَابِ وَفُضَّتْ سُدَّةَ الْبَابِ مِنْ سَمِيرِ وَأَنْسٍ
فيه روعة، وفيه جلال، فهو يصور بطش الحوادث بالحمراء، ويصور مع هذا ما كان للحمراء من عزة وسلطان... أما قوله :
وَتَرَى مَجْلِسَ السَّبَاعِ خَلَاءَ مُقْفِرِ الْقَاعِ مِنْ ظِلَاءِ وَخُنْسٍ
لَا الثَّرِيَّا وَلَا جَوَارِي الثَّرِيَّا يَتَنَزَّلْنَ فِيهِ أَقْمَارُ أَنْسٍ
فهو وصف انفراد به، ولم يعرض لمثله البحتري، وكان عجباً أن يغفل عن إيراده، فإن القصور الخالية تذكر الإنسان فيما تذكر بمن كان يرتع فيها وبلعب، من كل ممشوقة القد، مجدولة الخلق، مصقولة الجبين.

خروج العرب من الجنة

وقد انفراد شوقي كذلك بالحديث عن خروج العرب من الجنة، ولا أعبر بغير ذلك، فقد كان شعراء الأندلس يتغنون بذلك الفردوس، ويرونه حسبهم من نعم

الآخرة والأولى، ولقد نظر شوقي إلى خروجهم نظرة مملوءة بالدمع حين قال :

بَعْدَ عَرْكِ مِنَ الزَّمَانِ وَضُرْسِ	آخِرَ الْعَهْدِ بِالْجَزِيرَةِ كَانَتْ
بَادَ بِالْأُمْسِ نَيْنَ أُسْرِ وَحَسِّ	فَتَرَاهَا تَقُولُ : رَابَةُ جَيْشِ
بَاعَهَا الْوَارِثُ الْمُضِيعُ بِخَسِّ	وَمَفَاتِيحُهَا مَفَالِيدُ مُلْكِ
عَنْ حِفَاطِ كَمَوَكِبِ الدَّفْنِ حُرْسِ	خَرَجَ الْقَوْمُ فِي كَتَائِبِ صُمِّ
تَحْتَ آثَائِهِمْ هِيَ الْعَرْشُ أُمْسِ	رَكِبُوا بِالْبَحَارِ نَعَشًا وَكَانَتْ
لِمُنْتِ وَمُحْسِنٍ لِمُخْسِ	رُبَّ بَانٍ لِهَادِمٍ وَجُمُوعِ
لِجَبَانٍ وَلَا تَسْتَسِي لِحَسِّ	إِمْرَةَ النَّاسِ هِمَّةٌ لَا تَأْنِي
وَهِيَ خُلِقَ فَإِنَّهُ وَهِيَ أُسِّ	وَإِذَا مَا أَصَابَ بُيَانَ قَوْمِ

ومع أن شوقي أشار كما ترى في هذه الأبيات إلى أن ضعف العرب في أحریات أيامهم كان السبب في خروجهم من تلك البلاد إذ كانت إمرة الناس لا تنسى لحبس، ولا تتأني لجبان، فقد أشار كذلك برفق إلى أن عهدهم لم ينقض إلا بعد عرك من الزمان وضرس. والحق أن فتح العرب للاندلس كان من الأحداث الخطيرة، وكان الطبيعي أن تدور عليهم الدائرة، وأن يحل بهم ما حل بالفرس والروم. ولا تذكر ما شبَّ في صدورهم من نار العداوة والبغضاء، ولا ما شحر بينهم على الملك من خلاف، ولا ما انغمسوا فيه من اللذات والشهوات، ولكن اذكر أنهم كانوا يحتلون بلاداً لا يزال أهلها يفكرون في الحرية ويحلمون بالاستقلال، والأمة الضعيفة لا تضرب عليها الدلة والمسكنة أبد الآبدين، كما يتوهم الفاتحون، وإنما يظل ضعفها بفتك الغاصبين في حفاء، كما تفتك على ضعفها الجرائيم، ثم ينفض هذا الضعف فحأة، فإذا هو فوة جارفة تسقط من بأسها الممالك، وتطيح من هولها العروش. فان كنت في ريب من ذلك فحدتني ماذا صنع العرب بالشعوب التي ملكوها باسم الدين ! ألم تتأثر تلك الشعوب لنفسها من الدين ؟ ألم يهجموا عليه بحبس من الوسوس والخرافات والأضاليل والأباطيل حتى صيره كالخرقة البالية لا تصلح لزينه، ولا ستر، ولا وقاية ؟ اسمع يا صاح ! القوة هي كل شيء في الوجود، والقوة فوق الحق، فإن أردت أن تحيا فتسلح

لهذه الحياة، والقوة هي السلاح، ومن قال بغير ذلك فهو في حاجة إلى استشارة الطبيب !

وكذلك كان العرب، فقد ركبوا البحر وهم أقوياء، فكان عرشاً، وركبوه وهم ضعفاء فكان نعشاً، وما تغير البحر، ولكن تغير الناس، ركبوه أول مرة وهم فاتحون، ثم ركبوه آخر مرة وهم هاربون، وما أبعد الفرق بين الفتح والفرار !

ثم قال شوقي في توديع تلك الديار :

يَا دِيَاراً نَزَلْتُ كَالْعُلْدِ ظِلًّا وَجَنَى ذَانِيَاً وَسَلَسَالِ أَنْسِ
مُحْسِنَاتُ الْفُضُولِ لَا نَاجِرْفِ هَا بِقَيْظٍ وَلَا جُمَادَى بِقَرَسِ
لَا تُحِسُّ الْعَيُونُ فَوْقَ رُبَاهَا غَيْرَ حُورٍ حَوْ المَرَّاشِفِ لُغْسِ
كُسَيْتُ أَفْرُحِي بِظِلِّكَ رِيشاً وَرَبَا فِي رُبَاكَ وَأَشَدَّ غَرْسِ
هُمْ بَنُو مِصْرَ لَا الْجَمِيلُ لَذِيهِمْ بِمُضَاعٍ وَلَا الصَّنِيعُ بِمُنْسِي
مِنْ لِسَانٍ عَلَى ثَنَائِكَ وَقَفِ وَجَنَانٍ عَلَى وَلَائِكَ حَبْسِ
حَسْبُهُمْ هَذَا الطُّلُولُ عِظَاتِ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى الدُّهُورِ وَدَرْسِ
وَإِذَا فَاتَكَ النِّفَاتُ إِلَى الْمَا ضِي فَقَدْ غَابَ عَنْكَ وَجْهُ التَّأْسِي

وما أريد الخوض في تحليل هذه الأبيات، فقد طال الحديث، إنما أذكر أننا غنمنا هذه القصيدة من حياة شوقي في الأندلس، وغنمنا معها « قطعة خشب » من قصر الحمراء تجدها في متحف الشاب المهدب حسين شوقي، وباليتنا نحرص على ما بقي في أيدينا من ملك العرب والمسلمين.. !

» » »

وسيدكر القارئ بعد هذا كله أني أوازن بين البحري وشوقي، وسيسأل أيهما أشعر ؟ وأنا أرجوه أن يراجع الموازنة ليحكم بما يشاء.
أما أنا فقد حكمت، والسلام^(١).

(١) بمناسبة سينية البحري يحسن أن نشير إلى أن الشاعر محمد المراوي وضع قصيدة سينية عن : « أبي الهول » كان فيها معنى المعارضة للبحري، وإن لم يقل ذلك، وهي قصيدة حدة، نثار منها قوله :

البحث التاسع عشر

البوصيري وشوقي

للوصيري قصيدة مشهورة تسمى « البردة » عارضها شوقي بقصيدة سماها « نهج البردة » وقد رأينا أن نوازن بين هاتين القصيدتين لنقف على مبلغ البوصيري وشوقي من العلم بأسرار الإسلام، فقد غني هذان الشاعران بدرس الشريعة لإظهار ما فيها من المحاسن، ودرء ما يُوجّه إليها من الشبهات، وسيكون موقفنا في درس هاتين القصيدتين موقف المؤرخ، وقد تؤرخ الأفكار كما يؤرخ الأشخاص، وحسبنا أن ندل القارئ على مواطن الضعف فيما صبغ من الأفكار بصبغة إسلامية، وللقارئ بعد ذلك رأيه، فإن شاء مضى في البحث والتنقيب، وإن شاء رضي واكتفى بما عليه عامة الناس، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

== نسي الناس يا أبا الهول أنا	أمة كالخديد صلب المجسّ
لم يعيننا أنا بلتنا شعوب	وبلّونا الشعوب من كل جنس
كل من ساءنا أذناه سوءاً	يبد الله كل كأس بكأس
فاسألوا الروم ما دهي الروم فيا	واسألوا الفرس عن مصاب الفرس
أم تلك دات ناب وضررس	قد مضغا ما بين ناب وضررس
فليت كلهما ونحن يقينا	من حمى الله في حظيرة قدس

وللهراوي قصيدة أخرى سببية هي بلا شك من وحي البحري، وهي قصيدته التي رقف بها على دار الشيخ محمد عبده في عين شمس، وكان من الختم أن نشير إلى ذلك لبين كيف سرت أنفاس البحري إلى شعراء هذا الجيل.

حياة البوصيري

هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صهاج. كان أحد أئمة من (أبو صير)، والآخر من (دلاص) فركبت له منهما نسبة، وقيل : (الدلاصيري) لكنه اشتهر بالبوصيري، وكان يعاني صناعة الكتابة والتصرف وبيع الكتب ببلبيس^(١).

والبوصيري شاعر مصري ظريف من شعراء القرن السابع للهجري في شعره السكت المستملحة. وله في شكوى حاله والتذمر من الموظفين قصائد لا تخلو من ذكاء، وفي شعره وصف للحالة الاجتماعية في عصره، وأحسسه من الصادقين، فهو يذكر أن الموظفين كانوا يسرقون الغلال، وأنهم لولا ذلك ما لبسوا الحرير، ولا شربوا الخمر، وأن من الكتاب طائفة تنسكت وغدت من الزهاد مع أنها تنام بطونها بالسحت، وتأكل مال الأيتام، ويذكر أن القضاة حابوا الأمراء، وبرروا خيانتهم بتأويل القرآن والحديث، ويذكر أن المسلمين والأهمل طاعة الخلفاء، فكان المسلمون يقولون : لنا بمصر حقوق، ونحن أولى الأحدين، وكان الفيلق يقولون : نحن ملوك مصر، ومن سوانا هم العاصيون، وكان اليهود يسمعون ما الطوائف أجمعين.

وفي ذلك يقول :

نَقَدْتُ طَوَائِفَ الْمُسْتَخْدِمِينَ	فَلَمْ أَرْ فِيهِمْ خَيْرًا أَمْسَا
فَقَدْ عَاشَرْتُهُمْ وَلَبِثْتُ فِيهِمْ	مَعَ التَّجَرُّبِ مِنْ عُسْرَتِ سَمَا
فَكُتَابُ الشَّمَالِ هُمُ جَمِيعًا	فَلَا صَحِيحَ شِدَائِهِمُ الْيَسَا
فَكَمْ سَرَقُوا الْغَلَالَ وَمَا عَرَفْنَا	بِهِمْ فَكَاتَهُمْ سَرَقُوا الْعُيُوسَا
وَلَوْ لَا ذَلِكَ مَا لَبَسُوا حَرِيرًا	وَلَا شَرَبُوا خُمُورَ الْأَنْبَارِ سَا
وَلَا رَبَّوْا مِنَ الْمُرْدَانِ مُرْدًا	كَأَعْصَانِ سُلَاسٍ مَبْحَسَا
وَقَدْ طَلَعْتُ لِبَعْضِهِمْ ذُقُونْ	وَلَكِنْ بَعْدَ مَا حَلَفُوا دُفُورَا

(١) توفي البوصيري سنة ٦٩٥هـ، وله من مشهور في الاسكندرية قصيدته في مدح الخليفة الموحدي، وهو من العلوم الدينية.

وَأَقْلَامُ الْجَمَاعَةِ جَائِلَاتٌ
وَقَدْ سَاوَمْتُهُمْ حَرْفًا بِحَرْفٍ
أَمْوَالِي الْوَزِيرِ غَفَلَتْ عَمَّا
نَسَّكَ مَعْشَرٌ مِنْهُمْ وَغَدُّوا
وَقِيلَ لَهُمْ دُعَاءٌ مُسْتَجَابٌ
تَفَقَّهْتَ الْقَضَاةُ فَخَانَ كُلُّ
وَمَا أَخْشَى عَلَى أَمْوَالٍ مُضَرٍ
يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ لَنَا حُقُوقٌ
وَقَالَ الْقَبْطُ نَحْنُ مُلُوكُ مُضَرٍ
وَحَلَّتِ الْبُهُودُ بِحِفْظِ سَبَبٍ
وَمَا ابْنُ قُطَيْبَةٍ إِلَّا شَرِيكَ
أُغَارَ عَلَى قُرَى (فَافُوسَ) مِنْهُ
وَصَيَّرَ عَيْنَهَا حِمْلًا وَلَكِنْ
وَأَصْبَحَ شُغْلُهُ تَحْصِيلَ نِيرٍ
وَقَدَّمَهُ الدِّينَ لَهُمْ وَضُولَ
وَفِي دَارِ الْوِكَالَةِ أَيُّ نَهْيٍ
فَقَامَ بِهَا يَهُودِيٌّ خَبِيثٌ
إِذَا أَلْقَى بِهَا مُوسَى عَصَاهُ
وَشَاهِدُهُمْ إِذَا اتَّهَمُوا يُؤَدِّي

وهذه القطعة ذكرها صاحب فوات الوفيات من قصيدة طويلة يذكر أنها كانت مشهورة، وشهرتها فيما نرى لا ترجع إلى قيمتها الأدبية لأنها قصيدة ضعيفة تعلق عليها الابتذال، وإنما ترجع شهرتها إلى ما فيها من التنديد بالموظفين، والناس يبغضون الموظفين حين يُعرفون بالطمع والاسبئداد. ولهذه القصيدة قيمتها من الوجهة التاريخية، فهي شاهد على اختلاف الطوائف في مصر وعلى ما كان يجري إذ ذاك بين المسلمين والنصارى واليهود، وهي كذلك شاهد على عيوب الإدارة في ذلك الحين.

ومن شعر البوصيري فيما يجري مجرى الدعابة قوله في الحديث عن جارية راودها عن نفسها فأكرت عليه الشيب والضعف :

أَهْوَى وَالْمَشِيبُ قَدْ حَالَ دُونَهُ وَالْثَّصَابِي بَعْدَ الْمَشِيبِ رُعُونَهُ
أَبَتْ النَّفْسُ أَنْ تُطِيعَ وَقَالَتْ إِنَّ حُبِّي لَا يَدْخُلُ الْقَيْنِيَنَهُ
كَيْفَ أَغْصِي الْهَوَى وَطَيْئَةُ قَلْبِي بِالْهَوَى قَبْلَ آدَمٍ مَعْجُونَهُ
سَلَيْتُهُ الرُّقَادَ بَيِّضَةً خِذِرٍ ذَاتُ حُسْنٍ كَالدُّرَّةِ الْمَكُونَهُ
سُمْتُهَا قُبْلَةً تُسَرُّ بِهَا النَّفْسُ سُرُّ فَقَالَتْ كَذَا أَكُونُ حَزِينَهُ
قُلْتُ لَا بُدَّ أَنْ تَسِيرِي إِلَى الدَّاءِ رِ فَقَالَتْ عَسَى ! أَنَا مَعْجُونَهُ !
قُلْتُ سِيرِي فَإِنِّي لَكَ خَيْرٌ مِنْ أَبٍ رَاحِمٍ وَأُمٍّ حَنُونَهُ
أَنَا نَعَمَ الْقَرِينَ إِنْ كُنْتَ تَبْغِي نَ حَلَالاً وَأَنْتِ نَعَمَ الْقَرِينَهُ
قَالَتْ أَضْرِبْ عَن وَضَلٍ مِثْلِي صَفْحاً وَأَضْرِبِ الْخُلَّ أَوْ يَصِيرَ طَحِينَهُ
لَا أَرَى أَنْ تَمْسُنِي يَدُ شَيْخٍ كَيْفَ أَرْضَى بِهِ لَطَشْتِي مَشِينَهُ
قُلْتُ إِنِّي كَثِيرٌ مَالٍ فَقَالَتْ هَبْكَ أَنْتَ الْمُبَارِزُ الْقَارُونَهُ

وهذا أيضاً شعر ضعيف، ولكن فيه « حكاية ظريفة » من حكايات مولانا الشيخ رضي الله عنه وأرضاه !

وأظرف من هذه القطعة أبيانه التي بعث بها إلى ناظر الشرقية، وكانت له حمارة استعارها منه الناظر فأعجبته، فكتب على لسانها إليه :

يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ الَّذِي شَهِدْتُ أَخْلَاقَهُ لِي بِأَنَّهُ فَاضِلٌ
مَا كَانَ ظَنِّي بِيَعْنِي أَحَدٌ قَطُّ وَلَكِنْ صَاحِبِي جَاهِلٌ
لَوْ جَرَسُوهُ عَلَيَّ مِنْ سَفَهٍ لَقُلْتُ غَيْظاً عَلَيْهِ يَسْتَاهِلُ
أَقْصَى مُرَادِي لَوْ كُنْتُ فِي بَلَدِي أُرْعَى بِهَا فِي جَوَانِبِ السَّاحِلِ
وَبَعْدَ هَذَا فَمَا يَجِلُّ لَكُمْ أَخْذِي لِأَنِّي مِنْ سَيِّدِي حَامِلٌ

وقد استظرف ناظر الشرقية هذه الأبيات، وردَّ إليه الحمارة، ولم يكن فيها من الزاهدين !

ونحن نستملح كذلك قصيدته التي بعث بها إلى أحد الوزراء في شكوى حاله،

وهي قصيدة طريفة، يذكر فيها أنه فقير، وأن أبناءه لا يجدون ما يأكلون، وأهم يتحسرون لفقد الكعك أيام الأعياد، وأن امرأته زارت أختها وشكت إليها سوء الحال، فأشارت عليها بضربه، ونتف ذقنه شعرة شعرة. وفي تمصيل ذلك يقول وهو يخاطب ذلك الوزير :

إِلَيْكَ نَشْكُو حَالَنَا إِنَّنَا فِي قِلَّةٍ نَحْنُ وَلَكِنْ لَنَا أَحَدٌ الْمَوْلَى الْحَدِيثَ الَّذِي صَامُوا مَعَ النَّاسِ وَلَكِنَّهُمْ إِنْ شَرِبُوا فَالْبَغْرُ زِيرٌ لَهُمْ لَهُمْ مِنَ الْخَبِيرِ مَسْلُوقَةٌ أَقُولُ مَهْمَا أَجْتَمَعُوا حَوْلَهَا وَأَقْبَلُ الْعَيْدُ وَمَا عِنْدَهُمْ فَارْحَمَهُمْ إِنْ غَايُوا كَعْكَةً تَشْخَصُ أَبْصَارُهُمْو نَحْوَهَا كَمْ قَائِلٍ يَا أَبْتَا مِنْهُمْو مَا صِرْتُ تَأْتِينَا بِفَلَسٍ وَلَا وَاَنْتَ فِي خِدْمَةِ قَوْمٍ فَهَلْ وَيَوْمَ زَارَتْ أُمُّهُمْ أُخْتَهَا وَأَقْبَلَتْ تَشْكُو لَهَا حَالَهَا قَالَتْ لَهَا كَيْفَ تَكُونُ النَّسَا قَوْمِي أَطْلُبِي حَقِّكَ مِنْهُ بِلَا وَإِنْ تَأْتِي فَخُذِي ذَقْنَهُ قَالَتْ لَهَا مَا هَكَذَا عَادَتِي أَخَافُ إِنْ كَلَّمْتُهُ كَلِمَةً وَهَوَّنْتُ قَدْرِي فِي نَفْسِهَا فَقَاتَلْتَنِي فَتَهَدَّدَتْهَا

حَاشَاكَ مِنْ قَوْمٍ أُولَى عُسْرَةٍ عَائِلَةٍ فِي غَايَةِ الْكَثْرَةِ جَرَى لَهُمْ بِالْخَيْطِ وَالْإِبْرَةِ كَانُوا لِمَنْ أَبْصَرَهُمْ عِبْرَةَ مَا بَرَحَتْ وَالشَّرْبَةُ الْجَرَّةُ فِي كُلِّ يَوْمٍ تَشْبُهُ الشَّوْرَةَ تَنْزَهُوا فِي الْمَاءِ وَالْخُضْرَةِ فَمَحَّ وَلَا خُبْزٌ وَلَا فُطْرَةَ فِي كَفِّ طِفْلٍ أَوْ رَأَوْا ثَمَرَةَ بِشَهْقَةٍ تَتْبَعُهَا زَفْرَةَ قَطَعْتَ عَنَّا الْخُبْزَ فِي كَرَةٍ بِدَرَهُمْ وَرِقٍ وَلَا نُقْرَةَ تَخْدُمُهُمْ يَا أَبْتَ سُخْرَةَ وَالْأُخْتُ فِي الْغَيْرَةِ كَالضَّرَةِ وَصَبْرَهَا مِنِّي عَلَى الْعُسْرَةِ كَذَا مَعَ الْأَزْوَاجِ يَا عُرَّةُ ! تَخْلُفُ مِنْكَ وَلَا فَتْرَةَ أَوْ اتَّفَيْهَا شَعْرَةَ شَعْرَةَ فَإِنَّ رَوْحِي عِنْدَهُ صَجْرَةَ طَلَّقْنِي قَالَتْ لَهَا نَعْرَةَ فَجَاءَتْ الزَّوْجَةَ مُجْتَرَّةً فَاسْتَقْبَلَتْ رَأْسِي بِأَجْرَةَ

وَحَقُّ مَنْ حَالَتْهُ هَذِهِ أَنْ يَنْظُرَ الْمَوْلَى لَهُ أُمْرَةً
وفي هذه القصيدة كثير من التعابير المصرية، ولا نزال نقابها موجودة في
بليس^(١).

قصيدة البردة

تعد قصيدة البردة أول قصيدة قيّمة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام،
ولم تكن المدائح النبوية مما يتكلم فيه الشعراء، والبوصيري هو الذي انحر هذا
النوع، أو هو الذي بسطه وأطال فيه القصيد، فإن قصائد الكميث بن زبد في
مدح آل البيت تعتبر نواة لهذا الفن الذي أكثر منه المولّدون، وقد مدح الرسول
في حياته، مدحه كعب بن زهير بلامينه المشهورة التي يقول في أولها :
بِأَنْتَ سَعَادَ فِقْلُبِي الْيَوْمَ مَتَبَوَّلُ مُتَيِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَحْمُولُ
وَمَا سَعَادَ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا إِلَّا أَغْنَى عَنْهُمْ الظَّرْفُ مَحْمُولُ

ومدحه الأعشى بداليتته التي يقول فيها :

فَأَقْسَمْتُ لَا أَرْثِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ وَحْيٍ حَتَّى تُتْلَاهِي مُحْسَدًا
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذَكَرُهُ أَغَارَ لِعُسْرِي فِي الْبِلَادِ وَأَتَّحَدَا

ويرتاب الدكتور طه حسين في قصيدة الأعشى، ويظنها من وضع الرواه، وهي
على فرض صحتها ليست من المدائح النبوية، وكذلك بانت سعاد، لأن المدح الذي
جرى على لسان كعب والأعشى لا يزيد شيئاً عن غيره من المدح الذي جرت
في ذلك العهد موجهاً إلى الملوك، أما المدائح النبوية فتستأثر بعدة شمائل النبي وسرد
ما في الرسالة من المحاسن الباقية، ودفع ما وُصِفَ به الرسول من النقائص والعيوب.
وهي فوق هذا كله تقال وتنشد تقرباً إلى الله، وهي عند الصوفية من
جملة الأوراد.

(١) ما كتب هنا عن البوصيري هو أصل ما في كتاب « المدائح النبوية »، الأدب العربي «
والمؤلف يفسر أحياناً بفعل معناه من كتاب إلى كتاب، وهي ليست بمرسومة، لأنها مرسومة بقل
الدنانير من حيث إلى حبيب في الثوب الواحد، أليس كذلك ؟ بل، أنها المؤله .

البردة

وقد حدثنا البوصيري عن سبب وضعه للبردة، فقال : « كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله ﷺ، منها ما كان اقترحه علي صاحبزین الدين يعقوب بن الزبير. ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني هالج أبطل نصفی، ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها، واستشفعت بها إلى الله تعالى في أن يعافيني، وكررت إنشادها ودعوت وتوسلت، ونمت فرأيت النبي ﷺ فمسح على وجهي بيده المباركة، وألقى عليّ بردة فانتبهت ووجدت فيّ نهضة، فقممت وخرجت من بيتي ولم أكن أعلمت بذلك أحداً، فلقيني بعض الفقراء فقال لي : أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله ﷺ، فقلت أيها ؟ فقال : التي أنشأتها في مرضك، وذكر أولها، وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله ﷺ، ورأيت رسول الله ﷺ يتأيل وأعجبه، وألقى على من أنشدها بردة. فأعطيته إياها، وذكر الفقير ذلك وشاع المنام ».

وفي هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيري، فهو رجل فيه طيبة وسذاجة، كأكثر الصوفية، فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه لآية ينلوها، أو قصيدة ينشدها، كما برئ البوصيري بقصيدته، ولو مرض مفتي الديار المصرية — لا سمح الله — ما استغنى بالبردة عن الطبيب ! ولعل حكاية البوصيري هذه هي سبب ما سار بجانب البردة من الخرافات، فقد ذكر بعض السراح لكل بيت من أبياتها فائدة، فبعضها أمان من الفقر وبعضها أمان من الطاعون ! وهذا النوع من الغفلة قديم، فقد كان الزمخشري يذكر شيئاً من مل هذا عن سور القرآن... ونلاحظ كذلك أن البوصيري كرر عبارة « ﷺ » خمس مرات في هذه الفقرة الصغيرة. وتكرار الصلاة على النبي كلما ذكر اسمه من وساوس المتأخرين، وقد زاد البوصيري على ذلك في القصيدة المصرية : فهو يدعو الله أن يصلي على النبي وشيعته وصحبه عدد الحصى والترى والمدر وعدد نجم السماء وسات الأرض وعدد وزن مناقيل الجبال وقطر جميع الماء والمطر، وما حوت الأشجار من ورق، وعدد الحروف المفروعة والمكتوبة وعدد الوحش والطير

والأسماء والأنعام، وعدد الجن والإنس والأُملاك، وعدد النمل والحيوب والشعر والصبوف والريش والوبر، وعدد ما أحاط به العلم المحيط وما جرى به القلم والقدر، وعدد نعم الله على الخلائق مذ كانوا ومد حسروا، وعدد ما كان في الأكوان وما يكون إلى يوم البعث، وتكون هذه الصلاة بهذا التحديا:

فِي كُلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ يَطْرُقُونَ بِهَا
أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ أَوْبَذُوا
مِلَّةَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ مَعَ جَبَلٍ
وَالْفُرْشِ وَالْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ وَمَا حَصَرُوا
مَا أَعَدَّ اللَّهُ مُؤْجُوداً وَأَوْجَدَ مَعَهُ
دَوَاماً صَلَاةً دَوَاماً لَيْسَ تُحْصَرُ
تَسْتَعْرِقُ الْعَدَّ مَعَ جَمْعِ الدُّهُورِ كَمَا
تُحِيطُ بِالْحَدِّ لَا تُبْقِي وَلَا نَسْرُ

وهذا النمط من الصلاة على النبي لم يكن معروفا في صدر الاسلام وإنما هو تصرف من غلاة الصوفية أمثال صاحب « دلائل الخيرات ».

والبردة بعد هذا كله مشهورة في جميع الأقطار الإسلامية، وقد كانت جزءاً من الهدية التي قدمها ابن خلدون إلى تيمورلنك، ولهذا الهدية قيمتها في نفدبر الحياة العقلية عند المتقدمين.

نهج البردة

أما نهج البردة فقسيمة وضعها شوقي تذكراً لحج الخديو السابق سنة ١٢٢٧ هـ وقدمها إليه بكلمة صغيرة، ثم شرحها المرحوم الشيخ سليم البشري شرحاً وحجزاً بيّناً، قال في نهايته: « ولو أن الكاتب عمد إلى كل بيت ففسر غريبه، وفصل مجمله، وأفشى معناه، ونزل عند مغازيه، وعرض على وجوه العربية مفردة ومركبة، وأرسل الإشارة إلى كل ما وقع له من دقائق البلاغة وفنون البديع وطلب القصيدة

التي يوماً إليها فيه، ووازن بينه وبين ما يجانسه من الشعر ويسايره من الكلام، وغير ذلك مما يجري في شرح الكلام ويدخل في أبواب نقده وتفسيره، لطال القول وتجاوز القصد».

وكنا نسمع في مجالس أهل العلم بالأدب أن الشيخ سليم البشري لم يشرح نهج البردة، وإنما الشرح لابنه الشيخ عبد العزيز إن شاء أيده وإن شاء نفاه^(١). ولهذا الشرح مقدمة وضعها محمد بك المويلحي، وهي مقدمة تتناسب مع ما كتبت له، فقد حقق فيها أن الشعر باب من أبواب الكلام، فحسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام، وأتعب نفسه في التفرقة بين الشعر وبين القرآن، ووصل إلى «أن القرآن ليس بشعر، وما هو من الشعر في شيء، وأين هو من الشعر؟ والشعر إنما هو كلام موزن مقفى يدل على معنى، فأين الوزن، وأين التقفية، وأين المعاني التي ينتجها الشعراء من معانيه، وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه؟» ثم قال: «فاذن لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت»، وكان الظن بصاحب عيسى بن هشام أن يعرف أن الكلام في تحريم الشعر وإباحته مما ينبو عنه الذوق في القرن العشرين!

تلك كلمة وجيزة قلناها تمهيداً للموازنة بين البردة ومهج البردة، وإنا لرجو أن يكون في هذا التمهيد بعض العناء.

(١) غضب الأستاذ عبد العزيز السخري من هذا الكلام، وساحلنا في جريدة البلاغ، وهو يؤكد أن أباه رحمه الله هو صاحب الشرح، ونحن نؤكد من جانبنا أن الشيخ عبد العزيز هو الذي كتب ذلك الشرح، وكان الشيخ سليم رحمه الله عيماً يفصله الحق عن مثل هذا الفضل المتعل، ولكن هذا ما وقع. وليت شعري كيف نطمئ إلى الأحبار الأدبية إذا عز علينا أن نحقق حراً قامب الشواهد على صحته، ونحن شهود العصر الذي وقع فيه ولهذه القصة تفاصيل يراها القارئ في كتاب «أكواب الشهد والعقم» فليرجع إليها هاك

البحث العشرون

بين البوصيري وشوقي والبارودي

ابتدأ البوصيري قصيدته بالتشبيب، ونحا شوقي منحاه، وتلك عادة عربية قديمة، لم يفكر الشعراء في تركها إلا في هذا الجبل، وإن كان من قدمائهم من نالها بلام، كالمتنبي إذ يقول :
إِذَا كَانَ مَدْحُ فَالنَّسِيبُ الْمُقَدَّمُ أَكُلُّ فَصِيحٍ قَالَ شِعْرًا مُتَّبِعُهُ ؟
وكان للصوفية شيء من الغزل المستملح المقبول، فكان يريدوهم بؤلوله ويروونه موجهاً إلى الذات الإلهية، أو الحضرة النبوية، ولهم في ذلك التأويل أعاجيب يبسم لها ثغر الحزين، فليرجع إليها من شاء في كنب التوحيد، ليقف على شيء من تصورات أولئك الناس، فقد برروا ما جرى على ألسنة شيوخهم، من الجون، وجعلوه نوعاً من الرمز والتمثيل، وتلطف المتأدبون منهم فأجروه بحرى الاستعارة التمثيلية، وألحقوا ما يجري بين عشاق الأرواح بما يجري بين عشاق الأسباح، إلى آخر ما لهم في هذا الباب من لطف الاحتيال.

وهذا كله أثر تلك العادة : وهي افتتاح الشعر بالنسيب، وهي عادة لم يقلع عنها شوقي إلى الآن، وأظرف ما وقع له في هذا المسلك قصيدته في « مشروع ملنر » فقد افتتحها بهذه الأبيات :
أَتْنِ عَيْنَانَ الْقَلْبِ وَأَسْلَمَ بِهِ مِنْ رُبْرَبِ الرَّمْلِ وَمِنْ سُرْبِهِ

وَمِنْ تَنْتَبِي الْعِيدِ عَنْ بَإْنِهِ مُرْتَجَّةَ الْأَرْدَافِ عَنْ كُتْبِهِ
ظَبَاؤُهُ الْمُتَكَيِّسَرَاتُ الظُّبَا يَغْلِبْنَ دَا اللَّبُّ عَلَى لُبِّهِ
بِيضُ رِقَاقُ الْحُسْنِ فِي لَمَحَةٍ مِنْ نَاعِمِ الدُّرِّ وَمِنْ رَطْبِهِ
ذَوَابِلُ التَّرْجَسِ فِي أَصْلِهِ يَوَابِغُ الْوَرْدِ عَلَى قُصْبِهِ
زَنْ عَلَى الْأَرْضِ سَمَاءَ الدُّجَى وَزِدْنَ فِي الْحُسْنِ عَلَى شَهْبِهِ
يَمْشِينَ أُسْرَابًا عَلَى هَيْئِهِ مَشَى الْقَطَا الْآمِنِ فِي سِرْبِهِ
مِنْ كُلِّ وَسَّانٍ بِغَيْرِ الْكَرَى تَنْتَبِيهِ الْآجَالِ مِنْ هُدْبِهِ

وهي قصيدة طويلة، ثلثها في السيب. ويذكر شوقي أنه قالها كارهاً، ولا يبعد على هذا أن يكون ما افتتحها به من التشبيب جزءاً من المنحة التي اجتدها أنصار المشروع إذ ذاك !! وقد رأيت من شعراء العصر من يعجب من الحملة التي وجهها النقاد إلى افتتاح الشعر بالنسيب وهو يرى ذلك نوعاً من الرياضة لقرائح الشعراء، وأذكر أي رأيت في كلام القدماء ما يؤيد هذا المعنى، فقد كان مهم من يرى التوفيق إلى إجادة التشبيب باباً للتوفيق إلى الإجادة في سائر القصيد. ومهما يكن من شيء فقد سار البوصيري وشوقي على أثر من تقدمهم من الشعراء، ولا تقل كان الأدب يقضي بتجنب هذا النهج في المدائح النبوية، فقد سبب كعب ابن زهير بمحبوبته وهو في حضرة الرسول، فما لامة النبي، ولا أكرها عليه أصحابه، ولا آخذه بها مؤرخو الآداب.

ولنا أن نلاحظ أن البوصيري جرى في تشبيهه محرى المحاكاة والتقليد، فإننا نراه يقول في مطلع البردة :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِبْرَانٍ بِذِي سَلَمٍ مَرَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاطِمَةٍ وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلُمَاءِ مِنْ إِصَمٍ

وذو سلم : واد ينحدر عن الذنائب في أرض بني البكاء على طريق البصرة إلى مكة كما ذكر ياقوت، وفيه يقول كثير :

أَمِنْ آلِ سَلَمَى دِمْنَةً بِالذَّنَائِبِ إِلَى الْمَيْتِ مِنْ رَيْعَانِ ذَاتِ الْمَطَارِبِ
يُلَوِّحُ بِأَطْرَافِ الْأَجْدَةِ رَسْمَهَا بِذِي سَلَمٍ أَطْلَالُهَا كَالذَّوَاهِبِ

وكاظمة : جوّ على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، وفيه يقول

بعض الشعراء :

يَا حَبَّذَا الْبَرْقُ أَكْنَافِ كَاطِمَةٍ يَسْعَى عَلَى قَصَرَاتِ الْمَرْخِ وَالْعُشْرِ
لِلَّهِ دُرٌّ يُبَوِّتُ كَانَ يَعْشَفُهَا قَلْبِي وَبَالُفُهَا أَنْ طُيِّبَ بَصْرِي
فَقَدْتُهَا فَقَدْ ظَمَّانٍ إِذَا وَتَهُ وَالْقَيْظُ بَقْدِفُ وَجْهِ الْأَرْضِ بِالشَّرْرِ
أُمْنِيَّةُ النَّفْسِ أَنْ تَزْدَارَ ثَانِيَةً وَحَالَنَا وَالْأُمَانِي حُلُوهُ الثَّمَرِ

وإضم : واد بجبال تهامة، وهو الوادي الذي فيه المدينة، وفيه يقول سلامة

ابن جندل :

يَا دَارَ أَسْمَاءَ بِالْعُبَاءِ مِنْ إِضْمٍ بَيْنَ الدَّكَادِكِ مِنْ قُوٍّ فَمَعْصُوبٍ
كَانَتْ لَهَا مَرَّةً دَارًا فَعَيَّرَهَا مَرُّ الرِّيَّاحِ بِسَافِي الثَّرْبِ مَجْلُوبٍ

وذكر البوصيري لهذه المواطن، وشغفه بها، وحنينه إليها، ينافي مصيرته، وكان له أن يتشوق إلى أحبابه في بلبس أو فاقوس، كما يتشوق بعض الناس إلى أحبابه في سنتريس وأسيوط، ولكن يظهر أن المغاني العربية كانت احتلت رؤوس الشعراء، فكان من ذلك أن أكثروا من ذكر نجد، وسلع، وأروند، وإن لم يكن لهم بهذه المواطن هوى، ولم ينعموا فيها باصطباح ولا اغتاف، ولذلك نحد التلكف ظاهراً في حديث البوصيري عن جيرانه بذي سلم، ونحسبه اختارها للقافية، كما اختار « إضم » لهذا الغرض، وأين هذا الوجد المنكلف من قول مَنْ شُغِلَ عَنْ أَرُونْدِ بِيغْدَادِ :

وَقَالَتْ نِسَاءُ الْحَيِّ أَيُّ أَبْنِ أَخِينَا أَلَا حَبْرُونَا عَنْهُ حُيِّمُو وَفْدَا
رَعَاهُ ضَمَانُ اللَّهِ هَلْ فِي بِلَادِكُمْ أَخُو كَرَمٍ بَرَعَى لِيَدِي حَسْبِ عَهْدَا
فَإِنَّ الَّذِي خَلَفْتُمُوهُ بِأَرْضِكُمْ فَتَى مَلَأَ الْأَحْشَاءَ هِجْرَانُهُ وَخُدا
أَبْعَادُكُمْ تُنْسِيهِ أَرُونْدَ مَرَبْعَا أَلَا خَابَ مَنْ يَشْرِي بِبِغْدَادِ أَرُونْدَا
فَدَنَّهُمْ نَفْسِي ! لَوْ سَمِعَنْ بِمَا أَرَى رَمَى كُلَّ جِيدٍ مِنْ تَنْهَدِهِ عَقْدَا

ومن الناس من يعتذر عن صاحب البردة بأنه تشوق إلى نلك المواطن لصلتها بمدينة الرسول، وهذا الاعتذار يؤيد ما أشرنا إليه من أنه يتغزل محاكاة ونقلية،

ولو كان صادق اللوعة لشبب بغادة مصرية، وحس إلى معنى من معاني النبل^(١)... ولم يتقيد شوقي بهذا القيد حين قال :
رَيْمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الْأَشْهْرِ الْحُرْمِ
وإنما أطلق نفسه من ربة التقليد، فلم يتحدث عن نجد، ولا عن تهامة، وإن غلبت عليه بعض الأخيلة العربية، فإن سفك الدم في الأشهر الحرم بقية من خيال الأعراب، فقد كانوا بآمنون فيها مقارعة السيوف، ويظنون لا عاصم لهم من فتك العيون.

ولم يوفق البوصيري إلى حسن الأداء حين قال :
أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ يَذِي سَلَمٍ مَزَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ يَدَمِ
فإن فوله : « جرى من مقلة » حشو لا قيمة له، ولا وجه لما يقوله بعض الشيوخ من أن ذلك تأكيد، فانه لم يشك أحد في أن الدم يجري من العين.
ومن رجال الأدب من لا نروقه كلمه « على القاع » في قول شوقي :
« ريم على القاع بين البان والعلم »

أما قوله :

« أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الْأَشْهْرِ الْحُرْمِ »
ففيه مقابلة يستملحها علماء البدع، وفيه براعة استهلال، وهو كذلك غاية في حسن الأداء.

وقول البوصيري :

فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ أَكْفَفَا هَمَّتَا وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ أَسْتَفِقَ بِهِمِ
فيه ضعف وابتذال، وهو غير موصول بسابقه، وقد انتقل قبل أن يتم المعنى
فقال :
أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الْحُبَّ مُنْكَيْمٌ مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرَمِ

(١) في كتاب (المدايح النبوية) بوجهه لكلام البوصيري فارجع إليه هـاك.

لَوْلَا الْهَوَى لَمْ تُرَفْ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ وَلَا أُرِفَتْ لِذِكْرِ الْبَانِ

وقد حار الشراح في ربط هذه الأبيات.

وقد يُستَجَاد قوله :

فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًّا بَعْدَ مَا شَهِدْتَ بِهِ عَلَيْكَ عُذُولُ الدَّمْعِ وَ
وَأَثَبْتَ الْوَجْدَ خَطْئِي عَبْرَةً وَصَنِيَّ مِثْلَ الْبَهَارِ عَلَى خَدِّكَ

وشوقي أبرع من البوصيري في الحديث عن طيف الخيال. فانا نجد البوصيري يقول :

نَعَمْ سَرَى طَيْفٌ مَنِ أَهْوَى فَأَرْقَنِي وَالْحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَاتِ بِ

وهو بيت مفرد لم يتم به المعنى. أما شوقي فقد أفصح عن مراده حين
يَا نَاعَسَ الطَّرْفِ لَا ذُقْتَ الْهَوَى أَبَدًا أُسْهِرْتَ مُضْنَاكَ فِي حِفْظِ الْهَوَى
أَفْدِيكَ الْفَأْ وَلَا أَلَوْ الْخَيَالَ فِدَى أَغْرَاكَ بِالْبُخْلِ مَنْ أَغْرَاهُ بَا
سَرَى فَصَادَفَ جُرْحًا دَائِمًا فَأَسَا وَرُبَّ فَضْلٍ عَلَى الْعُشَاقِ لَ

والفرق بعيد بين قول البوصيري :

« نعم سرى طيف من أهوى فأرقني »

وبين قول شوقي :

« سَرَى فَصَادَفَ جُرْحًا دَائِمًا فَأَسَا »

وشوقي يجيد هذا النوع من الترتيب، وهو صاحب هذا البيت البديع
نَظْرَةً فَأَيْتَسَامَةً فَسَلَامٌ فَكَلَامٌ فَمَوْعِدٌ فَلَقْ

وقول شوقي « ورب فضل على العشاق للحلم » أرق من قول البوصيري
« والحب يعترض اللذات بالألم » — أما قول شوقي :

(١) نقدنا هذا البيت في بعض مؤلفاتنا فقلنا : انه نظرة سيمائه، ولكن قد يتفق أحياناً أن
القلوب بأسرع من ذلك، والقلوب وثبات أسرع من الرق.

يَانَاعِسَ الطَّرْفِ لَا ذُفْتَ الْهَوَى أَبَدًا أَشْهَرْتَ مُضْنَاكَ فِي حِفْظِ الْهَوَى فَنَمَ

فهو عندي أغزل بيت قاله المحدثون... وفي قوله :
أَفْدِيكَ أَلْفًا وَلَا أَلُو الْخَيَالِ فِدَى أَغْرَاكَ بِالْبُخْلِ مَنْ أَغْرَاهُ بِالْكَرَمِ
صورة صادقة لعبث العشق بالقلوب : فهو يغري المحبوب بالبخل، ويغري
طيفه بالجود، وسماحة الطيف باب إلى اضطرام الفؤاد.

ويقول البوصيري في مدافعة اللائمين :
يَا لَائِمِي فِي الْهَوَى الْعُذْرِيَّ مَعْدِرَةً مَنِّي إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلَمِ

ويقول شوقي :
يَا لَائِمِي فِي هَوَاهُ وَالْهَوَى قَدَرٌ لَوْ شَفَكَ الْوَجْدُ لَمْ تَعْدِلْ وَلَمْ تَلَمِ
وبيت شوقي أجمل، وقوله : « الهوى قدر » من أبدع ما قبل في دفع العذل
والملام^(١).

أما قوله : « لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم » فهو أجود في معناه من قول
الشريف الرضي :
أَقُولُ لِلْإِثْمِ الْمُهْدِي مَلَأْمَتَهُ ذُقِ الْهَوَى وَإِنْ آسَطَعَتِ الْمَلَامُ لَمْ

ومن قول ابن الفارض :
دَعْ عَنْكَ تَعْنِيفِي وَذُقْ طَعْمَ الْهَوَى فَإِذَا عَشِيقَتِ فَبَعْدَ ذَلِكَ عَنَّفِ

ولكن البوصيري كان أرق، وهو يحاور اللائم بقوله :
عَدَّتْكَ حَالِي لَا سِرِّي بِمُسْتَرٍ عَنْ الْوَشَاةِ وَلَا دَائِي بِمُنْحَسِمٍ

(١) راجعنا الدكتور طه حسين وقال إن هذا المعنى مسروق من الأعنية اللدية .

« وعد ومكتوب علي ومقدر عاجلين »

ولكن هذا لا يمنع من استحسان قول شوقي « والهوى قدر ».

أما شوقي فقد غلبت عليه الحكمة، وهو يقول في حوار لائمه :
لَقَدْ أَنْلَتْكَ أَذْنًا غَيْرَ وَاعِيَةٍ وَرُبَّ مُتَنَتِّصٍ وَالْقَلْبُ فِي ضَمَمٍ

وشوقي يخلق الفرص ليقذف بالكلمة الحكيمة، وتلك إحدى سماته، ولكنها قد ترحزحه عن إصابة الغرض في بعض الأحيان، على أن من الحق أن نذكر أن شوقي يعتز بالوجد وهو يدفع لائمه، فكان له أن يصرح بأنه منح العاذل أذناً غير واعية، وقلباً غير سميع، ولا كذلك البوصيري فقد جعل الوجد داء تُرجى منه السلامة، ووصف لائمه بنصح الجيب حين قال :

مَحَضَّتْنِي النَّصْحَ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ إِنَّ الْمُحِبَّ عَنِ الْعُدَالِ فِي ضَمَمٍ

إلى هنا فرغ البوصيري من النسيب، فلنقف قلباً عند المعاني التي انفرد بها شوقي، وإنا لنستجيد قوله :

رَمَى الْقَضَاءُ بَعِيْنِي جَوْذَرَ أَسَدًا يَا سَاكِنَ الْقَاعِ أَذْرِكُ سَاكِنَ الْأَجَمِ

وهذا معنى قديم، والطريف فيه هو تصوير العينين بصورة السهم يرمي به القضاء، فهو لا يذكر أن الجؤذر رماه، وإنما يذكر أن القضاء رماه بعيني جؤذر، والقضاء خبير بأنواع النصال !

وقد بلغ الرفق في قوله :

لَمَّا رَنَا حَدَّثْتَنِي النَّفْسُ قَائِلَةً يَا وَيْحَ جَنْبِكَ بِالسَّهْمِ الْمُصِيبِ رَمِي
جَحَدْتُهَا وَكَتَمْتُ السَّهْمَ فِي كَبْدِي جُرْحُ الْأَجْبَةِ عِنْدِي غَيْرُ ذِي أَلَمٍ
رُزِقْتَ أَسْمَحَ مَا فِي النَّاسِ مِنْ خُلُقٍ إِذَا رُزِقْتَ التَّمَّاسَ الْعُذْرَ فِي الشِّيمِ

والبيت الأخير يمت إلى ما قبله بصلة ضعيفة، لأن النظرة الفاتنة أعز وأمنع من أن تُعد من جملة الذنوب، والذي يكنم جرح الحب لا يصفح لحبوه عن جنائية، فما هذا الم على الجمال !

وأخطأ شارح القصيدة حين استأنس بقول المتنبي :

إِنْ كَانَ سَرَّكُمْوَمَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمْوَأَلَمِ

ثم أخذ شوقي يصف هذا السرب الذي صحب حبيبته فقال :
 مِنَ الْمَوَائِسِ بَاناً بِالرُّبَا وَقناً
 اللَّاعِبَاتِ بِرُوحِي السَّافِحَاتِ دَمِي
 السَّافِرَاتِ كَأَمْثَالِ الْبُدُورِ ضُحَى
 يُغْرَنَ شَمْسَ الضُّحَى بِالْحَلِيِّ وَالْعَصَمِ
 الْقَاتِلَاتِ بِأَجْفَانٍ يَهَا سَقَمٌ
 وَلِلْمَنِيَّةِ أَسْبَابٌ مِنَ السَّقَمِ
 الْعَائِرَاتِ بِالْبَابِ الرَّجَالِ وَمَا
 أَقْلَنَ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّلِّ فِي الرَّسَمِ
 الْمُضَرِمَاتِ خُدُوداً أَسْفَرَتْ وَجَلَتْ
 عَنْ فِتْنَةٍ تُسْلِمُ الْأَكْبَادَ لِلضَّرَمِ
 الْحَامِلَاتِ لِيَوَاءِ الْحُسْنِ مُخْتَلِفاً
 أَشْكَالُهُ وَهُوَ فَرْدٌ غَيْرُ مُنْقَسِمِ
 مِنْ كُلِّ بَيْضَاءٍ أَوْ سَمَرَاءٍ زُيِّنَا
 لِلْعَيْنِ وَالْحُسْنُ فِي الْآرَامِ كَالْعِصَمِ
 بُرْعَنَ لِلْبَصْرِ السَّامِي وَمِنْ عَجَبِ
 إِذَا أَشْرَنَ أُسْرَنَ اللَّيْثُ بِالْعَنَمِ
 وَضَعْتُ خَدِّي وَقَسَمْتُ الْفُؤَادَ رُبّاً
 يَرْتَعَنُ فِي كُنُسٍ مِنْهُ وَفِي أَكْمِ

وهذه القطعة من البيان المشرق الجميل، وأستلمح منها قوله :
 الْعَائِرَاتِ بِالْبَابِ الرَّجَالِ وَمَا أَقْلَنَ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّلِّ فِي الرَّسَمِ
 فقد جعلهن يمشين على القلوب، فيعثرن بقلب بعد قلب، وإن لم يسلمن من
 عثرات الدلال، وهن يتخطرن في الضحى، وعند الأصيل...

وأستجيد كذلك قوله :
 يُرْعَنُ لِلْبَصْرِ السَّامِي وَمِنْ عَجَبِ إِذَا أَشْرَنَ أُسْرَنَ اللَّيْثُ بِالْعَنَمِ

فقد وصفهن بالخفر والحياء، وذكر أنهن يُرغَن حين تسمو إلهن العين، والسحر كل السحر في الحسن الحذر الهَيُوب، وكان من العجب أن يأسر هؤلاء الخفريات الليث إذا أشرن إليه بالبنان المخضوب... وما أروع قوله بعد ذلك في خطاب محبوبته :

يَا بِنْتَ ذِي اللَّبْدِ الْمَحْيِي جَانِبُهُ أَلْقَاكَ فِي الْعَابِ أَمْ أَلْقَاكَ فِي الْأُطَمِ
مَا كُنْتُ أَعْلَمُ حَتَّى عَنْ مَسْكَنِهِ أَنَّ الْمُنَى وَالْمَنَايَا مَضْرِبُ الْخِيمِ^(١)
مَنْ أَنْبَتَ الْغُصْنَ مِنْ صَمْصَامَةٍ ذَكَرَ وَأَخْرَجَ الرَّيْمَ مِنْ ضَرْغَامَةٍ قَرِمِ
بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ سُمرِ الْقَنَا حُجُبَ وَمِثْلَهَا عَفَّةٌ عُذْرِيَّةُ الْعَصَمِ
لَمْ أَغْشَ مَعْنَاكَ إِلَّا فِي غُصُونِ كَرَى مَعْنَاكَ أَبْعَدُ لِلْمُشْتَاكِ مِنْ إِرَمِ

وفي هذه الأبيات صورة فاتنة لذلك الشذوذ الذي تحوكه الطبيعة، وإنها لصناع ! ومن ذا الذي لم يفكر في الرجل يقطر من جوانبه البأس، وتعبس الدنيا حين يعبس، ويثور الوجود حين يثور، وفي بيته فتاة من صلبه تحسبها لرقتها وحياتها ظلية تتثنى أو غُصناً يُميد.

وقول شوقي :

مَا كُنْتُ أَعْلَمُ حَتَّى عَنْ مَسْكَنِهِ أَنَّ الْمُنَى وَالْمَنَايَا مَضْرِبُ الْخِيمِ
مَنْ أَنْبَتَ الْغُصْنَ مِنْ صَمْصَامَةٍ ذَكَرَ وَأَخْرَجَ الرَّيْمَ مِنْ ضَرْغَامَةٍ قَرِمِ
أَجُودُ فِي مَعْنَاهُ مِنْ قَوْلِ الطُّغْرَائِي :

إِنِّي أُرِيدُ طُرُوقَ الْحَيِّ مِنْ إِصْمٍ وَقَدْ حَمَاهُ رُمَاءُ مَنْ بَنَى ثَعْلَ
يَحْمُونَ بِالْبَيْضِ وَالسُّمْرِ اللَّذَانِ بِهِ سُودَ الْعَدَائِرِ حُمَرِ الْحَلِيِّ وَالْحُلَلِ

ولمّا كان أجود لتلك النظرة الدقيقة التي سجل بها شوقي عجبه من أن يَنْبُت الغصن من السيف الذكر، ويخرج الرّيم من الضرغامة القرم !

(١) يرى الدكتور طه حسين أن أحله شوقي خلّت من الصبغة المصرية وهو يتكلم عن الباد والعلم، ومضرب الخيم، وأن قوله « ما بنت دى اللد » بذكرنا بقول ابن هاني :
يا بنت ذي السيف الطويل نحاده أكذا يخور الحكم في سادبك

وقول شوقي :

بيني وبينك من سمر القنا حُجُبٌ ومثلها عفة عُذريّة العَصَمِ
لَمْ أَغْشَ مَعْنَاكَ إِلَّا فِي غُضُونِ كَرِيٍّ مَعْنَاكَ أَبْعَدُ لِلْمُشْتَاكِ مِنْ إِرَمِ

أصرح في معناه وأجود من قول الطغرأي :

نَوْمٌ نَاشِئَةٌ بِالْجَزَعِ قَدْ سُقِيَتْ نِصَالُهَا بِبِيَاهِ الْعُنْجِ وَالْكَحْلِ (١)
قَدْ زَادَ طَيْبَ أَحَادِيثِ الْكِرَامِ بِهَا مَا بِالْكَرَائِمِ مِنْ جُبْنٍ وَمِنْ بَخْلِ
تَبَيَّتْ نَارُ الْهَوَى مِنْهُمْ فِي كَبَدٍ حَرَى وَنَارُ الْقَرَى مِنْهُمْ عَلَى الْقَلَلِ
يَقْتُلْنَ أَنْصَاءَ حُبٍّ لِأَحْرَاكَ بِهِمْ وَيَنْحَرُونَ كِرَامَ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ

قصيدة البارودي

ونريد أن نُلِمَّ الإمامة بقصيدة البارودي التي سماها « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » وهي ميمية طويلة ضمّنها سيرة النبي عليه الصلاة والسلام من حين مولده إلى يوم انتقاله إلى جوار ربه، وبنائها كما قال على سيرة ابن هشام. والبارودي شاعر فحل، يعتز به تاريخ الأدب في مصر، وقد نوازن بينه وبين أبي فراس. ولم نفكر في الموازنة بيه وبين البوصيري لأننا لم نتأكد من أنه رمى إلى معارضته، ولكن رأينا من الواجب أن نقدم للقارئ نماذج من قصيدة (كشف الغمة) في المواطن التي يعرض لمثلها البوصيري وشوقي، ليكون الموضوع أوفى، وليجد القارئ في تعدد الصور الشعرية مجالاً للنقد والتميز... فلنذكر الآن ما بدأ به البارودي قصيدته من النسيب قال :

يَارَإِيْدَ الْبَرْقِ يَمِّمُ دَارَةَ الْعَلَمِ وَآخِذُ الْعِمَامِ إِلَى حَيِّ بِذِي سَلَمِ
وَإِنْ مَرَرْتَ عَلَى الرُّوحَاءِ فَامْرِ لَهَا أَخْلَافَ سَارِيَةِ هَثَانَةِ الدِّبَمِ
مِنْ الْغَزَارِ اللَّوَانِي فِي حَوَالِهَا رِيَّ النَّوَهِلِ مِنْ زَرْعٍ وَمِنْ نَعَمِ
إِذَا اسْتَهَلَّتْ بِأَرْضٍ نَمْنَمَتْ يَدُهَا بُرْدًا مِنَ الثَّوْرِ يَكْسُو عَارِي الْأَكَمِ
تَرَى الثَّبَاتَ بِهَا خَضِرًا سَنَابِلُهُ يَخْتَالُ فِي حُلَّةٍ مَوْشِيَةِ الْعَلَمِ

(١) الغنج : حلاوة العسي.

أَدْعُو إِلَى الدَّارِ بِالسُّقْيَا وَبِي ظَمًا
مَنَازِلَ لِهَوَاهَا يَبْنَ جَانِحَتِي
إِذَا تَنَسَّمْتُ مِنْهَا نَفْحَةً لَعِبَتْ
أُذُنٌ عَلَى السَّمْعِ ذِكْرَاهَا فَإِنَّ لَهَا
عَهْدٌ تَوَلَّى وَأَبْقَى فِي الْفُؤَادِ لَهُ
إِذَا تَذَكَّرْتُهُ لَأَحْتَ مَخَايِلُهُ
فَمَا عَلَى الدَّهْرِ لَوْ رَقَّتْ شَمَائِلُهُ
تَكَاءَ دَنْتِي خُطُوبٌ لَوْرَمَيْتَ بِهَا
فِي بَلَدَةٍ مِثْلَ جَوْفِ الْعَيْرِ لَسْتُ أَرَى
لَا أَسْتَقِرُّ بِهَا إِلَّا عَلَى قَلْقٍ
إِذَا تَلَفْتُ حَوْلِي لَمْ أَجِدْ أَثَرًا
فَمَنْ يَرُدُّ عَلَى نَفْسِي لُبَانَتَهَا

أَحَقُّ بِالرَّيِّ لِكُنِّي أَخُو كَرَمٍ
وَدِيعَةٌ سِرُّهَا لَمْ يَتَّصِلْ بِفِي
بِي الصَّبَابَةُ لِعَبِّ الرِّيحِ بِالْعَلَمِ
فِي الْقَلْبِ مَنَزَلَةٌ مَرَعِيَّةٌ الذَّمِّ
شَوْقًا يَفْلُ شَبَابَةُ الرَّأْيِ وَالْهَمِّ
لِلْعَيْنِ حَتَّى كَانِي مِنْهُ فِي حُلْمٍ
فَعَادَ بِالْوَصْلِ أَوْ أَلْقَى يَدَ السَّلَمِ
مَنَازِلَ الْأَرْضِ لَمْ تَثْبُتْ عَلَى قَدَمٍ
فِيهَا سِوَى أُمِّ تَحْنُو عَلَى صَمِّ
وَلَا أَلَدُّ بِهَا إِلَّا عَلَى أَلَمِ
إِلَّا خَيَالِي وَلَمْ أَسْمَعْ سِوَى كَلِمِي
أَوْ مَنْ يُجِيرُ فُؤَادِي مِنْ يَدِ السَّقَمِ

وهذا شعر جنز رصين، تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الأسلوب، فهو يستسقي للروحاء وما إليها من المغاني العربية، ويجمع بين شتى الأغراض في الموضوع الواحد، ويعرض له المعنى تبعاً فيتحول إليه لتحسبه نسي المعنى الأصيل. ألا ترى كيف استسقى للروحاء، وهذا هو الغرض الأول، ثم مضى في وصف السارية الهتانة الديم، فقال :

مَنْ الْغَزَارِ اللَّوَاتِي فِي حَوَالِيهَا
إِذَا اسْتَهَلَّتْ بِأَرْضٍ نَمْنَمَتْ يَدُهَا
تَرَى النَّبَاتَ بِهَا خُضْرًا سَنَابِلُهُ
رِي النَّوَاهِلِ مِنْ زَرْعٍ وَمِنْ نَعَمٍ
بُرْدًا مِنَ الثَّوْرِ يَكْسُو غَارِي الْأُكَمِ
يَخْتَالُ فِي حُلَّةٍ مَوْشِيَّةٍ الْعَلَمِ

وكان يتمى لو رقت شمائل الدهر فعاد بالوصل، أو ألقى يد السلم، فانتقل من هذا الغرض إلى وصف ما تكاءده من الخطوب، وما مُني به من الإقامة في بلد مثل جوف العير يعبد أهله الأصنام، لا يستقر به إلا على قلق، ولا يلدُّ به إلا على ألم، إذا تلفت حوله لم يجد سوى خياله، ولم يسمع غير أصداء.

وهذا بحث مجمل، نرجو أن نعود إليه في الكلمة الآتية بشيء من التفصيل.

البحث الحادي والعشرون

أسلوب البارودي

قلت في الكلمة الماضية : إن شعر البارودي تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الأسلوب، وذكرت في تأييد ذلك أنه قد يتحول إلى المعنى الطارىء حتى لنحسبه نسي المعنى الأصيل، وهذا الأسلوب معروف في أشعار الجاهليين والمخضرمين، ومن نحا نحوهم من شعراء الأعصر الخالية، فإننا نرى طرفة بن العبد يشبّه قباب محبوبته بخلايا السفين، ثم يترك المشبه ويمضي في الحديث عن المشبه به فيقول :

كَأَنَّ حُمُولَ الْمَالِكِيَّةِ غُدْوَةٌ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدِ
عَدْوِيَّةٍ أَوْ مِنْ سَفِينِ بْنِ يَامِنٍ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
يَشُقُّ عُبابَ الْمَاءِ حَيْرُومَهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ الثَّرْبُ الْمُفَائِلُ بِالْيَدِ

وتراه يهّم بالحديث عن نفسه فيقول:
وَإِنِّي لَأُمْضِي الْهَمَّ عِنْدَ احْتِصَارِهِ بِهِوَجَاءِ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَغْتَسِدِي
ثم يندفع في وصف الناقة حتى لا يشك القارئ في أنه من أجلها هذه القصيدة، إذ يصفها في أكثر من ثلاثين بيتاً، ثم يعود بعد لأي إلى الحديث عن نفسه فيقول :
وَلَسْتُ بِحَلَالِ الثَّلَاعِ مَخَافَةً وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدِ
وكذلك تجدد كعب بن زهير يقول في ثغر محبوبته سعاد :

تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ كَأَنَّهُ مِنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ

ثم يمضي في وصف ما مزجت به هذه الراح فيقول :
شَجَّتْ بِأَيْ شَبْمٍ مِنْ مَاءٍ مَحْنَبَةٍ صَافٍ بِأَبْطَحِ أَصْحَى وَهُوَ مَشْمُولُ
تَنْفِي الرِّيَّاحِ الْقَذَى عَنْهُ وَأَفْرَطُهُ مِنْ صَوْبِ سَارِيَةٍ بِيضٍ يَعَالِلُ
ونراه يقول في بُعد محبوبته :

أُمَسْتُ سَعَادُ بِأَرْضٍ لَا يُلْعُهَا إِلَّا الْعِتَاقُ النَّجِيَّاتُ الْمَرَاسِيلُ

وكان هذا كافياً في الابانة عن بعد الشقة، ولكنه وصف الناقة التي تبلغه تلك الأرض ينحو عشرين بيتاً. ثم عاد بعد هذا كله إلى ما رمى إليه من اسعطاف الرسول فقال :

تَسْعَى الْوُشَاةُ بِجَنَبَيْهَا وَقَوْلُهُمْ إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سُلَمَى لَمَقْتُولُ
وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمْلُهُ لَا إِلَهَيْنَكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ
فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمْ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ
كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلِهِ حَذَبَاءُ مَحْمُولُ
أُنَيْتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أُوْعِدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
مَهْلًا هَذَا الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْ قُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَنَزَائِلُ
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أَذِيبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِلُ

وقد سلك البارودي هذا المسلك في قصيدته (كشف الغمة) فقد رأينا كيف أفاض في وصف السحب وهو يستسقي للروحاء، وكيف انتقل من الحدث عن وجهه إلى الحدث عن غربته. ولنذكر الآن شاهداً آخر تؤيد به اختياره لهذا الأسلوب :

وصف الغار

وصف القرآن الغار الذي آوى إليه النبي ﷺ مع الصديق وصفاً لا زُحرف فيه إذ قال : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ

إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴿١﴾

ووصفه أبو بكر رضي الله عنه على هذا النحو فقال : « كنت مع النبي ﷺ في الغار فرأيت آثار المشركين. قلت يا رسول الله : لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا، قال ما ظنك باثنين الله ثالثهما ! ».

وتحدثت عائشة عن ذلك فقالت : « ولما كان ليلة بات النبي ﷺ في الغار أمر الله تعالى شجرة فنبتت في وجه الغار، وأمر حمامتين وَحْشَتَيْنِ فوقفتا على وجه الغار، وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبي ﷺ على قدر أربعين ذراعاً مَعَهُمْ قَسِيَهُمْ وَعَصِيَهُمْ تقدم رجل منهم فرأى حمامتين على فم الغار، فقال لأصحابه : ليس في الغار شيء، رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد، وقال رحل آخر : الغار ! فقال أمية بن خلف : « ما أُرِيكُمْ فيه، وعليه من نسج العنكبوت ما أرى أنه قبل أن يُولد محمد (١) »

فأما الآن حقيقة ثابتة « هي أن النبي كان مع رفيقه في الغار، وأن الله أنزل سكينته عليه فلم يخف ولم يحزن » وقد وصفت هذه الحقيقة في القرآن وفي كلام الصديق وصفاً يرجع في جوهره إلى الاشارة بفضل الله ورحمته، ووصفت في كلام عائشة وصفاً فيه شيء من الزخرف والخيال : إذ أضافت حديث الحمامتين والعنكبوت — ولنا في حديث عائشة رأي لا يسمح به ظرف الزمان — فلنذكر كيف تناول البوصيري وشوقي والبارودي هذه الحادثة، وكيف نحا البارودي في وصفها منحى شعراء الجاهلية.

أما البوصيري فقد قال :

فَالصَّدْقُ فِي الْغَارِ وَالصَّدِيقُ لَمْ يَرْمَا وَهُمْ يَقُولُونَ مَا فِي الْغَارِ مِنْ أَرَمِ (٢)
ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ لَمْ تَنْسِجْ وَلَمْ تَحْمِ

(١) راجع وضع الهج.

(٢) أي لا أثر فيه.

وَقَايَةُ اللَّهِ أُغْنَتْ عَنِ مُضَاعَفَةِ مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَالِي مِنَ الْأَطْمِ
وهذا وصف لم يخرج عما ورد في القرآن من وقاية الله لنبيه وإنزاله السكينة
عليه ولم يعد ما حدثت به عائشة من حوم الحمام ونسج العنكبوت.
أما شوقي فقد قال :

سَلْ غُصْبَةَ الشَّرِكِ حَوْلَ الْغَارِ حَائِمَةً لَوْلَا مُطَارِدَةُ الْمُخْتَارِ لَمْ تَحْمِ
هَلْ أَبْصَرُوا الْأَثَرَ الْوَضَاءُ أَمْ سَمِعُوا هَمْسَ التَّسَائِيحِ وَالْقَرَانِ مِنْ أَمَمٍ^(١)
وَهَلْ تَمَثَّلَ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ لَهُمْ كَالْغَابِ وَالْحَائِمَاتِ الرُّغْبُ كَالرَّحْمِ
فَأَذْبَرُوا وَوُجُوهُ الْأَرْضِ تَلْعَنُهُمْ كَبَاطِلٍ مِنْ جَلَالِ الْحَقِّ مُنْهَزِمِ
لَوْلَا يَدُ اللَّهِ بِالْجَارَيْنِ مَا سَلِمَا وَعَيْنُهُ حَوْلَ رُكْنِ الدِّينِ لَمْ يَقَمْ
تَوَارِيَا بِجَنَاحِ اللَّهِ وَاسْتَتَرَا وَمَنْ يَضُمُّ جَنَاحَ اللَّهِ لَا يُضْمِ

وفي هذه القطعة يسخر شوقي من المشركين، ويهزأ بهم، ويمثل ضلالهم
وإخفاقهم تمثيلاً بشعاً مخيفاً يحزى له وجه الشرك وَيُرْغَمُ به أنف الجحود،
وللقارئ أن يتأمل قوله :

فَأَذْبَرُوا وَوُجُوهُ الْأَرْضِ تَلْعَنُهُمْ كَبَاطِلٍ مِنْ جَلَالِ الْحَقِّ مُنْهَزِمِ
فإنه من أجمل ما شُبه فيه المحسوس بالمعقول. أما البارودي فقد قال :

وَجَاءَهُ الْوَحْيُ إِذْأَنَاءَ بِهَجْرَتِهِ فَيَمَّمُ الْغَارَ بِالصَّدِيقِ فِي الْعَسَمِ^(٢)
فَمَا اسْتَقَرَّ بِهِ حَتَّى تَبَوَّأَهُ مِنَ الْحَمَائِمِ زَوْجُ بَارِعِ الرَّئِمِ
بَنَى بِهِ عُشَّهُ وَآخِذَهُ سَكْنًا يَأْوِي إِلَيْهِ غَدَاةَ الرِّيحِ وَالرَّهْمِ

(١) من قرب.

(٢) في الظلام.

إِنْ أَنْ مَّا جَمَعَ الْمَقْدَارُ بَيْنَهُمَا
 إِلَّا لَيْسَ بِصَدْرِ الْعَارِ مُكْتَنِمٍ
 كِلَاهُمَا دَيْدَبَانٌ فَوْقَ مَرْبَأٍ
 يَرْعَى الْمَسَالِكَ مِنْ بَعْدِ وَلَمْ يَنْمِ
 إِنْ حَنْ هَذَا غَرَامًا أَوْدَعَا طَرَبًا
 بِاسْمِ الْهَدِيلِ أَجَابَتْ تِلْكَ بِالنَّعْمِ
 يَخَالُهَا مَنْ يَرَاهَا وَهِيَ جَائِمَةٌ
 فِي وَكْرَهَا كُرَّةً مَلَسَاءَ مِنْ أَدَمٍ^(١)
 إِنْ رَفَرْتُ سَكَنْتَ ظِلًّا وَإِنْ هَبَطْتُ
 رَوْتُ غَلِيلَ الصَّدَى مِنْ حَائِرِ شَيْمٍ
 مَرْقُومَةُ الْجِيدِ مِنْ مِسْكِ وَغَالِيَةٍ
 مَخْضُوبَةُ السَّاقِ وَالْكَفَّينِ بِالْعَنَمِ
 كَانَمَا شَرَعْتَ فِي قَالِيٍّ سَرِبَ
 مِنْ أَدْمُعِي فَعَدْتُ مُحْمَرَّةَ الْقَدَمِ
 وَسَجَفَ الْعَنْكَبُوتُ الْعَارَ مُخْتَفِيًا
 بِخَيْمَةٍ حَاكَهَا مِنْ أَبْدَعِ الْخَيْمِ
 قَدْ شَدَّ أَطْرَافَهَا فَاسْتَحْكَمَتْ وَرَسَتْ
 بِالْأَرْضِ لِكِنَّهَا قَامَتْ بَلَا دَعَمِ
 كَانَهَا سَابِرِيَّ حَاكُهُ لَبِقٌ
 بِأَرْضِ سَابُورٍ فِي بُحْبُوحَةِ الْعَجَمِ
 وَارَتْ فَمَ الْعَارِ عَنْ عَيْنٍ تُلِيمُ بِهِ
 فَصَارَ يَحْكِي خَفَاءَ وَجْهٍ مُلْتَبِسِ
 فَيَا لَهُ مِنْ سِتَارِ دُونِهِ قَمَرٌ
 يَجْلُو الْبَصَائِرَ مِنْ ظُلْمٍ وَمِنْ ظُلْمِ

(١) من جلد.

فَظَلَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ مُعْتَكِفًا
كَالدُّرِّ فِي الْبَحْرِ أَوْ كَالشَّمْسِ فِي النَّسَمِ
حَتَّى إِذَا سَكَنَ الْإِرْجَافُ وَآخَرَقَتْ
أَكْبَادُ قَوْمِ بَنَارِ الْبَاسِ وَالْوَغَمِ
أَوْحَى الرَّسُولُ بِإِعْدَادِ الرَّحِيلِ إِلَى
مَنْ عِنْدَهُ السَّرُّ مِنْ خَيْلٍ وَمِنْ حَشَمِ
وَسَارَ بَعْدَ ثَلَاثٍ مِنْ مَبَازِئِهِ
يَوْمَ طَيِّبَةِ مَأْوَى كُلِّ مُعْنِصِمِ

وفي هذه القطعة انتقل البارودي من سرد القصة النبوية إلى الإفاضة في وصف الحمامتين والعنكبوت، فتحدث عن بناء العُشِّ والغرض من سُكنَاهُ، وتكلم عن حراسة الحمامتين، ورعايتهما للمسالك البعيدة، وهجرهما النوم، وتغنيهما باسم الهديل، وذكر كيف كانت الحمامة مخضوبة الساق والكفين، وكيف كانت مَرْقُومَة الجيد، وكيف كانت محمّرة القدم كأنما شرعت في دموعه الحمراء، وتكلم عن الخيمة التي شد أطناها العنكبوت ووصفها بجودة النسج حتى ليحسبها الراي حلّة سابرية، إلى آخر ما قال.

وهذا كله خروج عن الموضوع، واستسلام إلى الخيال، وكذلك كان يفعل الأقدمون.

النظم في قصيدة البارودي

وتمتاز قصيدة البارودي بالترتيب، لأنه سائر الحوادث وفقاً لما قصه ابن هشام، ولا كذلك شوقي والبوصيري، فقد أطاعا الخواطر الطارئة، وقدّما بعض الحوادث على بعض، وتكلما عن النبي ﷺ وعن معجزاته مثلاً قبل أن يذكر الميلاذ. ولكن ميزة الترتيب التي انفرد بها البارودي كانت باباً لفقد الشعر في أكثر القصيدة، فأصبحت بذلك « منظومة » كتلك المنظومات التي تعرف بالمتون، وإلى القارئ أنموذجاً يرى به غلبة النظم في ميمية البارودي إذ قال:

وَأَمَّ طَيْبَةَ مُسْرُوراً بِعَوْدَتِهِ
ثُمَّ اسْتَهْلَتْ وَفُودَ النَّاسِ قَاطِبَةً
فَكَانَ عَامَ وَفُودٍ كُلَّمَا أَنْصَرَفَتْ
وَأَرْسَلَ الرَّسُلَ تَشْرَى لِلْمُلُوكِ بِمَا
وَأَمَّ غَالِبَ أَكْنَافِ الْكَدْبِ إِلَى
وَجِينِ خَنَاتٍ جُذَامٍ فَلَّ شَوْكَتَهَا
وَسَارَ مُتَّحِياً وَادِي الْقَرَى فَمَحَا
وَأَمَّ خَيْرَ عَبْدِ اللَّهِ فِي نَفْسِهِ
وَيَمَّمُ آبَنُ أَنْيَسٍ عَرْضَ نَخْلَةٍ إِذْ
ثُمَّ اسْتَقْلَّ آبَنُ حَصْنٍ فَاخْتَوَتْ يَدُهُ
وَسَارَ عَمْرُو إِلَى ذَاتِ السَّلَاسِلِ فِي
وَعَزَّوَتَانِ لِعَبْدِ اللَّهِ وَاجْسَدَةٍ
وهذا الأسلوب ظاهر غالب في هذه القصيدة، وقد يصل أحياناً إلى الغموض،

ولا ترجع الساعرية إلى البارودي إلا حين يذكر نفسه ويلواه، وانظر كيف يقول، وهو يتحدث عن رجائه في نصرة النبي له يوم المعاد :

إِنِّي وَإِنْ مَالِي دَهْرِي وَبَرَّحَ بِي
لثَابِتِ الْعَهْدِ لَمْ يَحُلْ قُوَى أُمْلِي
لَمْ يَتْرُكْ الدَّهْرُ لِي مَا أُسْتَعِينُ بِهِ
هَذَا يُجَبِّرُ مَذْحِي فِي الرَّسُولِ وَذَا
صَبَبْتُ أَشَاطَ عَلَى جَمْرِ النَّوَى أَدْمِي
يَأْسُ وَلَمْ تَخْطُ بِي فِي سَلْوَةِ قَدَمِي
عَلَى التَّجْمُلِ إِلَّا سَاعِدِي وَفَمِي
يَتْلُو عَلَى النَّاسِ مَا أَرْجِيهِ مِنْ كَلِمِي

وفي هذه الأبيات الأربعة لونان من التعبير، أولهما مملوء بالحرارة لأنه يمثل أمة دفنتها الحوادث في صدر الشاعر، وثانيهما فيه ضعف وفطور لأنه عاد إلى القصص من جديد، ولعل أغرب ما وقع له من « النظم » اعتذاره عن افتتاح قصيدته بالنسيب إذ قال في تقديمها للرسول :

فَهَاكُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ زَاهِرَةٌ
وَسَمْتُهَا بِاسْمِكَ الْعَالِي فَالْبَسَهَا
غَرِيْبَةً فِي إِسَارِ الْبَيْنِ لَوْ أُنْسَتْ
تُهْدِي إِلَى النَّفْسِ رِيًّا الْآسِ وَالْبَرَمِ
تَوْباً مِنَ الْفَخْرِ لَا يَتْلَى عَلَى الْقَدَمِ
بِنَظَرَةٍ مِنْكَ لَاسْتَعْنَتْ عَنِ النَّسَمِ

لَمْ أَتَزِمَ نَظْمَ حَبَاتِ الْبَدِيعِ بِهَا
وَأِنَّمَا هِيَ أَثِيَابٌ رَجَوْتُ بِهَا
نَثَرْتُ فِيهَا فَرِيدَ الْمَدْحِ فَانْتَضَمَتْ
صَدْرُهَا بِنَسِيبِ شَفِّ بَاطِنِهِ
لَمْ أَتَّخِذْهُ جَزَافاً بَلْ سَلَكَتُ بِهِ
تَابَعْتُ كَعْباً وَحَسَنَاناً وَلِي بِهِمَا
وَالشُّعْرُ مَعْرُضُ الْبَابِ يَرُوجُ بِهِ
فَلَا يَلْمُنِي عَلَى التَّشْبِيبِ ذُو عَنَتٍ
ويمكن بعد هذا البيان أن نقرر أن قصيدة البارودي يغلب فيها النظم عند سرد
الحوادث، ويغلب فيها الشعر عند الوصف، وعند مناجاة الوجدان.

سميكت يا رسول الله

وقد اشترك الشعراء الثلاثة البوصيري والبارودي وشوقي في التسمي باسم النبي
عليه الصلاة والسلام، وكلهم يرجو أن ينجو بفضل التسمي باسمه فنجد
البوصيري يقول :

إِن آتٍ ذَنْباً فَمَا عَهْدِي بِمُنْتَفِضٍ
فَإِنَّ لِي ذِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَّتِي
ونجد شوقي يقول :

يَا أَحْمَدَ الْخَيْرِ لِي جَاءَ بِتَسْمِيَّتِي
ونجد البارودي يقول :

خَدَمْتُهُ بِمَدِيحِي فَأَعْتَلَيْتُ عَلَى
وَكَيْفَ أَرْهَبُ صَيِّمًا بَعْدَ خِدْمَتِهِ
أَمْ كَيْفَ يَخْذُلُنِي مِنْ بَعْدِ تَسْمِيَّتِي
هَامِ السَّمَاءِ وَصَارَ السَّعْدُ مِنْ خَدَمِي
وَخَادِمُ السَّادَةِ الْأَجْوَادِ لَمْ يُضْمِ
بِاسْمِهِ لَهُ فِي سَمَاءِ الْعَرْشِ مُحْتَرَمٌ

والبوصيري هو صاحب الفكرة، وقد تبعه البارودي، ولحقهما شوقي، وتلك
مسألة فيها نظر كما يقولون !

البحث الثاني والعشرون

التخلص والافتضاب

التخلص هو انتقال الشاعر من فن إلى فن بمناسبة ظاهرة، ويقابله الافتضاب، ويكثر التخلص في شعر المحدثين، كما يكثر الافتضاب في شعر القدماء. قال ابن رشيق : وأولى الشعر بأن يسمى تخلصاً ما تخلص فيه الشاعر من معنى، ثم رجع إلى ما كان فيه، كقول النابغة الذبياني في آخر قصيدة اعتذر بها إلى النعمان بن المنذر :

وَكَفَّكُنْتُ مِنِّي عَبْرَةً فَرَدَدْتُهَا إِلَى التَّخْرِ مِنْهَا مُسْتَهْلٌ وَدَائِعُ
عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا وَقُلْتُ أَلْمَا أَصْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعُ
ثم تخلص إلى الاعتذار فقال :

وَلَكِنَّ هَمًّا دُونَ ذَلِكَ شَاغِلٌ مَكَانَ الشَّعَافِ تَبْتِغِيهِ الْأَصَابِعُ^(١)
وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالْصَّوَاغِعُ
ثم وصف حاله عندما سمع ذلك فقال :

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي صَبِيلَةٌ مِنْ الرُّقْشِ فِي أَثْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ

(١) الشغاف : هو غلاف القلب وهو حلدة دونه كالحجاب.

يُسَهِّدُ فِي لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا^(١) نَطْلُقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تُرَاجِعُ
فوصف الحية والسليم الذي شبّه به نفسه ما شاء، ثم تخلص إلى الاعتذار الذي
كان فيه فقال :
أَتَانِي - أُبَيَّتَ اللَّعْنَ^(٢) - أَنْكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ الَّتِي نَسْتَكُ مِنْهَا الْمَسَامُحُ
ثم اطرّد ما شاء من تخلص إلى تخلص حتى انقضت القصيدة...

وقد يقع من هذا النوع شيء بعرض في وسط النسيب من مدح من
يريد الشاعر مدحه بتلك القصيدة، ثم يعود بعد ذلك إلى ما كان فيه من
النسيب، ثم يرجع إلى المدح، كما فعل أبو تمام، وإن أتى بمدحه الذي فيه
منقطعاً، وذلك قوله في وسط النسيب من قصيدة له مشهورة :
ظَلَمْتُكَ ظَالِمَةُ الْبَرِيءِ ظُلُومٌ وَالظُّلْمُ مِنْ ذِي قُدْرَةٍ مَذْمُومٌ
زَعَمْتُ هَوَاكَ عَفَا الْغَدَاةَ كَمَا عَفَتْ مِنْهَا طُلُوعُ بِاللَّوَى وَرُشُومٌ
لَا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى أَجَلَ وَأَنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمٌ
مَارَلْتُ عَنْ سَنَنِ الْوُدَادِ وَلَا غَدْتُ نَفْسِي عَلَى إِلْفِ سِوَاكَ تَحُومٌ
ثم قال ذلك :

لِمُحَمَّدِ بْنِ الْهَيْثَمِ بْنِ شَبَابَةَ مَجْدًا إِلَى جَنْبِ السَّمَاءِ مُقِيمٌ

ويسمى هذا النوع الإلمام، وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب في الخروج
إلى المدح، بل يقولون عند فراغهم من نعت الابل وذكر الففار وما هم بسبيله :
دع ذا، وعدّ عن ذا، ويأخذون فيما يريدون، أو يأتون بإنّ المشددة ابتداء للكلام
الذي يقصدونه، فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح منصلاً بما قبله، ولا منفصلاً
بقوله : (دع ذا)، و (عدّ عن ذا) ونحو ذلك سمي طفرأ وانقطاعاً،
وكان البحرني كثيراً ما يأتي به نحو قوله :

(١) السليم هو الملدوغ، سمي بذلك تفاقلاً بسلامته. كما قيل في الصحراء مفارة.
(٢) تحه جاهلية عاشت حباً ثم ماتت، وكانت في الأغلب مما خاطب به الملوك، ولو خاطبت
بها اليوم واحداً من ملوك عصرك لاتهموك بقله الذوق.

لَوْلَا الرَّجَاءُ لَمُتُّ مِنْ أَلَمِ الْهَوَىٰ لَكِنَّ قَلْبِي بِالرَّجَاءِ مُوَكَّلٌ
إِنْ الرَّعِيَّةَ لَمْ تَزَلْ فِي سِيرَةٍ عُمْرِيَّةٍ مُذْ سَاسَهَا الْمُتَوَكَّلُ
فلننظر بعد ذلك ما اختاره شعراؤنا الثلاثة من التخلص والاقتضاب.

أما البوصيري فقد آثر التخلص إذ قال في محاوراة العذول :
إِنِّي أَتَهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذَلٍ
وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي نُصْحٍ عَنِ التَّهْمِ
فَإِنَّ أَمَارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظْتُ
مِنْ جَهْلِهَا بِتَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
وَلَا أَعَدْتُ مِنَ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ قَرَى
ضَيْفِ أَلَمِ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ
لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أُوقِرُهُ
كَتَمْتُ سِرًّا بَدَا لِي مِنْهُ بِالْكَتَمِ
مَنْ لِي بَرْدٌ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايَتِهَا
كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ الْحَيْلِ بِاللُّجَمِ
فَلَا تُرْمُ بِالْمَعَاصِي كَسَرَ شَهَوَتِهَا
إِنَّ الطَّعَامَ يُقْوِي شَهْوَةَ التَّهْمِ
وَالنَّفْسُ كَالطُّفْلِ إِنْ تَهْمَلَهُ شَبَّ عَلَى
حُبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقَطَّمَهُ يَنْفَطِمِ
فَاصْرَفْ هَوَاهَا وَخَازِرْ أَنْ تُؤَلِّيَهُ
إِنَّ الْهَوَىٰ مَا تَوَلَّى يُضْمِرُ أَوْ يَصْمِرُ
وَرَاعِيهَا وَهِيَ فِي الْأَعْمَالِ سَائِمَةٌ
وَإِنْ هِيَ اسْتَحَلَّتِ الْمَرْعَى فَلَا تَسْمِرُ
كَمْ حَسَنْتَ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً
مِنْ حَيْثُ لَمْ يَذَرِ أَنَّ السُّمَّ فِي آلِ الدَّسَمِ
وَأَخْسَ آلِ الدَّسَائِسِ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ
فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرُّ مِنَ التَّحَمِ

وَأَسْتَغْفِرُكَ الدَّمَاعَ مِنْ عَيْنٍ قَدِ آمَنَلْتُ
 مِنْ الْمَحَارِمِ وَالزَّمِ جَمِيعَةَ النَّدَمِ
 وَخَالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِيهِمَا
 وَإِنْ هُمَا مَحْضَاكَ النَّصَحَ فَأَتِهِمَا
 وَلَا تُطِيعْ مِنْهُمَا خَصْماً وَلَا حَكْماً
 فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ
 — أَسْتَغْفِرُكَ اللَّهُ مِنْ قَوْلٍ بِلا عَمَلٍ
 لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلاً لِذِي عُقْمٍ
 أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لَكِنْ مَا اثْمَرْتُ بِهِ
 وَمَا اسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ
 وَلَا تَزُودْ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً
 وَلَمْ أُصَلِّ سِوَى فَرَضٍ وَلَمْ أُصُمْ
 ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْبَا الظَّلَامَ إِلَى
 أَنْ اشْتَكَيْتَ قَدَمَاهُ الضَّرَّ مِنْ وَرَمٍ

وهذا النوع من التخلص غير مقبول، إذ لاحظنا أنه تخلص من النسيب إلى المدح، أما إذا لاحظنا أنه تخلص من النسيب إلى حساب النفس، ثم إلى مدح الرسول فانا نغفر له هذه الإطالة، لأنها في غرض من أغراضه الأساسية، وهو الدعوة إلى تهذيب النفس، وتطهير الوجدان.

ومن الخير أن نذكر أن البوصيري لا يفعل ذلك في جميع قصائده، فقد رأيناها يواجه الغرض بلا مقدمة في همزيته فيقول :

كَيْفَ تَرَقَى رُقْيَاكَ الْأَنْبِيَاءُ يَا سَمَاءُ مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ
 لَمْ يَسْأُوكَ فِي عُلَاكَ وَقَدْ حَا لَ سَنَاءُ مِنْكَ دُونَهُمْ وَسَنَاءُ
 إِنَّمَا مَثَلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّاسِ سِ كَمَا مَثَلَ النُّجُومَ الْمَاءُ

وكأنما جراه شوقي في افتتاح همزيته فقال :
 وَلَيْدَ الْهُدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَشُّمٌ وَثَنَاءُ

الرُّوحُ وَالْمَلَأُ الْمَلَأُكَ حَوْلَهُ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا بِهِ بُشْرَاءُ
وَالْعَرْشُ يَزْهُو وَالْحَظِيرَةُ تَزْدْهِي وَالْمُنْتَهَى وَالسُّدْرَةُ الْعَصْمَاءُ

ولكن أين ابتداء شوقي من ابتداء البوصيري ؟ إن الفرق لبعيد ! وإن كان في
تعبير البوصيري شيء من الجفاء، في حَقِّ الأنبياء.

وأعود فأذكر أنني أستملح قول البوصيري في رياضة النفس :
وَأَخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شُبْعٍ
فَرُبُّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنْ التُّخَمِ

وجمال هذا البيت يرجع إلى ما فيه من صدق الدعوة : فإن النفس يضر بها
الزهد، كما يطغيها الترف، كالجسم ترديه المسغبة، كما تضره البطنة.

وأستجيد كذلك قوله :
أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لَكِنْ مَا ائْتَمَرْتُ بِهِ وَمَا آسْتَقِمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ آسْتَقِمِ
وحسن هذا البيت يرجع إلى سماحة الشاعر ورفقه، وخلوص دعوته من شوائب
الصلف والكبرياء، وهذا أدب يحتاج إلى مثله أطباء النفوس.

وقد آثر البارودي أيضاً حسن التخلص إذ قال :
لَيْتَ الْقَطَا حِينَ سَارَتْ غُدُوَّةً حَمَلَتْ عَنِّي رَسَائِلَ أَشْوَاقِي إِلَى إِصْمِ
مَرَّتْ عَلَيْنَا نَحْمَاصاً وَهِيَ قَارِبَةٌ مَرَّ الْعَوَاصِفِ لَا تَلْوِي عَلَى إِرَمِ
لَا تُدْرِكُ الْعَيْنُ مِنْهَا حِينَ تَلْمَحُهَا إِلَّا مِثَالاً كَلْمَحِ الْبَرْقِ فِي الظُّلَمِ
كَأَنَّهَا أَحْرَفٌ بَرْقِيَّةٌ نَبَضَتْ بِالسُّلُكِ فَانْتَشَرَتْ فِي السَّهْلِ وَالْعَلَمِ
لَا شَيْءَ يَسْبِقُهَا إِلَّا إِذَا اعْتَقَلَتْ بَنَاتِي فِي مَدِيحِ الْمُصْطَفَى قَلَمِي

وهذا التخلص مستملح مقبول، ومُضَيِّ الشاعر في وصف القطاة إيتارٌ للأسلوب
القديم الذي نوهنا به في الكلمة الماضية، ونريد أن نقرر أن هذا الأسلوب جزء
من الفن الشعري عند الجاهليين والمخضرمين، ومن سائرهم من المحدثين، وبيان ذلك
أن الشاعر يرى من الفن أن يصف ما يعرض له وصفاً يحيله صورة شعرية تكاد
تستقل عما تتصل به نوعاً من الاستقلال، وتكون لهذا الوصف قيمة أي قيمة

حين يراد به تأكيد معنى من المعاني المقصودة. ومن أمثلة ذلك قول أبي صعتره
البولاني :

فَمَا نُطْفَةُ مِنْ حَبِّ مُزٍ تَقَاذَفَتْ بِهِ جَنْبَتَا الْجُودِيِّ وَاللَّبْلُ دَامِسُ^(١)
فَلَمَّا أَقْرَتْهُ اللَّصَابُ تَنَفَّسَتْ شَمَالُ بِأَعْلَى مَائِهِ فَهُوَ فَارِسُ^(٢)
بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهَا وَمَا ذُقْتُ طَعْمَهُ وَلَكِنِّي فِيهَا تَرَى الْعَيْنُ فَارِسُ

فإن للشاعر من المبالغة في وصف ماء المزن غرضاً خاصاً هو الاشارة بعدوبة
ذلك الثغر الشهي المذاق، ويمثل هذا قول عاتكة المريّة وكانت كما قال صاحب
زهر الآداب عشقت ابن عم لها فراودها عن نفسها :

وَمَا طَعْمُ مَاءٍ أَيْ مَاءٍ تَقُولُهُ تَحَدَّرَ عَنْ عُرٍّ طَوَالِ الدَّوَائِبِ
بِمُنْعَرَجٍ مِنْ بَطْنٍ وَادٍ تَقَابَلَتْ عَلَيْهِ رِيَا حُ الصَّيْفِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
نَفَتْ جَرِيَةُ الْمَاءِ الْقَذَى عَنْ مُتُونِهِ فَمَا إِنْ بِهِ عَيْبٌ تَرَاهُ لِشَارِبِ
بِأَطْيَبَ مِمَّنْ يَقْصِرُ الطَّرْفَ دُونَهُ تُقَى اللَّهُ وَاسْتَحْبَاءُ بَعْضِ الْعَوَاقِبِ

فإن لها من وصف الماء في عذوبته وجمال موقعه وحاجة الأعراب إليه غرضاً
خاصاً هو الاشارة بجمال الحياء وطيب العفاف.

ويشبه هذين المثالين ما أنشده ابن دُرَيْدٍ :

وَمَا وَجَدُ أَغْرَائِيَّةٍ قَذَفَتْ بِهَا
صُرُوفُ النَّوَى مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكُ ظَنَنْتِ
تَمَنْتُ أَحَالِيْبَ الرَّعَاءِ وَخَيْمَةً

بِنَجْدٍ فَلَمْ يُقَدَّرْ لَهَا مَا تَمَنْتِ
إِذَا ذَكَرْتَ مَاءَ الْعِضَاءِ وَطَيْبِهِ

وَبَرَدَ الْحَصَى مِنْ نَحْوِ نَجْدٍ أَرَنْتِ
بِأَوْجَدَ مِنْ وَجْدٍ بِرِّيَا وَجَدْتُهُ

غَدَاةً غَدُونَا غُدُوَّةً وَأَطْمَأَنَّتِ

(١) الحودي : الحبل.

(٢) اللصاب : السبع الصعير في الجبل.

فَإِنْ يَلُكْ هَذَا عَهْدَ رِيًّا وَأَهْلِيهَا
فَهَذَا الَّذِي كُنَّا ظَنَّنَا وَظَنَنْتِ
وأروع من هذا قول الأبيوردي^(١) :
وما أُمُّ سَاجِي الطَّرْفِ مَالٌ بِهِ الْكَرَى
عَلَى عَذَابَاتِ الْجِرْعِ تَحْسِبُهُ قَلْبًا
تُرَاعِي بِإِحْدَى مُقَلَّتَيْهَا كِنَاسَهَا
وَتُرْمِي بِأُخْرَى نَحْوَهُ نَظْرًا عَرَبًا
فَلَاخَ لَهَا مِنْ جَانِبِ الرَّمْلِ مَرْتَعٌ
كَأَنَّ الرِّيْعَ الطَّلَقَ الْبَسَهُ عُصَا
فَمَالَتْ إِلَيْهِ وَالْحَرِيصُ إِذَا غَدَتْ
بِهِ سَوْرَةُ الْأَطْمَاعِ لَمْ يُحْمِدِ الْعُقْبَى
وَأَنَسَهَا الْمَرْعَى الْخَصِيبُ فَصَادَفَتْ
مَدَى الْعَيْنِ فِي أَرْجَائِهِ تَلْدًا حِصْبًا
فَلَمَّا قَضَتْ مِنْهُ اللَّبَانَةَ رَاجَعَتْ
طَلَاهَا فَالْفَتْهُ قَضَى بَعْدَهَا نَحْبًا
أَتِيحَ لَهُ عَارِي السَّوَاعِدِ لَمْ يَزَلْ
يُحَوِّضُ إِلَى أُوطَارِهِ مَطْلَبًا صَعْبًا
فَوَلَّتْ عَلَى دُغْرِ وَبِالنَّفْسِ مَا يَهَا
مَنْ الْكَرْبِ لَا لُقِيَتْ فِي حَادِثِ كَرْنَا
بِأَوْجَدَ مِنِّي يَوْمَ عَجَّتْ رِكَابُهَا
لِبَيْنِ فَلَمْ تَتْرُكْ لِيذِي صَبَوَةٍ لُسَا
وكان يكفي أن يشبه الشاعر وجده بفراق محبوبته بلوعة الطيبة يعتال رشاها
الذئب، ولكن هذه الصورة الشعرية التي وضعها للغزاة المروعة الملتاعة جعلت
المعنى أوقع في النفس، وأملك للقلب، وأروع للوجدان.

(١) تحد تفصيل هذه المعاني الوجدانية في كتاب « مدامع العشاق » عند الكلام عن « الطيعة في
أنفس الشعراء ».

ولنتقل بعد ذلك إلى شوقي، وإنا لنراه صدف عن التخلص وأثر الاقتضاب،
فانتقل فجأة من ذلك النسيب المونق المشرق إلى الحديث عما تضرع الدنيا من
المبيكيات، وما تُجنُّ من ظلمات الخطوب، وتدرج من هذا إلى الحديث عن غفلة
النفس وفقرها إلى الأخلاق، وكذلك يقول :

يَا نَفْسُ ذُنُوبَكَ تُخْفِي كُلُّ مُبْكِيَةٍ
فُضِّي بِتَقْوَاكَ فَاهَا كُلَّمَا ضَحِكْتَ
مَخْطُوبَةٌ مُنْذُ كَانَ النَّاسُ خَاطِبَةً
يَفْنَى الزَّمَانُ وَيَبْقَى مِنْ إِسَاءَتِهَا
لَا تَحْفِلِي بِجَنَاحِهَا أَوْ جَنَائِتِهَا
كَمْ نَائِمٍ لَا يَرَاهَا وَهِيَ سَاهِرَةٌ
طَوْرًا تَمُدُّكَ فِي نُعْمَى وَعَافِيَةٍ
كَمْ ضَلَلْتُكَ وَمَنْ تُحْجِبُ بِصِيرَتِهِ
يَا وَيْلَتَاهُ لِنَفْسِي رَاعَهَا وَدَهَا
رَكَضَتْهَا فِي مَرِيعِ الْمَعْصِيَاتِ وَمَا
هَامَتْ عَلَى أَثَرِ اللَّذَاتِ تَطْلُبُهَا
صَلَاحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ مَرْجِعُهُ
وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ
تَطْعَى إِذَا مَكُنْتَ مِنْ لَذَّةٍ وَهَوَى
إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْغُفْرَانِ لِي أَمَلٌ
أَلْقِي رَجَائِي إِذَا عَزَّ الْمُجِيرُ عَلَى
إِذَا خَفَضْتَ جَنَاحَ الذُّلِّ أَسْأَلُهُ
وَإِنْ تَقَدَّمَ ذُو تَقْوَى بِصَالِحَةٍ
لَزِمْتُ بَابَ أَمِيرِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ

وهذه قطعة مختارة، الجيد فيها أكثر وأجود مما يقابله في كلام البوصيري وإن

قول شوقي :

لَا تَحْفِلِي بِجَنَاحِهَا أَوْ جَنَائِتِهَا الْمَوْتُ بِالزَّهْرِ مِثْلُ الْمَوْتِ بِالْفَحْمِ

لأشرف معنى وأسمى خيلاً من قول البوصيري :

وَأَخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ
فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرُّ مِنَ التَّخَمِ

ولك أن تلاحظ أن البوصيري وقف موقف الناصح الأمين، فلما وصل إلى نفسه ذكر أنه لم يُصلِّ ولم يُصُمْ سوى الفرض، وأنه يأسى على أن لم يتزوّد نافلة قبل الموت، وأنه لذلك ظلم سنة من أحيا الظلام حتى تورّمت قدماه، ومن هنا لم تكن الفرصة سانحة ليدرف ما ذرف شوقي من الدمع.

وأين شوقي من البوصيري ؟ لقد كان البوصيري من أئمة الصوفية، أما شوقي فقد كان حين نظم قصيدته من رجال البلاط، وكان بحسن أن يقول :
رَمَضَانُ وَلَّى هَاتِيهَا يَا سَاقِي مُشْتَاقَةً تَسْعَى إِلَى مُشْتَاقٍ
ومن هنا سُنحت له الفرصة لِيُزْفِرَ تلك الزفرة الحارّة، ويرمي بذلك الدم

الموجع الذي يذيب لفائف القلوب، وانظر كيف يقول :
إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْغُفْرَانِ لِي أَمَلٌ فِي اللَّهِ يَجْعَلُنِي فِي خَيْرٍ مُعْتَصِمٍ

وكان شوقي أوفر الناس إحساساً بخطر ذنبه، وكرم ربه، حين قال :
وَإِنْ تَقَدَّمَ ذُو تَقْوَى بِصَالِحَةٍ قَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ عِبْرَةَ النَّدَمِ
﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

البحث الثالث والعشرون

المعجزات

لنأ في المعجزات رأيي خاص، لا بسمح به ظرف الزمان، لأن درس المعجزات بطريقة علمية يتطلب عرض ما يحيط بها من الحقائق والفروض، وقد يثير فتنة نحن عنها أغنياء^(١)، فلندكر فقط ما بتصل بما ذكره البوصيري، وسوقي، والبارودي من معجزات النبي عليه الصلاة والسلام، ولنذكر قبل ذلك أن القرآن يفيض بالتدمر من إلحاح المعاندين ولحاجتهم في طلب المعجزات، إذ كان النبي يدعو إلى تحكيم العقل، وكان أولئك الكفار يأبون إلا أن تكون الرسالة مصحوبة بألعاب بهلوانية، تنفر منها القلوب، وتأبأها العقول، وتنبو عنها الأذواق، ولننظر كيف يقول فيهم عزّ شأنه وتبارك اسمه في سورة الإسراء :

﴿ قُلْ لِّمَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا. وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا. وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَافَهَا

(١) ومع ذلك سمح الرمس وأندينا بعض الآراء بصراحة في كتاب « المدايح النبوية » حتى حللنا برده البوصيري، وحين بعدنا فصح المولد الموي، وقد بدأ الناس بمهمون أن الاسلام في عسى خماله الحى عن زخرف الأباطيل.

تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَّمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرِيقِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٠﴾

وهذه الآيات صريحة في أن النبي لا يملك لنفسه شيئاً؛ وأن الأمر كله لله، وأن في القرآن هدىً وتبصرة لقوم يعقلون، وأصرح من هذا قوله تعالى في سورة العنكبوت :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

ومعنى هذه الآيات أن معجزة النبي الباقية هي القرآن، وفي تأييد ذلك يقول البوصيري :

آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثَةٌ قَدِيمَةٌ صِفَةُ الْمَوْصُوفِ بِالْقَدَمِ
لَمْ تَقْتَرُنْ بِزَمَانٍ وَهِيَ تَخْبِيرُنَا عَنِ الْمَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ
دَامَتْ لَدَيْنَا ففَاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدْمِ

وتبعه شوقي فقال :

جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالْآيَاتِ فَانْصَرَمَتْ وَجِئْنَا بِحَكِيمٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ
آيَاتُهُ كُلُّهَا طَالَ الْمَدَى جُدُّ يَزِينُهُنَّ جَلَالُ الْعِثْرِ وَالْقَدَمِ
يَكَادُ فِي لَفْظَةٍ مِنْهُ مُشْرِفَةٌ يُوصِيكَ بِالْحَقِّ وَالتَّقْوَى وَبِالرَّحِمِ

ويمكن بعد هذا أن نقرر أن شعراءنا الثلاثة لم يهتموا بنقد الأخبار الواردة في المعجزات، وإن كان شوقي على شيء من الحرص، يليه البوصيري، أما البارودي فقد نظم كل ما صادفه من هذا القبيل، وقد اشترك البوصيري والبارودي في الحديث عن سجود الأشجار، وسعيها إلى الرسول، فقال البوصيري :

جَاءَتْ لِذَعْوَتِهِ الْأَشْجَارُ سَاجِدَةً تَمْشِي إِلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلا قَدَمِ
كَأَنَّمَا سَطَرَتْ سَطْرًا لِمَا كَتَبَتْ فُرُوعُهَا مِنْ بَدِيعِ الْخَطِّ بِالْقَلَمِ

وقال البارودي :

أَتِلَّكَ أُمَّ حِينَ نَادَى سَرَحَةً فَآتَتْ
حَنَتْ عَلَيْهِ حُتُوَ الْأُمِّ مِنْ شَفَقِ
جَاءَتْهُ طَوْعاً وَعَادَتْ حِينَ قَالَ لَهَا
إِلَيْهِ مَنْشُورَةَ الْأَغْصَانِ كَالْحُمَمِ
وَرَفَرَفَتْ فَوْقَ ذَاكَ الْحُسْنِ مِنْ رَحِمِ
عُودِي وَلَوْ خُلِّيتَ لِلشُّوقِ لَمْ تَرِمِ

وانفرد البارودي بالحديث عن شق صدر النبي وهو غلام، فقال :
فَبَيْنَمَا هُوَ يَرْعَى الْبُهَمَ طَافَ بِهِ
فَأَضْجَعَاهُ وَشَقَّ صَدْرَهُ بِيَدِ
وَبَعْدَمَا قَضَى مِنْ قَلْبِهِ وَطَرًا
مَا غَالَجَا قَلْبَهُ إِلَّا لِيَخْلُصَ مِنْ
فِيَالَهَا نِعْمَةً لِلَّهِ خَصَّ بِهَا
شَخْصَانِ مِنْ مَلَكَوَتِ اللَّهِ ذِي الْعِظَمِ
رَفِيقَةٍ لَمْ يَبْتَ مِنْهَا عَلَى أَلَمِ
تَوَلَّىَا غَسَلَهُ بِالسَّلْسَلِ الشِّيمِ
شَوَّبَ الْهَوَى وَيَعِي قُدْسِيَّةَ الْحَكَمِ
حَبِيبَهُ وَهُوَ طِفْلٌ غَيْرُ مُحْتَلِمِ

وشق الملائكة لصدر النبي وغسلهم إياه بالسلسيل ليس من المعجزات
لأن المعجزة تكون للإقناع، وهو لم يدع إلى ربه في طفولته حتى يكون
للإقناع مجال، وإنما هو نوع من التطهير لم تجر به العادة ولم يعرفه
الناس، والله يختص برحمته من يشاء، وقد مر البارودي بهذه الأسطورة
مرّ الطيف، فلم يعرض لها بنقد ولم يتناولها بتحليل، ونحن نكتفي هنا
بأن نقرر أنها في حاجة إلى تحقيق، ثم نلتفت إلى ما فيها من روعة
الخيال، فقد صوّر النبي فيها صورة رائعة، وتمثّل فيها لطف الله به، وإحسانه
إليه، وتكريمه إياه، وهي صورة شعرية نحب أن نمتع بها القارئ، لبرى
كيف ابتداء القصص في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام.

ذكر محمد بن ظفر من حديث طويل أن النبي ﷺ قال :
« وَكُنْتُ مُسْتَرْضِعاً فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، فَبَيْنَمَا أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ مُنْبَذٌ
مِنْ أَهْلِي فِي بَطْنِ وَادٍ مَعَ أَتْرَابِ لِي مِنَ الصَّبِيَّانِ إِذَا أَنَا بِرَهْطٍ ثَلَاثَةٍ مَعَهُمْ
طَشْتُ بَرَهْرَهَةً مِنَ الذَّهَبِ مَلَانٍ ثَلَجاً، فَأَخَذُونِي مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِي، وَانْطَلَقَ
أَصْحَابِي هَرَاباً حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى شَفِيرِ الْوَادِي، ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَى الرَّهْطِ وَقَالُوا :
مَا أَرُبُّكُمْ مِنْ هَذَا الْغَلَامِ ؟ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَّا، هَذَا ابْنُ سَبْدِ فَرِيشَ، وَهُوَ مُسْتَرْضِعٌ

فينا، غلام يتيم ليس له أب فما يرُدُّ عليكم قتله، ومادا تصيبون من ذلك ؟
 فإن كنتم لا بُد قاتليه فاختاروا منا أيُّنا شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا
 هذا الغلام فإنه يتيم، فلما رأى الصبيان أن القوم لا يحIRON جواباً انطلقوا
 مسرعين إلى الحيّ يؤذنونهم ويسنصرونهم على القوم، قال : فعمد أحدهم
 فأضجعني إلى الأرض إضجاعاً رقيقاً ثم شق بطني ما بين مفرق صدري
 إلى عانتي، وأنا أنظر إليه، ولم أجد لذلك مَسّاً، ثم أخرج أحشاء بطني
 فغسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها، ثم أعادها إلى مكانها، ثم قام الثاني
 منهم فقال لصاحبه : تَنَحَّ عنه، فنحاه عني، ثم أدخل يده في حوفي فأخرج
 قلبي وأنا أنظر إليه، فصدّعه ثم أخرج منه مُضْغَةً سوداء فرمى بها، ثم
 أَمَرَّ يده يمينته منه، وكأنه يتناول شيئاً فإذا بخاتم من نور في يده يحار
 الناظرون إليه فختم به قلبي فامتلاً نوراً، وذلك نور النبوة والحكمة، ثم
 أعاده مكانه فوجدت برد الخاتم في قلبي دهرأ، ثم قال الثالث : تَنَحَّ عنه،
 فنحاه عني، فأمرَّ يده على مفرق صدري إلى مُنتهى عانتي، فالتأم ذلك
 الشق بإذن الله تعالى، ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكائي إنهاضاً لطيفاً، ثم
 قال للأول الذي شق بطني : زنه بعشرين من أمته فوزني فرجحتهم، ثم
 قال : زنه بمائة من أمته فوزني فرجحتهم، ثم قال : زنه بألف من أمته
 فوزني فرجحتهم، ثم قال : دعه فوالله لو وَزَنَته بأمنه لَرَجَحْتَهُمْ. قال :
 ثم ضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي، وما بين عيني، ثم قالوا : لا تُرْعَ،
 فإنك لو تدري ما يُرادُ بك من الخير لَقَرَّتْ به عينك. قال : فبينما نحن
 كذلك إذ أهبل الحيّ بحذافيرهم، فإذا ظئري أمام الحيّ تهتف بأعلى صوتها،
 وتقول واضعيفاه ! فانكبوا عليّ وضموني إلى صدورهم، وقبلوا رأسي، وما
 بين عيني — يعني الملائكة — وقالوا : حذا أنت من وحيد ! وما أنت
 بوحيد، إن الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض ! ثم قالت ظئري :
 وإيتيماها ! ! استضعفت من بين أصحابك فقتلت لصعفك ! قال فانكبوا عليّ
 وضموني إلى صدورهم، وقبلوا رأسي وما بين عيني — يعني الملائكة —
 وقالوا : حذا أنت من يتيم ! ما أكرمك على الله ! لو تعلم ما يراد بك

من الخير لَقَرْتُ به عيناك ! فوصل الحي إلى شفير الوادي فلما أبصرني
أُمي — وهي ظئري — قالت : لا أراك إلا حبا بعد ! فجاءت حتى اكبت
عليّ، ثم ضمتني إلى صدرها، فوالذي نفسي بيده إنني لفي حجرها قد
ضمتني إليها، وإن يدي لفي يد بعض الملائكة، وجعل القوم لا يروهم،
قال : فقال بعض القوم : إن هذا الغلام قد أصابه لَمَمٌ، أو طائفٌ من الجن
فانطلقوا به إلى كاهننا حتى ينظر إليه ويداويه، فقلت يا هذا ما بي سىء
مما تذكرون، إن آرابي لسليمة وفؤادي صحيح، ليست لي فلتة، فقال أبي
— وهو زوج ظئري — ألا ترون كلامه كلام فصيح ؟ إنني لأرجو أن
لا يكون يابني بأُس، فاتفقوا على أن يذهبوا بي إلى الكاهن، فلما انصرفوا
بي قصّوا عليه قصتي، فقال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام، فإنه هو أعلم
بأمره منكم، فسألني فقصصت عليه القصة، وأمرني من أوله إلى آخره،
فوثب إليّ وضممني إلى صدره ثم نادى بأعلى صوته : يا للعرب ! اقلوا
هذا الغلام واقتلوني معه ! فواللات والعزى لئن تركتموه وأدرك ليبدلن دينكم،
وليسفهنّ عقولكم وعمول آبائكم، وليحالفن أمركم، وليأنيبنكم بدين لم تسمعوا
بمثله ! قال : فعمدت ظئري إليه فانتزعتني من حجره، وقالت : لأنت أغنه
وأجن ! ولو علمت أن هذا من قولك لما أتيتك به، فاطلب لنفسك من
يقتلك، فإنّا غير قاتلي هذا الغلام ! ثم احتملوني وأدوني إلى أهلهم وأصبحت
مُفَزَّعاً مما فعل بي، وأصبح أثر الشئ ما بين صدرى إلى منهي عانني
كأنه الشراك^(١) .

وقد نقلنا هذا الحديث على طوله لتمكّن القارئ من نقده وتمييزه، ولنجعله على
بيبة من الحكم له أو عليه، إن شاء، أما نحن فترينا فيه عبارته، إذ كانت عبارة
ضعيفة لا تسمو إلى ما في صحيح الحديث من متانة التركيب وحلاوة التعبير،
ويرينا بنوع خاص مفتتح الحديث، فإن طريقة القصص التي سلكها قد بدل
على أنه موضوع، وذلك قوله : « روى شداد بن أوس قال : بينا نحن حلوس

(١) راجع كتاب نحاء الأبناء.

عَمُوا وَصَمُوا فَأِعْلَانُ الْبَشَائِرِ لَمْ
مِنْ تَعْدِمَا أَخْبَرَ الْأَقْوَامَ كَاهِنُهُمْ
وَبَعْدَ مَا عَايَنُوا فِي الْأَفْقِ مِنْ شُهْبِ
حَتَّى غَدَا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ مُنْهَزِمٌ

تُسَمِعُ وَبَارِقَةُ الْإِنْدَارِ لَمْ تُسَمِ
بِأَنَّ دِينَهُمُ الْمُعْوجَّ لَمْ يَقْصِمِ
مُنْقَضَةً وَفَقَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ صَنْمِ
مِنَ الشَّيَاطِينِ يَقْفُو إِثْرَ مُنْهَزِمِ

وقال في الهمزية :

وَتَدَاعَى إِيوَانُ كِسْرَى وَلَوْلَا
وَعَدَا كُلُّ بَيْتٍ نَارَ وَفِيهِ
وَعُيُونٌ لِلْفُرسِ غَارَتْ فَهَلْ كَا

آيَةُ مِنْكَ مَا تَدَاعَى الْبِنَاءُ
كُرْبَةً مِنْ خُمُودِهَا وَبِلَاءُ
نَ لِنِيرَانِهِمْ بِهَا إِطْفَاءُ

ويقول شوقي في نهج البردة :

وَحَلَّ كِسْرَى وَإِيوَانًا بُدِّلَ بِهِ
هَوَى عَلَى أَثَرِ النَّيرَانِ وَالْأُثْمِ

ويقول في الهمزية :

ذُعِرَتْ غُرُوشُ الظَّالِمِينَ فزُلْزِلَتْ
وَالنَّارُ خَاوِيَةٌ الْجَوَائِبِ حَوْلَهُمْ
وَالْآيُ تَتَرَى وَالْخَوَارِقُ جَمَّةٌ

وَعَلَتْ عَلَى تَيْجَانِهِمْ أَصْدَاءُ
خَمَدَتْ دَوَائِبُهَا وَغَاضَ الْمَاءُ
جَرِبِلُ رَوَاحٍ بِهَا غَدَاءُ

ويرى القارئ أن البوصيري أكثر من شوقي إشادةً بملك الخوارق، وشعره فيها يفيض بالحياة، أما شوقي فقد آثر الحيلة، وهو يتكلم عن هذه الموضوعات، فكان شعره فيها أضعف من شعره في سائر أغراض القصيدة، وسرى تحليله لفريضة الجهاد في الكلمة الآتية .

* * *

ويمكن بعد هذا أن نحكم بأن شعر البوصيري أروع من شعر شوقي في وصف الخوارق والمعجزات، وأن شوقي أبعد نظراً من البوصيري في نقد الأخبار والآثار، فإن انصداع الإيوان، وخمود نار الفرس، ونضوب بحيرة ساوة، وانفضاض الشهب على الأصنام : كل هذه الحوادث فيها نظر، وكلها في حاجة إلى تمحيص، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

البحث الرابع والعشرون

وصف القرآن

لم يُعَنَّ البارودي بوصف القرآن كما عُنيَ به البوصيري وشوقي، أما البوصيري فقد قال:

دَعْنِي وَوَصْفِي آيَاتٍ لَهُ ظَهَرَتْ ظُهُورَ نَارِ الْقِرَى لَيْلاً عَلَى عِلْمِ
فَالْدُرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظِمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظِمِ
فَمَا تَطَاوُلُ آمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالشَّيَمِ

وأول هذه الأبيات فيه شيء من السداجة. وعبرة « دعني ووصفي آيات له ظهرت » عبارة عامية. وقوله :

فَالْدُرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظِمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظِمِ

غير واضح المدلول، لأن الدر الذي يتحدث عنه لا يصح أن يكون صفة القرآن، لأنه لا يُهْمُ بنظم القرآن، ولا يصح أن يكون صفة لتقريض القرآن، إذ لم تسبق ذلك إشارة ولم يتقدمه دليل، فلم يبق إلا أن تكون هذه خطرة عرضت للشاعر وعز عليه أن تضيع، فقيدها في ذلك البيت وهو في ذاته بيت جميل... أما قوله:

فَمَا نَطَاوُلُ آمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالشَّيَمِ
فهو بيت يُمدَح به شخص، ولا يُقَرَّطُ به كتاب، وقد كان الشاعر

يرمي إلى وصف القرآن بأنه دعوة إلى محاسن الشيم، ومكارم الأخلاق، ولكنه لم يوفق إلى حسن الأداء..

وقوله بعد ذلك :

آيَاتُ حَقٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثَةٌ قَدِيمَةٌ صِفَةُ الْمَوْصُوفِ بِالْقَدَمِ
لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ وَهِيَ تُخْبِرُنَا عَنْ الْمَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ

فيه إشارة إلى ما اختلف فيه المتكلمون عن قدم القرآن وحداثته، وهي إشارة مبهمة لا تغني في دفع ولا تأييد، والبيت الثاني غير جيد المعنى، لأن إخبار القرآن عن عاد وعن إرم، ليس حجة إلا عند المسلمين، أما جمهور العالم فلا يصدق من أخبار العهود الأولى غير ما تشهد به الآثار، بَعْدَ أَمْنِ اللَّبْسِ والتزوير...

أما قوله :

دَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجَزَةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدُمْ

فهو بيت القصيد، إذ كان القرآن هو المعجزة الباقية، وكان هو المرجع حين يَجِدُ الخلاف، وهو أيضاً المعجزة الصريحة التي يعتز بها العقل، ويصح للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين، أما نبع الماء من بين يدي الرسول، وتظليل الغمام إياه، وسجود الأشجار له، وما إلى ذلك من المعجزات، فهي مسائل يحتاج عرضها إلى مخاطرة، وهي مخشّية الضرر، قبل أن تكون مَرْجُوة النفع، ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

وقوله :

مَا حُورِبَتْ قَطُّ إِلَّا عَادَ مِنْ حَرْبٍ أَعْدَى الْأَعَادِي إِلَيْهَا مُلْقِي السَّلَامِ
رَدَّتْ بِلَاعَتِهَا دَعْوَى مُعَارِضِهَا رَدَّ الْغُيُورِ يَدَ الْجَانِي عَنْ الْحَرَمِ

كلمة صدق، ويكفي أن تقرأ القرآن بحَيِّدَةٍ ونزاهةٍ لتلمس هذه الحقيقة، فالقرآن كتابٌ حَطَرٌ رهيب، يحمل عدوه على الإيمان به، والخشوع لديه. ولو صَحَّتْ — لأصَحَّتْ — أَرَاخِيفُ الْمُلْحَدِينَ من أن القرآن من إنشاء محمد بن عبد الله لكان محمد هذا أعظم رجل شهد هذا الوجود.

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبِطُلُونَ. بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾.

وما أصدق قول البوصيري في آيات الكتاب العزيز :

لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِي مَدَدٍ وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الْحُسْنِ وَالْفَيْمِ
فَمَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجَائِبُهَا وَلَا تُسَامُ عَلَى الْإِكْتَارِ بِالسَّامِ
قَرَّتْ بِهَا عَيْنُ قَارِيهَا فَقُلْتُ لَهُ لَقَدْ ظَفِرْتَ بِحَبْلِ اللَّهِ فَأَعْتَصِمِ
إِنْ تَتْلُهَا خِيفَهُ مِنْ حَرِّ نَارٍ لَظَى أَطْفَاتُ نَارٍ لَظَى مِنْ وَرْدِهَا السَّبَمِ
لَا تَعْجَبَنَّ لِحُسُودِ رَاحٍ يُنْكِرُهَا نَجَاهُلاً وَهُوَ عَيْنُ الْحَاقِقِ الْفَهْمِ
قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

وهذا البيت الأخير من فرائد الأمثال، وهو غاية في تقريب المكابرين...

أما شوقي فقد قال :

جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالْآيَاتِ فَانْصَرَمَتْ وَجِئْتَنَا بِحَكِيمٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ
آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُدُّ يَزِينُهُنَّ جَلَالُ الْعِثْقِ وَالْقَدَمِ
يَكَادُ فِي لَفْظَةٍ مِنْهُ مُشْرِفَةٌ يُوصِيكَ بِالْحَقِّ وَالتَّقْوَى وَبِالرَّحِمِ

وهذا الوصف على إيجازه جميل، وكنت أود ألا يكتفي شوقي في وصف القرآن

بهذه الأبيات...، وقد انتقل إلى الإشادة بحديث النبي فقال :

يَا أَفْصَحَ النَّاطِقِينَ الضَّادَ قَاطِبَةً حَدِيثُكَ الشَّهْدُ عِنْدَ الذَّائِقِ الْفَهْمِ
حَلَّيْتُ مِنْ غَطْلٍ جَيْدِ الْبَيَانِ بِهِ فِي كُلِّ مُتَشَبِّهِ فِي حُسْنِ مُنْتَظَمِ
بِكُلِّ قَوْلٍ كَرِيمٍ أَنْتَ قَائِلُهُ تُحْيِي الْقُلُوبَ وَتُحْيِي مَيِّتَ الْهِمَمِ

وقول شوقي :

آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُدُّ يَزِينُهُنَّ جَلَالُ الْعِثْقِ وَالْقَدَمِ

أروع من قول البوصيري :

فَمَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجَائِبُهَا وَلَا تُسَامُ عَلَى الْإِكْتَارِ بِالسَّامِ

وقول البوصيري :
إِنْ تَلَّهَا خَيْفَةٌ مِنْ حَرِّ نَارٍ لَطَىْ أَطْفَاتِ حَرِّ لَطَىْ مِنْ وَرْدِهَا الشَّبِمْ
فيه طُبعف، لأنه ينقل القرآن من الغرض الذي أنزل لأجله، وهو تهذيب النفوس،
وتثقيف العقول، إلى غرض ضئيل وهو اتخاذه ورداً من أوراد الصباح أو المساء،
كنا فعل المتأخرون.

وقوله :
حَلَيْتَ مِنْ عَطَلٍ جَيْدٍ الْبَيَانِ بِهِ فِي كُلِّ مُتَنَبِّرٍ فِي حُسْنٍ مُنْتَظِمٍ
غير جيد المعنى، وهو لا يزيد عن قول بعض الناس « أما القرآن فهو زينة
البيان، وقلائد العقيان » وعيب هذا النوع من الوصف يرجع إلى ما فيه من
الشُمول، ووحودة الوصف لاتفم إلا بتجديد الموصوف.

وصف الهيجاء

عُنِيَ العرب كثيراً بوصف الحرب، فأفاض شعراؤهم في الإشادة بذكر الغزاة،
والتمدح بآثار المجاهدين، وهذا كتاب (الحماسة) شاهدٌ عَدْلٌ على تلك النزعة
الحربية التي سيطرت على نفوس العرب زمناً غير قليل، فقد اختار أبو تمام قطعاً
قليلة في الحديث عن أدب النفس ومكارم الأخلاق، وفعل مثل ذلك في الفكاهات
والمُلح والنسيب، ثم ملأ كتابه بالحماسة والهجاء والمدح : وهي الفنون التي
ترجم النفس العربية، وتكشف عما فيها من مطويّ النوازع، ومكنون الميول،
وكذلك مُهَدَّتِ السبيل لشعرائنا الذين أرادوا التنويه بما خاض النبي من المعارك،
وما اقتحم من الحروب، وإن اختلفت مناحيهم في وصف الهيجاء.

أما البوصيري ففد تحدث عن الحرب بطريقة مجملية ولم يميز بعض الغزوات
عن بعض، وهو يتكلم عن أخبار القتال، فوصفه للحرب وصفٌ فَضْفَاضٌ يصلح
لبوساً لكل موصوف. وانظر كيف يقول :
رَاعَتْ قُلُوبَ الْعِدَا أَنْبَاءَ بَعْثِهِ كَنْبَاءَ أَجْفَلَتْ غُفْلًا مِنْ الْغَنَمِ

مَا زَالَ يَلْقَاهُمُ فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ حَتَّى حَكَّوْا لَحْمًا عَلَى وَصَمٍ
 وَدُّوا الْفِرَارَ فَكَادُوا يَعْبُطُونَ بِهِ أَشْلَاءَ شَالَتْ مَعَ الْعِقْبَانِ وَالرَّحِمِ
 تَمْضِي اللَّيَالِي وَلَا يَذُرُونَ عِدَّتَهَا مَا لَمْ تَكُنْ مِنْ لَيَالِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ
 كَأَنَّمَا الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ بِكُلِّ قَرْمٍ إِلَى لَحْمِ الْعِدَا قَرْمِ
 يَجُرُّ بَحَرَ خَمِيسٍ فَوْقَ سَابِغَةٍ يَرْمِي بِمَوْجٍ مِنَ الْأَبْطَالِ مُلْتَظِمِ
 مِنْ كُلِّ مُنْتَدِبٍ لِلَّهِ مُحْتَسِبِ يَسْطُو بِمُسْتَأْصِلٍ لِلْكَفْرِ مُضْطَلِمِ
 حَتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ وَهِيَ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ غُرَّتِهَا مَوْصُولَةُ الرَّحِمِ
 وَإِنَّهُ لَيَحْسَنُ أَنْ نَسْجَلَ لِعَجَابِنَا بِقَوْلِهِ فِي وَصْفِ الْمَجَاهِدِينَ مِنْ أَصْحَابِ

الرسول :

هُمْ الْجِبَالُ فَسَلْ عَنْهُمْ مُصَادِمَهُمْ مَاذَا رَأَى مِنْهُمْ فِي كُلِّ مُضْطَلَمٍ
 وَسَلْ حُتَيْنًا وَسَلْ بَدْرًا وَسَلْ أُحُدًا فَصُولُ حَتَفٍ لَهُمْ أَذْهَى مِنَ الْوَحْمِ
 الْمُصْدِرِي الْبَيْضِ حُمْرًا بَعْدَمَا وَرَدَتْ مِنْ الْعِدَا كُلِّ مُسْوَدٍّ مِنَ اللَّمَمِ
 وَالْكَائِبِينَ بِسُمْرِ الْخَطِّ مَا تَرَكَتْ أَقْلَامُهُمْ حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرَ مُنْعَجِمِ
 شَاكِي السَّلَاحِ لَهُمْ سِيْمَا تُمَيِّزُهُمْ وَالْوَرْدُ يَمْتَارُ بِالسِّيْمَا مِنَ السَّلَمِ
 تُهْدِي إِلَيْكَ رِيَاخُ النَّصْرِ نَشْرَهُمْ فَتَحْسَبُ الزَّهْرَ فِي الْأَكْمَامِ كُلِّ كَيْمِ

وقد يُسْتَضَعَفُ قَوْلُهُ :

كَأَنَّهُمْ فِي ظُهُورِ الْحَيْلِ نَبْتُ رُبَاً مِنْ شِدْقِ الْحَزْمِ لَا مِنْ شِدْقِ الْحُزْمِ
 طَارَتْ قُلُوبُ الْعِدَا مِنْ بَأْسِهِمْ فَرَقَاً فَمَا تَفَرَّقُ بَيْنَ الْبَهْمِ وَالْبُهِمِ

أما البارودي — جعل الله له لسان صدق في الآخرين — فقد وصف الحرب وصفاً حياً صارخاً يبعث ميت العزم، وبثير مدفون الصيال، وما ظنك بجدي سفاح نشأ في أرض الفراعة الذين هموا ببناء الصروح السواخ ليلعوا أسباب السموات وليحاربوا المقتدر القهار، وإنه لضلal أجمل من الهدى، وعي أهدى من الرشاد !

ولننظر كيف يقول :

قَامَ النَّبِيُّ لِنَصْرِ الْحَقِّ مُعْتَرِماً
بِجَحْفَلِ الْجُمُوعِ الشُّرْكِ مُحْتَرِماً
تَبَدُّوْا بِهِ الْبَيْضُ وَالْقَسَطَالُ مُنْتَشِرٌ
كَالشُّهْبِ فِي اللَّيْلِ أَوْ كَالنَّارِ فِي الْفَحْمِ
لَمَعَ السُّيُوفُ وَتَصَهَّالَ الْخِيُولُ بِهِ
كَالْبَرْقِ وَالرَّعْدِ فِي مُعْدُوْدِقِ هَزَمِ
عَرَمَرَمَ بَسْفُ الْأَرْضِ الْفَضَاءَ إِذَا
سَرَى بِهَا وَبَدُّ الْهُضْبِ مِنْ خَيْمِ
فِيهِ الْكُمَاةُ الَّتِي ذَلَّتْ لِعِزَّتِهَا
مَعَاطِسٌ لَمْ نُدَلِّلْ قَبْلُ بِالْخُطَمِ
مِنْ كُلِّ مُعْتَزِمٍ بِالصَّبْرِ مُحْتَزِمٍ
لِلْقَرْنِ مُلْتَزِمٍ فِي الْبَاسِ مُهْتَزِمٍ
طَالَتْ بِهِمْ هِمَمٌ نَالُوا السَّمَاءَ بِهَا
عَنْ قُدْرَةٍ وَعُلُوِّ النَّفْسِ بِالْهِمَمِ
بَيْضٌ أَسَاوِرَةٌ غُلَبٌ قَسَاوِرَةٌ
شُكْسٌ لَدَى الْحَرْبِ مِطْعَامُونَ فِي الْأَزَمِ
طَابَتْ نَفْسُهُمْ بِالْمَوْتِ إِذْ عَلِمُوا
أَنَّ الْحَيَاةَ الَّتِي يَتَّعُونَ فِي الْعَدَمِ
سَاسُوا الْجِيَادَ فَظَلَّتْ فِي أَعْنَتِهَا
طَوَعَ الْبَنَانَةُ فِي كَرٍّ وَمُقْتَحَمِ

تَكَادُ تَفْقَهُ لَحْنَ الْقَوْلِ مِنْ أَدَبٍ
وَتَسْبِقُ الْوَحْيَ وَالْإِيمَاءَ مِنْ فَهْمٍ
كَأَنَّ أَذْنَهَا فِي الْكَرِّ أَلْوِيَهُ
عَلَى سَفِينٍ لِأَمْرِ الرِّيعِ مُرْتَسِمٍ
مِنْ كُلِّ مُنْجَرِدٍ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ
بَيْنَ الْعَجَاجِ هُوِيَّ الْأَجْدَلِ اللَّحْمِ
وَالْبَيْضُ تَرْجُفُ فِي الْأَعْمَادِ مِنْ ظَمَأٍ
وَالشُّمْرُ تَرْعُدُ فِي الْأَيَّامِ مِنْ قَرَمٍ
مِنْ كُلِّ مُطَرِدٍ لَوْلَا عِلَاقَتُهُ
لَسَابَقَ الْمَوْتَ نَحْوَ الْقَرْنِ مِنْ صَرَمٍ
كَانَهُ أَرْقَمَ فِي رَأْسِهِ حُمَةً
يَسْتَلُّ كَيْدَ الْأَعَادِي بِابْنَةِ الرَّقَمِ
فَلَمْ يَزَلْ سَائِرًا حَتَّى أَنْفَ عَلَى
أَرْبَاضٍ مَكَّةَ بِالْفُرْسَانِ وَالْبَهَمِ
وَلَفَّهُمْ بِخَمِيسٍ لَوْ يُشَدُّ عَلَى
أَرْكَانِ رُضْوَى لِأَضْحَى مَائِلَ الدَّعَمِ
فَاقْبَلُوا يَسْأَلُونَ حِينَ رَأَوْا
أَنَّ اللَّجَاجَةَ مَدْعَاةٌ إِلَى النَّدَمِ
رِيعُوا فَذَلُّوا، وَلَوْ طَاشُوا لَوَقَّرَهُمْ
ضَرْبُ بُفَرِّقٍ مِنْهُمْ مَجْمَعِ اللَّمَمِ

وهذه صورة شعربة قليلة الأمثال، وإنك لتعجب حين نرى البارودي يفتن
في تصوير الحرب، وهو يتحدث عن الغزوات غزوةً، غزوةً وانظر كيف
يقول مثلاً في يوم بدر :
يَوْمَ تَبَسَّمَ فِيهِ الدَّبْنُ وَانْهَمَلَتْ
عَلَى الضَّلَالِ عُيُونُ الشَّرْكِ بِالسَّجَمِ

أَبْلَى عَلَيَّ بِهِ خَيْرَ الْبَلَاءِ بِمَا
حَبَاهُ ذُو الْعَرْشِ مِنْ بَأْسٍ وَمِنْ هِمَمٍ
وَجَالَ حَمَزَةً بِالصَّمْصَامِ يَكْسُوهُمْ
كَسًا يُفَرِّقُ مِنْهُمْ كُلَّ مُزْدَحَمٍ
وَعَادَرَ الصُّحْبُ وَالْأَنْصَارُ جَمْعَهُمْ
وَلَيْسَ فِيهِ كَمِيٍّ غَيْرُ مُنْهَزِمٍ
تَقَسَّمَتْهُمْ يَدُ الْهَيْجَاءِ عَادِلَةً
فَالْهَامُ لِلْبَيْضِ وَالْأَبْدَانُ لِلرَّحِمِ
كَأَمَّا الْبَيْضُ بِالْأَيْدِي صَوَالِجَةً
يَلْعَبْنَ فِي سَاحَةِ الْهَيْجَاءِ بِالْقَمَمِ
لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ كَمِيٍّ غَيْرُ مُتَجَدِّلٍ
عَلَى الرَّغَامِ وَعُضْوٌ غَيْرُ مُنْخَطِمٍ
فَمَا مَضَتْ سَاعَةٌ وَالْحَرْبُ مُسْعِرَةً
حَتَّى غَدَا جَمْعُهُمْ نَهْبًا لِمُقْتَسِمِ
قَدْ أَمْطَرَتْهُمْ سَمَاءُ الْحَرْبِ صَائِبَةً
بِالْمَشْرِفِيَّةِ وَالْمُرَانِ كَالرَّجْمِ
فَأَيْنَ مَا كَانَ مِنْ زَهْوٍ وَمِنْ صَلَفٍ
وَأَيْنَ مَا كَانَ مِنْ فَخْرٍ وَمِنْ شَمَمٍ
جَاءُوا وَلِلشَّرِّ وَسَمٌ فِي مَعَاطِسِهِمْ
فَارْغَمُوا وَالرَّدَى فِي هَذِهِ السَّيَمِ
مَنْ عَارَضَ الْحَقَّ لَمْ تَسْلَمْ مَقَاتِلُهُ
وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلْأُخْطَارِ لَمْ يَنْمِ

أما شوقي فقد وصف النبي في الحرب وصفاً رقيقاً لا يلائم ما تقضي به
الحروب من غلبة الغضب وشمول العُبوس، ولننظر كيف يقول :
الْبَذْرُ دُونَكَ فِي حُسْنٍ وَفِي شَرَفٍ وَالْبَحْرُ دُونَكَ فِي خَيْرٍ وَفِي كَرَمٍ
سُمُّ الْجِبَالِ إِذَا طَاوَلَتْهَا أَنْخَفَضَتْ وَالْأَنْجُمُ الزُّهْرُ مَا وَأَسْمَتْهَا تَسِيمِ

وَاللَّيْثُ دُونَكَ بَأْسًا عِنْدَ وَثْبَتِهِ
تَهْفُؤُا إِلَيْكَ وَإِنْ أَدْمَيْتَ حَبَّتَهَا
مَحَبَّةُ اللَّهِ الْقَاهَا وَهَيْئَتُهُ
كَأَنَّ وَجْهَكَ تَحْتَ النَّفْعِ بَدْرٌ دُجَى
بَدْرٌ تَطْلُعُ فِي بَدْرِ فَعْرَتُهُ
إِذَا مَشَيْتَ إِلَى شَاكِي السَّلَاحِ كَمِي
فِي الْحَرْبِ أَفْئِدَةُ الْأَبْطَالِ وَالْبُهِمِ
عَلَى آيِنِ آمِنَةٍ فِي كُلِّ مُضْطَرَمٍ
يُضِيءُ مُلْتَمِئًا أَوْ غَيْرَ مُلْتَمِئٍ
كَغُرَّةِ النَّصْرِ تَجْلُو دَاجِي الظُّلَمِ

وهذا شعر جميل، لكنه أرق من أن يُوصَفَ به ذُوو البأس وهم يقارعون الهول في ميدان الجلال، ويعجبني قوله في وصف الغزاة :

مَهْمَا دُعِيَتْ إِلَى الْهَيْجَاءِ قُمْتَ لَهَا
عَلَى لَوَائِكَ مِنْهُمْ كُلُّ مُنْتَقِمٍ
مُسَبِّحٍ لِلِقَاءِ اللَّهِ مُضْطَرِمٍ
لَوْ صَادَفَ الدَّهْرَ يَبْغِي نَقْلَهُ فَرَمَى
بِيضٌ مَفَالِيلُ مِنْ فِعْلِ الْحُرُوبِ بِهِمْ
كَمْ فِي التَّرَابِ إِذَا فَتَشْتَ عَنْ رَجُلٍ
لَوْلَا مَوَاهِبُ فِي بَعْضِ الْأَنَامِ لَمَا
تَرَمَى بِأَسَدٍ وَيَرْمِي اللَّهُ بِالرُّجْمِ
لِلَّهِ مُسْتَقْتَلٍ فِي اللَّهِ مُعْتَزِمٍ
شَوْقًا عَلَى سَابِحِ كَالْبَرْقِ مُضْطَرِمٍ
بِعَزْمِهِ فِي وَحَالِ الدَّهْرِ لَمْ يَرَمِ
مِنْ أَسِيفِ اللَّهِ لَا الْهِنْدِيَّةِ الْخُزْمِ
مَنْ مَاتَ بِالْعَهْدِ أَوْ مَنْ مَاتَ بِالْقَسَمِ
تَفَاوَتْ النَّاسُ فِي الْأَقْدَارِ وَالْقِيمِ

حكمة الجهاد

لم يفصح البوصيري عن السر في مشروعية القتال، وأشار إليها البارودي إشارة خفيفة حين قال :

ذَاقُوا الرَّدَى جُرْعًا فَاسْتَسَلَّمُوا جَزَعًا لِلصُّلْحِ وَالْحَرْبِ مَرْقَاةً إِلَى السَّلَمِ

أما شوقي فقد أبان عن حكمة الجهاد، وأفصح عنها إفصاحاً يُرضي المنصف ويكبح جهل الكنود، ولننظر كيف يقول :

قَالُوا غَزَوْتَ وَرُسُلُ اللَّهِ مَا بُعِثُوا
جَهْلٌ وَتَضْلِيلُ أَحْلَامٍ وَسَفْسَاطَةٌ
لَمَّا أَتَى لَكَ عَفْوًا كُلُّ ذِي حَسَبٍ
وَالشَّرُّ إِنْ تَلَقَّه بِالْخَيْرِ ضِيقَتْ بِهِ
لِقَتْلِ نَفْسٍ وَلَا جَاؤُوا لِسَفْكِ دَمٍ
فَتَحْتَ السَّيْفِ بَعْدَ الْفَتْحِ بِالْقَلَمِ
تَكْفَلُ السَّيْفُ بِالْجُهَّالِ وَالْعَمَمِ
ذُرْعًا وَإِنْ تَلَقَّه بِالشَّرِّ يَنْحَسِمِ

وقد رأى لتأييد حجته أن يضرب المثل بالمسيحية، فقد كانت دين سلام وإخاء، ولكنها لم تقم إلا بالسيف، وفي هذا يقول :

سَلِ الْمَسِيحِيَّةَ الْغُرَاءَ كَمْ شَرِبْتَ بِالصَّابِ مِنْ شَهَوَاتِ الظَّالِمِ الْعَلِمِ
طَرِيدَةُ الشُّرْكِ يُؤْذِيهَا وَيُوسِعُهَا فِي كُلِّ حِينٍ فِتْنَالاً سَاطِعَ الْحَدَمِ
لَوْلَا حُمَاةُ لَهَا هُبُّوا لِنُصْرَتِهَا بِالسَّيْفِ مَا انْتَفَعَتْ بِالرَّفْقِ وَالرَّحْمِ

ثم عاد إلى تأكيد فضيلة الجهاد، فقال :

عَلَّمْتَهُمْ كُلَّ شَيْءٍ يَجْهَلُونَ بِهِ حَتَّى الْقِتَالِ وَمَا فِيهِ مِنْ آلِذٍ
لَوْلَاهُ لَمْ نَرَ لِلدُّوَلِ فِي زَمَنِ مَا طَالَ مِنْ عُمْدٍ أَوْقَرَ مِنْ دَعَمِ
تِلْكَ الشَّوَاهِدُ تَتَرَى كُلَّ آوَنَةٍ فِي الْأَعْصِرِ الْغُرْلَا فِي الْأَعْصِرِ آلِذِهِمْ
بِالْأَمْسِ مَالَتْ عُرُوشٌ وَاعْتَلَتْ سُرُرٌ لَوْلَا الْقَذَائِفُ لَمْ تُشْلَمْ وَلَمْ نُصَمِّ

المدنية الاسلامية

وقد انفرد شوقي بالأفصاح عن جلال المدنية الاسلامية، وتقديمها على مدنية المصريين واليونان والرومان، وفي ذلك يقول :

دَعْ عَنْكَ رُومًا وَأَيْنَا وَمَا حَوَاتَا كُلَّ الْيَوَاقِيَتِ فِي بَعْدَادَ وَالتُّومِ
وَحَلَّ كِسْرَى وَإِوَانًا يُدِلُّ بِهِ هَوَى عَلَى أَثَرِ النَّيْرَانِ وَالْأَيْمِ
وَأَتْرَكَ رَعْمَسِيْسَ إِنْ الْمُلْكَ مَظْهَرُهُ فِي نَهْضَةِ الْعَدْلِ لَا فِي نَهْضَةِ الْهَرَمِ
دَارُ الشَّرَائِعِ رُومًا كُلَّمَا ذُكِرَتْ دَارُ السَّلَامِ لَهَا أَلْقَتْ يَدَ السَّلَمِ
مَا ضَارَعَتْهَا بَيَانًا عِنْدَ مُلْتَأَمٍ وَلَا حَكْنَهَا قَضَاءً عِنْدَ مُخْتَصَمِ
وَلَا أَحْتَوَتْ فِي طِرَارٍ مِنْ قِيَاصِهَا عَلَى رَشِيدٍ وَمَأْمُونٍ وَمُعْتَصَمِ
مِنْ الَّذِينَ إِذَا سَارَتْ كَتَائِبُهُمْ تَصَرَّفُوا بِحُدُودِ الْأَرْضِ وَالتُّخَمِ
وَيَجْلِسُونَ إِلَى عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ فَلَا بُدَّائُونَ فِي عَقْلِ وَلَا فَهَمِ
يُطَاطِئُ الْعُلَمَاءُ الْهَامَ إِنْ نَبَسُوا مِنْ هَيْبَةِ الْعِلْمِ لَا مِنْ هَيْبَةِ الْحُكْمِ

وقد مضى الشاعر في وصف خلفاء الاسلام، وما كان لهم من الأثر في حياة الدين. ولا يعجبني من ذلك كله غير قوله :

وَأَتْرُكُ رَعْمَيسَ إِنَّ الْمُلْكَ مَظْهَرُهُ فِي نَهْضَةِ الْعَدْلِ لَا فِي نَهْضَةِ الْهَرَمِ

فإنه من فرائد الأمثال... ولنسجل بعد هذه الموازنة المفصلة أن البوصيري سما
في المدائح النبوية سُموّاً لم يُوفق إلى معشّاره في سائر شعره؛ وهذا أثرٌ لصدق
العاطفة، بخلاف صاحبيه، فان شعرهما في هذا الباب دون ما يعرف الناس لهما
من الشعر البليغ، وصدق شوقي حين قال :

الْمَادِحُونَ وَأَرْبَابُ الْهَوَى تَبَعٌ لِصَاحِبِ الْبُرْدَةِ الْفَيْحَاءِ ذِي الْقَدَمِ
مَدِيحُهُ فِيكَ، حُبٌّ خَالِصٌ وَهَوًى وَصَادِقُ الْحُبِّ يُمْلِي صَادِقَ الْكَلِمِ

البحث الخامس والعشرون

أبو نواس وابن دراج

ولنوازن بين قصيدتين لشاعرين كان أحدهما شاعر زمانه في المشرق وهو أبو نواس، وكان ثانيهما شاعر زمانه في المغرب وهو ابن دراج : « سابق حُلْبَة الشعراء العامرين، وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين » كما قال أبو حيان.

وكان الواجب أن نذكر شيئاً عن أبي نواس وعصره، ولكننا رأينا أن نخيل القارئ إلى ما كتبه في ذلك الدكتور طه حسين في حديث الأربعاء، ونكتفي بما ذكره جامع الديوان من أن أبا نواس لما قدم على الخصيب في مصر صادف في مجلسه جماعة من الشعراء ينشدونه مدائح فيه، فلما فرغوا قال الخصيب: ألا تنشدا أبا علي؟ فقال: أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تَلْقَف ما يَأْفُكُون ! قال : هات إذاً. فأنشده رائيته المشهورة :

أَجَارَةَ يَتَيْتِنَا أَبُوكُ غَيُورُ وَمَيُّسُورُ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرُ

فاهتز لها الخصيب، وأمر له بجائزة سنوية. وقد طار ذكر هذه القصيدة في جميع الأمصار، وعارضها كثير من الشعراء، منهم أحمد بن دراج القسطلي الأندلسي — وسنسط عنه القول — ومنهم حسان بن نمير المعروف بعرقلة الدمشقي، فقد وازن قصيدة أبي نواس بقصيدة مدح بها صلاح الدين بن يوسف بن أيوب وقصده بها إلى مصر كما فعل أبو نواس حين توجه بقصيدته إلى الخصيب،

وفيها يقول :

عَسَى مِنْ دِيَارِ الظَّاعِنِينَ بَشِيرُ
لَقَدْ عِيلَ صَبْرِي بَعْدَهُمْ وَتَكَاثَرَتْ
وَكَمْ بَيْنَ أَكْنَافِ الثُّغُورِ مُتَيِّمٌ
وَكَمْ لَيْلَةٍ بِالْمَاطِرُونَ قَطَعَتْهَا
سَقَى اللَّهُ مِنْ سَطْرًا وَمَقْرًا مَنَازِلًا
وَلَا زَالَ ظِلُّ النَّيِّرِينَ فَإِنَّهُ
وَيَا بَرْدَى لَا زَالَ مَأْوِكَ بَارِدًا
أَبَى الْعَيْشُ إِلَّا بَيْنَ أَكْنَافِ جَلَقِ
وَكَمْ بِحِمَى جَيْرُونَ سَرَبُ جَادِرِ
وَلَكِنْ سَاحْوِيهِ إِذَا سِرْتُ قَاصِدًا

وعارضها محمود سامي البارودي بقصيدة جيدة نختار منها قوله :

إِلَّا فَرَعَى اللَّهَ الصَّبَا مَا أَبْرَهُ
إِذِ الْعَيْشُ أَفَافٌ يَرِفُ ظِلَالُهُ
وَإِذْ نَحْنُ فِيمَا بَيْنَ إِخْوَانٍ لَذَّةٍ
تَذَارُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ بَيْنَ مَلَاعِبِ
فَالْحَاطُنَا بَيْنَ النَّفُوسِ رَسَائِلِ
عَقْدُنَا جَا لَيْلِنَا بِنَهَارِنَا
وَقُلْنَا لَسَاقِينَا أَدْرَهَا فَإِنَّمَا
فَطَافَ بِهَا شَمْسِيَّةٌ لَهْيِيَّةٌ
إِذَا مَاشَرِبْنَاهَا أَقْمَنَا مَكَانِنَا

ويعجبنا منها قوله في وصف الحمام الساجعة :

وَكَمْ لَيْلَةٍ أَفْنَيْتُ عُمَرَ ظَلَامِهَا
شَعَلْتُ بِهَا قَلْبِي وَمَتَّعْتُ نَاطِرِي
صَنَعْتُ بِهَا صُنْعَ الْكَرِيمِ بِأَهْلِهِ
إِلَى أَنْ بَدَا لِلصُّبْحِ فِيهِ قَتِيرُ
وَنَعَّمْتُ سَمْعِي وَالْبَنَانُ طَهُورُ
وَجِيرَتِهِ، وَالْعَادِرُونَ كَثِيرُ

فَمَا رَاعِنَا إِلَّا خَفِيفُ حَمَائِمٍ
تُجَاوِبُ أَتْرَابًا لَهَا فِي حَمَائِلٍ
نَوَاعِمُ لَا يَعْرِفْنَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ
تَوَسَّدُ هَامَاتٍ لَهَا وَسَائِدًا
كَأَنَّ عَلَى أُعْطَافِهَا مِنْ حَبِيبِكُهَا
خَوَارِجُ مِنْ أَيْكٍ دَوَاجِلُ غَيْرِهِ
إِذَا غَارَ لَتَهِهَا الشَّمْسُ رَفَّتْ كَأَنَّمَا
فَلَمَّا رَأَيْتُ الصُّبْحَ قَدْ رَفَّ جِيدُهُ
خَرَجْتُ أَجْرُ الدَّيْلُ تَيْهَا وَإِنَّمَا

لَهَا بِهَا بَعْدَ الْحَنِينِ صَفِيرُ
لَهَا بِهَا بَعْدَ الْحَنِينِ صَفِيرُ
وَلَا دَائِرَاتِ الدَّهْرِ كَيْفَ تَدُورُ
مِنَ الرِّيشِ فِيهِ طَائِلُ وَشَكِيرُ
تَمَائِمُ لَمْ تُعْقِدْ لَهَا سُيُورُ
زَهَاؤُهَا ظِلُّ سَابِغٍ وَغَدِيرُ
عَلَى صَفَحَتَيْهَا سُندُسٌ وَخَرِيرُ
وَلَمْ يَبْقَ مِنْ نَسَجِ الظَّلَامِ سُتُورُ
يَتَّبِعُهُ الْفَتَى إِنْ عَفَّ وَهُوَ قَادِيرُ

ومن الوفاء أن ننوّه بهذه القطعة الحزلة التي وصف بها نفسه، وهو يقول :

وَلِي شَيْمَةٌ تَأْبَى الدَّنَايَا وَعَزْمَةٌ
إِذَا سِرْتُ فَأَلْأَرْضُ الَّتِي نَحْنُ فَوْقَهَا
فَلَا عَجَبُ أَنْ لَمْ بَصُرْنِي مَنْزِلُ
هَمَامَةٌ نَفْسٍ لَيْسَ يَنْفِي رِكَابَهَا
مَعْوَدَةٌ أَنْ لَا تَكْفَ عِنَانَهَا
لَهَا مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ أَدَدٌ سَمِيعَةٌ
وَفَيْتُ بِمَا صَنَّ الْكِرَامُ فِرَاسَةً
وَأَصْبَحْتُ مَحْسُودَ الْجَلَالِ كَأَنَّنِي
إِذَا صُلْتُ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ غُلُوءَاتِهِ

تَرُدُّ لَهَا مَ الْجَيْشِ وَهُوَ يُمُورُ
مَرَادُ لِمُهَرِّي وَالْمَعَاقِلُ دُورُ
فَلَيْسَ لِعُقْبَانِ الْهَوَاءِ وَكُورُ
رَوَاحٌ عَلَى طُولِ الْمَدَى وَبُكُورُ
عَنِ الْجِدِّ إِلَّا أَنْ تَنِمَّ أُمُورُ
وَعَيْنُ تَرَى مَا لَا يَرَاهُ بَصِيرُ
بِأَمْرِي وَمِثْلِي بِالْوَفَاءِ جَدِيرُ
عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فِي الزَّمَانِ أَمِيرُ
وَإِنْ فُلْتُ غُصَّتْ بِالْقُلُوبِ صُدُورُ

وفي هذه المعارضات دليل على مبلغ ما ظفرت به قصيدة أبي نواس من تقدير الشعراء، فلنضعها في الميزان لنعرف بالتحديد ما فيها من مواطن الحسن ومظان الابتذال.

أغراض القصيدة

الغرض الأول لهذه القصيدة هو مدح الخصب، وقد استتبع هذا عند الشاعر أن يتحدث قليلاً عن نفرة جارنه منه، وانصرافها عنه، وأن يذكر مدار بينه وبين زوجه من الحوار حين هم بالرحيل، وأن يصف كيف سار الشعراء إلى مصر، وكيف نسوا من أجل واليها جنات الشام ورياض العراق، وقد فرق مدحه للخصيب بين أجزاء القصيدة، فتكلم عن سؤدده وجوده وبصره بالعواقب ونكيله بالمفسدين ثم عاد فتكلم عن هيئته، وما أعد للسلم والحرب، وما له من طيب العنصر وكرم الأخلاق، ثم اختتم القصيدة بهذين البيتين :

وَإِنِّي جَدِيرٌ إِذْ بَلَغْتُكَ بِالْمُنَى وَأَنْتَ بِمَا أُمَلْتُ فِيكَ جَدِيرٌ
فَإِنْ تُولِنِي مِنْكَ الْجَمِيلَ فَأَهْلُهُ وَإِلَّا فَأِنِّي عَاذِرٌ وَسَكُورٌ

ولنأخذ في نقد القصيدة وتحليلها، فنذكر أولاً أنه حاور جارته بقوله :

أَجَارَةَ بَيْتِنَا أَبُوكَ غَيُورٌ وَمَيْسُورٌ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرٌ
وَإِنْ كُنْتُ لَا خِلْمًا وَلَا أَنْتَ زَوْجَةً فَلَا بَرَحْتُ دُونِي عَلَيْكَ سُتُورٌ

وليس في صدر البيت الأول أثر لحسن الأداء، وعبارة « أجارة بيتنا » ثقيلة على السمع، وهي كذلك غير واضحة المدلول، أو هي تحتاج على الأقل إلى أن نذكر أن الشاعر قد يريد ببيتي جارته بيت السكن وبيت النسب وقد يريد غير ذلك، ولقد أذكر — من باب الفكاهة — أنني كنت أناقش الأستاذ محمد الهياوي مرة في قيمة المنفلوطي وفهمه للأدب، فقال : كيف وقد مات ولم يفهم قول أبي نواس « أجارة بيتنا أبوك غيور » لقد كان بكسر التاء من « بيننا » ظنا منه أن هذا اسم مكان^(١) ! !

وإنك لتكاد تلمس التناقض حين تقرر البيت الأول بقوله :

(١) عاتبنا الأستاذ أبو بكر المنفلوطي على هذه الدعائه التي مسب أخاه ولكسا لا نرى نأساً من سحيل بعض هفوات من عرفناهم من الأداء، وهي مع ذلك لا بعض من المنفلوطي الكاتب، فقد شغل الشبان في عصره، وكان بلا جدال من أقطاب البيان.

وَأِنْ كُنْتُ لَا خِلْمًا وَلَا أَنْتِ زَوْجَةٌ فَلَا بَرَحَتْ دُونِي عَلَيْكَ سُتُورٌ
فهو أولاً يشكو عسر ما يرجو من هذه الجارة، وذلك يوجب أن تكون مرجع
هواه، ثم يصرح بأنها ليست زوجة ولا صديقة، فيضطرك إلى أن تسأله : وإلّا
تقصّد حين تقول « فلا برحت دوني عليك ستور » ؟ ثم يغلب عليه ضيق الصدر،
وقلق النفس، فيقول :

وَجَاوَرْتُ قَوْمًا لَا تَزَاوَرُ بَيْنَهُمْ وَلَا وَصَلَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ نُشُورٌ
فَمَا أَنَا بِالْمَشْغُوفِ صَرِيَّةَ لَازِبٍ وَلَا كُلُّ سُلْطَانٍ عَلَيَّ قَدِيرٌ
وهو بهذا يتحمل من أسر فؤاده وحبس أمانيه في تلك البقعة التي لم يقرّ لقلبه
فيها قرار، ولم تنعم عينه فيها بغير لألاء النجوم، حين تأنس العيون بالعيون، وتسكن
القلوب إلى القلوب.. ! ثم أخذ يحدثنا عن علمه بحركات الأهواء، وخطرات
النفوس، فقال :

وَأِنِّي لِطَرْفِ الْعَيْنِ بِالْعَيْنِ زَاجِرٌ فَقَدْ كِدْتُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ صَمِيرٌ
والزجر هنا ليس معناه الردع، وإنما هو من زجر الطير. وأصله أن يرمي الرجل
الطائر بحصاة أو يصيح به، فإن ولّاه في طيرانه ميامنه تفاعل به، وإن ولّاه مياسره
تطايّر منه، ويريد أنه يقرأ ما في الصدر بملاحظة العين، وهذا البيت تأكيد لما
قرره قبل من عنف جارته به وقسوتها عليه، وإن لم تصرح بالقطيعة، ولم تعلن
الصدود... ولم يقف أبو نواس عند هذا الحد في وصف نفسه بصدق الفراسة،
بل شبّه نظرته بنظرة العقاب في سكون الريح، وقد طوت القوت ليلتين عن فرخها
الأرغب، فقال :

كَمَا نَظَرَتْ وَالرَّيْحُ سَاكِئَةٌ لَهَا
عُقَابٌ بِأَرْسَاغِ الْيَدَيْنِ نَدُورٌ
طَوَتْ لَيْلَتَيْنِ الْقُوتَ عَنْ ذِي صُرُورَةٍ
أَزْيِغَبَ لَمْ يَنْبُتْ عَلَيْهِ شَكِيرٌ
فَأَوْفَتْ عَلَى غُلَيَاءَ حِينَ بَدَا لَهَا
مِنْ الشَّمْسِ قَرْنٌ وَالصَّرِيْبُ يُمُورٌ

تَقَلَّبُ طَرْفًا فِي حِجَاغِي مَعَارَةَ
مِنَ الرَّأْسِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِ سُورُ

وهذه اللفتة من أبي نواس فيها خروج على فطرته، إذ هي تقليد صريح لأسلوب الأعراب، ويظهر أن أبا نواس كان يُعنى في المواقف الرسمية بمراعاة الأساليب القديمة، ابتغاء مرضاة الرواة واللغويين، كما كان ينقاد لفطرته كل الانقياد وهو يتحدث عن الصهباء، ويشيد بذكر الندامى والسقاة والمغنين، من كل رنخيم الصوت، أو أصبح الوجه، أو عذب الحديث، وهو الذي يقول :

قَدْ أُسْحَبُ الزُّقَّ يَا بُنَايَ وَأُكْرَهُهُ
حَتَّى لَهُ فِي أَدِيمِ الْأَرْضِ أُخْدُودُ
لَا أُرْجِلُ الرَّاحَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا
حَادٍ يَمْتَحِلُ الْأَشْعَارَ غَرِيْدُ
فَاسْتَنْطِقِ الْعُودَ قَدْ طَالَ السُّكُوتُ بِهِ
لَنْ يَنْطِقَ اللَّهُوْ حَتَّى يَنْطِقَ الْعُودُ

ولنذكر بعد هذا أن أبا نواس انتقل من الحديث عن نفرة جارته، وصدق فراسته، إلى الحديث عن حوار زوجه، فقال :

تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ مَرْكَبِي عَزِيْزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَكَ تَسِيرُ
أَمَّا دُونَ مِصْرٍ لِلْغِنَى مُتَطَلَّبٌ بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ
فَقُلْتُ لَهَا وَاسْتَعْجَلْتَهَا بَوَادِرُ جَرَتْ فَجَرَى مِنْ جَرِيْهِنَّ عَبِيرُ
ذَرِيْنِي أَكْثَرُ حَاسِدِيْكَ بِرَحْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيْبُ أَمِيرُ

وهذه القطعة من الشعر المختار، ويرجع جمالها إلى ما فيها من وضوح الفكرة وسلامة التعبير، وانظر الصدق في قوله:

أَمَّا دُونَ مِصْرٍ لِلْغِنَى مُتَطَلَّبٌ بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ

ولكن الشعراء في ذلك العهد لم يطب لهم من أسباب الغنى غير مدح الملوك والأمراء، وكان هذا باباً لحصر العبقرية في ناحية واحدة هي خلق المحامد والمناقب، لكل من جُنَّ له الدهر فظفر بإثارة من الملك أو زاد بسطة في المال — وقوله :

ذَرِينِي أَكْثَرُ حَاسِدِيكَ بِرَحْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْحَصِيبُ أَمِيرُ
 من الأبيات المختارة، والتعبير عن وفرة المال بكثرة الحساد من الكنايات
 المستملحة، وقد قال له الخصيب حين أنشد هذا البيت : إداً يكثر حسادها، وتبلغ
 أملها. وأمر له بألف دينار، ثم قال في مدح الخصيب :
 إِذَا لَمْ تَزُرْ أَرْضَ الْخَصِيبِ رَكَابُنَا فَأَيُّ فَتَى بَعْدَ الْخَصِيبِ تَزُورُ
 فَمَا جَارَهُ جُودٌ وَلَا حَلَّ دُونَهُ وَلَكِنْ بَصِيرُ الْجُودِ حَيْثُ يَصِيرُ
 وليس لهذين البيتين قيمة أدبية، ومن السهل أن يزعم الشاعر أن ممدوحه خير
 الناس على الإطلاق، وأن الجود لا يجوزه، ولا يحل دونه، وإنما يصير حيث يصير،
 إلى ما هناك من وثبات الخيال. وقد نال منه الضعف والاسفاف حين قال :
 فَلَمْ تَرَ عَبْنِي سُودُوداً مِثْلَ سُودُودٍ يَحِلُّ أَبُو نَصْرِ بِهِ وَبَسِيرُ
 ولكنه وفق كل النوفيق حين قال :

فَتَى يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ
 فإنه يصف الخصيب بالسعي لنيل السمعة الحسنة، والصيت البعيد، ويصفه
 مع هذا بضبط النفس، والحذر من عاديات النوائب، وجائزات الخطوب، ولا
 تطيب الدنيا للملك أو أمير إلا إذا خطا في حكمه وملكه خطوات الحذر الهيب،
 الذي يتوقع في كل لحظة أن يتنكر له الدهر، وأن تثور من حوله الأقدار... ثم
 أخذ بصف بطشه بالمفسدين، وتنكيله بالعابثين بأمن الناس، فقال :

وَأَطْرَقَ حَيَاتُ الْبِلَادِ لَحَبَةً خَصِيبِيَّةَ التَّصْمِيمِ حِينَ نَسُورُ
 سَمَوَاتِ لِأَهْلِ الْجَوْرِ فِي حَالِ أُمِّيهِمْ فَأَضْحَوْا وَكُلُّ فِي الْوَثَاقِ أُسِيرُ
 إِذَا قَامَ عَنْتَهُ عَلَى السَّاقِ حَلِيَّةٌ لَهَا خَطْوُهُ عِنْدَ الْقِيَامِ قَصِيرُ

وفي هذه الأبيات إشارة إلى أن مصر في ذلك العهد كانت تقاسي شتاءً من
 الاضطراب، وكانت لذلك طُعْمَةً لاستبداد الحكام وسخرية الشعراء، وأي سُخر
 آلم للنفس، وأوجع للقلب، من قول أي نواس في أحد فتيان مصر وهو يرسف
 في الصَّفاد :

إِذَا قَامَ غَنَّهُ عَلَى السَّاقِ حَلِيَّةٌ لَهَا خَطُّهُ عِنْدَ الْقِيَامِ فَصِيرُ

وقد أحسن أبو نواس في وصف الخصيب بنصح الجيب حين قال :
فَمَنْ بَكَ أَمْسَى جَاهِلًا بِمَقَالَتِي فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرُ
وَمَا زِلْتُ تُؤْلِيهِ النَّصِيحَةَ يَافِعًا إِلَى أَنْ بَدَأَ فِي الْعَارِضِينَ قَتِيرُ
إِذَا غَالَهُ أَمْرٌ فَأَمَّا كَفَيْتُهُ وَإَمَّا عَلَيْهِ بِالْكَفَاءِ تُشِيرُ

وهذا من أجمل ما بوصف به الرجل المخلص للحق حين يظفر بأسرار الملوك،
وفي هذه القصيدة قطعة أخرها الشاعر، وكانت أولى بالتقديم، وهي وصف رحلة
الشعراء إلى الخصيب، ونحن نسرد هذه القطعة تكميلاً للموضوع، ونصرح بأنها
رديئة في العبارة، وفي السياق. قال :

رَحَلْنَا بَنَاءً مِنْ عَقْرُوفٍ وَقَدْ بَدَأَ مِنْ الصُّبْحِ مَفْتُوقُ الْأَدِيمِ سَهِيرُ
فَمَا نَجَدْتُ بِالْمَاءِ حَتَّى رَأَيْتُهَا مَعَ الشَّمْسِ فِي عَيْنِي أَبَاغُ تَغُورُ
وَعُزْرَنَ مِنْ مَاءِ النَّقِيبِ بِشْرَبَةٍ وَقَدْ حَانَ مِنْ دِيكَ الصَّبَاحِ زَمِيرُ
وَوَافَيْنَ إِشْرَاقًا كَنَائِسَ تَذْمِيرُ وَهْنٌ إِلَى رُغْنِ الْمُدْخَرِ صُورُ
يُؤْمِنُ أَهْلُ الْغُوطَيْنِ كَأَنَّمَا لَهَا عِنْدَ أَهْلِ الْغُوطَتَيْنِ نُورُ
وَقَاسَيْنَ لَيْلًا دُونَ بَيْسَانَ لَمْ يَكْدُ سَنَا صُبْحِهِ لِلنَّاطِرِينَ يُنِيرُ
وَأَصْبَحْنَ بِالْجَوْلَانِ يَرْضَخْنَ صَخْرَهَا وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَجْرَاجِهِنَّ سَطُورُ
وَأَصْبَحْنَ قَدْ فَوَّزْنَ مِنْ نَهْرِ فُطْرُسٍ وَهْنٌ عَنِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ زُورُ
طَوَالِبُ بِالرُّكْبَانِ غَزَّةَ هَاشِمٍ وَفِي الْفَرَمَا مِنْ حَاجِهِنَّ شَقُورُ

واستأنف مدح الخصيب، فقال :

وَلَمَّا أَتَتْ فُسْطَاطَ مِصْرَ أَجَارَهَا عَلَى رَكْبِهَا أَنْ لَا تَزَالَ مُجِيرُ
مِنَ الْقَوْمِ بَسَامُ كَانَ جَبِينَهُ
سَنَا الْفَجْرِ يَسْرِي صَوُّهُ وَيُنِيرُ
زَهَا بِالْخَصِيبِ السَّيْفُ وَالرُّمْحُ فِي الْوَعَى
وَفِي السَّلْمِ يَزْهُو مِنْبَرٌ وَسَرِيرُ

جَوَادٌ إِذَا الْأَيْدِي كَفَفْنَ عَنِ النَّدَى
وَمِنْ دُونِ عَوْرَاتِ النَّسَاءِ غَيُورُ
لَهُ سَلَفٌ فِي الْأَعْجَمِينَ كَانَهُمْ
إِذَا اسْتُؤْذِنُوا يَوْمَ السَّلَامِ بُدُورُ

وسنعود إلى تحليل هذه القطعة الأخيرة حين نوازن بينها وبين ما يماثلها في قصيدة ابن درّاج.

البحث السادس والعشرون

نفحة من الأدب الأندلسي

نقدنا في البحث الماضي قصيدة أبي نواس في مدح الخصيب، ورأينا مبلغه من الصدق حين ظنها كعصا موسى تلقف ما يأفكون، ولم يبق إلا أن نوازن بينها وبين قصيدة ابن دراج الذي أوصاه أميره بمعارضة أبي نواس، ولكننا رأينا أن نقف وقفة قصيرة عند رغبة المنصور بن أبي عامر في أن يظهر شاعره على شاعر الرشيد، فقد كانت هناك منافسة شديدة بين رجال المشرق ورجال المغرب في الأدب والفلسفة والتشريع، وكان لأهل الأندلس كلف شديد بالظهور على أهل المشرق، وكان لابن دراج هذا ولع عجيب بسبق من نبغ من الشعراء في مصر والشام والعراق، وسرى كيف بذأ نواس وبرعه حين نضع قصيدته في الميزان، وكان من أثر ذلك التنافس أن عُقدت المفاضلات بين الكتاب والشعراء والمؤلفين : فازداد قادة الفكر قوة إلى قوة ونشاطاً إلى نشاط، وتقدم النقد تقدماً ظهرت ثمرته فيما كان يعني به العرب إذ ذاك من العلوم والفنون.

وهذه رسالة أبي الوليد الشقندي — التي وضعها في تفضيل برّ الأندلس على بر العدو، والتي أثبتتها المقرئ طيب الله ثراه في نفح الطيب — تدل على رغبة الأندلسيين في الظهور على من عداهم من العالمين، وإني لذاكر ما جاء عن الشعراء والشعراء، لأضع يد القارئ على أثر هو في جملته ثمرة لما كان من التنافس بين

قرطبة وبغداد، ولأنشُر له صفحة من صحف النقد والمفاضلة تتمثل فيها عقربة العرب في ذلك الفردوس المفقود^(١).

قال الشقندي بعد كلام طويل :

وهل لكم في الشعر ملك مثل المعتمد بن عباد في قوله :
وَلَيْلٍ يَسْدُ النَّهْمُ أَنْسًا قَطَعْتُهُ بَدَاتِ سِوَارٌ مِثْلُ مُنْعَطَفِ النَّهْرِ
نَضَّتْ بُرْدَهَا عَنْ غَضَنِ بَانٍ مُنْعَمٍ فَيَا حُسْنَ مَا أَنْشَقَ الْكَمَامُ عَنِ الزَّهْرِ
وقوله في أبيه :

سَمَيْدَعٌ يَهَبُ الْآلَافَ مُبْتَدِئًا وَبَعْدَ ذَلِكَ يُلْفَى وَهُوَ يَعْتَذِرُ
لَهُ يَدٌ كُلُّ جَبَّارٍ بُقْبُلَهَا لَوْلَا نَذَاهَا لَقُلْنَا إِنَّهَا الْحَجَرُ
ومثل ابنه الرضى في قوله :

مَرُّوا بِنَا أَصْلًا مِنْ غَيْرِ مِيعَادٍ فَأَوْقِدُوا نَارَ قَلْبِي أَيْ إِيْقَادٍ
لَاغَرَوْا إِنْ زَادَ فِي وَجْدِي مُرُورُهُمْ فَرُؤْيَةُ الْمَاءِ تُذَكِّي غُلَّةَ الصَّادِي

وهل لكم ملك ألف في فنون الأدب كتاباً في نحو مائة مجلدة مثل المظفر بن الأفتلس ملك بطليوس ولم تشغله الحروب ولا المملكة عن همة الأدب ؟ وهل لكم من الوزراء مثل ابن عمار في قصيدته التي سارت أشرد من متل، وأحب إلى الاسماع من حبيب وصل، التي منها :

أَثْمَرْتُ رُمَحَكَ مِنْ رُؤُوسِ مُلُوكِهِمْ لَمَّا رَأَيْتِ الْغُصْنَ يُعْشِقُ مُثْمَرَا
وَصَبَعْتُ دِرْعَكَ مِنْ دِمَائِ كُمَانِهِمْ لَمَّا رَأَيْتِ الْحُسْنَ يُلْبِسُ أَحْمَرَا

(١) جاء في بفتح الطلح ص ٧٧٨ ما نصه : « قال ابن سعد، أخبرني والدي قال : كنت يوماً في مجلس صاحب سنة أبي يحيى بن أبي ركريا صهر ناصر بن عبد المؤمن فحدثتني أبي الوليد الشقندي وسأني يحيى بن المعلم نزاع في المفضل بن البرن. فقال الشقندي: لولا الأندلس لم يذكر بر العدو، ولا سارت عنه فضله، ولولا البوفر للمجلس لقلب ما يعلم. فقال الأمير أبو يحيى: أريد أن نمول كون أهل برنا عرباً وأهل برنا بربر ؟ فقال : حاش لله ! فقال الأمير والله ما أردت غير هذا فظهر في وجهه أنه أراد ذلك، فقال ابن المعلم : أنقول هذا وما الملك والفصل إلا من بر العدو ؟ فقال الأمير : الرأي عدت أن نمول كل منكم رساله في مفضل بره، فالكلام هنا بطول وعمر ضاعاً وأرحو إذا احسنا له فكر كما يصدر منكم ما يحسن تحليله ففعلاً »

ومثل ابن زبدون في قصيدته التي لم يُقل — مع طولها — أرق منها في التشبيب، وهي التي يقول فيها^(١) :

كَأَنَّا لَمْ نَبْتَ وَالْوَصْلُ تَالِثُنَا وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَائِسِينَا
سِرَانٍ فِي خَاطِرِ الظُّلَمَاءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى بَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا

وهل لكم من الشعراء مثل ابن وهبون في بديهه بين يدي المعتمد بن عباد وإصابته الغرض حين استحسّن المعتمد قول المتنبي :

إِذَا ظَفَرَتْ مِنْكَ الْعُيُونُ بِنَظَرَةٍ أَثَابَ بِهَا مُعَيَّ الْمَطِيِّ وَرَازِمُهُ

فارتحل :

لَيْنُ جَادَ شِعْرُ ابْنِ الْحُسَيْنِ فَإِنَّمَا تُجِيدُ الْعَطَايَا وَاللَّهَّا تَفْتَحُ اللَّهُهَا
تَنْبَأُ عَجْبًا بِالْقَرِيضِ وَلَوْ دَرَى بَأَنَّكَ تَرَوِي شِعْرَهُ لَتَالَهَا

وهل لكم مثل شاعر الأندلس ابن دراج الذي قال فيه الثعالبي : هو بالصقع الأندلسي كالمتنبي بصقع الشام، الذي إن مدح الملوك قال قوله :

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ التَّوَاءَ هُوَ التَّوَى^(٢) وَأَنَّ يُبُوتَ الْعَاجِزِينَ قُبُورُ
وَأَنَّ خَطِيرَاتِ الْمَهَالِكِ ضَمَّنُ لِرَاكِبِهَا أَنَّ الْجَزَاءَ خَطِيرُ
تُخَوِّفُنِي طُولَ السَّفَارِ وَإِنَّهُ بِتَقْبِيلِ كَفِّ الْعَامِرِيِّ جَدِيرُ
مُجِيرُ الْهَدَى وَالذِّينِ مِنْ كُلِّ مُلْحِدٍ وَلَيْسَ عَلَيْهِ لِلضَّلَالِ مُجِيرُ^(٣)

وإن ذكر الغربة عن الأوطان، ومكابدة نوائب الزمان، قال :

(١) ارجع إلى هذه القصيدة في كتاب « مدامع العساق ». فقد أنساها كلها هياك، وقد عارضها شوقي بونبة مطلعها :

يا نائح الطلح أشباه عواديا نأسي لواديك أم شجى لواديا
(٢) النوى : الهلاك

(٣) أبحار الشفندى قطعه كبره من قصيدة ابن دراج، ولكنا اكتفينا بذكر هذه الأبواب لأننا سنعود إلى القصيدة مرة ثانية، وقد قال النسفى في التعقيب على ما احتاره :

« وأنا أفسم بما حواه هذه الأبيات، من عرائب الآيات، لو سمع هذا المدح سيد سى حمدان لسلا به عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر، ورأى أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوك من كل ما نفنن فيه كل ناظم ونائر ».

قَالَتْ وَقَدْ مَزَجَ الْفِرَاقُ مَدَامِعاً يَمْدَامِعٍ وَتَرَائِباً بِتَرَائِبِ
أَتَفَرَّقُ حَتَّى بِمَنْزِلِ غُرْبَةٍ كَمْ نَحْنُ لِلْأَيَّامِ نُهْبَةٌ نَاهِبِ
وَلَيْنَ جَتَيْتِ عَلَيْكَ تَرْحَةً رَاحِلٍ فَأَنَا الزَّعِيمُ لَهَا بِفَرْحَةٍ آئِبِ
هَلْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكِ بَدْرًا طَالِعاً فِي الْأَفْقِ إِلَّا مِنْ هِلَالٍ غَارِبِ

وان شبه قال :

لِمَعَاقِلٍ مِنْ سَوَسِنٍ قَدْ شَيْدَتْ أَيْدِي الرَّيِّعِ بِنَاءَهَا فَوْقَ الْقُصْبِ
شُرَفَاتُهَا مِنْ فِضَّةٍ وَحُمَاتُهَا حَوْلَ الْأَمِيرِ لَهُمْ سُيُوفٌ مِنْ ذَهَبِ

وهل من شعرائكم من تعرض لذكر العفة : فاستنبط ما يسحر به السحر،
ويطيب به الزهر، وهو أبو عمرو بن فرج في قوله :

وَطَائِعَةُ الْوَصَالِ عَفَفَتْ عَنْهَا وَمَا الشَّيْطَانُ فِيهَا بِالْمُطَاعِ
بَدَتْ فِي اللَّيْلِ سَافِرَةٌ قَبَاتٌ دَيَّاجِي اللَّيْلِ سَافِرَةٌ الْقِنَاعِ
وَمَا مِنْ لَحْظَةٍ إِلَّا وَفِيهَا إِلَى فِتْنِ الْقُلُوبِ لَهَا دَوَاعِي
فَمَلَكْتُ النَّهْيَ حُجَابَ شَوْقِي لِأَجْرِي بِالْعَفَافِ عَلَى طِبَاعِي
وَبْتُ بِهَا مَبِيتَ السَّقْبِ يَظْلَمَا فَيَمْتَنِعُهُ الْعُكَّامُ مِنَ الرِّضَاعِ^(١)
كَذَاكَ الرُّوضُ مَا فِيهِ لِيْمَالِي سَوَى نَظَرٍ وَشَمٍّ مِنْ مَتَاعِ
وَلَسْتُ مِنَ السَّوَاءِ مُهْمَلَاتٍ فَاتَّخَذَ الرِّيَاضَ مِنَ الْمَرَاعِي

وهل بلغ أحد من مشبي شعرائكم أن يقول مثل قول أبي جعفر اللماي :
عَارِضٌ أَقْبَلَ فِي جُنْحِ الدُّجَى يَتَهَادَى كَتَهَادِي ذِي الْوَجَى
بَدَدْتُ رِيحُ الصَّبَا لَوْلُوهُ فَأَنْبَرَى يُوقِدُ عَنْهُ سُرْجَا

ومثل قول أبي حفص بن برد :

وَكَانَ اللَّيْلَ حِينَ لَوَى ذَاهِباً وَالصُّبْحُ قَدْ لَاحَا
كِلَّةً سَوْدَاءَ أَحْرَقَهَا غَامِدٌ أُسْرَجَ مِصْبَاحَا

^(١) - السقب : ولد الناقة. والعكام : ما يحكم به.

وهل منكم من وصف ما تحدثه الخمرة، من الحمرة على الوجنة، يمثل قول الشريف الطليق :

أَصْبَحَتْ شَمْساً وَفُوهُ مَغْرِباً وَيَدُ السَّاقِي الْمُحَيِّي مَشْرِقاً
وَإِذَا مَا غَرَبَتْ فِي فَمِهِ تَرَكْتُ فِي الْخَدِّ مِنْهُ شَفَقاً

يمثل هذا الشعر فليطلق اللسان، ويفخر على كل إنسان.

وهل منكم من عمد إلى قول امرئ القيس :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُو حَبَابِ الْمَاءِ خَالاً عَلَى حَالِ

فاختلسه اختلاس النسيم لنفحة الأزهار واستلبه بلطف استلاب الشمس لرضاب طلّ الأسحار، فلطفه تلطيفاً يمتزج بالأرواح ويغني في الارتياح، عن شرب الراح، وهو ابن شهيد في قوله:

وَلَمَّا تَمَلَّأَ مِنْ سُكْرِهِ وَنَامَ وَنَامَتْ عُيُونُ الْحَرَسِ
دَنَوْتُ إِلَيْهِ عَلَى رِقْبَةٍ دُنُو رَفِيقِ دَرَى مَا التَّمَسِ
أَدْبُ إِلَيْهِ ذَيْبِ الْكَرَى وَأَسْمُو إِلَيْهِ سُمُو النَّفْسِ
أَقْبَلُ مِنْهُ بَيَاضَ الطَّلَى وَأَرُشِفُ مِنْهُ سَوَادَ اللَّعْسِ
فَبِتْ بِهِ لَيْلَتِي نَاعِماً إِلَى أَنْ نَبَسَمَ ثَغْرُ الْعَلَسِ

وقد تناول هذا المعنى ابن أبي ربيعة على عظم قدره وتقدمه، فعارض الصهيل بالنهاق، وقابل العذب بالزقاق، فقال ويا ليتته سكت:

وَنَفَضْتُ عَنِّي النَّوْمَ أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ الْـ حُبَابِ وَرُكْنِي خَيْفَةَ الْقَوْمِ أَزُورُ

وأنا أقسم لو زار جمّل محبوبه له لكان ألطف في الزيارة من هذا الأزور الركن، المنفض للعيون، لكنه إن أساء هنا فقد أحسن في وقوله :

قَالَتْ لَقَدْ أُعْيَيْتُنَا حِجَّةً فَأَتِ إِذَا مَا هَجَعَ السَّاهِرُ
وَاسْقُطْ عَلَيْنَا كَسْقُوطِ النَّدَى لَيْلَةً لَا نَاهٍ وَلَا زَاجِرُ

ولله در محمد بن سفر أحد شعرائنا المتأخرين عصرًا، المتقدمين قدرًا، حيث نقل السعي إلى محبوبته، فقال — ويا ليتته لم يزل يقول مثل هذا فبمثله ينبغي أن

يُتَكَلَّمُ، ومثله يليق أن يُدَوِّنَ :
وَوَاعَدْتُهَا وَالشَّمْسُ تَجَنُّحُ لِلنَّوَى
بِزَوْرَتِهَا شَمْساً وَبَدْرُ الدُّجَى يَسْرِي
فَجَاءَتْ كَمَا يَمْشِي سَنَا الصُّبْحِ فِي الدُّجَى
وَطَوَّراً كَمَا مَرَّ النِّسِيمُ عَلَى النَّهْرِ
فَعَطَّرَتْ الْآفَاقَ حَوْلِي فَأَشْعَرَتْ
بِمَقْدَمِهَا وَالْعَرْفُ يُشْعِرُ بِالزَّهْرِ
فَتَابَعْتُ بِالتَّقْيِيلِ آثَارَ سَعْيِهَا
كَمَا يَتَفَصَّى قَارِيءُ أَحْرِفِ السَّطْرِ
فَبِتُ بِهَا وَاللَّيْلُ قَدْ نَامَ وَالْهَوَى
تَنَبَّهَ بَيْنَ الْعُصْنِ وَالْحَقْفِ وَالْبَدْرِ
أَغَانِقُهَا طَوَّراً، وَأَلْتَمُ تَارَةً
إِلَى أَنْ دَعَتْنَا لِلنَّوَى رَايَةُ الْفَجْرِ
فَقَضْتُ عُقُوداً لِلتَّعَانُقِ يَتَنَّا
فَيَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ اتْرُكِي سَاعَةَ النَّفْرِ

وهل منكم من قُيد بالاحسان فأطلق لسانه بالشكر فقال — وهو ابن اللبابة :
بِنَفْسِي وَأَهْلِي جِيرَةً مَا اسْتَعْنَتْهُمْ عَلَى آلِ الدَّهْرِ إِلَّا وَأَنْشَيْتُ مُعَانَا
أَرَأَشُوا جَنَاحِي ثُمَّ بَلَّوهُ بِالْبَدَى فَلَمْ أُسْتَطِعْ مِنْ أَرْضِهِمْ طَيْرَانَا
ومن بقول وقد قطع عنه ممدوحه ما كان يعتاده من الاحسان فقابل ذلك بقطع

مدحه له، فبلغه أنه عتبه على ذلك، وهو ابن وضاح :
هَلْ كُنْتُ إِلَّا طَائِراً بِفَنَائِكُمْ فِي دَوْحِ مَجْدِكُمْ أَقُومُ وَأَقْعُدُ
إِنْ تَسْلُبُونِي رِيَشَكُمْ وَتَقْلُصُّوا عَنِّي ظِلَالَكُمْ فَكَيْفَ أَغَرُّدُ

وهل منكم شاعرٌ رأى الناس قد ضجوا من سماع تشبيه الثغر بالأفاح، وتشبيه
الزهر بالنجوم، وتشبيه الحدود بالشقائق، فتلطف لذلك في أن يأتي به في منزع
يصيرُ خَلَمَه في الأسماع جديداً، وكليته في الأفكار حديداً، فأغرب أحسن إغراب،

وأعرب عن فهمه بحس تخليه أنبل إعراب، وهو ابن الزقاق إذ قال :

وَأُعِيدَ طَافَ بِالْكُؤُوسِ ضُحَى
وَالرَّوْضُ أَهْدَى لَنَا شَفَائِقَهُ
قُلْنَا وَأَيْنَ الْأَقَاحُ قَالَ لَنَا
فَظَلَّ سَاقِي الْمُدَامِ يَجْحَدُ مَا
وَحَنَّتْهَا وَالصَّبَاحُ قَدْ وَضَحَا
وَأَسُهُ الْعَبْرِيُّ قَدْ نَفَحَا
أَوْدَعْتُهُ تَغَرَّ مَنْ سَقَى الْقَدَحَا
قَالَ فَلَمَّا تَبَسَّمِ افْتَضَحَا

وقال :

أَدِيرَاهَا عَلَى الرَّوْضِ الْمُنْدَى
وَكَأْسُ الرَّاحِ تَنْظُرُ عَنْ حَبَابِ
وَمَا غَرَبَتْ نُجُومُ الْأُفُقِ لَكِنْ
وَحُكْمُ الصُّبْحِ فِي الظُّلُمَاءِ مَاضِي
يَنْوُبُ لَنَا عَنِ الْحَدَقِ الْمَرِاضِ
نُفْلِنَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الرِّيَاضِ

وقال :

وَرِيَاضٍ مِنَ السَّقَائِقِ أَصْحَتْ
زُرْتُهَا وَالْعَمَامُ يَجْلُدُ مِنْهَا
قُلْتُ مَا ذُبُّهَا، فَقَالَ مُجِيباً
يَتَهَادَى بِهَا نَسِيمُ الصَّبَاحِ
زَهْرَاتِ تَرُوقُ لَوْنُ الرَّاحِ
سَرَقَتْ حُمْرَةَ الْخُدُودِ الْمَلَاحِ

فانظر كيف زاحم بهذا الاحتيال المخترعين، وكيف سابق بهذا اللفظ المبتدعين وهل منكم من برع في أوصاف الرياض والمياه، وما يتعلق بذلك، فانتهى إلى غاية السباق، وفضح كل من طمع بعده في اللحاق، وهو أبو إسحاق بن خفاجة القائل :

وَعَشِيَّ أَنْسِ أَصْحَعْتَنِي نَشْوَةٌ
خَلَعَتْ عَلَيَّ بِهَا الْأَرَاكَةُ ظِلَّهَا
وَالشَّمْسُ نَجَحَ لِلْغُرُوبِ مَرِيضَةٌ
فِيهَا يُمَهِّدُ مَضْجَعِي وَيُدْمَتْ
وَالْغُصْنُ بُصْغِي وَالْحَمَامُ يُحَدِّثُ
وَالرَّعْدُ يَرْتِي وَالْعَمَامَةُ تَنْفُثُ

والقائل :

لِلَّهِ نَهْرٌ سَالَ فِي بَطْحَاءِ
مُتَعَطِّفٍ مِثْلُ السَّوَارِ كَأَنَّهُ
قَدْ رَقَّ حَتَّى ظَنَّ قُرْصاً مُفْرَغاً
أُسْهِى وَرُوداً مِنْ لَمَى الْحَسَنَاءِ
وَالزَّهْرُ يَكْنُفُهُ مَجْرٌ سَمَاءِ
مِنْ فِضَّةٍ فِي بُرْدَةٍ خَضْرَاءِ

وَعَدَتْ تَحْفُ بِهِ الْعُصُونُ كَانَهَا
وَلَطَّالَمَا عَاطَيْتُ فِيهِ مُدَامَةً
وَالرَّيْحُ تَعَبْتُ بِالْعُصُونِ وَقَدْ جَرَى

والقائل :

حُتَّ الْمُدَامَةُ وَالنَّسِيمُ عَلِيلُ
وَالرَّوْضُ مُهْتَزُّ الْمَعَاطِفِ نِعْمَةٌ
رَيَّانٍ فَضْضُهُ النَّدى ثُمَّ أَنْجَلَى

والقائل :

أَذِنَ الْعَمَامُ بِدِيمَةٍ وَعُقَارٍ
وَأَزْبَعَ عَلَى حُكْمِ الرَّيْعِ بِأَجْرَعٍ
مُتَقَسِّمُ الْأَلْحَاطِ بَيْنَ مَحَاسِنِ
نَثَرَتْ بِحَجَرِ الرُّوْضِ فِيهِ يَدُ الصَّبَا
وَهَفَّتْ بِتَغْرِيدِ هُنَالِكَ أَيْكَةٍ
هَزَّتْ لَهُ أَعْطَافَهَا وَلَرُبَّمَا

والقائل :

سَقِيًّا لَهَا مِنْ بَطَاحٍ خَزْ
إِذْ لَا تَرَى غَيْرَ وَجْهِ شَمْسٍ

والقائل :

نَهَرٌ كَمَا سَالَ اللَّيْمُ سَلْسَالُ
وَمَهَبٌ نَفْحَةٍ رَوْضَةٍ مَطْلُولَةٍ
غَارَتْ لَهَا وَالْأَقْحَوَانَةُ مَبْسَمُ

والقائل :

وَسَاقٍ كَحِيلِ اللَّحْظِ فِي شَاوٍ حُسْنِهِ
تَرَى لِلصَّبَا نَارًا بِخَدْيِهِ لَمْ يُثْرُ
سَقَاها وَقَدْ لَاحَ الْهَلَالُ عَشِيَّةً

هُدْبٌ تَخَفُ بِمُقْلَةٍ زَرْقَاءِ
صَفْرَاءَ تَخْضِبُ أَبْدِي النَّدْمَاءِ
ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى لُجَيْنِ الْمَاءِ

وَالظِّلُّ خَفَاقُ الرِّوْقِ ظَلِيلُ
نَشْوَانٍ تَعْطِفُهُ الصَّبَا فَيَمِيلُ
عَنْهُ فَذَهَبَ صَفْحَتَيْهِ أَصِيلُ

فَامْرُجُ لُجَيْنًا مِنْهُمَا يُنْصَارِ
هَزَجِ النَّدَامَى مُفْصِحِ الْأَطْيَارِ
مِنْ رَدْفِ رَابِيَةٍ وَخَصْرِ قَرَارِ
دُرَّرَ النَّدى وَدَرَاهِمُ الْأَنْوَارِ
خَفَافَةٌ بِمَهَبِّ رِيحٍ عَرَارِ
خَلَعَتْ عَلَيْهِ مُلَاعَةَ النُّوَارِ

وَدَوْحٍ نَهَرَ بِهَا مُطْلُ
أَطْلُ فِيهِ عِذَارُ طُلُ

وَصَبَا بَلِيلُ ذَيْلُهَا مِكْسَالُ
فِي جَانِبَيْهَا لِلنَّسِيمِ مَجَالُ
وَالْأَسْ صُدُغٌ وَالتَّبْنَسُجُ خَالُ

جِمَاحٍ وَبِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ جِرَانُ
لَهَا مِنْ سَوَادِي غَارِضِهِ دُخَانُ
كَمَا أَعْوَجَّ فِي دِرْعِ الْكَمِيِّ سِنَانُ

عُقَاراً نَمَاهَا الْكَرْمُ فَهِيَ كَرِيمَةٌ
وَقَدْ جَالَ مِنْ جَوْنِ الْعَمَامَةِ أَذْهَمُ
وَضَمَّخَ دِرْعُ الشَّمْسِ نَحَرَ حَدِيقَةٍ
وَنَمَتْ بِأَسْرَارِ الرَّبَاضِ خَمِيلَةٌ
وَلَمْ تَزِنْ بِابْنِ الْمُزْنِ فَهِيَ حَصَانُ
لَهُ الْبَرْقُ سَوَاطِئُ وَالسَّانُ عِنَانُ
عَلَيْهِ مِنَ الطَّلِّ السَّقِيطِ جُمَانُ
لَهَا الثَّوَرُ ثَغْرٌ وَالنَّسِيمُ لِسَانُ

والقائل :

وَأَشْقَرُ تَضَرُّمُ مِنْهُ الْوَغَى
مِنْ جُلْنَارٍ نَاضِرٍ لَوْنُهُ
تَطْلُعُ لِلْعُرَّةِ فِي شُقْرَةٍ
بِشُعْلَةٍ مِنْ شَعْلِ الْبَاسِ
وَأُذْنُهُ مِنْ وَرَقِ الْآسِ
حَبَابَةٌ تَضْحَكُ فِي كَاسِ

وهل منكم من يقول منادماً لنديه، وقد باكر روضاً بمحسوب وكأس، فالفاه
قد غطى محاسنه ضباب، فخاف أن يكسل نديمه عن الوصول إذا رأى ذلك،
وهو الحسن بن بسام :

أَلَا بَادِرُ فَمَا ثَانٍ سِوَى مَا
وَلَا تَكْسَلُ بِرُؤْيَيْهِ ضَبَاباً
فَإِنَّ الرُّوضَ مُلْتَثِمٌ إِلَيَّ أَنْ
عَهْدَتِ الْكَأْسُ وَالْبَدْرُ التَّمَامُ
تَعْصُ بِهِ الْحَدِيقَةُ وَالْمُدَامُ
نُؤَافِيهِ فَيَنْحَطُّ اللَّثَامُ

وهل منكم من تغزل في غلام حائك بمثل قول الرصافي :
قَالُوا وَقَدْ أَكْثَرُوا فِي حُبِّهِ عَذَلِي
فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَمْرِي فِي الصَّبَابَةِ لِي
عَلَّقْتُهُ حَبِيبِي الثَّغْرِ عَاطِرَهُ
غَزِيلٌ لَمْ نَزَلْ فِي الْغَزْلِ جَائِلَةٌ
جَذْلَانِ نَلْعُبُ بِالْمَسْوَكِ أُمْلُهُ
ضَمًّا بِكَفِّهِ أَوْ فَحْصًا بِأَخْمَصِهِ
لَوْ لَمْ تَهْمُ بِمُدَالِ الْقَدْرِ مُبْتَدَلِ
لَاخْتَرْتُ ذَلِكَ وَلَكِنْ لَيْسَ ذَلِكَ لِي
حُلُوُ اللَّمَى سَاجِرَ الْأَجْفَانِ وَالْمُقَلِ
بَنَانُهُ جَوْلَانُ الْفِكْرِ فِي الْعَزْلِ
عَلَى السَّدَى لِعَبِّ الْأَيَّامِ بِالْأَجْلِ
نَخْبُطُ الظُّبْيِ فِي أَشْرَاكِ مُحْتَبِلِ

ومثل قوله في تغلب مسكة الظلام على خلوق الأصيل :
وَعَشِيٍّ رَائِقٍ مَنَظَرُهُ
وَكَانَ الشَّمْسُ فِي أَثْنَائِهِ
وَالصَّبَا تَرَفُّعُ أَذْبَالِ الرُّبَا
قَدْ قَطَعْنَاهُ عَلَى صِرْفِ الشَّمُولِ
الْصَفَتْ بِالْأَرْضِ خَدًّا لِلنُّزُولِ
وَمُحَبًّا الْجَوْ كَالنَّهْرِ الصَّفِيلِ

حَبَّذَا مَنَزَلُنَا مُعْتَبَقَا حَيْثُ لَا يَطْرُقُنَا غَبْرُ الْهَدِيلِ

وهل منكم من وصف غلاماً جميلاً الصورة راقصاً بمثل قول اس خروف :
وَمُنْزَعِ الْحَرَكَاتِ يَلْعَبُ بِالنُّهَى لَيْسَ الْمَحَاسِنَ عِنْدَ خَلْعِ لَبَاسِهِ
مُتَأَوِّدًا كَالْغُصْنِ وَسَطَ رِيَاضِهِ مُتَلَاعِبًا كَالظُّبْيِ عِنْدَ كِبَاسِهِ
بِالْعَقْلِ يَلْعَبُ مُدِيرًا أَوْ مُفِيلاً كَالدَّهْرِ تَلْعَبُ كَيْفَ شَاءَ بِنَاسِهِ
وَيَضُمُّ لِلْقَدَمَيْنِ مِنْهُ رَأْسَهُ كَالسَّيْفِ ضَمَّ ذُبَابُهُ لِرِيَاسِهِ

وهل منكم من وصف خالاً بأحسن من قول النشار :

الْوَامِي عَلَى كَلْفِي بِجَبِّي مَتَى مِنْ حُبِّهِ أَرْجُو سَرَاخَا
وَيِّنَ الْخَدَّ وَالشَّفَتَيْنِ خَالٌ كَرَنْجِي أَتَى رَوْضاً صَبَاحَا
تَحِيرَ فِي جَنَاهُ فَلَيْسَ بَدْرِي أَيْجِي الْوَرْدَ أَمْ يَجْنِي الْأَقَاخَا

وهل منكم الذي اهتدى إلى معنى في لثم وردة الخد، ورشف رضاب الثغر

لم يهتد إليه أحد غيره، وهو أبو الحسن بن سلام المالقي في قوله :

لَمَّا ظَفِرْتُ بِبَلِيلَةٍ مِنْ وَصْلِهِ وَالصَّبُّ غَيْرُ الْوَصْلِ لَا يَشْفِيهِ
أَنْصَجْتُ وَرْدَةَ خَدِّهِ بِنَفْسِي وَطَفِقْتُ أَرْشِفُ مَاءَهَا مِنْ فِيهِ^(١)

وهل منكم أعمى قال في ذهاب بصره، وسواد شعره، وهو الطليطلي :

أَمَّا أَشْتَفْتُ مَيِّ الْأَيَّامِ فِي وَطْنِي حَتَّى تُضَاقَ فِيمَا عَنْ مِنْ وَطْرِي
وَلَا قَصَّتْ مِنْ سَوَادِ الْعَيْنِ حَاجَتَهَا حَتَّى تَكُرَّ عَلَى مَا طَلَّ فِي الشَّعْرِ

وهل نسأ عندكم من النساء مثل ولادة المروانة^(٢)، ومثل زينب بنت زباد

المؤدب التي نقول :

وَلَمَّا أَبَى الْوَأَشُونَ إِلَّا فِرَاقَنَا وَمَا لَهُمْ عِنْدِي وَعِنْدَكَ مِنْ تَارِ
وَشَنُّوا عَلَى أَسْمَاعِنَا كُلِّ غَارَةٍ وَقَلَّ حُمَاتِي عِنْدَ ذَلِكَ وَأَنْصَارِي
غَزَوْهُمْ مِنْ مُقَلَّتِي وَأَذْمُعِي وَمِنْ نَفْسِي بِالسَّيْفِ وَالسَّيْلِ وَالتَّارِ

(١) حذفنا هنا جملة من كلام السعدي لم ير لها أهمية.

(٢) أسند لها بنين لم ير لهما قيمة .

ثم قال الشقندي بعد كلام : وأنا أحتم هذه القطع المتخيرة بقول أبي بكر
ابن بقي ليكون الختام مسكاً :

عَاطِيَّتُهُ وَاللَّيْلُ يَسْحَبُ ذَيْلَهُ صَهْبَاءُ كَالْمِسْكِ الْفَتِينِ لِنَاشِقِ
وَضُمَمَتُهُ ضَمَّ الْكَمِيِّ لِسَيْفِهِ وَذُؤَابَتَاهُ حَمَائِلٌ فِي عَاتِقِي
حَتَّى إِذَا مَالَتْ بِهِ سِنَّةُ الْكُرَى زَحْزَحَتْهُ شَيْئاً وَكَانَ مُعَانِقِي
بَاعَدَتْهُ عَنِ أَضْلَعِ تَشْتَاقُهُ كَيْلَا يَنَامَ عَلَى وَسَادِ خَافِقِي^(١)

وقول الفاضل أبي حفص بن عمر القرطبي :

هُمُو نَظَرُوا فَهَامُوا وَنَشَرَبُ لُبَّ شَارِبَهَا الْمُدَامِ
بَخَافُ النَّاسُ مُقْلَتَهَا سِوَاهَا أَيَذْعُرُ قَلْبَ حَامِلِهِ الْحَسَامِ
سَمَا طَرَفِي إِلَيْهَا وَهُوَ بَاكِ وَتَحْتَ الشَّمْسِ يَنْسَكِبُ الْعَمَامِ
وَأَذْكَرُ فَذَهَا فَانُوحُ وَجَدَا عَلَى الْأَغْصَانِ تَنْدُبُ الْحَمَامِ
وَأُعْقِبَ يَتْنُهَا فِي الصَّدْرِ غَمًّا إِذَا غَرَبَتْ ذُكَاؤُ أَتَى الظُّلَامِ

وبقوله أيضاً :

لَهَا رِدْفٌ تَعَلَّقَ فِي لَطِيفِ وَذَاكَ الرِّدْفُ لِي وَلَهَا ظُلُومُ

(١) كتب إلينا الأديب محمد بن عباس القبايج أن رين شباب الأندلس صفوان بن إدرس المتوفى
سنة ثمان وتسعين وخمسمائة عن سن لا تتجاوز السابعة والثلاثين، عارض أبيات الشقندي
فقال :

سأ حسه والحسن بعض صفاته والسحر مقصور على حركاته
سأ شعشع والعفاف رقيناً حمريس من غزلي ومن كلماته
ضاجعته والليل يذكى نحتنا ناربس من نفسي ومن جميع وجناته
وصممته صم الخلل لئله يحو عليه من جميع جهاته
أوئفته في ساعدي لأنه طي حسبت عليه من فلتاته
والصل يرغب أن يصير ساعداً لفوز بالآمال من صماته
حتى إذا هام الكرى بحفوه وامتد في عضدي طوع ساته
عزم الغرام علي في تقيله فثيت أبدي الطوع عن عزماته
وأني عفافي أن أفل نغره والقلب مطوى على حمراته
فاعجب للده الحوايح علته شكرو الظما والماء في هوائه

يُعَذِّبُنِي إِذَا فَكَّرْتُ فِيهِ وَيُتَعِبُهَا إِذَا هَمَّتْ تَقُومُ

تلك أيها القارئ نفحة الأندلسي، رأينا أن نمهد بها لدرس قصيدة ابن دراج الذي أوصاه أميره المنصور بن أبي عامر بمعارضة أبي نواس كما ذكر ابن خلكان، وإنا لنرجو أن يكون فيما اقتطفناه تذكرة لطلاب الأدب، وتبصرة لعشاق البيان، فقد مضت عهود على نهضة الشعر في مصر ولم نجد من الباحثين من قيّد ما ابتكره شعراؤنا في العصر الحديث من المعاني الجديدة، وما ابتدعوه من الصور الطريفة، مع حرصهم على أن يمثل أغراض الحياة، وأطماع العقول، وألوان النفوس، وأهواء القلوب.

البحث السابع والعشرون

حياة ابن دراج

كان أبو عمر أحمد بن درّاج القسطلّي المتوفى سنة ٤٢١ للهجرة من كبار الشعراء، وكان بصقُع الأندلس كالمتنبّي بصقُع الشام، كما قال صاحب البَيْمَة، وكان له ديوان شعر في جزأين، كما ذكر صاحب وفيات الأعيان، وكان يجيد النثر، كما نص صاحب الذخيرة، ولكن الزمان لم يترك لنا ما نعرف به صدق ما قاله في وصفه مؤرخو الآداب، فقد ضاع ديوان شعره^(١)، وضاعت رسائله البليغة، ولم يبق من آثار فضله إلا بقايا ضئيلة لا تكفي في الابانة عن منزلته في عالم البيان. ولنذكر أولاً ما قاله المؤرخون في وصفه، ثم نتقل إلى وصف نثره وشعره بقدر ما تسمح به الشواهد والأمثال.

قال ابن بسام في الذخيرة « كان أبو عمر القسطلّي في وقته لسان الجزيرة شاعراً وأولاً حين عدّ معاصريه من شعرائها، وآخر حامل لوائها، وبَهجة أرضها وسمائها وأُسوة كتابها وشعرائها... به بُدئ ذكر الجميل وختم، حل اسمه من الأماني محل الأنس، وأحد من تضاءلت الأول عن جلالته قدره، وكانت الشام والعراق خطر ذكره، وقد أحرى الثعالبي طرفاً من أمره، وأغرب بلُمع من شعره » ثم قال « وإنما

(١) سيري القارئ في هامش مقل أن الديوان لم يضع.

ذكرنه هنا وإن كان من شعراء ابن أبي عامر لأنه تراحت أيامه، وأغضى عنه حمامه، حتى أخرجه المحن، وسالت به تلك الفتى.»

والقارئ يرى في عبارة ابن بسام شيئاً من اللبس والغموض، وهذا يرجع إلى سببين : أولهما أن كتاب الدخيرة مُنّي بالمسخ والتحريف، ولا يزال إلى الآن مخطوطاً يجده الباحث في دار الكتب المصرية، وثانيهما أن ابن بسام يؤثر السجع، والسجع قبيح يضطر الكاتب إلى التعثر، فتظهر في عباراته آثار الضعف والاضطراب.

وقال أبو حيان : « أبو عمر القسطلي سابق حلبة الشعراء العامرين، وخاتمة محاسن أهل الأندلس أجمعين، كان ممن طوّحت بهم تلك الفتنة الشنعاء، واضطرتته إلى النجعة، فاستقرى ملوك الأندلس أجمعين، يهز كلاً بمدحه، ويستعينه على نكبتهم وليس منهم من يصغي له، أو يحفظ ما أضيع من حقه، وأرخص من عقله وهو يخطبهم بمقوله^(١) فيصمّون عنه، إلى أن أناخ بساحة المنذر بن يحيى أمير سرقسطة، فألقى عصا سيره عندما بوأه، ورحب به وأوسع قراه، ولم يزل عنده وعند ابنه بعده.»

وقال ابن فضل الله، كما ذكر صاحب معاهد التنصيص بعد ذكر قصيدة ابن دراج التي عارض بها أبا نواس :

« ومن وقف على هذه القصيدة وقصيدة أبي نواس عرف فضل قائلها على مَنْ تقدم، وشهد له بأنه سبق وإن تأخر، وجزم بأن الرجال معادن، ولم يشك أن الخواطر موارد لا تنزح، وأن الأفكار مصابيح لا تطفأ، وأن الأفهام مرآة لا تنتهي صورها، وأن العقول سحائب لا ينفد مطرها، وعلم أن المعاني غير متناهية، والفضائل غير متوالية، وأن أم الليالي ولود، وأن الفضل في كل حين مشهود، وإن هذا الشاعر في قصيدته هذه التي عارض بها أبا نواس، لم يدع له عارضاً يُستمطر، ولا عارضة تُذكر. وإنه لتحقيق أن ينشد :

(١) المقول : اللسان.

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الْأَخِيرَ زَمَانُهُ لَا تِ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الْأَوَّلُ
وكذلك كانوا برون في ابن دراج شاعراً مفلحاً يخل بمثله الزمان، ولكن
عدوان الحوادث على آثاره الأدبية حال بيننا وبين التثبت من صدق ما حكم به
المتقدمون.

شيء من نثره

بغلب السجع في نثر ابن دراج، ويجد فيه القارئ شيئاً من مستلح التنبيه،
ولنذكر القطعة الآتية على سبيل التمثيل :

« حاش لله أن أَسْتَشْفَ المسيلَ قبل جُمُومِهِ، وأَسْتَكِرَ الدَّرَّ قبل حُفُولِهِ، أو
أَتَعَامِيَ عن سراجِ المعذرة، وأَغْفَلَ عن الأدبِ الباهرِ في نَظَرَةٍ إلى ميسرة... ولكن.
مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحِ بِذِي مَرَخٍ حُمِرَ الحَوَاصِلَ لَا مَاءً وَلَا شَجَرُ
مَا أَوْضَحَ الْعُذْرَ لِي لَوْ أَنَّهُمْ عَذَرُوا وَأَجْمَلَ الصَّبْرَ بِي لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا
لَكِنَّهُمْ صَعَرُوا عَنْ أُرْمَةٍ كَبُرَتْ فَمَا اعْتَذَارِي عَمَّنْ عُذْرُهُ الصَّعَرُ
وقد قلبت لهم ظهر مجن الأمور، وميزت بين الميسور والمعسور، فما وجدت
أحسن بدءاً، ولا أحمد عوداً، مما أذن الله لعباده الذين أعمارهم أرضه، وسخر
لهم بحره وبره، أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه، وحيث نتقلب ففي كرمك،
وأي نأمن ففي حرمك، وحيث توحشنا دعوتك، ولا نعدمن نعمتك، فمن ملكك
إلى ملكك، ومن يمينك إلى شمالك ».

وفي كتاب الذخيرة عدة قطع على هذا الأسلوب، وإن كنت أرتاب في
نصوصها لما في ذلك الكتاب من التحريف.

شيء من شعره

نعود فنذكر أن الدهر ضنّ علينا بآثار هذا الشاعر المجيد، فليرض القارئ بما
نختاره من تلك القصائد التي أثبتنا صاحب اليتيمة، أحسن الله له الجزاء، وإنا
لنستعيد قوله في لوعة الشوق :

وَحَشِيَّةَ اللَّفْظِ هَلْ يُودَى قَتِيلُكُمْ
إِنِّي أُرَاكَ بِقَتْلِ النَّفْسِ حَاذِقَةً
مَالِي وَلِلْبَرِّقِ أَسْتَسْقِيهِ مِنْ ظَمَأٍ
لَوْلَا الصُّلُوعُ لَظَلَّ الْقَلْبُ نَحْوَكُمْ
أَصْلَيْتَنِي لَوْعَةَ الْهَجْرَانِ ظَالِمَةً
دَمِي مُضَاعٌ وَجَانِي ذَاكَ عَيْنَاكَ
قُولِي فَذَبْتُكَ مَنْ بِالْقَتْلِ أَوْصَاكَ
هَيْهَاتَ لَا رِيَّ إِلَّا مِنْ ثَنَائِكَ
ضَعِي بِعَيْتِكَ فَوْقَ الْقَلْبِ يُمْنَاكَ
رُحْمَاكَ مِنْ لَوْعَةِ الْهَجْرَانِ رُحْمَاكَ

ونستجيد قوله في وصف السفن تشق عباب المحيط :

إِلَيْكَ شَحْنًا الْفَلَكَ تَهْوِي كَانَهَا
وَقَدْ دُعِرَتْ عَنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ غِرْبَانُ
عَلَى لُجَجٍ خُضِرَ إِذَا هَبَّتِ الصَّبَا
تَرَامَى بِنَا فِيهَا ثَيِرٌ وَتَهْلَانُ
وَإِنْ سَكَنْتَ عَنَّا الرِّيَّاحُ جَرَى بِنَا
زَفِيرٌ إِلَى الْأَجْبَةِ حَنَانُ
يَقْلُنْ وَمَوْجُ الْبَحْرِ وَالْهَمُّ وَالذُّجَى
تَمْوُجُ بِنَا فِيهَا عُيُونٌ وَآذَانُ
أَلَا هَلْ إِلَى الدُّنْيَا مَعَاذٌ وَهَلْ لَنَا
سِوَى الْبَحْرِ قَبْرٌ أَوْ سِوَى الْمَاءِ أَكْفَانُ
وَهَبْنَا رَأَيْنَا مَعْلَمَ الْأَرْضِ هَلْ لَنَا
مِنْ الْأَرْضِ مَأْوًى أَوْ مِنَ الْإِنْسِ عَرْفَانُ
هَوَتْ أُمُّهُمْ مَآذَا هَوَتْ بِرِجَالِهِمْ
إِلَى نَازِحِ الْآفَاقِ سُفْنٌ وَأَظْلَعَانُ
كَوَائِبُ إِلَّا أَنَّ أَفْلَاكَ سَيَّرَهَا
زِمَامٌ وَرَحْلٌ أَوْشِرَاعٌ وَسُكَّانُ

وفي هذه القصيدة يقول في شكوى الزمان، وتوديع الأحباب :

وَأَنَّ بِلَادًا أَخْرَجْتَنِي لِعَاطِلٍ
وَأَنَّ زَمَانًا خَانَ عَهْدِي لَخَوَانُ
سَلَامٌ عَلَى الْإِخْوَانِ تَسْلِيمٌ آيسٍ
وَسَقِيًّا لِدَهْرٍ كَانَ لِي فِيهِ إِخْوَانُ

فَلَا مُؤْنِسٌ إِلَّا شَهِيقٌ وَزَفْرَةٌ
وَمَا كَانَ ذَاكَ الْبَيْنُ بَيْنَ أُحَبَّةٍ

وما أوجع ما يقول :

فَيَا عَجَبًا لِلصَّبْرِ مِنَّا كَأَنَّمَا
مَضَى غَيْشُهُمْ بَعْدِي وَعَيْشِي بَعْدَهُمْ

ومن مختار القصيد قوله :

لَكَ اللَّهُ بِالنَّصْرِ الْعَزِيزُ كَفِيلُ
هُوَ الْفَتْحُ أَمَّا يَوْمُهُ فَمُعْجَلُ
وَآيَاتُ نَصْرٍ مَا تَرَالُ وَلَمْ تَزَلْ
سُيُوفٌ تُنِيرُ الْحَقَّ أَنَّى انْتَضَيْتَهَا
أَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ غَزُوكَ مِنْ غَوَى
لَئِنْ صَدِئْتَ الْبَابُ قَوْمٍ بِمَكْرِهِمْ
وَإِنْ يَخِي فِيهِمْ مَكْرُ جَالُوتَ جَدِّهِمْ
خَفِيفٌ عَلَى ظَهْرِ الْجَوَادِ إِذَا عَدَا
وَجَرْدَاءُ لَمْ تَبْخُلْ يَدَاهَا بِغَايَةٍ وَلَا
لَهَا مِنْ خَوَافِي لِقَوَةِ الْجَوِّ أَرْبَعُ
وَبَيْضُ تَرَكْنِ الشُّرْكِ فِي كُلِّ مُنْتَأَى
تَمُورُ دِمَاءُ الْكُفْرِ فِي شَفَرَاتِهَا
وَأُسْمَرُ ظَمَانِ الْكُعُوبِ كَأَنَّمَا
إِذَا مَا هَوَى لِلطَّعْنِ أَقْبَنْتَ أَنَّهُ

وفيهما يقول :

كَتَائِبُ عَزِّ النَّصْرِ فِي جَنَابَاتِهَا
يَسِيرُ بِهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَائِدُ
إِذَا انْشَقَّ لَيْلُ الْحَرْبِ عَنْ صُبْحِ وَجْهِهِ

وَلَا مُسْعِدٌ إِلَّا دُمُوعٌ وَأَجْفَانُ
وَلَكِنْ قُلُوبٌ فَارَقَتْهُنَّ أَبْدَانُ

لَهُمْ غَيْرُ مَنْ كُنَّا وَهُمْ غَيْرُ مَنْ كَانُوا
كَأَنِّي قَدْ خُنْتُ الْوَفَاءَ وَقَدْ خَانُوا

أَجَدَّ مُقَامٌ أَمْ أَجَدَّ رَحِيلُ
إِلَيْكَ وَأَمَّا صُنْعُهُ فَجَزِيلُ
بِهِنَّ عَمَائَاتُ الصَّلَالِ تَزُولُ
وَخَيْلٌ يَجُولُ النَّصْرُ حَيْثُ تَجُولُ
وَصَلُّ بِهِ فِي النَّاكِثِينَ سَبِيلُ
فَسَيْفُ الْهُدَى فِي رَاحَتَيْكَ صَقِيلُ
فَأَحْجَارُ دَاوُدَ لَدَيْكَ مَثُولُ
وَلَكِنْ عَلَى صَدْرِ الْكَمِيِّ ثَقِيلُ
كَرْهًا نَحْوَ الطَّعَانِ بَخِيلُ
وَكَشْحَانِ مِنْ ظِلِّي الْفَلَاحُ وَتَلِيلُ
فُلُولًا وَمَا أُرَى بِهِنَّ فُلُولُ
وَيَرْجِعُ عَنْهَا الطَّرْفُ وَهُوَ كِلِيلُ
بِهِنَّ إِلَى شَرْبِ الدَّمَاءِ غَلِيلُ
بِصَرْفِ الرَّدَى نَحْوَ الثُّفُوسِ رَسُولُ

وَكُلُّ عَزِيزٍ يَمْتَنُّهُ ذَلِيلُ
يَسِيرُ عَلَيْهِ الْخَطْبُ وَهُوَ جَلِيلُ
فَقَدْ حَانَ مِنْ يَوْمِ الصَّلَالِ أَفُولُ

وله قصيدة عينية بديعة نوهت بها الذخيرة، ولكنها لم نسلم من التحريف
نختار منها قوله .

فَمَا تَجَاوَزْتُ قَرْنَ اللَّيْلِ مُعْتَسِفًا إِلَّا وَفَرْنُ رَخِيمِ الدَّلِّ بَارِعُهُ
تَحْيِي مِنْهُ تَقْبِيلٌ وَمُعْتَنَقٌ بَشْدُنِي غُلُّهُ فِيهِ وَجَامِعُهُ
لَمْ أَخْلَعْ الدَّرْعَ إِلَّا حِينَ شَفَقَهُ عَنْ صَفْحِ صَدْرِي مَا تَحْوِي مَذَارِعُهُ
وَلَا تَوَقَّيْتُ سَهْمًا مِنْ لَوَاحِظِهِ يُذِيبُ سَيْفِي فِي فُلْبِي مَوَاقِعُهُ
غَضَنْ تَجَرَّعَ أُنْدَاءَ الْعَمَامِ فَمَا يُطَوِّقُ الدَّهْرَ إِلَّا وَهَوَ جَارِعُهُ
يَمِيسُ سُكْرًا وَسُكْرُ الدَّلِّ عَاطِفُهُ وَنَارَةٌ وَأَنْثَاءُ الْوُشِيِّ لَادِعُهُ
فَبِتُ تَحْتَ رَوَاقِ اللَّيْلِ ثَانِيَهُ وَالشُّوقُ ثَالِثُنَا وَالْوَصْلُ رَابِعُهُ
وَالسُّحْرُ مِنْ لَفْظٍ يُنَازِعُنِي وَالْمِسْكُ يَعْبِقُ مِنْ كَأْسٍ أَنْزَاعُهُ
رَاحًا يَمُدُّ سَنَاهَا نُورَ رَاحَتِهِ لَوْلَا التَّهْيُّ لَجَرَّتْ فِيهَا أَصَابِعُهُ
كَأَنَّمَا ذَابَ فِيهَا وَرْدٌ وَجَنَّتِهِ وَشَجَّهَا رِيْقُهُ الْمَعْسُولُ مَائِعُهُ
جَنَى حَيَاةٍ ذَلَّتْ مِنِّْي مَطَاعِمُهُ مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ نَأَتْ عَنِّي مَطَامِعُهُ
قَدْ أَنْهَبَ الْمِسْكُ وَالْكَافُورُ خَازِنُهُ وَأَرْخِصُ الْوَرْدَ وَالتَّقْفَاحَ بَائِعُهُ
فَيَا ظِلَامَ نُجُومِ اللَّيْلِ إِذْ حُرِمْتُ بَدَرَ السَّمَاءِ فِي جِجْرِي مَصَابِعُهُ
وَيَا حَيْنَ ظُبَاءِ الْقَفْرِ إِذْ فَقَدْتُ غَزَالَهُنَّ فِي رَوْضِي مَرَاتِعُهُ

رائية ابن دراج

وأشهر قصائد ابن دراج رائيته في مدح المنصور بن أبي عامر التي عارض
بها رائية أبي نواس في مدح الخصب، وقد ضمن الدهر علينا أيضاً بهذه
القصيدة، فلم تبق منها إلا قطع مبعثرة هنا وهناك^(١)، وقد راجعت كل ما
وصلت إليه من تاريخ الأندلس، وسألت كل من أعرف أنه شغل بناريخ

(١) أصحبت القصيدة كلها تحت يدنا، وعرفنا أن الدبوان لم يضع، فهو في مخطوطات حراة المؤرخ
الكبير القب مولاي عبد الرحمن بن زيدان من أمراء البيت الملكي في المغرب، وقد نفضل
السيد محمد بن عباس الفصاح، فأرسل إلنا الرائية كاملة، فله منا أطيب النناء.

الأدب في تلك البلاد، ثم لم أظفر بمطلع هذه القصيدة، وإنما يبدءون بقوله :
 أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الثَّوَاءَ هُوَ الثَّوَى وَأَنَّ يُّوتَ الْعَاجِزِينَ قُبُورُ
 ومن البعيد أن يكون هذا البيت هو المطلع، إذ يبعد أن لا يضع الشاعر
 مقدمة لهذا الحوار^(١)

ولنأخذ في الموازنة فنذكر أن قول أبي نواس :
 تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا حَفَّ مَرْكَبِي عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَكَ تَسِيرُ
 أَمَا دُونَ مِصْرٍ لِلْغِنَى مُتَطَلَّبٌ بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ
 فَقُلْتُ لَهَا وَاسْتَعْجَلْتُهَا بِوَادِرٍ جَرَتْ فَجَرَى مِنْ جَرِينٍ عَبِيرُ
 دَعِينِي أَكْثَرَ حَاسِدِيكَ بِرَحْلَةٍ إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيبُ أَمِيرُ

هذه القطعة دون قول ابن دراج :
 أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الثَّوَاءَ هُوَ الثَّوَى وَأَنَّ يُّوتَ الْعَاجِزِينَ قُبُورُ
 وَأَنَّ خَطِيرَاتِ الْمَهَالِكِ ضَمَّنٌ لِرَاكِبِهَا أَنَّ الْجَزَاءَ خَطِيرُ
 تُخَوِّفُنِي طُولَ السَّفَارِ وَإِنَّهُ لِتَقْبِيلُ كَفِّ الْعَامِرِيِّ سَفِيرُ
 ذَرِينِي أَرِدْ مَاءَ الْمَفَاوِزِ آجِنًا إِلَى حَيْثُ مَاءُ الْمَكْرُمَاتِ نَمِيرُ

وقد بلغ ابن دراج ذروة البلاغة، وبذأبا نواس وبرعة، بقوله في توديع زوجه
 وولده :

وَلَمَّا تَدَانَتْ لِلْوَدَاعِ وَقَدْ هَفَا بِصَبْرِي مِنْهَا أَنَّهُ وَزْفِيرُ
 تُنَاشِدُنِي عَهْدَ الْمَوَدَّةِ وَالْهَوَىٰ فِي الْمَهْدِ مَبْغُومُ النَّدَاءِ صَغِيرُ
 عَيْي بِمَرْجُوعِ الْخِطَابِ وَلِحَظْلُهُ بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النَّفُوسِ خَبِيرُ
 تَبَوُّأَ مَمْنُوعِ الْقُلُوبِ وَمُهْدَتِ لَهُ أَذْرُعَ مَحْفُوفَةٍ وَنُحُورُ
 عَصِيَّتُ شَفِيعِ النَّفْسِ فِيهِ وَقَادَنِي رَوَاحُ لِتَذَابِ السُّرَى وَبُكُورُ

(١) هذا هو المطلع :

دعي عزماب المستضام نسير ونجد في عرض الفلا وتعبور
 لعل بما أشحاك من لوعه النوى بعز ذليل أو بفك أسر

وَطَارَ جَنَاحُ الْبَيْسِ بِي وَهَفَتْ بِهَا
لَيْنٌ وَدَعَتْ مِنِّي غَيُورًا فَإِنِّي
ولا لوم على أبي نواس في أن خلت قصيدته من مثل هذا الموقف الحزين،
إذ لم يترك ببغداد زوجا ينازعه إليها الوفاء، ولا طفلاً نعطفه إليه نوازع الشوق
ولواعج الحنين.

وأحب أن لا يفوت القارئ ترجيع هذا البيت :
تَنَاشِدُنِي عَهْدَ الْمَوَدَّةِ وَالْهَوَى
وَفِي الْمَهْدِ مَبْعُومُ النَّدَاءِ صَغِيرُ
وكلمة « مبعوم النداء » كلمة مختارة بارعة المدلول، وقوله :
عَيِّي بِمَرْجُوعِ الْخِطَابِ وَلَحْظُهُ
بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النَّفُوسِ خَيْرُ
بيت نادر المثال، وقوله :

تَبَوَّأَ مِمَّنُوعِ الْقُلُوبِ وَمُهْدَتِ
لَهُ أَذْرُعَ مَحْفُوفَةٍ وَنُحُورُ
من أرق ما صور به الحنان، وما أوجع ما يقول :

عَصَيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ وَقَادَنِي
زَوَاحِ لِتْدَابِ السُّرَى وَبُكُورُ
وَطَارَ جَنَاحُ الْبَيْسِ بِي وَهَفَتْ بِهَا
جَوَانِحُ مِنْ ذُعْرِ الْفِرَاقِ تَطِيرُ
وانظر تصوير الحزم بقوله :

لَيْنٌ وَدَعَتْ مِنِّي غَيُورًا فَإِنِّي
عَلَى عَزَمَتِي مِنْ شَجْوِهَا لَغَيُورُ
وقول أبي نواس :

وَلَمَّا أَتَتْ فُسْطَاطَ مِصْرَ أَجَارَهَا
مِنْ الْقَوْمِ بَسَامٌ كَانَ جَبِينَهُ
زَهَا بِالْخَصِيبِ السَّيْفِ وَالرُّمْحِ فِي الْوَعَى
جَوَادٌ إِذَا الْأَبْدِي كَفَفْنَ عَنِ النَّدَى
لَهُ سَلَفٌ فِي الْأَعْجَمِينَ كَانَهُمْ
عَلَى رَكْبِهَا الْأَنْزَالَ مُجِيرُ
سَنَا الْفَجْرِ يَسْرِي ضَوْؤُهُ وَيُنِيرُ
وَفِي السَّلَمِ يَزْهُو مِيزُ وَسْرِيرُ
وَمِنْ دُونِ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ غَيُورُ
إِذَا اسْتَوْدُونَا يَوْمَ السَّلَامِ نُدُورُ

في هذه القطعة سلاسة وجلاء، وهي أروع من قول ابن دراج :

تَلَاَقَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَيْمِيمٍ وَيَعْرُبٍ شُمُوسٌ تَلَالَا فِي الْعُلَا وَبُدُورُ
 مِنَ الْجُمَيْرِيِّينَ الَّذِينَ أَكْفَهُمْ سَحَابٌ تَهْمِي بِاللَّدى وَبُحُورُ
 هُمُو صَدَّقُوا بِالْوَحْيِ حِينَ أَتَاهُمُو وَمَا النَّاسُ إِلَّا عَابِدٌ وَكَفُورُ
 مَنَاقِبُ يَعْبَا الْوَصْفُ عَنْ كُنْهَ قَدْرِهَا وَيَرْجِعُ عَنْهَا الْوَهْمُ وَهُوَ حَسِيرُ
 أَلَا كُلُّ مَدْحٍ عَنْ نَدَاكَ مُقْصَرُّ وَكُلُّ رَجَاءٍ فِي سِوَاكَ غُرُورُ

ونحن حين نقابل هذه القطعة بكلمة أبي نواس نرى التكلف ظاهراً في أبيات ابن دراج، وليتأمل القارئ قوله :

مَنَاقِبُ يَعْبَا الْوَصْفُ عَنْ كُنْهَ قَدْرِهَا وَيَرْجِعُ عَنْهَا الْوَهْمُ وَهُوَ حَسِيرُ

فهو ظاهر العلو، واضح التكلف، أما قوله :

هُمُو صَدَّقُوا بِالْوَحْيِ حِينَ أَتَاهُمُو وَمَا النَّاسُ إِلَّا عَابِدٌ وَكَفُورُ

فهو بيت ضعيف.

وقد وصف أبو نواس رحلته إلى مصر وصفاً لا قيمة له، أما ابن دراج فقد أجاد الوصف حين قال :

وَلَوْ شَاهَدْتَنِي وَالْهَوَاجِرُ تَلْتَظِي عَلَيَّ وَرَقْرَاقُ السَّرَابِ يَمُورُ
 أُسْلَطُ حَرًّا الْهَاجِرَاتِ إِذَا سَطَا عَلَى حُرٍّ وَجْهِي وَالْأَصِيلُ هَجِيرُ
 وَأَسْتَنْشِقُ النَّكْبَاءَ وَهِيَ لَوَافِحُ وَأَسْتَمْطِئُ الرَّمْضَاءَ وَهِيَ تَفُورُ
 وَلِلْمَوْتِ فِي عَيْنِ الْجَبَانِ تَلُونُ وَلِلدُّعْرِ فِي سَمْعِ الْجَرِيءِ صَفِيرُ
 وَلَوْ شَاهَدْتَنِي وَالسَّرَى جُلُّ عَزْمَتِي وَجَرَسِي لِجَنَانِ الْفَلَاةِ سَمِيرُ
 وَأَعْتَسِفُ الْمَوْمَاةَ فِي غَسَقِ الدُّجَى وَلِلْأَسَدِ فِي غَيْلِ الْغِيَاضِ زَرِيرُ
 أَمِيرٌ عَلَى غُولِ التَّنَائِفِ مَا لَهُ إِذَا رِيْعَ إِلَّا الْمَشْرِفِيُّ وَزِيرُ
 وَقَدْ خَيَلْتُ طُرُقَ الْمَجَرَّةِ أَنَّهَا عَلَى مَفْرِقِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ قَتِيرُ
 وَدَارَتْ نُجُومُ الْقُطْبِ حَتَّى كَانَهَا كَوْوَسُ طَلَى وَالَى بِهِنَّ مُدِيرُ
 لَقَدْ أَبْقَنْتُ أَنَّ الْمُنَى طَوْعُ هِمَّتِي وَأَنِّي بَعْطَفِ الْعَامِرِيِّ جَدِيرُ

وهذا شعرٌ جَزَلٌ رصين، ومن المحزن أن السياق يدلنا على أن هذه القطعة الوصفية ضاع بها شيءٌ كثير^(١).

وقد انفرد ابن دراج بالإجادة في وصف هيئة اللقاء حين قال :

وَلَمَّا تَوَافَوْا لِلسَّلَامِ وَرُفِعَتْ
وَقَدْ قَامَ مِنْ زُرْقِ الْأَيْسَةِ دُونَهُ
رَأَوْا طَاعَةَ الرَّحْمَنِ كَيْفَ اعْتَرَاذَهَا
وَكَيفَ اسْتَوَى بِالْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَجْلِسٌ
فَسَارُوا عَجَالاً وَالْقُلُوبُ خَوَافِقٌ
يَقُولُونَ وَالْإِجْلَالُ يُخْرِسُ النَّسَا
لَقَدْ حَاطَ أَغْلَامُ الْهُدَى بِكَ حَائِطٌ

عَنِ الشَّمْسِ فِي أَفْقِ الشُّرُوقِ سُتُورُ
صُفُوفٍ وَمِنْ بَيْضِ الشُّيُوفِ سُطُورُ
وَأَيَّاتِ صُنْعِ اللَّهِ كَيْفَ تُبَيِّرُ
وَقَامَ بِعِجْبِ الرَّاسِيَّاتِ سَرِيرُ
وَأَذْنُوا بِطَاءٍ وَالنَّوَاطِرُ صُورُ
وَحَارَتْ عُيُونٌ مِنْهُمْ وَصُدُورُ
وَقَدَّرَ فِيكَ الْمَكْرُمَاتِ قَدِيرُ

وهذه الصورة الشعرية تراءت للشاعر بفضل قول البحرني في هيئة اللقاء :

وَلَمَّا قَضَوْا صَدْرَ السَّلَامِ تَهَافَتُوا
إِذَا شَرَعُوا فِي خُطْبَةٍ قَطَعَتْهُمْ
إِذَا نَكَسُوا أَبْصَارَهُمْ مِنْ مَهَابَةٍ
نَضَبَتْ لَهُمْ طَرْفًا حَدِيدًا وَمَنْطِقًا
فَمَا بَرَّحُوا حَتَّى نَعَاظَتْ أَكْفُهُمْ
بِكَ التَّائِمُ الشُّعْبُ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ

عَلَى يَدِ بَسَامٍ سَجِيئُهُ الْبَذَلُ
جَلَالَةُ طَلْقِ الْوَجْهِ جَانِبُهُ سَهْلُ
وَمَالُوا بِلَحْظٍ خَلَّتْ أَنَّهُمْ قَبْلُ
سَدِيدًا وَرَأْبًا مِثْلَ مَا انْتَضَى التَّصَلُّ
قِرَاكَ وَلَا ضِغْنٌ لَدَيْهِمْ وَلَا ذُحُلُ
عَلَى حِينٍ بَعْدَ مِنْهُ وَاجْتَمَعَ الشَّمْلُ

وأبيات البحرني في هيئة اللقاء انتهت كثير من الشعراء. وأذكر أن فقيد الشباب عبد الحليم المصري قدم إلينا قصيدة لنشرها في جريدة الأفكار سنة ١٩٢٠ في مدح الملك فؤاد فوجهت نظره إلى ما انتهب من معاني البحرني، فغضب، ولم يصلح بيننا إلا الصديق عبد العزيز دعبس.

(١) أشرت من قبل إلى أن هذه المصيدة صارت كلها نص بيدي بفضل صدقها المأج.

البحث الثامن والعشرون

بين صبري ومطران

— ١ —

نوازن في هذا البحث بين نوبيتين من شعر إسماعيل صبري وخلييل مطران ونرى من الخبر أن نذكر طائفة من أخبار إسماعيل صبري وأشعاره، ونبدأ فذكر أنه ولد في ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤ وتوفي في مطلع الربيع صباح ٢١ مارس سنة ١٩٢٣، وكان من رجال القانون، وآخر منصب تولاه هو منصب وكيل وزارة الحقانية.

كان صبري شاعراً مجيداً، ولكنه لم يكن من المكثرين، وقد وصل إلى أبعد حدود التفوق في المعاني الوجدانية، واتفق له أن يغذي الغناء حيناً من الزمان، وهو صاحب الموال الذي كان يغنيه المطربون في أواخر السهرات :

الفَجْر آهُوَ لَآخُ فُومُوا يَا تُجَّارَ النُّومِ
عَجَبَ تَنَامُوا وَعَبَّيْ مَا تَشُوفَ النُّومِ
نَزَلَتْ بَحْرَ الْمَحَبَّةِ أَحْسِبَ أَنَّهُ عُومِ
غَرِقَتْ قَالُوا جَمِيعَ النَّاسِ تَسْتَاهِلِ
عَشِقَ الْجَمَالَ غَنَدَرَهُ الْيَوْمِ وَغَيْرَ الْيَوْمِ

وهو صاحب هذا الدور :

قَلْدُكَ أَمِيرُ الْأَغْصَانِ	مَنْ غَيْرُ مُكَابِرٍ
وَوَرْدُ خَدِّكَ سُلْطَانُ	عَلَى الْأَزَاهِرِ
ذَا الْحُبِّ كُلُّوا أَشْجَانُ	بَا قَلْبِ حَاذِرِ
وَالصَّدِّ وَيَا الْهَجْرَانُ	جَزَا الْمُخَاطِرِ

دور

يَا قَلْبِ أَذِنْتَ حَبَّيْتُ	وَرَجَعْتُ تَنَدَّمُ
وَصَبَحْتُ تَشْكِي مَا رَأَيْتُ	لَكَ حَدَّ يَرْحَمُ
صَدَقْتُ قَوْلِي وَرَأَيْتُ	ذُلَّ الْمُتَيْئِمِّ ...
يَا مَا نَصَحْتِكَ وَنَهَيْتُ	لَوْ كُنْتُ تَفْهَمُ

دور

أَعْرِضْ لِحُسْنِكَ أَوْرَاقُ	وَإِنْ كُنْتُ وَدُونَ
وَأَبَاتُ صَرِيحِ الْأَشْوَاقِ	وَإِنْ كُنْتُ وَخَمَّ
ذَا هَجْرٍ وَصَبَابَةٍ وَفِرَاقِ	يَبَارِبِ هَوْنِ
وَأَرْحَمِ قُلُوبِ الْعُشَّاقِ	ذَا شَيْءٍ يَجْنُ

وللقارئ أن يلاحظ أن هذا من الشعر الملحون، ولا يظهر حسنه إلا عند الغناء، وقد ظلت هذه الأدوار على ألسنة الجماهير المصرية زمناً غير قليل، وهي محفوظة في ألواح^(١)

ومضى صبري يفتن افتناناً شائقاً في مغازلة الصباحة، وهو صاحب القصيدة المأثورة « تمثال جمال » وفيها تظهر براعته في مناغة الحساء :

(١) برید بالألواح : اسطوانات الغناء.

يَالْوَاءَ الْحُسْنَ أَحْزَابُ الْهَوَى
فَرَّقَتْهُمْ فِي الْهَوَى ثَارَتْهُمْ
إِنَّ هَذَا الْحُسْنَ كَالْمَاءِ الَّذِي
لَا تَذُودِي بَعْضَنَا عَنْ وَرْدِهِ
أَنْتَ يَمُ الْحُسْنَ فِيهِ أَرْذَحَمَتْ
يَقْدِفُ الشَّوْقُ بِهَا فِي مَائِجٍ
شِدَّةٌ تَمْضِي وَتَأْتِي شِدَّةٌ
سَاعِفِي آمَالِ انْصَاءِ الْهَوَى
وَتَجَلِّي وَأَجْعَلِي قَوْمَ الْهَوَى
أَقْبِلِي نَسْتَقْبِلِ الدُّنْيَا وَمَا
وَأَسْفِرِي تِلْكَ حُلَى مَا خُلِقَتْ
وَأَحْطِرِي بَيْنَ النَّدَامَى يَحْلِفُوا
وَأَنْطَقِي يَنْثُرُ إِذَا حَدَّثْنَا
وَأَبْسِمِي مَنْ كَانَ هَذَا ثَعْرُهُ
لَا تَخَافِي شَطَطاً مِنْ أَنْفُسِ
رَاضَتْ النُّخْوَةُ مِنْ أَخْلَاقِنَا
فَلَوْ أَمْتَدَّتْ أَمَانِينَا إِلَى
أَنْتِ رُوْحَانِيَّةٌ لَا تَدْعِي
وَأَنْزَعِي عَنْ جِسْمِكَ الثُّوبَ بَيْنَ
وَأَرِي الدُّنْيَا جَنَاحِي مَلَكٍ

وهو أيضاً صاحب الأبيات الحسان :

رَجِمْتَ أَخَا لَوْعَةٍ مَاتَ صَبًّا
عَلَى هَائِمٍ إِنْ دَعَا الشَّوْقُ لَبَّى
وَأَنْ هُوَ مِنْ جَانِبِ الرُّوضِ هَبًّا
مِنَ الْعُمَرِ لَمْ تَلْقِنِي فِيكَ صَبًّا
وَنَهَبَ لِيَالِيَهُ الْعُرَّ نَهَبًا

أَبْثُلُكَ مَا بِي فَإِنْ تَرَحَّمِي
وَأَشْكُو النَّوَى مَا أَمَرَ النَّوَى
وَأُخْشَى عَلَيْكَ هُبُوبَ النَّسِيمِ
وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ بُرْهَةِ
تَعَالَى نَجْدُ زَمَانِ الْهَنَاءِ

تَعَالَى أَذُقْ بِكَ طَعْمَ السَّلَامِ وَحَسْبِي وَحَسْبُكَ مَا كَانَ حَرْبًا

وهو الذي يقول :

تُمْسِي تَذْكُرُنَا الشَّبَابَ وَعَهْدَهُ حَسَنَاءُ مُرْهَفَهُ الْقَوَامِ فَتَذْكُرُ
تَثْبُ الْقُلُوبُ إِلَى الرُّؤُوسِ إِذَا بَدَتْ وَتَطُلُّ مِنْ حَقِّ الْعُيُونِ وَنَنْظُرُ

وهذا من وثبات الخيال.

وريحانة هذا العصر أم كلثوم تغني من شعره هذه الأبيات :

أَقْصِرْ فُؤَادِي فَمَا الذِّكْرَى بِنَافِعَةٍ وَلَا بِشَافِعَةٍ فِي رَدِّ مَا كَانَا
سَلَا الْفُؤَادُ الَّذِي شَاطَرْتُهُ زَمَنًا حَمَلُ الصَّبَابَةِ فَأَخْفَقُ وَحَدِّكَ الْآنَا
هَلَّا أَخَذْتَ لِهَذَا الْيَوْمِ أَهْبَتُهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُصْبِحَ الْأَشْوَاقُ أَشْجَانَا
لَهْفِي عَلَيْكَ فَضَيْتِ الْعُمَرَ مُقْتَحِمًا فِي الْوَصْلِ نَارًا وَفِي الْهِجْرَانِ نِيرَانَا

وكانت داره بالمنيرة منتدى الأدباء والشعراء، وكانت له سهرات تفيض بالتميز
العذب من الأدب الرفيع، وفي أواخر أيامه أمضَ المرض، فكانت رياراة الأدباء
أحب إليه من عيادة الأطباء، وصفه الأسناذ أنطون الجميل فقال : « كان في عزله
ينطلع الى أحبار الأدب كما يتطلع القائد الجريح الى أخبار القتال »^(١).

وألممته قسوة المرض قصيدة من الشعر الخالد الذي يصور آلام اليأس المحزون :
كَمْ سَاعَةٍ أَلْمَنِي مَسْهًا وَأَزْعَجْتَنِي يَدُهَا الْقَاسِيَةَ
فَقَشْتُ فِيهَا جَاهِدًا لَمْ أَجِدْ هُنَيْهَةً وَاجِدَةً صَافِيَةً
وَكَمْ سَقَتَنِي الْمَرُّ أُخْتُ لَهَا فَرَحْتُ أَشْكُوهَا إِلَى التَّالِيَةِ
فَأُسَلِّمْتَنِي هَذِهِ عَنُوءَ لِسَاعَةٍ أُخْرَى وَبِي مَايَةِ
وَيُحَلِّكَ يَا مِسْكِينُ هَلْ تَشْتَكِي جَارِحَةَ الظُّفْرِ إِلَى ضَارِبِهِ
حَازِرٌ مِنَ السَّاعَاتِ وَيْلٌ لِمَنْ يَأْمَنُ تِلْكَ الْفَيْقَةَ الطَّاغِيَةَ
وَإِنْ تَجِدُ مِنْ بَيْنِهَا سَاعَةً جَعَبْتُهَا مِنْ غُصَصٍ خَالِيَةٍ

(١) هذا معنى العبارة التي سمعناها من حطبة أنطون الجميل، وقد ضاق الوقت عن مراجعته الأصل،
وأحشى أن أكون لوب العبارة بعض التلون.

فَالَهُ بِهَا لَهَوَ الْحَكِيمِ الَّذِي
وَأَمْرُ كَمَا يَمْرُحُ ذُو نَشْوَةٍ
فَهِيَ وَإِنْ بَشَتْ وَإِنْ دَاعَبَتْ
عِنَاقَهَا خَنْقٌ وَتَقْبِيلُهَا
هَذَا هُوَ الْعَيْشُ فَقُلْ لِلَّذِي
بَا شَاكِي السَّاعَاتِ إِسْمَعْ عَسَى
لَمْ يَخِلْ قَلْبُهُ مِنْ سُوءِ ظَنِّ النَّاسِ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَصِيدَةُ (الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ)
إِذْ يَقُولُ :

غَاضَ مَاءُ الْحَيَاءِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ
وَتَفَشَّى الْعُقُوقُ فِي النَّاسِ حَتَّى
أَوْجُهُ مِثْلَمَا نَثَرَتْ عَلَى الْأَجْدَا
وَشِفَاهُ يَقْلَنْ أَهْلًا وَلَوْ أُدْبِنَ
عَمْرَكَ اللَّهُ هَلْ سَلَامٌ وَدَادِ
وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ يَقُولُ :

تَعَبَ الْفَيْلَسُوفُ فِي النَّاسِ عَصْرًا
وَالْوَرَى طَارِدُ إِزَاءِ طَرِيدِ
وَجُيُوشُ يَقْلُ مِنْ بَعْضِهَا الْبُعْدُ
حَاذِرِي يَا ذُنَابُ صَوْلَةَ أُسْدِ
لَا تَنَامِي يَا أُسْدُ إِنَّ ذُنَابًا
عَبَرَ كُلُّهَا اللَّيَالِي وَلَكِنْ
وَمَا أَحَبُّ أَنْ يَفُوتَنِي إِثْبَاتُ هَذِهِ الْآيَاتِ :

يَاسْرَحَةً بِجَوَارِ الْمَاءِ نَاضِرَةً
عَارَ عَلَيْكَ وَهَذَا الظِّلُّ مَتَشِيرٌ
فَمَنْ مُعِيرِي جَنَاحِي طَائِرٍ غَرْدِ
فَلَا أَنْفُرْ عَنْ أَرْضٍ غَرَسَتْ بِهَا
سَقَاكِ دَمْعِي إِنْ لَمْ يُوفِ سَاقِيكِ
فَنُكُ الْهَجِيرِ بِمِثْلِي فِي نَوَاجِحِي
كَيْ أَقْطَعَ الْعُمَرَ شَدَوًا فِي أَعَالِيكِ
وَلَا يَرِنْ بِسَمْعِي غَيْرُ وَادِيكِ

وانما أكثرنا من الشواهد لأن شعر صبري لم يُجْمَع في ديوان، فأحببنا أن يطلع على فرائده قراء هذا الكتاب، وقد حاول الأدباء غير مرة أن يجمعوا شعره ثم صرفتهم الشواغل عما يريدون، وكان صبري نفسه قليل الاهتمام بتدوين شعره وكان يسأل عن ذلك، فيجيب : وهبته للنفاء !

— ٢ —

أما مطران فهو شاعر مبدع، وهو من المكثرين، وله وثبات لا ينهض بها إلا الفحول، وشعره مدوّن نشرت منه المجموعة الأولى باسم — ديوان الخليل — ويتنظر أن يُجْمَع شعره كله في عدة أجزاء، وقد عرفنا مطران وصحبناه، وهو تحفة من تحف الذوق والوفاء، وله في النثر أسلوب مضمّخ بالنفخات الشعرية، وهو رجل خصب الذهن، مثقف العقل، مرهف الإحساس. ومن خصائص مطران التلطف والترفق، فليس له في مصر عدوّ واحد، على قلة ما يتفق ذلك لأهل الأدب والبيان، وكان الناس يسمونه شاعر القطرين، فلما مات شوقي سمّوه شاعر الأقطار العربية، مع أنه من أزهد الناس في الألقاب.

وقد تولى رئاسة جمعية أبوللو في مصر بعد شوقي، وهي جمعية شعرية أثرت أبلغ تأثير في الشعر الحديث، ومن أقطاب هذه الجمعية الدكتور أحمد زكي أبو شادي والدكتور إبراهيم ناجي، وهما من أكثر الناس تغنيًا بالشعر بين أدباء هذا الجيل.

— ٣ —

نونية صبري

فرعون وقومه :

لَا الْقَوْمُ قَوْمِي وَلَا الْأَعْوَانُ أَعْوَانِي إِذَا وَنَى يَوْمَ تَحْصِيلِ الْعَلَا وَإِنِّي
وَلَسْتُ إِنْ لَمْ تُؤَيِّدْنِي فَرَاغَةً مِنْكُمْ بِفِرْعَوْنَ عَالِي الْعَرْشِ وَالشَّانِ

لَا تَقْرَبُوا النَّيْلَ إِنْ لَمْ تَعْمَلُوا عَمَلًا
رِدُّوا الْمَجْرَةَ كَذًّا دُونَ مَوْرِدِهِ
وَأَبْنُوا كَمَا بَنَتِ الْأَجْيَالُ قَبْلَكُمْ
أَمَرْتُكُمْ فَأَطِيعُوا أَمْرَ رَبِّكُمْ
فَالْمُلْكُ أَمْرٌ وَطَاعَاتٌ تُسَابِقُهُ
لَا تَتْرُكُوا مُسْتَحِيلًا فِي آسِنَحَالَتِهِ
فَمَاؤُهُ الْعَذْبُ لَمْ يُخْلَقْ لِكَسَلَانٍ
أَوْ فَاطِلُوهَا غَيْرُهُ رِيًّا لِيْظْمَانٍ
لَا تَتْرُكُوا بَعْدَكُمْ فَخْرًا لِلْإِنْسَانِ
لَا يَتَّخِذُ مَسْتَمِعًا عَنْ طَاعَةٍ ثَانِي
جَنِبًا لِيْجَنِبَ إِلَى غَايَاتِ إِحْسَانٍ
حَتَّى يُمِيطَ لَكُمْ عَنْ وَجْهِهِ إِمْكَانٍ

* * *

مَقَالَةٌ هَوَتْ مِنْ عَرْشِ قَائِلِهَا
مَادَتْ لَهَا الْأَرْضُ مِنْ دُغْرِ وَدَانِ لَهَا
لَوْ غَيْرُ فِرْعَوْنَ أَلْقَاهَا عَلَى مَلَأٍ
لَكِنْ فِرْعَوْنَ إِنْ نَادَى بِهَا جَبَلًا
وَأَزْرَتْهُ جَمَاهِيرُ تَسِيلُ بِهَا
يَبْنُونَ مَا تَقِفُ الْأَجْيَالُ حَائِرَةً
مِنْ كُلِّ مَا لَمْ يَلِدْ فِكْرًا وَلَا فُتِحَتْ
وَيُشَبِّهُونَ إِذَا طَارُوا إِلَى عَمَلٍ
بِرًّا بِذِي الْأَمْرِ لَا خَوْفًا وَلَا طَمَعًا
عَلَى مُنَاكِبِ أَبْطَالٍ وَشُجْعَانٍ
مَا فِي الْمُقَطَّمِ مِنْ صَخَرٍ وَصَوَانٍ
فِي غَيْرِ مِصْرٍ لَعُدَّتْ حُلُمٌ يَقْطُرَانِ
لَبَّتْ حِجَارَتُهُ فِي قَبْضَةِ الْبَانِي
بَطَاحُ وَادٍ بِمَاضِي الْقَوْمِ مَلَانٍ
أَمَامَهُ بَيْنَ إِعْجَابٍ وَإِذْعَانٍ
عَلَى نَظَائِرِهِ فِي الْكُونِ عَيْنَانِ
جَنَّا تَطِيرُ بِأَمْرِ مِنْ سُلَيْمَانٍ
لَكِنَّهُمْ خَلَقُوا طُلَابَ إِتْقَانٍ

* * *

أَهْرَامُهُمْ تِلْكَ، حَيَّ الْفَنِّ مُتَّخِذًا
قَدْ مَرَّ دَهْرٌ عَلَيْهَا وَهِيَ سَاخِرَةٌ
لَمْ يَأْخُذِ اللَّيْلُ مِنْهَا وَالنَّهَارُ سِوَى
كَانَهَا — وَالْعَوَادِي فِي جَوَانِبِهَا
جَاءَتْ إِلَيْهَا وَفُودُ الْأَرْضِ قَاطِبَةً
فَصَعَّرَتْ كُلَّ مَوْجُودٍ صَخَامَتَهَا
وَعَادَ مُنْكَرُ فَضْلِ الْقَوْمِ مُعْتَرِفًا
مِنْ الصُّخُورِ بُرُوجًا فَوْقَ كَيَوَانٍ
بِمَا يُصْعَقُ مِنْ صَرْحٍ وَإِيَوَانٍ
مَا يَأْخُذُ النَّملُ مِنْ أَرْكَانِ ثَهْلَانٍ^(١)
صَرَغَى — بَنَاءُ شَيَاطِينٍ لَشَيْطَانٍ
تَسْعَى أَشْتِيَاقًا إِلَى مَا خَلَدَ الْفَانِي
وَعَظُّ بُنْيَانِهَا مِنْ كُلِّ بُنْيَانٍ
يُثْنِي عَلَى الْقَوْمِ فِي سِرٍّ وَإِعْلَانٍ

(١) ثهلان : اسم جبل.

تِلْكَ الْهَيَاكِلُ فِي الْأَمْصَارِ شَاهِدَةٌ
وَأَنْ فِرْعَوْنَ فِي حَوْلٍ وَمَقْدَرِهِ
إِذَا أَقَامَ عَلَيْهِمْ شَاهِدًا حَجَرٌ
كَانَمَا هِيَ وَالْأَقْوَامُ خَاشِعَةٌ
تَسْتَقْبِلُ الْعَيْنَ فِي اثْنَائِهَا صُورٌ
لَوْ أَنَّهَا أُعْطِيَتْ صَوْتًا لَكَانَ لَهُ
بَانَهُمْ أَهْلُ سَبْقٍ أَهْلُ إِمْعَانٍ
وَقَوْمَ فِرْعَوْنَ فِي الْإِقْدَامِ كُنُفَوَانٍ
فِي هَيْكَلٍ قَامَتِ الْأُخْرَى بِرُهَايِ
أَمَامَهَا صُحُفٌ مِنْ عَالَمٍ ثَانِي
فَصِيحَةُ الرَّمْزِ ذَارَتْ حَوْلَ جُذُرَانٍ
صَدَى يُرْوَعُ صَمِّ الْإِنْسِ وَالْجَانِ

أَيْنَ الْأَلَى سَجَلُوا فِي الصَّخْرِ سِيرَتَهُمْ
بَادُوا وَبَادَتْ عَلَى آثَارِهِمْ دُولٌ
وَحَلَفُوا بَعْدَهُمْ حَرْبًا مُخَلَّدَةٌ
وَزُحْزِحُوا عَنْ بَقَايَا مَجْدِهِمْ وَسَطًا
وَيْلٌ لَهُ هَتَكَ الْأَسْتَارَ مُفْتَحِمًا
لِلْجَهْلِ أَرْجَحُ مِنْهُ فِي جَهَالَتِهِ
وَصَعَرُوا كُلَّ ذِي مُلْكٍ وَسُلْطَانٍ
وَأَذْرَجُوا طَيَّيْ أَخْبَارٍ وَأَكْفَانٍ
فِي الْكَوْنِ مَا بَيْنَ أَحْجَارٍ وَأَرْمَانٍ
عَلَيْهِمُ الْعِلْمُ ذَاكَ الْجَاهِلُ الْجَانِي
جَلَالُ أَكْرَمِ آثَارٍ وَأَعْيَانٍ
إِذَا هُمَا زُزْنَا يَوْمًا بِمِيزَانٍ

— ٤ —

نونية مطران

قال، وقد رأى تمثال رمسيس الثاني في الأقصر:
أَكْبَرُ بِرَمْسِيَسٍ مَيِّنًا لَا يُلَمُّ بِهِ
لَوْلَا تَمَائِيلُهُ الْأُخْرَى مُحْطَمَةٌ
فِي مِصْرَ عَزَّ فَرَاعِينَ فَمَا بَلَعُوا
وَلَمْ يَنْمَ لَهَا فِي غَيْرِ مُدَّتِهِ
تَحْيِيرُ الْخُطَّةِ الْمُثْلَى لَهُ وَلَهَا
مَا زَالَ بِالْقَوْمِ حَتَّى صَارَ بَيْنَهُمُو
وَرَبِّ سَائِمَةٍ بَلْهَاءَ هَائِمَةٍ
مَوْتُ وَأَكْبَرُ بِهِ حَيًّا إِلَى الْآنِ
مَا جَالَ فِي ظَنِّ فَانٍ أَنَّهُ فَانِي
بِهَا مَبَالَعُهُ مِنْ رِفْعَةِ السَّانِ
مَا نَمَّ مِنْ فَضْلِ إِثْرَاءٍ وَعُمْرَانِ
بَعْلُو فَعْلُو بِهِ وَالْخَفْضُ لِلشَّايِ^(١)
إِلَهَ جُنْدٍ تُحَايِيهِ وَكُفَّانِ
تَشْقَى وَتَهْوَاهُ فِي سِرٍّ وَإِعْلَانِ

(١) النسائي: هو المبعوض، وفي القرآن «إن شأنتك هو الأسر».

يُسُومُهَا كُلَّ خَسْفٍ وَهِيَ صَابِرَةٌ
إِنْ بَاتَ فِي حُجُبٍ بَاءَتْ إِلَى نُصْبٍ
فَبَجَلَتْ تَحْتَ تَاجِ الْمَلِكِ مُدْمِيَةً
مُخْلِدًا دُونَ مَنْ قَامُوا بِرِفْعَتِهِ
مُخَالِسًا ذِمَّةَ الْعُلَيَاءِ مُضْطَجِعًا
بِحَيْثُ آبٍ وَكُلِّ الْفَخْرِ حِصْنُهُ
كَمْ رَاحَ جَمْعٌ فِدَى فَرْدٍ وَكَمْ بَذَلَتْ

لَا صَبْرَ عَقْلٍ وَلَكِنْ صَبْرَ إِيْمَانٍ
يَلُوحُ مِنْهُ لَهَا مَعْبُودُهَا الْجَانِي
وَقَبَّلَتْ دَمَهَا فِي الْمَرْمَرِ الْقَانِي
مَنْ شُوسَ حَرْبٍ وَصُنَاعٍ وَأَعْوَانٍ^(١)
مِنْ مَهْدٍ عَصَمَتْهَا فِي مَضْجَعِ الزَّانِي
وَلَمْ يَتُوبْ غَيْرُهُ إِلَّا بِحَرْمَانٍ
فِي مُسْتَرَى سَيِّدِ أَرْوَاحِ عُبدَانِ

* * *

كَلَّا وَعَزَّتْهُ فِيمَا طَعَى وَبَعَى
هُمْ الَّذِينَ عَلَى عُسْرِ بِمَطْلَبِهِ
وَهُمْ عَلَى سَفَهٍ دَانُوا بِمَنْ نَصَبُوا
فِيمَ الْأَلَى صَنَعُوا أَنْصَابُهُ دَرَسَتْ
وَمَالِ أَسْمَائِهِمْ دُونَ اسْمِهِ دَفَنْتِ
لَيْتَ الْبِلَادَ الَّتِي أَخْلَاقُهَا رَسَبَتْ
النَّارُ أَسْوَعُ وَرَدًا فِي مَجَالٍ عَلَا
أَكْرَمَ بِذِي طَمَعٍ فِي جَنْبٍ مَطْمَعِهِ
يَهْبُ فِيهِمْ كَأَعْصَارٍ فَيَنْقُلُهُمْ
بَعْضُ الطُّعَاةِ إِذَا جَلَّتْ إِسَاءَتُهُ
فِي كُلِّ مَفْخَرَةٍ تَسْمُو الشُّعُوبُ بِهَا
كَمْ فِي سَنَا الْكَوْكَبِ الْوَهَّاجِ مَهْلِكَةٌ
لَمْ تَرَقْ فِي حِقْبَةٍ مِصْرٌ كَمَا رَقِيَتْ
لَمَّا رَمَتْ كُلُّ نَائِي الشُّوْطِ مَمْتَنِعٍ
أَلَا تَرَى فِي بَقَايَا الصَّرْحِ كَيْفَ مَضَوْا
وَكَيْفَ عَادُوا وَرَمَسِيْسٌ مُقَدَّمُهُمْ

وَذَلٌّ مِنْ قَبْلِ الضَّيْزَى بِإِدْعَانٍ
قَدْ أَسْعَفُوهُ بِأَمْوَالٍ وَفَتْيَانٍ
فَخَوَّلُوهُ مَدِينًا حَقَّ ذِيَانٍ
رُسُومُهُمْ مُنْذُ مَاتُوا رَهْنَ أَكْفَانٍ
شُعْنًا مُنْكَرَةً فِي رَمْسٍ كَتْمَانٍ
يَعْلُو بِأَخْلَاقِهَا تَيَّارُ طُعْيَانٍ
مِنْ بَارِدِ الْعَيْشِ فِي أَفْبَاءِ فَيَّانٍ
يَنْجُو الْأَذِلَّةُ مِنْ خَسْفٍ وَخُسْرَانٍ
مِنْ خَفْضِ عَيْشٍ إِلَى هَيْجَاءِ مِيدَانٍ
فَقَدْ يَكُونُ بِهِ نَفْعٌ لِأَوْطَانٍ
تَفْنَى جُمُوعٌ مُفَادَاةً لِأُحْدَانٍ
فِي كُلِّ لَمَحٍ لِأَضْوَاءِ وَالْوَانِ
فِي عَصْرِهِ بَيْنَ أَمْصَارٍ وَبُلْدَانِ
بِسَابِقِينَ إِلَى الْعَايَاتِ شُجْعَانِ
بِأُوجِهِ بَادِيَاتِ الْبِشْرِ غُرَّانِ
إِلَى الرُّبُوعِ بِأَوْسَاقٍ وَعِلْمَانِ

(١) الشوس : جمع أسوس، وهو المنكر

البحث التاسع والعشرون

الموازنة بين النوليتين

ولاني لأرجو القارئ أن ينظر في هاتين القصيدتين مرة ومرة، أو مرات قبل أن ينظر فيما نكتب، فما نريد بالموازنة إلا تشويقه إلى المتعة بتلك الآيات الغزوات، وأنا قد نظرت في هاتين القصيدتين وأطلت النظر، وعجبت كيف غفل الناس عن هاتين السورتين من سور الشعر الرفيع، وفي الشعر قرآن وإنجيل.

تفرد صبري بالحديث عن وصية فرعون، أو ما سماه مقالة فرعون، ويا لها من مقالة تصدع الصخر، وتنبت الحماسة في صدور الأموات، وقد مثل الرجل هول المجد، وعظمة النيل، حين قال :

لَا تَقْرُبُوا النَّيْلَ إِنْ لَمْ تَعْمَلُوا عَمَلًا فَمَاؤُهُ الْعَذْبُ لَمْ يُخْلَقْ لِكَسَلٍ
رَدُّوا الْمَجْرَةَ كَدًّا دُونَ مَوْرِدِهِ أَوْ فَاطَلُوا غَيْرَهُ رِيًّا لِظْمَانٍ

وبذلك دلنا صبري على أن المجد في مصر لا يُتاح لأهل الكسل والخمود، ولكن أي مجد؟ إن صبري لم يكن يتمثل المجد المزيف الذي يرتدي أثوابه الوارثون، لم يكن صبري يرى المجد فيما يتمتع به العَجْزة الضعاف الذين يمرحون ويلعبون بفضل ما ترك آباؤهم وأمهاتهم من المال الموروث، وإنما كان يتصور المجد فيما يظفر به العصاميون الذين لا يذوقون لذة العيش إلا بعرق الجبين، أولئك هم الرجال الذين عناهم صبري، وبأمثالهم تزدهر الدنيا في المشرق والمغرب، ومن

جهودهم تنبع العلوم والآداب والفنون، أما الهانئون الناعمون يأكلون ما كسبته أيدي آبائهم وأمهاتهم فليسوا جنود فرعون، وليسوا من أهل وادي النيل، لو تركت أرض مصر لأولئك الذين لا يعرفون غير ألوان الطعام، وخسائس اللذات لما قام فيها أثر خالد، ولا نذوقت طعم الفوز في دنيا لا يظفر بنعمائها غير أقطاب الجدد الساهر والعمل الموصول.

انظر أيها القارئ في هذين البيتين، وتأمل ما أوصى به فرعون، واسأل نفسك قبل أن تقرب الكأس : أكان حقيقها مما صنعت يدك أم كان مما سكب سواك ؟ تأمل قبل أن تذوق طعامك : أساقته إليك يدك الصنّاع أم كنت ضيفاً على مائدة غيرك ؟ وانظر في ثيابك : أكانت خيوطها من خيوط الليل الذي أسهرت جفنيه في العمل الشريف، أم كانت خيوطاً مصنوعة من الرجس الذي اقترفته بالتزلف والتلق والنفاق ؟

قد تقول : إن صبري لم يقصد إلى كل هذه المعاني. ومن يُدريك ؟ إن وصية فرعون تحتل كل ذلك، وشرعية الحياة نفسها تفرض على الرجل أن يكون له وجود ذاتي تتكوّن عناصره من الكدح في سبيل المجد، وسبيل المعاش.

ثم ماذا ؟ ثم يبيّن صبري أساس السياسة : سياسة الملك والعمران، حين قال على لسان فرعون :

أَمَرْتُكُمْ فَأَطِيعُوا أَمَرَ رَبِّكُمْو لا يَثْنِ مُسْتَمِعاً عَنْ طَاعَةٍ تَأْتِي
فَالْمُلْكَ أَمَرَ وَطَاعَاتٌ تُسَابِقُهُ جَنباً لِحُجْبٍ إِلَى غَايَاتِ إِحْسَانِ

اسمعوا هذا : « الملك أمر وطاعات » وهل كان الملك غير ذاك ؟ هل كانت دنيا المجد إلا صورة من الأمر الرشيد والطاعة العينية، ولا أقول العمياء.

إن الأمر الرشيد هو صورة العقل، والطاعة العينية هي صورة التنفيذ، والملوك الموفقون طاعتهم رشداً وعصيانهم ضلالاً، وكان فرعون رباً، وكانت رعيته عبداً، كان ربا حكيماً، وكانوا عبداً مخلصين، وقد رأيت ما صنعت الحكمة وما صنع الإخلاص.

لقد تخيرت وصف الطاعة فجعلتها عيناء، ولم أجعلها عمباء، أنعرفون لماذا ؟
لأن الشاعر جعل المصرين أبطالاً شجعاناً يُقدمون في طاعتهم إقدام الأبرار حين
قال :

مَقَالَةٌ قَدْ هَوَتْ مِنْ عَرْسٍ قَائِلِهَا عَلَى مَسَاكِبِ أَهْطَالٍ وَشُجْعَانِ
مَادَتْ لَهَا الْأَرْضُ مِنْ دُغْرٍ وَدَانِ لَهَا مَا فِي الْمُقْطَعِ مِنْ صَخْرٍ وَصَوَانِ
لَوْ غَيْرُ فِرْعَوْنَ أَلْقَاهَا عَلَى مَلَأٍ فِي غَيْرِ مَصْرٍ لَعَدَّتْ حُلُمَ يَقْظَانِ
لَكِنَّ فِرْعَوْنَ إِنْ نَادَى بِهَا جَبَلًا لَبَّتْ جِجَارَتُهُ فِي قُبْضَةِ الْبَانِي
وَأَزْرَتْهُ جَمَاهِيرُ تَسِيلٍ بِهَا بِطَاحٍ وَادٍ بِمَاضِي الْقَوْمِ مَلَانِ
بَيْنُونَ مَا تَقِفُ الْأَجْيَالُ حَائِرَةً أَمَامَهُ يَبْنِ إِعْجَابٍ وَإِذْعَانِ
مِنْ كُلِّ مَا لَمْ يَلِدْ فِكْرٌ وَلَا فُتِحَتْ عَلَى نَظَائِرِهِ فِي الْكُونِ عَيْنَانِ
وَيُشَبِّهُونَ إِذَا طَارُوا إِلَى عَمَلٍ جَنًّا بِطَيْرٍ بِأَمْرِ مَنْ سُلَيْمَانِ
بِرًّا بِذِي الْأَمْرِ لَا خَوْفًا وَلَا طَمَعًا لَكُنْتَهُمْ خَلَقُوا طُلَابَ إِنْتِقَانِ

وهذه القطعة تصوّر انسجام الأهواء بين فرعون وقوم فرعون : فهو ربّ يأمر
بالرشد، وهم عباد مخلصون « لا بطيعون خوفا ولا طمعا، وإنما يقبلون على الجحد
لأنهم خُلِقُوا طُلَابَ إِنْتِقَانِ » وفي هذا المعنى سر عظيم، فالجحد لا ينهض به الملوك
وحدهم، وإنما الجحد صنيعه الأبرار بين الشعوب، والملك نفسه من روح شعبه،
هو الجذوة التي نجد فيها نفس أصول اللهب المكبوت، ولو قام سيّ بن الأموات
وصرخ لما استجاب له مجيب، وإنما يفلح المصلحون حين يتوجهون إلى نفوس
خيرة كمن فيها البر كما تكمن النار في الصخرة الصماء، والمصريون لعهد الفراعين
كانوا « طُلَابَ، إِنْتِقَانِ » وكانوا يعشقون التجويد فيما يصنعون، وكانت أيديهم
مفطورة على المهارة، وأنفسهم مجبولة على الصبر الجميل، وعزائمهم مقدودة من
الصوان، وكانت إرادة الملوك مظهرًا من إرادتهم الذاتية، فكان خضوعهم خضوع
الأشراف لا خضوع العبيد. ومن ذا الذي يسمح له كرم الدوف، وشرف العقل،
أن يحكم بأن فصر الكرنك لم يكن إلا مشبّهة رحل فرد ! إن في حرائب ذلك
القصر بقايا من شواهد العبقريّة تنطق بأن الذنب نولوا هندسته وباءه كانوا
مأخوذين بسلطان غير سلطان الملك هو سلطان الفن وسلطان الجمال.

لقد زرت عشرات القصور في فرنسا فوجدتها جميعاً دون قصر الكرنك، إن قصر الكرنك وهو خرائب وأطلال لأعظم وأروع من قصر فرساي، وطريق الأسود في الكرنك يشهد بأن المصريين لعهد الفراعين كانوا أئمة الدنيا في نصور الانسجام بين الجمال والجلال.

من أجل ذلك نعتب على مطران أشد العتب لأنه جعل المصريين لعهد رمسيس عبيداً مسخرين يؤمرون فيأثمرون، وماذا قال مطران ! إنه جعل رمسيس كل شيء حين قال :

مَا زَالَ بِالْقَوْمِ حَتَّى صَارَ بَيْنَهُمُو	إِلَهَ جُنْدٍ تُحَايِيهِ وَكُهُبَانِ
وَرَبِّ سَائِمَةٍ بَلْهَاءَ هَائِمَةٍ	تَشْقَى وَتَهَوَّاهُ فِي سِرٍّ وَإِعْلَانِ
يَسُومُهَا كُلَّ خَسْفٍ وَهِيَ صَابِرَةٌ	لَا صَبْرَ عَقْلٍ وَلَكِنْ صَبْرَ إِيْمَانٍ
إِنْ بَاتَ فِي حُجُبٍ بَاءَتْ إِلَى نُصْبٍ	يُلُوحُ مِنْهُ لَهَا مَعْبُودُهَا الْجَانِي
فَبَجَلَتْ تَحْتَ تَاجِ الْمُلْكِ مُدْمِيَهَا	وَقَبَلَتْ دَمَهَا فِي الْمَرْمَرِ الْقَانِي
مُخَلِّدًا دُونَ مَنْ قَامُوا بِرِفْعَتِهِ	مِنْ شَوْسِ حَرْبٍ وَصُنَاعٍ وَأَعْوَانِ
مُخَالِسًا ذِمَّةَ الْعَلِيَاءِ مُضْطَجِعًا	مِنْ مَهْدٍ عَصَمَتِهَا فِي مَضْجَعِ الزَّانِي
بِحَيْثُ آبٍ وَكُلُّ الْفَخْرِ حَصْنُهُ	وَلَمْ يَوُثَّ غَيْرُهُ إِلَّا بِحِرْمَانِ
كَمْ رَاحَ جَمْعٌ فِدَى فَرْدٍ وَكَمْ بِذَلِكَ	فِي مُشْتَرَى سَيِّدٍ أَرْوَاحُ عُبْدَانِ

وهذه القطعة من الشعر الرائع الرصين، ولكن أين المنطق ؟ إن مطران يحكم بأن الرعية كانت تشقى في سبيل رمسيس، ويحكم بأنها كانت على شقائها تهواه في السر والعلانية، ويحكم بأنه كان يسومها الخسف. وأنها كانت تصبر صبر المؤمنين، لا صبر العقلاء. ونحن أيها الشاعر نسألك كيف تهوى الرعية مليكها في السر والعلانية، وهو ظالم ! كيف تهواه وهي تعرف أنه يسومها الخسف والضميم والذل ؟ كنت تستطيع أيها الشاعر أن تتخير كلمة غير الهوى، كنت تستطيع أن تقول إنها كانت تخضع أو كانت تطيع، فالخضوع قد يكون عن ضعف، والطاعة قد تكون عن عجز، أما الهوى فلن يكون إلا عن بينه من نور القلوب.

إن مطران يصوّر الأمة بأنها كانت تعبد رمسيس، وأنها كانت تتمثل شخصه المحبوب في الهياكل والتماثيل، فكيف يصح أن نتصور أنها كانت ترى فيه وجه الظالم المعبود، وهل بُعِدَ الظالمون ؟ كل شيء يُقبل إلا هذا، فالظالم لا يُعبد إلا حين يتمثل فيه العابدون ملاح جذابة تجعل ظلمه حلو المذاق.. إنك لَشاعرٌ حين تقول :

فَبَجَلْتُ تَحْتَ تَاجِ الْمُلْكِ مُدْمِيَهَا وَقَبَلْتُ دَمَهَا فِي الْمَرْمَرِ الْقَانِي
ولكن أين المنطق ؟ إن الفراش يحترق، وهو يغازل النور، ولكنه يعيش النور عشقا يهون عليه قسوة الاحتراق، فمن أين علمت أن رعيه فرعون لم تكن ترى في فرعون غير جبار غشوم ؟ لعلها عرفت فيه معاني فاتنة غابت عنك، وقد جئت تغمره بعد أن طمرت أمجاده رمال السنين الطوال، وللسنين رمال، وفيها زوابع وأعاصير، رمال من النسيان، وزوابع من العقوق.

إن تمثال رمسيس الثاني لم يصنعه صانعه وهم غافلون عما يصنعون، لا بد أن يكون لصاحب التمثال صورة مشرفة في أنفس من تعبوا في نخته وتذوقوا في سبيل روعته طعم الضجر والعناء، وللنعب طعم معسول في أذواق من يعرفون ما يصنعون^(١).

ثم ماذا ؟ ثم يحكم مطران بأن رمسيس استبدّ بالمجد، واستبدّ بالخلود، فلم يعرف أحد أسماء من نحتوا التمثال.

رويدك أيها الشاعر، ومن يدريك أن من صنعوا تمثال رمسيس لم يكن لهم في زمانهم وجود ملحوظ ؟ وكيف غاب عنك أن تلك سُنَّةٌ طبيعية لم تنفرد بها مصر ولم تقصُر على رمسيس ؟ أين أسماء من أقاموا قصر الحمراء ؟ وأين أسماء من أقاموا القصور الشاهخات في الأقطار الفرنسية والانجليزية والجرمانية ؟ قد تذكر

(١) من ملاحظات الأستاذ محمد مسعود أن رمسيس الثاني كان اتخذ الأضر فاعدة الملك، ومع ذلك وحدت تماثله في جهات مختلفة من المدائن المصرية، وهذا يدل على أنه كان محبوباً جداً من الأهلين.

أسماء بعض المهندسين، ولكن انتظر حتى يمرّ على تلك المعالم ما مرّ على تمثال رمسيس، انتظر ألفين أو ثلاثة آلاف سنة، ثم اسأل عن اسم نابليون نفسه، فإن وجدت من يعرفه فعندي لك نسخة مذهبة من ديوان مطران !

إنك تقذف رمسيس بهذا البيت، وهو من وحي شيطانك الرجيم :
مُخَالِسًا ذِمَّةَ الْعَلِيَاءِ مُضْطَجِعًا مِنْ مَهْدِ عَصَمَتِهَا فِي مَضْجَعِ الزَّانِي

فما هذا الدنس في التصوير ؟ وما هذا الرجس في التمثيل ؟
أيجوز في ذهنك أن ينال الملوك من شعوبهم منازل الخلد بفضل الاختلاس ؟
إن الشعب الغافل لا يصل إلى شيء، وقد وصل المصريون في عهد رمسيس إلى أشياء : كانوا لعهد من الغزاة الفاتحين، وكانوا لعهد أقدر أهل زمانهم على البصر بالفنون، فلك أن تتصور إلى أي غاية من غايات الفنوة العقلية وصلت نفس ذلك الجبار العملاق. وأنت نفسك تقول :

فِي مِصْرَ عَزَّ قَرَاعِينَ فَمَا بَلَّغُوا بِهَا مَبَالِغَهُ مِنْ رَفْعَةِ الشَّانِ
وَلَمْ يَتِمَّ لَهَا فِي غَيْرِ مَدَّتِهِ مَا تَمَّ مِنْ فَضْلِ إِنْزَاءِ وَعُمَرَانِ
أتراه كان يحرق الأرض بيديه ؟ أتراه كان يقيم القلاع والحصون بلا مساعد ولا معين ؟.

إن ما تم في مدته كان بفضل إخلاص الرعية، وهل نخلص الرعية لجبار مُسْتَبِد غَشُوم ؟.

إن هناك قوانين نفسية تصل بين الحاكمين والمحكومين، قوانين من تجارب المشارب والأرواح، قوانين من أنس القلوب بالقلوب، وقرب العقول من العقول، ولا بدّ أن يكون رمسيس الثاني ظفر في زمانه بَقَبَسٍ من الجاذبية الروحية والعقلية استطاع بها وهو فردّ أن يسوف المصريين إلى ميادين المجد فاندفعوا يتصايحون فرحين وهم ألوف الألوف.

إن الذي يزور وادي الملوك في الأقصر، أو يزور وادي اللوار في فرنسا يقول « كانت هنا أمة » قبل أن يقول « كان هنا ملك » ولكن قضت سنة الخلود أن

يكون في كل أرضٍ جُنْدِيٍّ مجهول، والجنود المجهولون لبسوا في عُرْفِ المجد بنكرات، فكل حجر أقيم هو الخلود لتلك السواعد التي أفلته من مكان إلى مكان، وكل نقش خُلِدَ يحمل اسم الفَتَانِ الذي تعب فيه، وإن لم تشهد بذلك رسوم، ولا حروف، وسيأتي زمان تنكشف فيه الحقائق وترى القلوب ما لا يرى العيون، وقد سَبَقْنَا نحن فرأينا بعين البصيرة خلود الصانعين ممثلاً في خلود التماثيل.

من الحق أبها الشاعر أن رمسيس ظفر بالسمعة الباقية، ولكن في أي آذان؟ في آذان من يقرؤون ولا يفقهون، أما الأمانة التي خلدت رمسيس فهي باقية في ذمة الصم الخوالد من أحجار الكرنك، على أيامه السلام.

وما هذا الظلم الذي تفتخر أيها الشاعر، وأنت تتمثل ذلك الفرعون وهو في مضجع الداعرين؟

أنت تقول إنه سَخَّرَ الشعب، وهل تعرف كيف تُسَخَّرُ الشعوب؟ لقد أضجرتك سياسة (الفرقة القومية) وهم جماعة من الممثلين يُعدون على أصابع اليدين، وإن زادوا فهم يُعدون على أصابع اليدين والرجلين، فكيف تنتظر أن يُسَخَّرَ رمسيس أمة كاملة ويسوقها إلى تصارييف الحرب، وإلى تكاليف السلم؟ أيفعل ذلك وهو يَتَمَطَّى وَيَتَنَاقَب تحت أشجار الجميز؟ أم بفعل ذلك وهو عقلٌ يُفكر، ورأيٌ يُدبر، ولسانٌ يُبين؟

إن الرجل قد يعجز عن إقرار النظام في بيته، وفيه خمس أنفس، والمدرس قد يعجز عن إقرار النظام في درسه وليس تحت بصره غير عشرة تلاميذ، فمن عسى أن يكون الملك الذي يقيم قواعد النظام في أمة تُعد بالملايين، ولكل قلب سهوات ولكل رأس نزوات، وبين الرؤساء والقواد ضغائن وحقوق! إن الملك الذي يجمع طوائف شعبه على رأي واحد هو رَجُلٌ سَخَّارٌ خُلِقَتْ إرادته من كل قلب، فسيطر على كل نفس، ووضع على عصره بدأ من حديد، وكذلك كان رمسيس الذي غَمَزَتْهُ في شعرك غَمْرَةٌ لا رفق فيها ولا إشفاف.

ولكن كبف اتفق لطران أن يتحامل على رمسيس بلا سبب مبين؟

لقد فكرت في ذلك طويلاً، ثم بدا لي أن أرجع إلى الظرف الذي نظم فيه هذه القصيدة العصماء، فوجدت الدكتور محمد صبري يذكر أن مطران كان زار أهرام سقارة ثم أرسل إلى الأسناذ محمد أبياتاً لينشرها بالمؤيد، وأبيات مطران هي أصل ما في النونية، وفيها يقول عن فرعون :

شَادَ فَأُغْلِيَ وَبَنَى فَوَاطِدَا لَا لِلْعُلَا وَلَا لَهُ بَلْ لِلْعِدَا
مُسْتَعْبِدَا أُمَّتُهُ فِي يَوْمِهِ مُسْتَعْبِدَا بَيْنِهِ لِلْعَادِي غَدَا

وفيها يقول عن العمال الذين بنوا الأهرام :

إِنِّي أَرَى عَدَّ الرِّمَالِ هَا هُنَا خَلَاثِقَا تَكْثُرُ أَنْ تُعَدَّذَا
مُحْتَمِعِينَ أَبْحَرَا مُنْفَرِعِينَ نَ أَنْهَرَا مُنْخَدِرِينَ صُعَدَا
صَفَرَ الْوُجُوهِ نَادِيَا جَبَاهُهُمْ كَالْكَلِ الْيَاسِ يَعْلوهُ النَّدَى
أَكَلْ هَذَا الْآنْفُسِ الْهَلَكَى غَدَا تَبْنِي لِفَانٍ جَدَثَا مُخْلَدَا

وهذا من الشعر الحق، والشاعر تمثّل نفسه وافقاً بنظر العمال وهم يبسون الأهرام، وكانت هذه القصيدة هي الباعث الذي حداً لإسماعيل صبري على نظم نونيته الشماء.

ولكن متى زار مطران أهرام سقارة ؟ لقد اتصلت بالأستاذ مسعود تليفونيا، وسألته متى نشر داليه مطران، فأجاب بأنه لا يذكر بالضبط، وإنما يعرف أنه نرك جريدة المؤيد سنة ١٩٠٦.

ومعنى هذا أنه نظم قصيدته الأولى في غمز الفراعين منذ ثلاثين سنة أو تزيد. قد يسأل القارئ : وما خطر ذلك في هذه القضية ؟ ونجيب بأن بلاد الشام كانت منذ ثلاثين سنة نغلى غيظاً وحفداً على السلطان عبد الحميد، وكان الناس في أكثر البلاد يرون في صورة عبد الحميد وحه الجبار السفاح، ولا سيما أهل الشام الذين شرّد عبد الحميد علماءهم وشعراءهم وكُتّابهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة، وحكم على بعضهم بالنفي وعلى بعضهم بالسُنق، الآن عرفنا من كان يعني مطران وهو يحارب رمسيس، إنه كان يحارب عبد الحميد

وإن لم يخطر له ذلك على بال، ومهمه النقد الأدبي، هي إمطة اللثام عن المقتع من ضمائر الرجال.

عبد الحميد هو الشخصية العاتية التي كان يحاربها مطران، ولكنه ما كان يستطيع أن يجهر بعداوته، لأن مصر في ذلك الحين كانت نرى عبد الحميد خليفة المسلمين، ولأن السياسة المصرية لم تكن ترى من الذوق أن تسمح لشاعر بأن يغاضب الخليفة علانية ويصفه بالظلم والاعتساف، على حين يجار الخطباء فوق المنابر بالدعاء له، ويتنسّم الجمهور أخباره في المساجد والأسواق.

تأمل هذا أيها القارئ لتعرف كيف صح لمطران أن يقول في أعوان رمسيس :
هُم الَّذِينَ عَلَى عُسْرٍ بِمَطْلَبِهِ قَدْ أَسْعَفُوهُ بِأَمْوَالٍ وَفَتَيَانِ
وَهُمْ عَلَى سَفَهٍ ذَانُوا بِمَنْ نَصَبُوا فَخَوَّلُوهُ مَدِيناً حَقَّ دِيَانِ
فِيمَ الْأَلَى صَنَعُوا أَنْصَابَهُ دَرَسَتْ رُسُومُهُمْ مُنْذُ بَاتُوا زَهْنَ أَكْفَانِ
وَمَا لِأَسْمَائِهِمْ دُونَ اسْمِهِ دُفِنَتْ شُعْثًا مُنْكَرَةً فِي رُمْسٍ كِتْمَانِ

وهذه الحال كانت حال أعوان عبد الحميد، الرجل الداهية الذي طوّف عصره بطوّقٍ من فولاذ، واستطاع السيطرة والبطش عدداً من السنين.

ومطران في هذه اللفتة كان ابن عصره، ففي ذلك العهد كانت تؤسس الجمعيات السرية لمقاومة عبد الحميد، وكان أدباء الشام يسلقون ذلك العاهل بالسنة حداد.

تلك كانت نفسية مطران، أما نفسية صبري فكانت ملكية أكثر من الملك كان صبري فيما أفترض على وفاق مع أعوان عبد الحميد، أو كان على الأقل من المحايد، فلما رأى مطران يشتم فرعون ثارت في رأسه العصبية المصرية، وانطلق يقول في تمجيد الفراعين :

أَيْنَ الْأَلَى سَجَّلُوا فِي الصَّخْرِ سِيرَتَهُمْ وَصَغَّرُوا كُلَّ ذِي مُلْكٍ وَسُلْطَانِ
بَادُوا وَبَادَتْ عَلَى آثَارِهِمْ دُولٌ وَأُدْرِجُوا طَيِّ أَخْبَارِ وَأَكْفَانِ
وَحَلَفُوا بَعْدَهُمْ حَرْباً مُخَلَّدَةً فِي الْكُونِ مَا بَيْنَ أَحْجَارٍ وَأَزْمَانِ

فالمعارضة بين صبري ومطران لم تكن معارضة بين رجلين، وإنما كانت معارضة بين حزينين، والشعر الذي نقرؤه ونتغنى به لا يمثل عواطف فردية في أغلب الأحيان، وإنما يصور نزعات اجتماعية يهمس بها الشاعر أو يصيح.

ومطران قد يقرأ هذا الفصل ويعجب، لأنه لا يبعد أن تكون نفسه خَلَتْ خُلُوقاً ظاهرياً من المعنى الذي عرضناه، ولكن الناقد الذي يتخذ علم النفس وسيلةً لدرس سرائر الرجال لا يَصْغُبُ عليه أن يرى وجه الحق فيما نقول .

— ٦ —

على أن مطران لم يفته أن يتمنى للمصريين استعباداً مثل استعباد رمسيس، استعباداً ترتفع به هاماتهم في الدنيا فيقفون مواقف الرجال.

ولننظر كيف يقول :

<p>لَيْتَ الْبِلَادَ الَّتِي أَخْلَقَهَا رَسَبَتْ النَّارُ أَسْوَعُ وَرْدًا فِي مَجَالٍ عَلَا أَكْرَمَ بِذِي طَمَعٍ فِي حَسْبِ مَطْمَعِهِ يَهْبُ فِيهِمْ كَأَعْصَارٍ فَبَنَقْلُهُمْ بَعْضُ الطَّغَاةِ إِذَا جَلَّتْ إِسَاءَتُهُ فِي كُلِّ مَفْخَرَةٍ تَسْمُو الشُّعُوبُ بِهَا كَمْ فِي سَنَا الْكُوكَبِ الْوَهَّاجِ مَهْلِكَةٌ لَمْ تَرَقْ فِي حِقْبَةٍ مِضْرٌ كَمَا رَقِيتْ لَمَّا رَمَتْ كُلُّ نَائِي الشُّوْطِ مَمْتَنِعٍ أَلَا تَرَى فِي بَقَايَا الصَّرْحِ كَيْفَ مَضَوْا وَكَيْفَ عَادُوا وَرَمْسِيْسَ مُقَدَّمُهُمْ</p>	<p>يَعْلُو بِأَخْلَاقِهَا تَيَّارُ طَغْيَانٍ مِنْ بَارِدِ الْعَيْشِ فِي أَقْبَاءِ هَيْتَانٍ يَنْحُو الْأَذْلَاءُ مِنْ خَسْفٍ وَخُسْرَانٍ مِنْ خَفْضِ عَيْشٍ إِلَى هَيْجَاءِ مَيْدَانٍ فَقَدْ يَكُونُ بِهِ نَفْعٌ لِأَوْطَانٍ نَفْنَى جُمُوعٍ مُفَادَاةً لِأُحْدَانٍ فِي كُلِّ لَمَحٍ لِأَضْوَاءِ وَالْوَانِ فِي عَصْرِهِ بَيْنَ أُمُصَارٍ وَبُلْدَانِ سَابِقِينَ إِلَى الْعَابَاتِ شُجْعَانِ بِأَوْحِهِ بَادِيَاتِ الْبِشْرِ غُرَّانِ إِلَى الرُّبُوعِ بِأَوْسَاقٍ وَغِلْمَانِ.</p>
--	---

هذا هو الشعر في منطق الحكماء، الآن يتمنى مطران لو أُتِيحَ للبلاد الهوامد أن تظهر بطاغية ينقلها من حياة الخمول إلى حياة الإقدام، الآن يرى النار أرفق

بالشعوب من العيش الوادع في ظلال الترف واللين، والآن بُرْحَبْ بطمع الطامعين الذين يجو بهم الأذلاء من الخسيف والخسراة فيُنْقَلُون من خفض العيش إلى ميادين القتال، الآن يرى من سُنَن المجد أن تَفْنَى الجموع في سبيل الأفراد، ويرى بعين التساعر أن سَا الكوكب الوهاج يهلك ما يشاء من الأضواء والألوان، الآن يرى أن رمسيس الثاني رفع قومه بن الناس، وجعل وطنه فوق الأوطان، الآن يقرأ ما نقشَ على الصروح ليرى كيف كان البشر يفيض من أوجه الجنود وهم يعودون إلى الوطن ظافرين.

فما معنى ذلك ؟ أيكون معناه أن مطران وقع في تناقض ؟
لا ! لم يقع في تناقض، وإنما عرض صورتين مختلفتين : الصورة الأولى في معاييب الاستبداد، والصورة الثانية في محاسن الاستبداد، ولكل حقيقة وجهان : أحدهما دميم، والآخر جميل.

وبذلك نرى مطران انتهى إلى الغاية التي وُئِب إليها صري، ولكنه لم يصل إلى تلك الغاية إلا بعد جَوْلَةٍ شعرية عرض فيها لتصحيح الظلم والتكبل بالظالمين، وشعر مطران في طعن الاستبداد له وجه مقبول، هو وثبة شعبية تجول بالصدور في كل أرض، وفي كل جيل.

فلنسجل الآن أن مطران نفرد في نونيه بهذه المحاولة العقلية، وهي عرض جانبين من الرأي في قصيدة واحدة، وهو نوع من التحليل لا يجيده من الشعراء إلا الأقلون.

ولنذكر أن بيت القصيدة في نونية مطران هو قوله وقد راعنه العظمة في تمثال رمسيس :

لَوْ لَا تَمَائِيلُهُ الْأُخْرَى مُحَطَّمَةٌ مَا جَالَ فِي ظِلِّ فَانٍ أَنَّهُ فَانٍ
وما أحب أن نضيع الفرصة بدون أن أوجه أنظار الرجال في مصر إلى ذلك التمثال، ولينهم يفكرون في نقله من الأقصر ليُنصب في ميدان باب الحديد، أليس من العجيب أن ينقل الفرنسيون من الأقصر مسلة مصرية ليسبوا بها في ميدان الكونكورْد فتوحي إلى شعرائهم آيات الشعر الرفيع، ونعجز نحن عن نقل تمثال

رمسيس لِيُنْصَبَ فِي مِيدَانِ بَابِ الْحَدِيدِ فَيَكُونُ شَاهِدًا عَلَى مَاضِي مِصْرَ فِي إِعْزَازِ
الْعِظْمَةِ مَخْلَدًا بِرَوَائِعِ الْفَنِّ الْجَمِيلِ.

— ٧ —

نظم صبري قصيدته ليرد على مطران فكان لابد له من وقفة يشرح بها ما
في الأهرام من جلال :
أَهْرَامُهُمْ تِلْكَ حَيَّ الْفَنِّ مُتَّخِذًا مِنَ الصُّخُورِ بُرُوجًا فَوْقَ كَيَوَانِ
قَدْ مَرَّ دَهْرٌ عَلَيْهَا وَهِيَ سَاحِرَةٌ بِمَا يُضْعَعِضُ مِنْ صَرْحٍ وَإِيَوَانِ
لَمْ يَأْخُذِ اللَّيْلُ مِنْهَا وَالنَّهَارُ سِوَى مَا يَأْخُذُ التَّمَلُّ مِنْ أَرْكَانِ تَهْلَانِ
أرأيتم كيف لا يأخذ الليل والنهار من أركان الأهرام إلا بمقدار ما يأخذ التمل
من أركان الجبل ! لقد تمرد ملوك على الأهرام ليهدموها فلم تحدش معاولهم غير
الطلاء.

وما هذا البيت :
كَأَنَّهَا — وَالْعَوَادِي فِي جَوَانِبِهَا صَرَغَى — بِنَاءُ شَبَاطِينِ لِشَيْطَانِ
ما هذا البيت ! من القليل أن نقول إنه بيت القصيد، فإن جملة « والعوادي
في جوانبها صرعى » من أروع وثبات الخيال، وما أجدر هذا البيت بأن ينقش
على الأهرام ليكون صفحة جديدة في سفر الفنون.

ثم ماذا يا صبري ؟ ماذا تقول في أحجار الأهرام ؟ أتقول :
كَأَنَّهَا هِيَ وَالْأَقْوَامُ خَاشِعَةٌ أَمَامَهَا صُحُفٌ مِنْ عَالَمٍ ثَانِي
تَسْقُبُ الْعَيْنَ فِي أَثْنَائِهَا صُورٌ فَصِيحَةُ الرَّمْزِ دَارَتْ حَوْلَ جُذْرَانِ
لَوْ أَنَّهَا أُعْطِيَتْ صَوْتًا لَكَانَ لَهُ صَدَى يُرَوِّغُ صَمَّ الْإِنْسِ وَالْجَانِ
ما هذا الشعر أيها الناس ؟ هذا هو السحر الحلال الذي سمعنا باسمه في أخبار
الأولين.

أما بعد : فإني أكاد أحكم بأن الشاعر اسماعيل صبري هو الذي سنّ مذاهب القول في وصف آثار الفراعين للشاعر أحمد شوقي، أليست ضادية شوقي مما نُظِمَ بعد نونية صبري ؟

إن كان فيما أحكم به شيء من الحق فإسماعيل صبري إمام أهل هذا العصر في الإشادة بآثار الفراعين.

وليس المجال في هذا الحدث ممتنع لدرس ضادية شوقي في قصر أنس الوجود، فليرجع إليها القارىء في الجزء الثاني من الشوقيات، ولينذكر أن قول شوقي :

رُبَّ سِرٍّ بِجَانِبَيْكَ مُذَالٍ كَانَ حَتَّى عَلَى الْفَرَاعِينَ غَمُضًا

إنما أخذ من قول صبري :

وَزُحِرُوا عَنْ بَقَايَا مَجْدِهِمْ وَسَطًا عَلَيْهِمُ الْعِلْمُ ذَاكَ الْجَاهِلُ الْجَانِي
وَيْلٌ لَهُ هَتَكَ الْأَسْتَارَ مُقْتَحِمًا جَلالُ أَكْرَمِ آثَارِ وَأُعْيَانِ
لِلْجَهْلِ أَرْجَحُ مِنْهُ فِي جَهَالَتِهِ إِذَا هُمَا وَزْنَا نَوْمًا بِمِيزَانِ

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾.

البحث الثلاثون

بين البارودي وأبي نواس

نحن أمام قصيدتين تعدّان من ذخائر البيان : قصيدة أبي نواس في مدح الأمين وقصيدة البارودي في الترحم على صباه.

أما قصيدة أبي نواس فهي الميمية التي فتحت له قلب الأمين بفضل وساطة الفضل بن الربيع، وكان الأمين قد عرف أبا نواس في حياة أبيه الرشيد، فلما سمع منه الميمية وصله بألف دينار وأمره بملازمة القصر، فظل في رعايته إلى أن صنعت الأقدار ما صعت يوم قضت بالنصر للمأمون.

لا نعرف بالضبط متى نظم أبو نواس قصيدته، ولكن من المرجح أنه قالها في أول خلافة الأمين أي في سنة ١٩٣هـ. وأبو نواس ولد سنة ١٤١ فيكون عمره حين نظم الميمية اثنتين وخمسين سنة أو تزيد.

ولئنما اهتمنا بهذا التاريخ لنعرف أن أبا نواس كان يجدد كل الجدد في التحسر على ملاعب الشباب، ولم يكن في تحزنه من المتكلمين، واثنتان وخمسون سنة تهدّد عزم الرجل الصلب إذا اتفق له ما اتفق لأبي نواس من قضاء الشباب بين عواصف الكؤوس، وزواجر الدسائس والتمائم، وأعاصير الجدد العاثر والزمن الكنود.

كان أبو نواس يسخر من الشعراء الذين يكون الديار ويقفون على الأطلال،

كان يسخر من هؤلاء في صباه يوم كان في الكؤوس والرياحين والوحوه الصباح
ما يشغله عن بكاء الرسوم الهوامد والدمن العافيات، فلما فعلت الاثنتان والخمسون
فعلها الأثيم في شبابه وفي قواه، تلفت فرأى الديار مما يسحق البكاء... والله يعلم
أي حسرة كانت تسحق قلب هذا الرجل هو يقول :

يَا ذَا رُ مَا فَعَلْتَ بِكَ الْيَّامُ لَمْ تَبْقَ فِيكَ بِشَاشَةٌ تُسْتَامُ
عَرَمَ الزَّمَانُ عَلَى الَّذِينَ عَهْدْتُهُمْ بِكَ قَاطِنِينَ وَلِلزَّمَانِ عُورَامُ^(١)
أَيَّامٌ لَا أَعْشَى لِأَهْلِكَ مَنْزِلًا إِلَّا مُرَاقِبَةً عَلَيَّ ظِلَامُ^(٢)

وأبو نواس في هذه الأبيات بقاسي لوعتين : لوعة الوجد على الدار التي ذهبت
ببشاشتها الأيام، ولوعة الوجد على الرفاق المساميح الذين أوجلّتهم عن دار الهوى
أحداث الزمان، والشاعر يحدثنا أنه لم يكن يغشى تلك الدار إلا في ظلمات الليل
أيام كان يتذوق حياة يراها الشاعر أرق من النجوى، وأطيب من شهى العتاب.

ثم انظروا هذه الصورة، صورة الفتك، في هذا البيت :
وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْغَوَاةِ بِدَلْوِهِمْ وَأُسْمْتُ سَرْخَ اللَّهْوِ حَيْثُ أُسَامُوا
تأملوا هذه الصورة البدوية التي أخذت ألوانها من حياة الأعراب، ثم انظروا
كيف جمعت أطراف المغامرات الجنونية، مغامرات اللهو والشباب.

وانظروا بعد ذلك كيف وصف خاتمة المطاف حين قال :
وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ امْرُؤٌ بِشَبَابِهِ فَإِذَا عُصَاةٌ كُلُّ ذَلِكَ آثَامُ
الله أكبر، هذا هو الشعر، وذلك هو الشاعر أبو نواس !

قصيدة أبي نواس عدتها عشرون بيتاً، وقصيدة البارودي عدتها أربعون بيتاً،
ولكن هذه الأبيات الخمسة، أو هذه الفاتحة في السورة التواسية هي التي هاجت
البارودي، وأذكت لوعته، وأضرمت شجاءه، فقال :

(١) العرام . الشدة والعنف.

(٢) جملة (على ظلام) جملة حالية

ذَهَبَ الصَّبَا وَتَوَلَّى الْأَيَّامُ فَعَلَى الصَّبَا وَعَلَى الزَّمَانِ سَلَامٌ
تَاللَّهِ أَنْسَى مَا حَيَّتْ عُهُودُهُ وَلَكُلُّ عَهْدٍ فِي الْكِرَامِ ذِمَامٌ

وهذه النفثة أقل حرارة من نفثة أبي نواس، وأكد أحكم بأن البارودي كان يتكلف بعض التكلف، فإن نفثته لم تكن نفثة ملناح، وإنما كانت نزوة شاعر مفتون بالوصف، ومفتون بأخلاق الماجدين، فقد اندفع يحدث عن رفاقه في أيام صباه فلم يجعلهم من الفتيان الماجنين الذين كان يعرف أمثالهم أبو نواس، وإنما جعلهم من أقطاب الدولة الذين يجلسون إلى مائدة السلاف وفيهم شمائل الأبطال.

ومعنى ذلك أن ندمان البارودي لم يكونوا من المغامرين الذين تعصف برؤوسهم الصهباء فلا يدرون ما يفعلون، على نحو ما كان ندمان أبي نواس، وإنما كانوا من الأجواد المغاوير الذين لا يعرفون الخانات، وإنما يعاقرون الكأس في القصور، وتظل قلوبهم موصولة الأواصر بمعاني البأس، ومعاني الجود.

فالبارودي وهو يصف رفاق الصهباء لا يخلص في الشوق إلى أيام صباه؛ وإنما يتمدح ويتمجد، وتلك حال من يعقل، لا حال من ذهب الوجد بقلبه المتنوع.

وانظروا كيف يقول :

إِذْ نَحْنُ فِي عَيْشٍ تَرَفٌ ظِلَالُهُ
تَجْرِي عَلَيْنَا الْكَأْسُ بَيْنَ مَجَالِسٍ
فِي فِتْنَةٍ فَاضَ التَّعِيمُ عَلَيْهِمْ
ذَهَبَتْ بِهِمْ شَيْمُ الْمُلُوكِ فَلَيْسَ فِي
لَا يَنْطِقُونَ بِغَيْرِ آدَابِ الْهَوَى
مِنْ كُلِّ أْبْلَجٍ يُسْتَضَاءُ بِنُورِهِ
سَهْلُ الْخَلِيقَةِ لَا يَسُوءُ جَلِيسُهُ
مُتَوَاضِعٌ لِلْقَوْمِ تَحَسُّبُ أَنَّهُ
تَرَبُّو الْعُيُونِ إِلَيْهِ فِي أَفْعَالِهِ
فَإِذَا تَكَلَّمَ فَالرُّؤُوسُ خَوَاضِعُ
نَلْهُوٍ وَلَنْعُبُ بَيْنَ خُضِرِ حَدَائِقِ

وَلَنَا بِمُعْتَرِكِ الْهَوَى آثَامٌ
فِيهَا السَّلَامُ تَعَانَقٌ وَلِزَامٌ
وَنَمَاهُمُ التَّبَجُّيلُ وَالْإِعْظَامُ
تَلْعَابُهُمْ هَذَرٌ وَلَا إِبْرَامُ
سُمِحَ الثُّفُوسِ عَلَى الْبَلَاءِ كِرَامُ
كَالْبَدْرِ حَلَّى صَفْحَتَيْهِ غَمَامُ
بَيْنَ الْمَقَامَةِ وَاضِحٌ بَسَامُ
مَوْلَى لَهُمْ فِي الدَّارِ وَهُوَ هُمَامُ
وَتَسِيرُ تَحْتَ لَوَائِهِ الْأَقْوَامُ
وَإِذَا تَنَاهَضَ فَالْصُّفُوفُ قِيَامُ
لَيْسَتْ بِغَيْرِ خِيُولِنَا تُسْتَامُ

حَتَّى اتَّبَعْتَنَا بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ الصَّبَا إِنَّ اللَّذَاذَةَ وَالصَّبَا أَحْلَامُ

وهذا الشعر في غاية من الجودة إذا نظرنا إلى طرافة معناه، فهؤلاء الندمان العابثون هم رجال أعمال، وليسوا فتیان غوايية، هم أقطاب الحرب، وأعلام السلم، ولهم مع ذلك آثام في معترك الهوى، والإثم ألوان : هناك إثم الأطفال، وهناك آثام الأبطال، وما أبعد الفرق بين الآثام النواسية والآثام البارودية، ولست بهذا أحكم بأن آثام البارودي أضخم من آثام أبي نواس. هيهات، وإنما أحكم بأن آثام البارودي يغمرها التجميل والتعقل والافتعال، وأمثال هذه الآثام لا ترجع صورها إلى القلب إلا موصولة بأطراف المجد المفقود ومن أجل ذلك قلت : ان الشاعر لم يخلص الشوق إلى غفلات الصبا ونزوات الشباب، ومن أجل ذلك أيضاً نراه يتكلف الحكمة إذ يقول :

لَا تَحَسِّنِ الْعَيْشَ دَامَ لِمُتَرَفٍ هَيْهَاتَ نَيْسَ عَلَى الزَّمَانِ ذَوَامُ
تَأْتِي الشُّهُورُ وَتَنْتَهِي سَاعَاتُهَا لَمَعَ السَّرَابِ وَتُنْقِضِي الْأَعْوَامُ
وَالنَّاسُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَارِدٌ أَوْ صَادِرٌ تَجْرِي بِهِ الْأَيَّامُ
لَا طَائِرٌ يَنْجُو وَلَا ذُو مِخْلَبٍ يَنْقَى وَغَاقِبَةُ الْحَيَاةِ حَمَامُ

كانت قصيدة أبي نواس في مدح الأمين، وكذلك منعه الأدب من الحديث عن الصهباء وهو شاعر الصهباء، أما البارودي فقد قصر قصيدته على شعجون قلبه وهموم دنياه، فأرياه يندفع في وصف الخمر فيقول :

فَادْفَعْ هُمُومَ النَّفْسِ عَنْكَ إِذَا آعَتَرَتْ بِالْكَأْسِ فَهِيَ عَلَى الْهُمُومِ حُسَامُ
فَالْعَيْشُ لَيْسَ يَدُومُ فِي الْوَانِهِ إِلَّا إِذَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْجَامُ
مِنْ خَمَرِهِ نَذَرُ الْكَبِيرِ إِذَا أَنْتَشَى بَعْدَ أَشْنَعَالِ الشَّيْبِ وَهُوَ غَلَامُ
لَعِبَ الزَّمَانُ بِهَا فَعَادَرَ جِسْمَهَا شَبَحًا تَهَافُتُ دُونَهُ الْأَوْهَامُ
خَمَرَاءُ دَارَ بِهَا الْحَبَابُ فَصُورَتْ فَلَكًا تَحْفُ سَمَاءُ الْأَوْهَامُ
لَا تَسْتَقِيمُ الْعَيْنُ فِي لَمَعَانِهَا وَتَزِلُّ عِنْدَ لِقَائِهَا الْأَقْدَامُ
نَعْشُوا الرِّكَابُ فَإِنْ نَبَلَجَ كَأْسُهَا سَارُوا وَإِنْ زَالَ الضِّيَاءُ أَفَامُوا

حُبِسْتُ بِأَكْلَفَ لَمْ يَصِلْ بِفَنَائِهِ نُورٌ وَلَمْ يَرَحْ عَلَيْهِ ظَلَامٌ
 حَتَّى إِذَا اصْطَفَقَتْ وَطَارَ فِدَامُهَا وَثَبْتُ فَلَمْ تَثْبُتْ لَهَا الْأَجْسَامُ
 وَقَدَّتْ حَمِيَّتَهَا فَلَوْلَا مَرْجُهَا بِالْمَاءِ بَعْدَ الْمَاءِ شَبٌّ ضَرَامٌ
 تَسِمُ الْعُيُونَ بِنُورِهَا لَكِنَّهَا بَرْدٌ عَلَى شُرَابِهَا وَسَلَامٌ
 فَاصْغُلْ بِهَا صَدَأَ الْهُمُومِ وَلَا تَكُنْ غِرًّا تَطْلِيشُ بِلُبِّهِ الْآلَامُ

وهذا شعر جميل، ولكن ما رأيكم فيمن يحدثكم أن البارودي قال هذه الأبيات وهو تعبان ؟ إن هذه الخمرية ينقصها الروح، هي نظم منسجم مسبوكة، ولكنها كالكأس التي قُتِلت بالماء فلم يبق منها غير الشعاع الخامد الذي لا يقدر على نقل العقل من مكان إلى مكان.

أيرانا القارئ نتحامل على البارودي ؟ وكيف، وقد قرأنا أبياته هذه مرة ومرة، فلم تعصف بالنفس نوازع الفتك، ولم تطف بالرأس غاشيات الضلال. إن خمرية البارودي هذه لن تهوي بأحد إلى الجحيم، ولن يسأل عنها يوم الحساب، أما خمريات أبي نواس فقد صيرت قبره سعيراً لا يخمد له أوار، وسيكون يوم الدين جلا يتفجر بالبراكين.

قلت لكم : إن البارودي نظم قصيدته وهو تعبان، ومن آيات ذلك أنه عاد إلى تكلف الحكمة، فقال :

يَهْوَى الْفَتَى طُولَ الْحَيَاةِ وَإِنَّهَا دَاءٌ لَهُ لَوْ يَسْتَيِّنُ عُقَامُ
 فَاطْمَحْ بِطَرْفِكَ هَلْ تَرَى مِنْ أُمَّةٍ خَلَدَتْ وَهَلْ لِابْنِ السَّبِيلِ مُقَامُ
 هَذِي الْمَدَائِنُ قَدْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا بَعْدَ النُّظَامِ وَهَذِهِ الْأَهْرَامُ
 لَا شَيْءَ يَحُلِدُ غَيْرَ أَنَّ خَدِيعَةً فِي الدَّهْرِ تَنَكُّلُ دُرْنَهَا الْأَحْلَامُ
 وَلَقَدْ نَبَيْتُ الْأُمُورَ بغيرِهَا وَأَتَى عَلَى النَّقْضِ وَالْإِبْرَامُ
 فَإِذَا السُّكُونُ تَحَرَّكُ وَإِذَا الْخُمُومُ دُ تَلَهَّبُ وَإِذَا السُّكُوتُ كَلَامُ
 وَإِذَا الْحَيَاةُ وَلَا حَيَاةَ مَيِّتَةٍ تَحْيَا بِهَا الْأَجْسَادُ وَهِيَ رِمَامُ

هَذَا يَحُلُّ وَذَلِكَ يَرْحُلُ كَارِهًا عَنْهَا فَصُلِّحْ تَارَةً وَخَصَامَ
فَالْتَوُرُ لَوْ يَسْنُ أَمْرَكَ ظُلْمَةً وَالْبَدْءُ لَوْ فَكَّرْتَ فِيهِ خَنَامَ
وهذا شعر رجل تعبان، واليأس نفسه يحتاج في تصويره إلى قوة، وكان
البارودي ضعف فلم يستطع أن ينال من الدنيا ما نال منها أبو العتاهية حين قال :
لِدُوا لِلْمَوْتِ وَأَبْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْو يصيرُ إلى تَسَابِ

ش * ش

هذا ولم نعرض لبقية قصيدة أبي نواس، لأنها في المديح، ولأن البارودي وقف
في المعارضة عند وصف الخمر وبكاء الشباب، على أنه لا مانع من الإشارة إلى
أن البارودي حين وصف رفاقه برجاجة الأحلام وهم يشربون أطاف بقول أبي
نواس في مدح الأمين :

مَلِكٌ أَغْرُ إِذَا شَرِبْتَ بِوَجْهِهِ لَمْ يَعْذُكَ التَّبْجِيلُ وَالْإِعْظَامُ

ولا بأس من توجيه القارئ إلى العدوانية البادية في قول أبي نواس:
وَإِذَا الْمَطِيُّ بَنَّا بَلَعْنَ مُحَمَّدًا فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرَّحَالِ حَرَامُ
قَرَّبْنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الْحَصَا فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامُ
رُفِعَ الْحِجَابُ لَنَا فَلَاحَ لِنَاظِرٍ فَمَرَّ تَقَطَّعَ دُونَهُ الْأَوْهَامُ
مَلِكٌ إِذَا عَلِقَتْ بَدَاكَ بِحَبْلِهِ لَا يَعْتَرِيكَ الْبُؤْسُ وَالْإِعْدَامُ
سَبَطُ الْبَنَانِ إِذَا اخْتَبَى بِنَجَادِهِ فَرَعَ الْجَمَاجِمَ وَالسَّمَاظُ قِيَامُ
مَلِكٌ إِذَا اعْتَبَرَ الْأُمُورَ مَضَى بِهِ رَأْيِي يَفُلُّ السَّيْفُ وَهُوَ حُسَامُ

ويكاد هذا الشعر يذهب بقالة السوء التي دنس بها أنصار المأمون أخبار
الأمين.

البحث الحادي والثلاثون

بين البارودي وأبي فراس

في كل لغة شعراء وكتاب وخطباء يخلقون أجواء^(١) من الفكر والعبقريّة فيزيّدون في عمر لغتهم ويصلون بينها وبين القلوب والعقول، فتزداد تأصلاً وقوةً وحيويةً، فاللغة الفرنسيّة مدّينة في حياتها لأمثال هوجو وميسيه ولامرتين، واللغة الإنجليزيّة مدّينة لأمثال بيرون وشلي وشكسبير، واللغة الألمانيّة مدّينة لأمثال شلر وجوته، والناس متفقون على أن اللغة الابطالية مدّينة لداني أثقل الدّين.

ولغة العرب مدّينة لجماعة من الشعراء والمفكرين منهم أبو فراس صاحب الروميات، أبو فراس الذي وصف الضعف الانساني أجمل وصف، وشرحه أحسن شرح، ومثله أصدق تمثيل.

أبو فراس ضحية الكبرياء، والحبّ والمجد، أبو فراس الوتر الحثان الذي خلّد على الدهر مجد الألم ومجد الأنين، أبو فراس الذي أبكى كل عين، وأحزن كل قلب، وشغل كل بال، أبو فراس الأسد الذي استعذب الدمع بعد الزئير، وعلمته الليالي كيف تعصف الخطوب بأحلام الرجل.

(١) الجو يجمع على حواء بكسر الحيم، وهي اللمعة التي آثرناها في كتاب البر العتي. ولكنا آثرنا هنا أن نجتمعها على أجواء

كن كيف شئت من قوة القلب تم اقرأ رومياب أبي فراس فستعرف أن القوة الانسانية في حاجة إلى من ييكها حين تزول، وليت القلم بطاوعني لأشرح بعض ما أريد، وأنا أريد أن أقول : إن عنفوان الرجال من كنوز الحياة، ولكنها كنوز معرضة للتزييف حين يعروها الخمود، العنفوان في الرجال الشجاع هو أنضر من الصباحة في الوجه الجميل، والصباحة تجد من ييكها حين تزول، أما العنفوان حين يخذم فلا يجد من يشيعه بطيف من الرثاء.

وما قرأت رومياب أبي فراس إلا تمثلت زوال الجبال، تمثلت عنفوان الفارس الفاتك الذي قضت الأقدار بأن يمسي وهو في ظلمات من ذلة الأسر، وهزيمة القلب وانصهار الروح.

لا تذكروا آلام المتنبي، ولا أشجان المعري، ولا وجد ابن زيدون، كل أولئك أحماهم خفاف بجانب ما حمل أبو فراس، وما ظنكم بقائد عظيم يذله الأسر حتى يعود طفلاً يتوجع من جراحه ويشكو لأمه فيقول :

مُضَابِي جَلِيلٌ وَالْعَزَاءُ جَلِيلٌ	وْظَنِي بِأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُدِيلُ
جَرَّاحٌ تَحَامَاهَا الْأُسَاةُ مَخَافَةً	وَسُقَمَانٌ بَادٍ مِنْهُمَا وَدَجِيلُ
وَأَسْرٌ أَقَاسِيهِ وَلَيْلٌ نُجُومُهُ	أَرَى كُلَّ شَيْءٍ غَيْرَهُنَّ يَزُولُ
تَطُولُ بِي السَّاعَاتُ وَهِيَ قَصِيرَةٌ	وَفِي كُلِّ دَهْرٍ لَا يَسْرُكُ طُولُ
تَنَاسَانِي الْأَصْحَابُ إِلَّا عَصَابَةً	سَتَلْحَقُ بِالْأُخْرَى غَدًا وَتَحُولُ
وَإِنَّ الَّذِي يَبْقَى عَلَى الْعَهْدِ مِنْهُمْ	وَإِنْ كَثُرَتْ دَعَوَاهُمْو لِقَلِيلُ
أَقْلَبُ طَرْفِي لَا أَرَى غَيْرَ صَاحِبِ	يَمِيلُ مَعَ النِّعَمَاءِ حَيْثُ تَمِيلُ
وَصِرْنَا نَرَى أَنَّ الْمُتَارِكَ مُحْسِنٌ	وَأَنَّ خَلِيلًا لَا يَضُرُّ وَضُولُ
أَكُلُ زَمَانٍ أَنْكَدُ غَيْرُ مُنْصِفٍ	وَكُلُّ زَمَانٍ بِالْكَرَامِ بَخِيلُ
فَيَا حَسْرَتِي مَنْ لِي بِخَلٍّ مُوَافِقٍ	أَقُولُ بِسُجُوبِ بَارَةٍ وَيَقُولُ
وَإِنَّ وَرَاءَ السُّتْرِ أَمَّا بُكَاءُهَا	عَلَيَّ وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ طَوِيلُ
فَيَا أُمَّنَا لَا تَخْطِي الْأَجَرَ إِنَّهُ	عَلَى قَدَرِ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ جَمِيلُ
تَأْسَى كَفَاكَ اللَّهُ مَا تَحْذَرِبْنَهُ	فَقَدْ غَالَ هَذَا الدَّهْرُ قَبْلَكَ غُولُ

لَقِيتُ نُجُومَ اللَّيْلِ وَهِيَ صَوَارِمٌ وَخُصْتُ سَوَادَ اللَّيْلِ وَهُوَ يَهُولُ
وَلَمْ أَرْعَ لِلنَّفْسِ الْكَرِيمَةِ حُلَّةً عَشِيَّةً لَمْ يَعْطِفْ عَلَيَّ خَلِيلُ
وَلَكِنْ لَقِيتُ الْمَوْتَ حَتَّى تَرَكْتُهَا وَفِيهَا وَفِي حَدِّ الْحُسَامِ فُلُولُ

أترون كيف صحَّ للفارس المغوار أن يبكي كما يبكي الطفل ؟ إن التوجع لآلام
الأمهات شريعة إنسانية لا يعرفها أبطال الحروب إلا يوم ينهزمون أو يُؤسرون،
وكذلك قضت الدنيا على أبي فراس أن ينهزم وأن يُوسر، وقضت عليه أن ينتظر
من يُفديه فلا يظفر بالفداء، قضت عليه الدنيا أن يعاني آلام الجروح فلا يسعفه
طبيب، ولا يواسيه رفيق، قضت عليه الدنيا أن يتمثل أمه باكيةً مُلتاعةً لا يرقأ
لها دمع، ولا يهدأ لها فؤاد، ويا ويل من تَصُعُفُ نفسه فيرق لأحزان الأمهات !

على أن أبا فراس كان يتجلد أحياناً في أسره فلا يزيدنا ذلك التجلد إلا علماً
بما وصل إليه من فقد الصبر وانعدام العزاء، كان يتجلد فيستطيع أن يقرع سيف
الدولة بمثل هذا العتاب :

أَمَّا لِجَمِيلٍ عِنْدَكُنْ ثَوَابٌ
وَلَا لِمَسِيٍّ عِنْدَكُنْ مَتَابٌ
لَقَدْ ضَلَّ مَنْ تَحْوِي هَوَاهُ خَرِيدَةً
وَقَدْ ذَلَّ مَنْ تَقْضِي عَلَيْهِ كَعَابٌ
وَلَكِنِّي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَازِمٌ
أَعِزُّ إِذَا ذَلَّتْ لَهُنَّ رِقَابٌ
وَلَا تَمْلِكُ الْحَسَنَاءُ قَلْبِي كُلَّهُ
وَإِنْ مَلَكْتَهَا رَوْقَةً وَشَبَابٌ^(١)
إِذَا الْخِلُّ لَمْ يَهْجُرْكَ إِلَّا مَلَأَةً
فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْفِرَاقُ عِتَابٌ

(١) الروقة والروق : أول الشباب. ويقال أيضاً مضى ريق الشباب.

إِذَا لَمْ أَجِدْ فِي بَلَدَةٍ مَا أُرِيدُهُ
 فَعِنْدِي لِأُخْرَى عَزْمَةٌ وَرِكَابُ
 فَلَيْسَ فِرَاقُ مَا اسْتَطَعْتُ فَإِنْ يَكُنْ
 فِرَاقٌ عَلَيَّ حَالٍ فَلَيْسَ إِيَابُ
 صَبُورٌ وَلَوْ لَمْ تَبَقْ مِنِّي بَقِيَّةٌ
 قَبُولٌ وَلَوْ أَنَّ السُّيُوفَ جَوَابُ
 وَقُورٌ وَأَهْوَالُ الزَّمَانِ تَنُوشُنِي
 وَلِلْمَوْتِ حَوْلِي جِيئَةٌ وَذَهَابُ
 وَالْحَظُّ أَحْوَالُ الزَّمَانِ بِمُقْلَةٍ
 بِهَا الصَّدْقُ صَدَقَ وَالْكَذَابُ كِذَابُ
 بَمَنْ يَشُقُّ الْإِنْسَانُ فِيمَا بَنُوهُ
 وَمِنْ أَيْنَ لِلْحُرِّ الْكَرِيمِ صَحَابُ
 وَقَدْ صَارَ هَذَا النَّاسُ إِلَّا أَقْلُهُمْ
 ذُنَابًا عَلَى أَجْسَادِهِمْ إِيَابُ
 تَغَابَيْتُ عَنْ قَوْمِي فَظَنُّوا غِبَاوَتِي
 بِمَفْرِقٍ أَغْبَانَا خَصًّا وَتَرَابُ
 وَلَوْ عَرَفُونِي حَقَّ مَعْرِفَتِي بِهِمْ
 إِذَا عَلِمُوا أَنِّي شَهِدْتُ وَغَابُوا
 وَمَا كُلُّ فَعَالٍ يُجَازَى بِفِعْلِهِ
 وَلَا كُلُّ قَوَالٍ لَدَيَّ يُجَابُ
 وَرَبُّ كَلَامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِي
 كَمَا طَنَّ فِي لَوْحِ الْهَجِيرِ ذُبَابُ
 إِلَى اللَّهِ أَسْكُو أَنَّنَا بِمَنَازِلِ
 تَحَكُّمٍ فِي آسَادِهِمْ كِلَابُ
 تَمُرُّ اللَّيَالِي لَيْسَ لِلنَّفْعِ مَوْضِعُ
 لَدَيَّ وَلَا لِلْمُعْتَفِينَ جَنَابُ

وَلَا تُدِّدْ لِي سَرَجٌ عَلَى ظَهْرٍ سَابِحٍ
 وَلَا ضُرِبَتْ لِي بِالْعَرَاءِ فِئَابُ
 وَلَا بَرَقَتْ لِي فِي اللَّقَاءِ قَوَاطِعُ
 وَلَا لَمَعَتْ لِي فِي الْحُرُوبِ جِرَابُ
 سَتَذْكُرُ أَبَايَ نَمِيرُ بْنُ غَامِرٍ
 وَكَعْبٌ عَلَى عَادَاتِهَا وَكِلاَبُ
 أَنَا الْجَارُ لَا زَادِي بَطِيءٌ عَلَيْهِمُ
 وَلَا دُونَ مَالِي فِي الْحَوَادِثِ بَابُ
 وَلَا أَطْلُبُ الْعَوْرَاءَ مِنْهُمْ أَصِيْهَا
 وَلَا عَوْرَتِي لِلطَّالِبِينَ تُصَابُ
 وَأَسْطُو وَحْبِي تَابَتْ فِي قُلُوبِهِمْ
 وَأَخْلَمُ عَنْ جُمَالِهِمْ وَأَهَابُ
 بَنِي عَمَّنَا لَا تَرُكُوا الْحَرْبَ إِنَّنَا
 شِدَادٌ عَلَى غَيْرِ الْهَوَاكِ صِلَابُ
 بَنِي عَمَّنَا مَا يَصْنَعُ السَّيْفُ بَيْنَنَا
 إِذَا فُلَّ مِنْهُ مَضْرِبٌ وَذُبَابُ
 بَنِي عَمَّنَا نَحْنُ السَّوَاعِدُ وَالظُّبَا
 وَيُوشِكُ يَوْمًا أَنْ يَكُونَ ضِرَابُ
 وَإِنَّ رِجَالًا مَا ابْنُهُمْ كَابِرُ أَخْتِهِمْ
 حَرَبُونَ أَنْ يَقْضَى لَهُ وَيُهَابُ
 فَعَنْ أَيِّ غُذْرِ إِنْ دُعُوا وَدُعِيْتُمُ
 أَيُّتُمْ بَنِي أَعْمَامِنَا وَأَجَابُوا
 وَمَا أَدْعِي مَا يَعْلَمُ اللَّهُ غَيْرُهُ
 رِحَابُ عَلِيٍّ لِلْعَفَاةِ رِحَابُ
 وَأَفْعَالُهُ بِالرَّاعِبِينَ كَرِيمَةٌ
 وَأَمْوَالُهُ لِلطَّالِبِينَ نِهَابُ

وَلَكِنْ نَبَا مِنْهُ بِكَفِّي صَارِمٍ
 وَأُظْلِمَ فِي عَيْنِي مِنْهُ شَهَابٌ
 وَأُبطَأ عَنِّي وَالْمَنَآيَا سَرِيعَةً
 وَلِلْمَوْتِ ظَفَرٌ قَدْ أَظْلَمَ وَنَابُ
 فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَدٌّ قَرِيبٌ نَعْدُهُ
 وَلَا نَسَبٌ دُونَ الرُّجَالِ قُرَابُ
 فَأُحْوَطُ لِلْإِسْلَامِ أَنْ لَا يُضْيِعَنِي
 وَلِي عَنْهُ فِيهِ خُوطَةٌ وَمِثَابُ
 وَلَكِنِّي رَاضٍ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ
 لِنَعْلَمَ أَيُّ الْخُلَّتَيْنِ سَرَابُ
 وَمَازِلْتُ أَرْضَى بِالْقَلِيلِ مَخْبَةً
 لَذِيهِ وَمَا دُونَ الْكَثِيرِ حِجَابُ
 وَأُطْلُبُ إِبْقَاءَ عَلَى الْوَدِّ أَرْضَهُ
 وَذِكْرِي مُنَى فِي غَيْرِهِ وَطِلَابُ
 كَذَلِكَ الْوِدَادُ الْمَحْضُ لَا يُرْتَجَى لَهُ
 ثَوَابٌ وَلَا يُخْشَى عَلَيْهِ عِقَابُ
 وَقَدْ كُنْتُ أَرْضَى الْهَجَرَ وَالشَّمْلَ جَامِعَ
 وَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَقِيَّةٌ وَخُطَابُ
 فَكَيْفَ وَفِيمَا بَيْنَنَا مُلْكٌ قَيْصَرُ
 وَلِلْبَحْرِ حَوْلِي زُخْرَةٌ وَعُبابُ
 أَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ النَّفْسِ فِيمَا تُرِيدُهُ
 أَثَابُ بِمُرِّ الْعُثْبِ حِينَ أَثَابُ
 فَلَيْتَكَ تَحْلُوَ وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ
 وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غَضَابُ
 وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرُ
 وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ

وإنما نقلنا هذه القصيدة على طولها لتمكن القارئ من التعرف إلى روح أبي فراس، فذلك رجل أسير ضَعُضَهُ اليأس، ولكنه لا يزال مشغول البال بمكايد الأحزاب، وهو يتكلم كلام الطليق، لا كلام الأسير، ويعتب على هذا وذاك عتب من يملك الضر والنفع، والعقاب والثواب، ويسمو إلى أبعد آفاق الرجولة حين يقول :

تَمُرُّ اللَّيَالِي نَيْسَ لِلنَّفْعِ مَوْضِعٍ لَدَيَّ وَلَا لِلْمُعْتَفِينَ جَنَابُ
وَلَا شُدُّ لِي سَرَجٍ عَلَى ظَهْرٍ سَابِحٍ وَلَا ضَرْبَتْ لِي بِالْعَرَاءِ قِسَابُ
وَلَا بَرَقَتْ لِي فِي اللَّقَاءِ قَوَاطِعُ وَلَا لَمَعَتْ لِي فِي الْحُرُوبِ حِرَابُ

وأقصى ما يعانيه الرجل أن يمسي لا يملك الضر، ولا يملك النفع، وغايات الفتوة أن يكون الرجل نفاعاً ضرّاراً يخشاه العدو ويرجوه الصديق، وشكاية أبي فراس في قصيدته هذه شكاية رجال، أما شكايته في القصيدة الماضية فشكاية أطفال، ومعاذ الأدب أن يتجنى عليه، فنحن لا نعرف كيف كان يعامل الأسرى في بلاد الروم، ولا نعرف كيف كان يرى الدنيا وهو أسير، ولا نعرف ما قُوبِلَ به أسره في بلاط سيف الدولة، فقد يكون أسره قوبل بالشماتة من بعض الأمراء، وذلك إن وقع شيء منه كافٍ لأن ينقل الرجل من الصبر إلى الجزع، بحوالة إلى إنسان لا يعرف غير الندم على ما قدّم في الحرب من حسن البلاء.

قلت : إن الشاعر يتكلم في هذه القصيدة كلام الطليق. ألم نر كيف ابتدأها بالنسيب ؟ ألم نر كيف دعا إلى مواصلة الحرب ؟ ألم نر كيف يمتدح بأنه يتجاهل أقوال القادحين فيقول :

وَرُبَّ كَلَامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِي كَمَا طَنَّ فِي لَوْحِ الْهَجِيرِ ذُبَابُ

ولنتذكر أن كل شعره في الأسر لم يكن إلا حديث النفس إلى النفس، فمن المستبعد جداً أن نتصور أن الرجل كان يرأسل قومه من يوم إلى يوم، أو من أسبوع إلى أسبوع، فالدنيا في ذلك العصر لم تكن تسمح بأن يكون للأسرى بريد، وهل سمحت الدنيا في هذا العصر بأن يكون للأسرى بريد حتى تسمح لأبي فراس بأن يعاتب سيف الدولة ويخاشن أنصاره بمثل ما رأينا في هذا القصيد ؟

إن الصلة بين الفصيدنين الماضيين ليست بعيدة، فالأولى نوجع، والناسنة تجلد، وليس بين التوجع والتجلد إلا فرق ضئيل.

والشاعر في القصيدتين غير متكلف، وإنما هو يمثل ما يمر بالنفس الإنسانية من صور وأطياف، والنفس الإنسانية فيها قوة وضعف، وفيها جبروت واستخذاء، والشاعر الحق هو الذي لا يكذب على الطبع : وإنما ينهج وبيتنس، وبفسو وبلين، وفقاً لبسمات العيش أو نكد الزمان.

قد يقول معترض : وكيف صح لأبي فراس أن ينظم أشعار الحماسة وهو في القيّد ؟

ونجيب بأن الليث المأسور في حديقة الحيوان ينمثل أحداث الغابة في كل حين. والنفس تجتث ماضي النعيم في أيام الحرمان، وصور النعيم السالف هي القبس الذي يبدد غياهب البؤس، ويمحق ظلمات البأساء.

وكيف نحتاج إلى شرح هذه النزعة النفسية وعدنا البارودي، البارودي رحل السيف، الذي لم بصور أيام الحرب والفنوة إلا بعد أن ألقنه الحوادث منفياً في جزيرة سيلان.

إن إحساس البارودي بمجده الحق لم يتم له إلا بعد أن نرعت عنه الحوادث شارات المجد، وكل إنسان حساس لا يدرك ما كان عليه من قوة وفنوة ونعمة إلا بعد أن تسطو عليه الخطوب، ونريه الدنبا كبف تصوّح الأرهار، وكيف تجف الأنهار، وكيف نذلل الرباحين.

إن إحساس أبي فراس والبارودي بعظمة المجد بعد الهزيمة هو إحساس طبيعي مألوف، فقد رأينا ورأى الناس أن المرء لا تتمدح بماضيه إلا حين يصبح حاضره لا يكبب العدو ولا بسر الصديق.

ومن عجب الشابه بين البارودي وأبي فراس أنهما ظلّا في أيام الخنة واليأس بتذكران الأحباب ويشكوان سفه الواشين، وقد مرّ شاهد من شعر أبي فراس، فلذكر خانب ذلك فول البارودي :

رُدُّوا عليّ الصِّبا منْ عَصْرِي الحَالِي وهَلْ بَعُودُ سَوَادِ اللَّمَّةِ الْبَالِي
مَاضٍ مِنَ الْعَيْشِ مَلاَحَتٌ مَحَابِلُهُ فِي صَفْحَةِ الْفَكْرِ إِلَّا هَاجَ الْبَالِي

سَلَتْ قُلُوبٌ فَقَرَّتْ فِي مَصَاحِعِهَا بَعْدَ الْحَنِينِ وَقَلْبِي لَبَسَ بِالسَّالِي
لَمْ يَدْرِ مَنْ بَاتَ مَسْرُوراً بِلَذَّتِهِ أَنِّي بِأَرِ الْأَسَى مِنْ هَجْرِهِ صَالٍ
يَا غَاضِبِينَ عَلَيْنَا هَلْ إِلَى عِدَةٍ بِالْوَاضِلِ يَوْمَ أَنَاغِي فِيهِ إِقْبَالِي
عَبْتُمْ فَأَظْلَمَ يَوْمِي بَعْدَ فُرْقَتِكُمْ وَسَاءَ صُنْعُ اللَّبَالِي بَعْدَ إِجْمَالِي
قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي مِنْكُمْ عَلَى نِفَةٍ حَتَّى مُنِيتُ بِمَا لَمْ يَجْرِ فِي بَالِي
لَمْ أَجْنِرْ فِي الْحُبِّ ذَنْباً أَسْتَحِقُّ بِهِ عَنَاباً وَلَكِنَّهَا تَحْرِيفُ أَقْوَالِي
وَمَنْ أَطَاعَ رُؤَاةَ الشُّوءِ نَفَرَهُ عَنِ الصَّدِيقِ سَمَاعُ الْفِيلِ وَالْفَالِي
أَذْهَى الْمَصَائِبِ غَدْرٌ قَبْلَهُ ثِقَةً وَأَقْبَحُ الظُّلْمِ صَدٌّ بَعْدَ إِقْبَالِي

فماذا ترون في هذه الأبيات ؟ إن البارودي يصنع كما يصنع أبو فراس، هو يتكلم كلام الطليق، هو يرجو ألا يسمع أحبابه كلام الواشين والمرجفين ولم يكن في دنيا النفي ما يتسع لوشابة ولا إرجاف.

تلك نزوات نفسية، هي نزوات الطائر المحبوس في القفص، وهو مع ذلك يتوئب من ركن إلى ركن كأنه من ملوك الهواء. وإنما توغلت في هذه المسالك لأدلل القارئ على أسرار التناقض فيما يقرأ للبارودي، وما يقرأ لأبي فراس. هما شاعران يشتركان في كثير من النوازع، ويشتركان في كثير من الصفات، وبليّة النفي والأسر بلبّة واحدة وإن اختلفت الصور والظروف.

والتشابه بين الحياتين والمصيرين عند البارودي وأبي فراس يجعل الموارنة بين الرائيين فرصه لاتتاح في كل حين، فكلما الشاعرين يتغزل، وكلاهما يذكر ماضيه في الحرب، وأنفاسهما في هذين البابين أنفاس حارّة لا بدرك وفدّها إلا من ذاق الأسر والنفي، وقد ذقنا الأسر مرتين^(١)، أما النفي فعرفناه في صورة جديدة هي الغربة الروحية والغربة العقلية، وإلى الله نشكو ما نعاني من قسوة الاعترا ب في هذا الزمان.

(١) كان المؤلف من الدين اعتقلتهم السلطة العسكرية البريطانية، وكان اسمه مقبداً في أسرى الحرب وكانت الثورة المصرية حقاً شعله من الحرب، وكانت حليقة بأن ترهب الخلعرا وروعها لو دامت بضع سنين.

البحث الثاني والثلاثون

الموازنة بين الرائيين

— ١ —

ونشرع في الموازنة بين الرائيين فنقول :
يظهر أن البارودي لم يحتفل بقصيدته على نحو ما احتفل أبو فراس، فقصيدة
البارودي خمسة وعشرون بيتاً، وقصيدة أبي فراس جاوزت الأربعين.

قد يقال : وما قيمة الكمية ؟ ونجيب بأن البارودي حين عارض ميمية أبي
نواس نظر فرآها عشرين بيتاً، فجعل قصيدته أربعين، وذلك من شارات الاهتمام
والاحتفال.

والنسيب في قصيدة أبي فراس عشرون بيتاً، وهو في قصيدة البارودي أحد
عشر بيتاً.

ومن الفوارق بين الشاعرين أن أبا فراس اقتضب فانتقل فجأة من النسيب
إلى الفخر، أما البارودي فترفق في التخلص حين قال :

وَكَفَّكَتْ دَمْعاً لَوْ أَسَلْتُ شُؤْوَئَهُ عَلَى الْأَرْضِ مَا شَكَ أَمْرُؤُ أَنَّهُ بَحْرُ
حَيَاءٍ وَكِبَرٍ أَنْ يُقَالَ تَرَجَّحَتْ بِهِ صَوَةٌ أَوْ فَلَّ مِنْ غَرْبِهِ الْهَجْرُ

وَإِنِّي أَمَرُّ لَوْلَا الْعَوَائِقُ أَذْعَنْتُ لِسُلْطَانِهِ الْبَدُو الْمُغِيرَةَ وَالْحَضَرُ
مِنَ النَّفَرِ الْغُرِّ الَّذِينَ سُوِفُهُمْ لَهَا فِي حَوَاشِي كُلِّ دَاجِيَةٍ فَجَرُ

وابتدا أبو فراس قصيدته بحوار بينه وبين رفيق موهوم عاب عليه التجلد فقال :
أَرَاكَ غَصِيَّيَ الدَّمْعِ شَيْمُثَكَ الصَّبْرُ أَمَّا لِلْهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ
بَلَى، أَنَا مُشْتَقٌّ وَعِنْدِي لَوْعَةٌ وَلَكِنَّ مِثْلِي لَا يُدَاغُ لَهُ سِرُّ

وهذان البيتان غاية في وصف أقدار الرجال، فإن الرجل لا يعاب عليه
الحب، وإنما يعاب عليه أن يصير أحبابه مضغة، الأفواه، ثم جعل الشكوى
بينه وبين الليل، فقال :

إِذَا اللَّيْلُ أَصْوَانِي بَسَطْتُ يَدَ الْهَوَى وَأَذَلْتُ دَمْعًا مِنْ خَلَائِقِهِ الْكِبَرُ
تَكَادُ تَضِيءُ النَّارُ بَيْنَ جَوَانِحِي إِذَا هِيَ أَذَكَّتْهَا الصَّبَابَةُ وَالْهَجَرُ

وقد عارض البارودي مطلع أبي فراس فجعل أمره في الحب أخطر من أن
يُدَارَى بالكتمان، وتمثل نفسه مُحباً بجاحماً لا يصده تهيب، ولا يردعه إشفاق،
وكذلك قال :

طَرِبْتُ وَعَادَتْنِي الْمَخِيلَةُ وَالسُّكْرُ وَأَصْبَحْتُ لَا يُلْوِي بِشَيْمَتِي الزَّجَرُ
كَأَنِّي مَخْمُورٌ سَرْتُ بِلِسَانِهِ مُعْتَقَّةٌ مِمَّا يَضُنُّ بِهَا التَّجَرُ
صَرِيحٌ هَوَى يُلْوِي بِي الشَّوْقُ كُلَّمَا تَلَّأَ بَرَقَ أَوْ سَرَتْ دِيمَةُ غَزَرُ
إِذَا مَالَ مِيزَانُ النَّهَارِ رَأَيْتَنِي عَلَى حَسَرَاتٍ لَا يُقَاوِمُهَا صَبْرُ

فالبارودي لم يصنع صنيع أبي فراس الذي حدثنا أنه عرف كيف يكتُم أسرار
الحب، وأنه لا يشكو بثه إلا إلى ظلمات الليل، وإنما سلك البارودي مسلكاً آخر،
حين جعل هواه فوق التجلد وفوق الكتمان، وحين أعلن أن ما به أخطر من السحر
وأخطر من الجنون، وحين أعلن العجز عن مقاومة الحب، لأن الحب في رفته
ولُطْفِ مداخله لا يُرد بالسيوف وبالرماح، وهي كل ما يملك ذلك الفارس الذي

كانت مواقفه مما يشيب ناصية الزمان :

بَقُولُ أَنَاسٍ إِنَّهُ السَّحَرُ ضَلَّةٌ وَمَا هِيَ إِلَّا نَظْرَةٌ دُونَهَا السَّحَرُ
فَكَيْفَ يَعِيبُ النَّاسُ أَمْرِي وَلَيْسَ لِي وَلَا لِأَمْرِي فِي الْحُبِّ نَهْيٌ وَلَا أَمْرُ

وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ دِفَاعُهُ لَأَلَوْتُ بِهِ الْبَيْضَ الْمَبَانِيرُ وَالسُّمُرُ
وَلَكِنَّهُ الْحُبُّ الَّذِي لَوْ نَعَلَقْتُ سَرَارَتُهُ بِالْجَمْرِ لاحتَرَقَ الْجَمْرُ

وهذا من أصدق ما قال المحبون، فلا يعلم أحد إلى اليوم كيف نستطيع العيون
النواعس أن تفعل بالرجال مالا نفعل الصهباء، لا يعلم أحد كيف ينفق للرجل
أن يذل ويخضع في ميدان الحب، لا يعلم أحد كيف يستطيع الخد
الأسيل — وهو أرف من الورد — أن ينال من قلب الرجل ما لا ينال السيف
الصقيل.

لقد يخطر ببال الخليئين أن الشعراء يبالغون حين يرون الحب أعنف من الجمر،
وأفك من الخمر، وأقفل من الداء العضال، ولكن الذي مارس دنيا الصباحة،
وعرف ما فيها من مهالك ومعاطب، لا يزال بعجب من هذه المصاير
المحزنة : مصاير الرجال الذين يعيشون بعزائم من الصخر وقلوب من الهواء.

لقد كان البارودي ولا ريب من أقوىاء الرجال، ولكنه مع ذلك عاش في الحب
عيش الأطفال، وأخذ يحمل قلبه الجريح من أرض إلى أرض، وظل بهذي بأحلام
« حُلوان » هذيان المموم، فلم تفارقه لوعته في سفر ولا حضر، ولم برحمه جواه
في سنده ولا رخاء، ومن أجل ذلك نراه بحس بلواه كل الاحساس وهو يقول :
وَلَكِنَّهُ الْحُبُّ الَّذِي لَوْ نَعَلَقْتُ سَرَارَتُهُ بِالْجَمْرِ لاحتَرَقَ الْجَمْرُ

وللقاريء أن يتأمل هذه الصورة الشعرية، له أن يتصور كيف تتعلق سرارة
الحب بالجمر فيحترق الجمر، فالجمر يحرق ولكنه حين يمسه الحب يحترق، ونلك
من وثبات الخيال.

وقد عز على البارودي أن يكون أقل جلدًا من أبي فراس وأن يصبح حدث
التسامنين، وكذلك اسندرك فقال :

عَلَى أَنِّي كَاتَمْتُ صَدْرِي حُرْقَةً مِنْ الْوَجْدِ لَا يَقْوَى عَلَى مَسِّهَا صَدْرُ
وَكَفَّكَتْ دَمْعًا لَوْ أَسَلْتُ شُؤُونَهُ عَلَى الْأَرْضِ مَا شَكَّ أَمْرُهُ أَنَّهُ بَحْرُ
حَيَاءٍ وَكِبَرًا أَنْ يُقَالَ تَرَجَّجَتْ بِهِ صَبْوَةٌ أَوْ فُلٌّ مِنْ عَرَبِ الْهَجْرِ

ونحن نحمد الله تعالت أسماؤه على أن لطف بعباده فعصم هذا الشاعر من الضعف وأسبغ عليه نعمه الصبر الجميل، ولولا لطف الله لغرق الناس في « بحر » من الدموع وهي ملح أجاج.

لقد أعجبني من البارودي أن يُعرب في الوهم، فبقول :
وَكَفَّكْتُ دَمْعاً لَوْ أَسَلْتُ سَوَّوْنَهُ عَلَى الْأَرْضِ مَا شَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ بِحَرِّ
وعبارة « ما شك امرؤ » عبارة طريفة لأنها تدل على أن الشاعر بقطب إلى أنه مقبل على أكاذيب، والكاذب في حاجته إلى القسم وإلى التأكيد.
وكنا نود لو اعذرنا عنه، ولكن هذا العلو المكشوف لم يوشَّ بصورة شعرية على نحو ما وشى البيت البكر الذي جعل به الجمر وقوداً لنار الحب، والدنيا كلها وقوداً لتلك النار التي يعذب الله بها من بشاء من عباده الشعراء.

— ٢ —

لم تمض البارودي في حديث هواه، أما أبو فراس فقدم صوراً من الشبيب، عائب حبيبته فقال :
مُعَلَّلَتِي بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ إِذَا مِتُّ ظِمَاناً فَلَا نَزَلَ الْقَطْرُ
وهذا البيت عرض له سوقي في مقدمة الطبعة الأولى من السنوقيات فراه من صور الأثرة وفضل عليه قول أبي العلاء :
فَلَا هَطَلْتُ عَلَى وَلَا بِأَرْضِي سَحَائِبُ لَيْسَ تَنْتَظِمُ الْبِلَادَا
ونحن نرى أبا فراس أصدف من أبي العلاء، فإن الأثره من مظاهر الحيوية، والشاعر الحي لا يفكر إلا في نفسه، لأن الحياة تفرض الاسبداد، ونظرة أبي العلاء فيها كرم ولكنها تمثل الضعف، والأثره هي سر كل شيء، فالشجرة العظيمة لم تعظم إلا بفضل ما استبدت في مص الأرض واستنشاف الهواء وهي لا تعظم إلا بعد أن تقتل ما حولها من شجر ونبات، والرجل العظيم لا يعظم إلا بفضل ما يغير على معاصريه، فهو لا يظهر إلا بعد أن يُخمل الألوفاً والملايين، والشمس

لم تعظم إلا منذ استطاعت أن تكسف بضياؤها جميع الكواكب فلا ترى العين غيرها في كبد السماء، وكان القمر أقل عظمة من الشمس لأنك ترى بجانبه نجوما يخطئها العدّ فتحكم بأنه عجز عن الاستبداد بملك السماء، وقد يتفق أحيانا أن نرى القمر نهاراً، ولكن كيف نراه ؟ نراه في صورة التابع الذليل، وهو لم يظهر إلا بفضل ما أفاءت عليه الشمس، ولو كفت برّها عنه لعاش وهو مجهول.

فقول أبي فراس :

إِذَا مِتُّ ظِمَانًا فَلَا نَزَلَ الْقَطْرُ

من الكلمات القوية التي لا تصدر إلا عن رجل يحمل قلب الملوك، أما كرم أبي العلاء فهو كرم العاجز الذي لا يتصرف في شيء، وإنما يبذل عطايا الوهم بلا حساب، والأنس بنعيم الناس لا يكون إلا لمن يملك الإفضال على الناس، أما الذي يسره أن يوجد المطر جميع الوهاد والنجاد فهو يُسر بما لا يبذل، والسرور بما لا تبذل سرور الضعفاء.

وقد فرح ناس بملاحظة شوقي فراحوا يعيدونها في كل مجتمع، وهم لا يفقهون !

ومضى أبو فراس فامتنعنا بهذين البيتين :

بَدَوْتُ وَأَهْلِي حَاضِرُونَ لِأَنْتَى أَرَى أَنَّ دَاراً لَسْتَ مِنْ أَهْلِهَا قَفَرُ
وَحَارَبْتُ قَوْمِي فِي هَوَاكِ وَإِنَّهُمْ وَإِيَّايَ لَوْلَا حُبُّكَ الْمَاءِ وَالْخَمْرُ

وهذا شعر بديع حقاً، وإن كان البيت الأول مأخوذاً من قول جميل :

أَبَيْتُ مَعَ الْهَلَاكِ ضَيْفًا لِأَهْلِهَا وَأَهْلِي قَرِيبٌ مُوسِعُونَ دَوُو فَضْلُ

وكان البيت الثاني أخذ برفق من قول جميل في كلمة ثاية :

كَأَنَّ لَمْ نُحَارِبْ يَا بُنَيْنَ لَوَ أَنَّهَا تَكْشِفُ غَمَّاهَا وَأَنْتَ صَدِيقُ

ولننصّ على أن البيت الأول عند أبي فراس أروع من بيت جميل، أما البيت

الثاني من شعر جميل فهو أقوى وأعمق من البيت الثاني من شعر أبي فراس.

ثم انظروا هذا البيت :
وَفَيْتُ وَفِي بَعْضِ الْوَفَاءِ مَذَلَّةٌ لِلْإِنْسَانَةِ فِي الْحَيِّ شَيْمَتُهَا الْعَذْرُ
انظروا هذا البيت وتأملوه، فعبارة « وفي بعض الوفاء مذلة » تصور ما يلقي
الرجل في الحب، والوفاء في الحب ذلة يقبل عليها الرجال وهم كارهون، والرجل
لا يحب إلا وهو مخبول، ولو كان يملك من أمره شيئاً لعرف أن نعيم الحب نعيم
صغير بالإضافة إلى ما يُذال فيه عز النفوس.

وهذا البيت :
وَقُورٌ وَرَيَّاعٌ الصَّبَا يَسْتَفْرِهُمَا فَتَارِنُ أَحْيَانًا كَمَا يَارِنُ الْمُهْرُ
هذا بيت نادر، وهو قليل الأمثال عند من يفهم دقائق البيان، ولك أن تتذكر
وقار العقلية المليحة التي تحيا برزانة الجبال، ثم يستفرها الصبا فتجنح إلى التعقب
والنغضب، ولبعض الملاح غضبات كلها سحر وفنون، وهي أملح في العين
وأندى على القلب من بسمات الرضا ونغمات الحنين.

وانظروا هذا الحوار الطريف :
تَسْأَلُنِي مَنْ أَنْتَ وَهِيَ عَلِيمَةٌ
فَقُلْتُ كَمَا سَأَلَتْ وَشَاءَ لَهَا الْهَوَى
فَقُلْتُ لَهَا لَوْ شِئْتَ لَمْ تَتَّعِنِّي
وَلَا كَانَ لِلْأَحْزَانِ عِنْدِي مَسَلَكٌ
فَأَيُّقُنْتُ أَنْ لَا عِزَّ بَعْدِي لِعَاشِقٍ
فَقَالَتْ لَقَدْ أَرَى بِكَ الدَّهْرُ بَعْدَنَا
وَهَلْ بَقِيَّتِي مِثْلِي عَلَى حَالِهِ نُكْرُ
قَتِيلُكَ، قَالَتْ: أَيُّهُمْ؟ فَهُمُ كَثُرُ
وَلَمْ تَسْأَلِي عَنِّي وَعِنْدَكَ بِي خُبْرُ
إِلَى الْقَلْبِ لَكِنَّ الْهَوَى لِلْبَلَا جِسْرُ
وَأَنْ يَدِي مِمَّا عَلِقْتُ بِهِ صَفْرُ
فَقُلْتُ مَعَاذَ اللَّهِ بَلْ أَنْتِ لَا أَلَدَّهْرُ

وهذا أيضا شعر، ولكن أي شعر ! إنه من أقوى لفحات الصبابة، وأطيب
نَفَحَاتِ الوجدان، والدنيا هكذا تصنع بالرجال، فذلك الفارس الذي فتك بمن
فتك من الأبطال، وهدم ما هدم من الحصون، هذا الجبل يقف خاشعاً ذليلاً أمام
إنسانة تقول : من أنت ؟ فيقول : عاشق ! فتقول : ولكن من أنت في
العشاق ؟ فيقول في ذلة المهزوم : أنتِ تعلمين !

ومس كات هذه الإنسنة التي عنها أبو فراس ؟
ولكن ما قيمة هذا السؤال ؟ أكان من الختم أن يكون مثلها شأن حتى تكوي
مثله على الجمر المشبوب ؟ إن من أعجب تصارييف القدر أن لا ينب الحس
المرموق إلا في المراتع التي لا يُنصب حول حماها حصن، ولا برفر فوقها لواء.
إن أبا فراس لا يكذب في مثل هذا النحر، ولكن من كان بحب ! كان يحب
إنسنة هي اليوم في ضمير شعره، لا في ضمير صدره، إنسنة أنطقته بهاده
اللوعة الخالدة، ثم اندرجت في أكفان الفناء.

ثم انظروا هذا المصير المحزن، مصير كل عاشق حبله الهوى فضاع :
وَقَلْبْتُ أُمْرِي لَا أَرَى لِي رَاحَةً إِذَا الْبَيْنُ أَنْسَانِي أَلَجَّ بِي الْهَجْرُ
فَعُدْتُ إِلَى حُكْمِ الزَّمَانِ وَحُكْمِهَا لَهَا آذَنْبُ لَا تُجْزَى بِهِ وَلِي الْعُذْرُ
هذا مصير كل عاشق : لغيره أن يُذنب وعليه أن يعتذر. والعشق داته خروج
على المنطق، منطق الحياة التي تسمو بصاحبها إلى الترفع عن كل دنية، إلا أن بُتت
البحث أن الحب أسلوب من الظفر بمكونات الجمال، وأن مدامع العشاق هي
في عالم المعقول كالمخلب والناب في عالم الحسوس، فالأسد بفترس، والعاشق
يفتسر، وإن اختلفت وسائل الافتراس.

نحس إذن بكلي لنخدر الفربسة، وعلى ذلك يكون الدمع في عين العاشق كالسم
في ناب التعبان ! ! أتروني كشفت سر المهنة ؟ لا تُراعوا أيها العنفاق فلاهل
الجمال غفلة هي أعجب العفلات، هم برون الشرك ويحاهلون، لحكمه بعلمها
من يصل القلوب بالقلوب، وينقل الأطباء طائعة إلى مراض الأسود.

وكان أبا فراس لحظ هذه النظرة الفلسفية حين قال :
كَأَنِّي أَنَادِي دُونَ مَيْثَاءَ ظَبْيَةٍ عَلَى شَرَفِ ظَمِيَاءَ جَلِينِهَا الدَّعْرُ
نَجْفَلُ جَبْنًا نَمَّ نَدْنُو كَانَّمَا تُنَادِي طَلَابًا بِالْجَرِي أَعْجَزُهُ الْحُضْرُ
وهو خيال بدوي أطاف به كثير من الشعراء، والمليحة هكذا خلقت بأمن
وخفاف، وبين الخوف والأمن يكون جحيم الهجر ونعيم الوصال.

نتقل إلى الموازنة بين الشاعرين في الفخر فنقول :
يُحِسُّ البارودي أن أيامه انتهت، أيام المجد الحربي، فبُزِفَ :
وَإِنِّي أَمْرٌ لَوْلَا الْعَوَائِقُ أَدْعَتُ لِسُلْطَانِهِ الْبَدُو الْمُغِيرَةُ وَالْحَضَرُ
وعبارة « لولا العوائق » فيها تحفظ معقول : لأنه كان في القيد، أما أبو فراس
فيشمخ :

وَإِنِّي لَنَزَالٌ بِكُلِّ مَخُوفَةٍ كَثِيرٍ إِلَى نَزَالِهَا النَّظَرُ الشَّرُّ
وحال الشاعرين مختلف، فالبارودي كان انهزم وانهزمت أمته فاحتل الانجليز
ببلاده ونفوه إلى جزيرة نائية لا يُرجى له منها معاد، فهو خَلَبٌ بأن يراعي ذلك
في فخره. أما أبو فراس فكان لابن عمه ولقومه دولة وكان لهم جيش، وكان
ينتظر أن يُفك من الأسر، وفي ذلك ما يفسح أمام نفسه مجال القوة فيزهى ويختال،
ويتمجد فبقول :

وَإِنِّي لَجَرَّارٌ لِكُلِّ كَتِيبَةٍ مُعَوَّدَةٍ أَنْ لَا يُخِلَّ بِهَا النَّصْرُ
فَأَصْدَى إِلَى أَنْ تَرْتَوِي الْبَيْضُ وَالْقَنَا وَأَسْعَبُ حَتَّى يَشْبَعَ الذُّبُّ وَالنَّسْرُ
وهذا نهاية الفخر، والخيال هنا بارع، فالفراس يظل صديان حتى نرتوي الرماح
والسيوف، ويظل جوعان حتى تشبع النسور والذئاب من لحوم الأعداء.

وأبو فراس لا يذكر غير نفسه، أما البارودي فيجعل مجده من مجد قومه :
مِنَ النَّفَرِ الْغُرِّ الَّذِينَ سُيُوفُهُمْ لَهَا فِي حَوَاشِي كُلِّ دَاجِيَةٍ فَجَرُّ
إِذَا اسْتَلَّ مِنْهُمْ سَيْدٌ غَرَبَ سَيْفِهِ تَفَرَّعَتِ الْأَفْلَاكُ وَالتَّتَفَتِ الدَّهْرُ
والبيت الثاني وثبة هائلة من وثبات الخيال، ولا يخلو البيت الأول من حُسنِ
مَرْمُوقٍ.

ونحن نفهم لماذا سكت أبو فراس عن التمدح بقومه، فقد بُحَّ صونه وهو
يستنجد بهم ليفدوه فلم يلتفتوا إليه، أما البارودي فلم تكن له بقيّة من معجده غير
آبائه الذين وصفهم بالجود والبأس فقال :

لَهُمْ عُمْدٌ مَرْفُوعَةٌ وَمَعَاقِلٌ وَالْوَيْةُ حُمْرٌ وَأُفْنِيَةٌ خُضْرٌ
وَنَارٌ لَهَا فِي كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ لِمُدَّرِعِ الظُّلَمَاءِ أَلْسِنَةٌ حُمْرٌ
تَمُدُّ يَدًا نَحْوَ السَّمَاءِ خَضِييَّةٌ تُصَافِحُهَا الشُّعْرَى وَبِأُثْمِهَا الْغَفْرُ
وَحَيْلٌ يَرْجُ الْخَافِقِينَ صَهِيلُهَا نَزَائِعٌ مَعْقُودٌ بِأُغْرَافِهَا النَّصْرُ
مُعَوَّدَةٌ قَطَعَ الْفَيَافِي كَانَهَا حُدَارِيَّةٌ فَتَحَاءُ لَيْسَ لَهَا وَكُرٌ^(١)

والجود في هذه الأبيات وضع في أخيلة بدوية، فإقامة النار لطداية السارين لا يعرفها القاهريون، وقوم البارودي الذين يتمدح بهم كانوا سادة مصر من المماليك، وكان للبارودي فيما يقال أجداد من المماليك، وكان هذا النسب الصحيح أو المصنوع يغريه بالفتك، ويجب إليه الصيال.

وعبارة : « وَحَيْلٌ يَرْجُ الْخَافِقِينَ صَهِيلُهَا » عبارة قوية جدا، وهي لا نقل جمالا عن تلفت الدهر وتفزع الأفلاك.

والبارودي يجعل خيل قومه « مُعَوَّدَةٌ قَطَعَ الْفَيَافِي » وهو تعبير طريف فهي ليست من الخيل المدللة التي تحيا في نعيم المرايض وتُمسحُ أُغْرَافُهَا مسح التلطف والترفق، على نحو ما يقع في مرايض الوداعين الذين يقتنون الخيل للزينة لا للحرب.

والبارودي كان يشس من كل شيء، يشس من نفسه لأن الذين نفوهُ كانوا مُتَنَصِّرِينَ، ولأن قومه انهزموا هزيمة انتهت بتجريدتهم من السيوف، والقوم الذين أعينهم أنا هم المصريون، أما القوم الذين تحدث عنهم البارودي فهم أسلافه القدماء، وهؤلاء لم تبق منهم بقية، ولذلك بكاهم فقال :

أَقَامُوا زَمَانًا ثُمَّ بَدَدَ شَمْلَهُمْ أَخُو فَتَكَاتٍ بِالْكَرَامِ آسَمُهُ الدَّهْرُ
فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ غَيْرُ آثَارِ نِعْمَةٍ تَضَوُّعُ بَرِّيَاها الْأَحَادِيثُ وَالِدُكُرُ
وَقَدْ تَنْطِقُ الْآثَارُ وَهِيَ صَوَائِمِي وَيُثْنِي بَرِّيَاهُ عَلَى الْوَابِلِ الزَّهْرُ
لَعَمْرُكَ مَا حَيٌّ وَإِنْ طَالَ سَيْرُهُ يُعَدُّ طَلِيقًا وَالْمُنُونُ لَهُ أُسْرُ
وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا مَنَازِلُ يَحُلُّ بِهَا سَفَرٌ وَيَتْرُكُهَا سَفَرُ

(١) الحُدَارِيَّة بالضم : العقاب، والفتحاء من الغضار : اللسنة الحماح.

فَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَرْءَ فِيهَا بِخَالِدٍ وَلَكِنَّهُ يَسْعَى وَغَايَتُهُ الْعُمُرُ

ونهاية هذا الشوط ختمت بضعف، لأن الشاعر كان من اليائسين.

أما أبو فراس فقد انفسح أمامه مجال القول، فتحدث عن أدب الحرب فقال :
وَلَا أَصْبِحُ الْحَيَّ الْعَيُورَ بِعَارَةٍ أَوْ الْجَيْشَ مَا لَمْ تَأْتِهِ قَبْلِي التُّدْرُ

ومن أشرف آداب الحرب أن تُسبق بالنذير فلا يكون فيها تَبَيُّتٌ ولا اغتيال

وبلغ غاية الفخر حين قال :

وَيَا رَبَّ دَارٍ لَمْ تَخْفَنِي مَنِعَةً طَلَعْتُ عَلَيْهَا بِالرَّدَى أَنَا وَ الْفَجْرُ

وكلمة « لَمْ تَخْفَنِي » وكلمة « مَنِعَةٍ » من الكلمات الأصلية في هذا البيت،

وعبارة :

« طَلَعْتُ عَلَيْهَا بِالرَّدَى أَنَا وَ الْفَجْرُ »

فيها رَشَاقَةٌ وفيها خيال.

ولم يفت أبا فراس أن يتمجد بأدب النفس، وأن يذكر أنه كان يعفو ويصفح

حين تتقدم حسناء فتشفع لقومها عند ذلك المُغِيرِ الْبَطَّاشِ :

وَسَاجِبَةُ الْأَذْيَالِ نَحْوِي لَقِيَتْهَا فَلَمْ يَلْقَهَا جَافِي اللَّقَاءِ وَلَا وَعْرُ

وَهَبْتُ لَهَا مَا حَازَهُ الْجَيْشُ كُلُّهُ وَرُحْتُ وَلَمْ يُكْشَفْ لِأَبْيَاتِهَا سِتْرُ

وَلَا رَاحَ يُطْغِنِي بِأَثْوَابِهِ الْغِنَى وَلَا بَاتَ يُثْنِينِي عَنِ الْكَرَمِ الْفَقْرُ

وَمَا حَاجَتِي فِي الْمَالِ أُبْغِي وَفُورَهُ إِذَا لَمْ أَفِرْ عِرْضِي فَلَا وَفَرَ الْوُفْرُ

وهذا استطراد إلى محاسن نفسية يتمدح بها كرام الرجال.

وانقل أبو فراس إلى الحديث عن أسره فقال :

أَسِرْتُ وَمَا صَحْبِي بِعَزْلٍ لَدَى الْوَعَى

وَلَا فَرَسِي مُهَرَّ وَلَا رَبُّهُ غِمْرُ

وَلَكِنْ إِذَا حُمَّ الْقَضَاءُ عَلَى امْرِئٍ

فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَقِيهِ وَلَا بَحْرُ

والكلام عن القضاء والقدر هو العلالة البافية التي يفزع إليها الأبطال المهزومون،

والقدّر له في الأدب الشرقي مكان، فنراه عند العرب ونراه عند الهنود، وفي كتاب
كليّة ودمنة فقرات كثيرة عن القدر وتصريفه لسؤوول الناس، وما نحب أن نفعل
كما يفعل كتاب العرب فنقول إن هذا دليل على ضعف النفس الشرقيّة، هبّات،
فالناس في الشرق والغرب ضعفاء، وإنّ فنيهم النصر في بعض الأحيان، والإنسان
حيوانٌ لئيم فهو لا يذكّر القدر إلا حين يُغلب، وهو عند العافيّة ينسأى إلى منزلة
الإله المعبود.

وما أخطر ما يلقي الرجال في مآزق الكرب والضيم، حين يُخبر في الحرب
بين بليتين : بلية الفرار، وبلية الهلاك، وقد صوّر هذا أبو فراس أصدق نصوب
حين قال :

وَقَالَ أَصِيحَابِي الْفِرَارُ أَوْ الرَّدَى فَقُلْتُ هُمَا أُمْرَانُ أَخْلَاهُمَا مَرُ
وَلَكِنِّي أَمْضِي لِمَا لَا يَعْينِي وَحَسْبُكَ مِنْ أُمْرَيْنِ خَيْرُهُمَا الْأَسْرُ

وما رأيت كلمة صغرت بحق كما صغرت في هذا الموطن كلمة « أصيحاب »
فإن لم يكن الوزن هو الذي قضى بذلك فأبو فراس إذن من أبصر الشعراء بصياغة
الكلام.

وتلفت أبو فراس فرأى آسريه يمثون عليه بأن لم يحلوا تياه كما يصنعون
بالأسرى، ولعلهم لاحظوا أنه أمير، وأن الأمراء لهم في الأسر مقام ملحوظ،
فقرّعهم بهذين البيتين :

يَمْنُونُ أَنْ خَلَوْا ثِيَابِي وَإِنَّمَا عَلَيَّ تِيَابٌ مِنْ دِمَائِهِمْوُ حُمُرُ
وَقَائِمُ سَيْفٍ فِيهِمْوُ دُونَ نَصْلِهِ وَأَعْقَابُ رُمَحٍ فِيهِمْوُ حُطَمُ الصَّدْرِ

وبكاد هذا الشعر يفصح عن الوقت الذي قبل فيه هذا القصد، وأغلب الظن
أنه قاله في الأسبوع الأول من الأسر، وإن كان في بنية القصيدة ما ينسر بالعت
على فومه إذ قال :

سَبِّدْكَرْنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جَدُّهُمْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظُّلَمَاءُ بُفْتَفْدُ الْبَدْرِ
وَلَوْ سَدَّ غَيْرِي مَسَدَدْتُ اكْتَفَوْا بِهِ وَمَا كَانَ يَغْلُو النَّبْرُ لَوْ نَفَى الصَّفَرُ

فإن في هذين البيتين دلالة على أنهم أطلّوا في افتدائه، وكابوا من
الآثمين، تم قال :

وَنَحْرُ أَنْاسٍ لَا تَوْسُطَ بَيْنَا لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ
نَهْوُنْ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نُفُوسُنَا وَمَنْ يَحْطُبُ الْحَسَنَاءَ لَا بُعْلَهُ الْمَهْرُ
أَعَزُّ بَيْنِي الدُّنْيَا وَأَعْلَى بَيْنِي الْعُلَا وَأَكْرَمُ مَنْ فَوْقَ التُّرَابِ وَلَا فَحْرُ

وفي هذه الأبيات رجعة إلى قومه الذين تجاهلهم في صدر القصيد.

— ٤ —

أما بعد؛ فقد سارت قصيدة أبي فراس في كل أرض، ونعَى بها الناس في جميع
البلاد العربية، وما فيها من التشبيب حفظ في لوحة من ألواح الغناء سجلتها شركة
أوديون للآنسة أم كلثوم، وكلمة :
« لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ »

يُحفظها كل أديب. .. والبيت :
نَهْوُنْ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نُفُوسُنَا وَمَنْ يَحْطُبُ الْحَسَنَاءَ لَا بُعْلَهُ الْمَهْرُ

كُتِبَ ألف مرة ومرة في دفاتر الإنشاء.
أما قصيدة البارودي فقد نُسِيت مع الأسف الموحع، ولم يُحفظ منها
غير هذا البيت :

إِذَا اسْتَلَّ مِنْهُمْ سَيْدٌ غَرَبَ سَبْفِهِ تَفَزَّعَتِ الْأَفْلَاكُ وَالْتَفَتَ الدَّهْرُ
وكذلك نُكِبَ البارودي مريين : نُكِبَ حِينَ نَفَى وَلَمْ يَرْجِعْهُ قَوْمُهُ بِقُوَّةِ
السيف، وَنُكِبَ حِينَ نَسَى النَّاسَ شَعْرَهُ فِي مِفَاهِ.

وأكد أحكم بأن البارودي كان في الحرب أفتك من أبي فراس، والحرب بين
الحيش المصري ومن ساوره من الجيوش كانت أخطر من الحروب التي اسنرك
فما أبو فراس.

ولكن البارودي لظروف كثيرة فقد الحظّين معاً، فلم يبنصر سيفه، ولم بسر
شعره، والدنيا حظوظ، وإلا فكيف انخفضت هامة البارودي وكان عزمه يذكّ
الحبل.

أبها البارودي العظيم !
لست أتكلف الغضب لك، والإشفاق عليك، أنت عبقرية أضاعها المصريون
وأضاعها الزمان، ولكن لا تأس، ولا تحزن، فلست أول من أضاعهم المصريون
وأضاعهم الزمان !

البحث الثالث والثلاثون

بين أبي نواس وعبد الباقي إبراهيم

ملاعب الكرة في الشعر العربي

— ١ —

مَلَّاعِبُ الكُرَّةِ فيها لطف وجاذبية، وفيها سحرٌ وفُتُونٌ، ومع ذلك لم يتكلم عنها الشعراء إلا قليلاً، ولعل من أسباب تفصير الشعراء في هذا الباب أنهم كانوا في أغلب الأحوال لا يشاركون الشباب في ألعاب يابأها أدب الكهول، والشاعر يظل فتى القلب والروح، ولكنه يتوقَّر كثيراً فلا يشارك الشباب في ألعاب تنشأ أول ما تنشأ بين الأطفال.

ولست أعرف ما صنع شعراء الانجليز في وصف ملاعب الكرة، وهم من أمهر اللاعبين، ولكنني أعرف جيداً أن شعراء العصر الحاضر في مصر لم يُعْنُوا بوصف ملاعب الكرة على نحو ما عُتُوا بوصف المراقص مع أن لعب الكرة أحفل بالمعاني الحيوية، وهو أقدر من الرقص على العبت بأخيلة الشعراء.

ويمكن الحكم بأن اللعب تغلب عليه الصبغة الجدية بخلاف الرقص، ولكن أيكون الجدُّ مما يقضي على قرائح الشعراء بالركود؟ إن الجد في اللعب له معانٍ تخلق الألباب، وهو خليق بأن يحوِّل الشعراء إلى شبابطين، فلنعرف ذلك ولننظر

من شعراء مصر أن يُسجّلوا في أشعارهم روعات الحفلات السنوية التي نقام بالحزبرة، والتي ينبض فيها دم الشباب بأشرف الحبوات وهم يتقابلون صعين في ميدان الحرب العاتبة التي تنتهي دائماً بالسلام والصفاء.

وما أنس لا أنس ملعب الكرة في رحاب الجامعة المصرية، وقد أفهم في قصر الرعفران في شتاء سنة ١٩٢٦، وكانت المباراة يومئذ بين طلبة الجامعة المصرية وبين فريق من فتيان الأمريكان زاروا مصر في ذلك الحين، وكان الزعيم سعد زغلول يشهد ذلك الاحتفال. ثم مسّه البرد فانتقل إلى مكتب مدير الجامعة ووضعته المدفأة بين قدميه، ولبت تنتظر أخبار المباراة، واشتصر يومئذ النساء المصريون على الشباب الأمريكان، ولكنهم تطلّاموا في النهاية عامدين ليُسكنوا الصقُور الأمريكية من الظفر المصنوع.

في ذلك اليوم كنت أتمنى أن يتقدم شاعر فيصف ذلك الملعب الجذاب، ولكن أين الشعراء؟ إن ملاعب الكرة تقام في منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر، وهي لحظة يقضيها شعراؤنا فوق الوسائد بعد غداء العدس والبقول، وليس في مصر شاعر يتخذ قوته من الحب والنسيم.

مالي ولهذا؟ أنا لا أكتب هذا الفصل لأفصل في قضية الشعراء، فلنتركهم للحياة تؤدب منهم من تشاء، وتنسى من تشاء، ولننقل إلى وصف ملعب الكرة في قصيده أبي نواس، وقصيدة عبد الباقى إبراهيم.

— ٢ —

حدّث حمزة الأصفهاني أن أبا نواس خرج يوماً مع العباس بن موسى الهادي إلى « عيسانا باز » فوجد في الميدان رهبر بن المسبب والصقّر بن مالك الحزاعي يلعبان بالصوالحة فدخل مع القوم فصاروا حزينين فغلبهم، ثم أكل معهم وشرّب، فلما طرب قال هذه الأرجورة :

قدّ أشْهَدُ اللّهُوْ بفتيانٍ عُرِرْ مِنْ وَلَدِ الْعَبَّاسِ ساداتِ البَشَرِ

وَمِنْ بَيْنِي قُحْطَانٌ وَالْحَيِّ مُضَرٌ
 زَيْنٌ حُسْنٌ وَجْهٌ طِيبُ الْحَبَرِ
 مِنْ كُلِّ طَرْفٍ أَعْوَجِي قَدْ ضَمَرُ^(١)
 جِنٌّ عَلَى جِنٍّ وَإِنْ كَانُوا بَشَرٌ
 أَوْ سُمُرُ الْفَارِسُ فِيهَا فَانْسَمِرُ
 مُكَلَّلَاتٍ بِيَهَارٍ وَزَهَرُ
 إِذْ ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ فِي عِبِّ مَطَرُ
 مَحْنِيَّةٌ أَطْرَافُهَا فِيهَا زَوَرُ^(٢)
 فَلَمْ يِعْبْ طُولٌ وَلَا شَانَ قِصَرُ
 مُدْمَجَةٌ الْأَرْكَانِ مُدْمَاةَ الطَّرَرِ
 أَحْكَمَهَا صَانِعُهَا لَمَّا فَطَرُ
 فَلَيْسَ لِلْإِشْفَاءِ بِالْجُلْدِ أَثَرُ
 حَتَّى إِذَا مَا أَعْلَقَ الْقَوْمُ الْخَطَرُ
 مُحَرَّبًا يَوْمَ الرَّهَانِ الْمُحْتَضَرِ
 فَلَمْ بَحْرٌ مِنْهُمْ وَلَا الْعَيْنُ فَنَرُ
 بِكَرَّةٍ دَحَا بِهَا ثُمَّ زَجَرُ
 رَفْعًا وَوَضْعًا أَيَّمَا ذَلِكَ اسْتَقَرُ
 نَدَافَعُ التَّبَلِ بِإِزْعَاجِ الْوَتَرِ

مِنْ كُلِّ مَالُوفٍ كَرِيمِ الْمُعْتَصَرِ^(٣)
 عَلَى حِيَادٍ كَتَمَائِيلِ الصُّورُ
 لَمْ يَكُوِهِ الْبَيْطَارُ مِنْ دَاءِ الْحَمَرِ^(٤)
 كَانَمَا خَبَطُوا عَلَيْهَا بِالْإِبَرِ
 بَيْنَ رِيَاضٍ مِثْلِ مَوْشَى الْحَبَرِ
 فَانْتَدَبُوا فِي يَوْمٍ قُرٌّ وَخَصَرُ
 صَوَالِحًا يَصُبُّو إِلَيْهَا مَنْ نَظَرُ
 قَدَرَهَا شَابِرُهَا لَمَّا سَبَرُ
 وَقَدْ نَادَوْا فَتَرَامَوْا بِالْأَكْرِ^(٥)
 شَدَّدَ صِفْقِي مَتْنَهَا حَسُو الشُّعْرِ^(٦)
 الْطَفَّ بِالْإِشْفَاءِ خَرَزًا إِذْ دَسَرُ^(٧)
 يُحَسِّنُ تَفَاحًا تَدَلَّى فِي شَجَرِ
 وَوَكَّلُوا بِالْبَزِّ مِقْدَامًا ذَكَرُ^(٨)
 فَضْلُهُ حَذَقٌ وَضَرْبٌ مُشْتَهَرُ
 وَأَسْتَفْدَمَ الْقَوْمُ رَيْسُ ذُو خَطَرُ
 فَاثْحَدَرَتْ كَالنَّجْمِ وَلَّى فَاثْكَدَرُ
 تُدْفِعُ بِالضَّرْبِ إِذَا الضَّرْبُ اسْتَمَرُ
 فَلَمْ نَرَى فِيهِمْ حَلِيمًا ذَا وَقَرُ

(١) كرم المعتصر : جواد عبد السؤال

(٢) الأعوجي : سمة إلى أعوج، فرس كان لني هلال نسب إليه الأعوجيات

(٣) الحمر — بفتح الحاء — داء يعنري الدواب من كثرة أكل الشعير فتتس أفواهاها.

(٤) الرور بالتحريك : الميل..

(٥) الأكر جمع أكرة، وهي لعة في الكره.

(٦) الصمقان : مشى صفق وهو الحانب.

(٧) الإشفاء — بالمد للصروره — مثقب بخرر به الحلد. ودرس: أدخل الإشفى في الحلد،

(٨) البر . الغلبة والقهر.

إِذَا أُجَادَ الصَّرَبَ فَدَى وَنَعَرَ وَعَطَعَطَ الْمَرْءَ الَّذِي يَرْخُو الظَّفَرَ^(١)
وَأَكْتَأَبَتْ نَفْسُ الَّذِي خَافَ الْغَيْرَ وَأُيَقِنُوا أَنَّ فِدَ عَلاَهُمْ وَقَهَرُ
حَتَّى يَفُوزَ بِالرَّهَانِ مِنْ قَمَرٍ يُسَاءُ هَذَاكَ وَهَذَاكَ يُسَرُّ
« كَذَلِكَ آلَ دَهْرٍ وَنَصْرِيفُ الْقَدَرِ »

وهذه أرجوزة رشيقة نحب أن بتأملها القارىء ليدرك ما فيها من خفة الحركة ودقة التصوير، وعيساناباد محلة كانت بشرقيّ بغداد منسوبة إلى عيسى بن المهدي، و« ناباذ » كلمة فارسية معناها العمارة، وهذه المحلة خلدها أبو نواس في هذا الرجز الطريف.

— ٣ —

أما عبد الباقي إبراهيم فقال فصيادته في وصف مباراة كرة القدم بين تلاميذ مدرسة شحرم بك، وتلاميذ مدرسة رأس النين بمدينة الاسكندرية، مدينة الملاعب في الصيف وغير الصيف.

وإليك أرجوزته :

مَنَعْتُ فِيهِ الْعَبْنَ وَالصَّيْرَا	أَذْكُرُ يَوْمًا أَغْلَنَ السُّرُورَا
لَا بَارِدَ الْجَوِّ وَلَا مَطِيرَا	يَوْمَ الْخَمِيسِ الصَّاحِكِ النَّصِيرَا
طَوَوْا عَلَى حَتِّ الْعَلَا ضُورَا	صَحْنَتْ فِيهِ مَعْشَرًا مَبْرُورَا
يَفِيضُ لِلشَّعْبِ هُدًى وَنُورَا	حَتَّى أَتَيْنَا مَعْهَدًا مَشْهُورَا
فَبِهِ الصُّقُورُ بَارَتِ الصُّقُورَا	حَيْثُ شَهِدْنَا لَعِبَا مَشْكُورَا
أَمَامَ جَيْشٍ جَاءَهُمْ مُغِيرَا	أَبْنَاءُ (رَأْسِ الثَّيْنِ) كَانُوا سُورَا
وَلَا بَرَى مِنْ بَيْنِهِمْ مُؤْتُورَا	جَيْشَانِ مَا طَلَّا دَمًا طُهُورَا
بَعْضُ لِبَعْضٍ قَدْ عَادَا ظَهْرَا	قَدْ نَظَّمُوا صُفُوفَهُمْ سَطُورَا
مِنْ الْعَدُوِّ مَيَّرَ النَّصِيرَا	وَنَمَرُوا بَابَهُمْ تَنْمِيرَا

(١) عطعط : صاح.

تَسَاجَلُوْهَا كُورَةً فَرُوْرًا
فَمَرَّةً تَخْتَرِفُ الْأَيْسَرَ
وَمَرَّةً تُصَادِمُ- النَّسُوْرَا
تَرْمِيْ بِهَا الرَّحْلُ الْمَدَى الْقَصِيْرَا
وَإِنْ بُرِدَهَا الرَّأْسُ أَنْ تَطِيْرَا
لَا تَلْمَسُ الْكَفَّ لَهَا شَكِيْرَا
وَأَسْعَلُوا وَطِيْسَهَا سَعِيْرَا
فَذَا تَرَاهُ أَسَدًا هَضُوْرَا
وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ هَوَى مَكْسُوْرَا
ظَلُّوا عَلَى هَذَا مَدَى قَصِيْرَا
فَمَا أَشْتَكُوا عِيًّا وَلَا فُتُوْرَا
حَتَّى إِذَا مَا سَمِعُوا صَفِيْرَا
وَأَنْصَرَفُوا تَحْسِبُهُمْ مَنُثُوْرَا
نَمْ أَحْتَمَعْنَا نُكْمِلُ الْحُبُوْرَا
أَفَاصَتْ الْحَلَوَى عَلَيْهِ الثُّوْرَا

وهذا أيضاً رَجَزٌ طريف، ولكن انظروا قليلاً في الموازنة بين الفصيدتين.

— ٤ —

ولنذكر في بداية هذه الموازنة أن أبا نواس هو دائماً أبو نواس، وبالرغم من الطرافة البادية في قصيدة عبد الباقي فإن قصيدة أبي نواس أرشنى وأبدع وأظرف، وكيف لا تكون كذلك وقد قالها بعد لعب ختم بكؤوس الصهباء، على حين ختمت حملة رأس التين بفناجين الشاي !

وربما كان من أسباب نفوق أبي نواس أنه اشترك في اللعب ثم فاز، أما عبد الباقي فكان من المتفرحين، وحماسة اللاعب أفوى وأعنف من حماسة المتفرج، بضاف إلى هذا أن الذين تلاعبوا في ملعب رأس التين كانوا من التلاميذ، على

حين كان الذين تلاعبوا في عيساناباذ من الفتيان الميامين أمراء بني العباس.
وألفاظ أبي نواس كلها مُتَخَيَّرَةٌ، أما ألفاظ عبد الباقي ففيها القوى والضعف
يقول أبو نواس :
قَدْ أَشْهَدُ اللَّهَ بِفَتْيَانٍ غُرِرَ مِنْ وَلَدِ الْعَبَّاسِ سَادَاتِ الْبُشَرِ
ويقول عبد الباقي :

صَحِبْتُ فِيهِ مَعْشَرًا مَبْرُورًا طَوَّوْا عَلَى حُبِّ الْعُلَا ضُدُّورًا
ولكم أن تنظروا الفرق بين « الفتيان الغرر » في كلام أبي نواس، و « المعشر
المبرور » في كلام عبد الباقي، ولكن لا بأس فأبو نواس يصف اللاعبين، أما عبد
الباقي فيصف جماعة من الأساتذة قوَّس الدهر ظهورهم فمشوا إلى الملعب منتقلين.
والمشهد مختلف بعض الاختلاف، فأصحاب أبي نواس يلعبون وهم فوق ظهور
الحياد، أما أصحاب عبد الباقي فيلعبون فوق ظهر الأرض، ومن أجل ذلك نفردت
قصيدة أبي نواس بهذه الشطرات في وصف ثبات اللاعبين على ظهور الخيل.
« جَنَّ عَلَى جَنٍّ وَإِنْ كَانُوا بَشَرٌ »
« كَانَمَا يَحِيطُلُوا عَلَيْهَا بِالْإِبَرِ »
« أَوْ سَمَرَ الْفَارِسُ فِيهَا فَانْسَمَرُ »

وكذلك نفرد أبو نواس بوصف الحياد، وليس لذلك في ملعب رأس النسي
مجال، ولم نكن نعرف لماذا شغل عبد الباقي نفسه بوصف الجوِّ فذكر أنه لم يكن
بارداً ولا مطيراً، مع أن الحفلات السنوية للألعاب نقام في مطلع الربيع، ولبس
في مصر برد ولا مطر، والآن نرحح أن هذه اللفته وردت إلى ذهنه من قول
أبي نواس :

« فَأَتَدَبُّوا فِي يَوْمٍ فُرٍّ وَخَصِرٌ »
« إِذْ ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ فِي غَبِّ مَطَرٍ »

ونفرد أبو نواس بوصف الكرة، وكيف تأنق فيها الصانع فلم يسن في جلد لها
أثر للخمر حتى بدت كالنفاح تدلى من الشجر، وهو وصف حسِّي ولكنّه حمل

لدلالته على قوة الكرة وصلاحتها للكرّ في الفضاء، ولم يتحدث عبد الباقي عن شيء من ذلك، لأن الكرة في عصرنا لم نعد شيئاً غريباً يوصف بالملاسة ومثانة الأركان.

ووصف أبو نواس حركة الكرة بهذه الشطرات :

« فَأَنْحَدَرَتْ كَالْتَّجْمِ وَلَّى فَأَنْكَدَرَ »
« رَفَعًا وَوَضَعًا أَيُّمَا ذَاكَ اسْتَقَرَّ »
« تَدَافَعُ التَّبَلُّ بِإِرْعَاجِ الْوَتَرِ »

وأكد أحكم بأن أبيات عبد الباقي في هذا المعنى أروع إذ نقول :

نَسَاجِلُوهَا كُورَةً فَزُرُورًا نَصْدِفُ عَنْ وَجْهِ الثَّرَى نُفُورًا
فَمَرَّةٌ تَخْتَرِفُ الْأَيْسَرَ قُبْلَةً تُهْدِمُ الْفُصُورًا
وَمَرَّةٌ تُصَادِمُ النُّسُورًا تَزْفِرُ فِي مَطَارِهَا زَفِيرًا
نَزِمِي بِهَا الرَّجُلَ الْمَدَى الْقَصِيرَا يَرْجِعُ طَرْفِي دُونَهُ حَسِيرَا
وَأِنْ يُرِدْهَا الرَّأْسُ أَنْ تَطِيرَا سَمَتْ كَمِنْطَادٍ بَدَا صَغِيرَا

واشترك الشاعران في وصف حَسرة المنهزمين، وفي هذا قَصَرَ عبد الباقي فلم يزد على أن يقول :

وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ هَوَى مَكْسُورَا يَنْدُبُ فِيهِمْ حَظُّهُ الْعُورَا

أما أبو نواس فقد ساق ذلك مَسَاق الحكمة الباقية فقال :

« وَأَكْتَنَابَتْ نَفْسُ الذِّي خَافَ الْغَيْرِ »
« يُسَاءُ هَذَاكَ وَهَذَاكَ يُسَرُّ »
« كَذَلِكَ الدَّهْرُ وَتَصْرِيفُ الْقَدَرِ »

ومثل أبو نواس جَذَلَ الفائزين نمتيلاً طربفاً إذ فال بصف طيش اللاعبين :

« فَلَمْ نَرَى فِيهِمْ حَلِيمًا دَا وَقَرَّ »
« إِذَا أَجَادَ الصَّبْرَ فَدَى وَنَعَرَ »

أما عبد الباقي فقد سما بلاعبيه إلى أفق الجدّ حين قال :

وَأَشْعَلُوا وَطِيسَهَا سَعِيرًا وَرَأَتْ أَصْوَانَهُمْ رَئِيرًا
فَإِذَا نَرَاهُ أَسَدًا هَضُورًا وَدَا تَرَاهُ بَازِيًا حُدُورًا

وتفرد عبد الباقي بالإشارة إلى تياب الملعب إذ قال :
وَنَمَرُوا ثِيَابَهُمْ تَنَمِيرًا مِنَ الْعَدُوِّ مَبَرَّ النَّصِيرَا

وتفرد كذلك بالحديث عن خاتمة اللعب حين قال :
وَأَنْصَرَفُوا تَحَسُّبُهُمْ مَثُورًا مِنَ الْأَقَاخِ ضَاخَكِ الْمَثُورَا
تُمْ أَجْتَمَعْنَا نَكْمِلُ الْحُبُورَا حَوْلَ خِوَانٍ يَشْرُخُ الصُّدُورَا
أَفَاضَتْ الْحُلُوى عَلَيْهِ الثُّورَا وَأَغْرَتِ الْأَعْيُنَ وَالْتُّورَا

والذي يحكم بين اللاعبين هو في لغة هذا العصر، وفي أرجوزة عبد الباقي
اسمه « الحَكَم » وفي أرجوزة أبي نواس اسمه « الرئيس ».

وتفرد أبو نواس بوصف الصوالج ولم يكن لها في ملعب رأس التين مكان.
وتفرد عبد الباقي بالحديث عن صفاء القلوب في صدور اللاعبين حين قال :
أُبْنَاءُ رَأْسِ التِّينِ كَانُوا سُورَا أَمَامَ جَبْشٍ جَاءَهُمْ مُغِيرَا
جَيْشَانِ مَا طَلَا دَمًا طَهُورَا وَلَا تَرَى مِنْ بَيْنِهِمْ مَوْثُورَا
ومن غريب ما اتفق للشاعرين أن اشتركا في إشباع فعل محزوم، فقال أبو

نواس :
« فَلَمْ نَرَى فِيهِمْ حَلِيمًا ذَا وَقَرٍ »

وفال عبد الباقي :
« وَلَمْ تَرَى فِي لِعِبِهِمْ مَنُكُورَا »

ولم أفهم كلمة « الضمير » في قول عبد الباقي :
« مَتَّعْتُ فِيهِ الْعَيْنَ وَالضَّمِيرَا »

ولعله يريد القلب.

تلك وجوه من المفاضلة بين قصيدتين في ملعب الكرة، وقد بقيت أشياء نمتس
اللغة، وتمس الأسلوب، ولكنها لا تخفى على المتأدبين من ذوي الألباب.

البحث الرابع والثلاثون

بين شوقي وابن زيدون

— ١ —

نحن مقبلون في هذا البحث على وادٍ ظليل من أودية البيان : مقبلون على الموازنة بين نونية شوقي، ونونية ابن زيدون، مقبلون على مصافحة شاعرين من أهل العبقرية، ومراجعة قصيدتين شغلت احدهما الناس تسعة قرون، وشغفت الثانية ألوف القلوب.

وابن زيدون صاحب النونية، شخصية تمتاز بميزة ظاهرة، فهو رجل خلقه الدسائس في الحب والملك، ولا يمكن أن نعرف فضل الشر إلا إذا تمننا مصير ابن زيدون، فالدسائس من ألوان الشر الوضع، ولا يعتصم بالدسائس إلا الضعاف العجزة من صغار الناس، ولكن الدسائس تعود بالنفع والخير في أكثر الأحيان، فلولا الدسائس في الحب والملك لما تفجرت عبقرية ابن زيدون، ولا رأى العالم تلك الأقباس الخالدة التي تسطع من أدبه الرفيع.

ومن عجائب ما يقع في الحياة أن تكون المنازل الأدبية العالية من نصيب من أصيبوا بالحرمان في دنيا الحب والمجد، فالرجل حين يُحرّم تتفجر عبقريته ويسيطر على الدنيا سيطرة أدبية تعوض عليه ما ضاع من نعيم الراحة الروحية والدينية،

والمجد الأدبي متاعٌ ليس بالليل، وهو جدير بأن بوضع في الميزان ولا يُعْضَ من قيمة هذه الغنيمة ما عرف وبعرف الناس من أن العفريين لا يُحْسُون أثر هذا العوض، ولا يرضون عن زمانهم، وإن بلغت شهرتهم آفاق السماء، هذا لا يعرض من قيمة تلك الغنيمة، فقد بظهر بعد حين أن الأرواح تأنس أسا مكنوبا بظفرها في عالم الفكر والبيان.

وقد شاءت المقادير أن تخص ابن زبدون بنفحة فريدة بليتين لا يتلى بهما رجل كريم إلا عرف كيف يكون العز والذل، والشهد والعلفم، والنعم والجحيم. أما البلية الأولى فهي الحب، وأما البلية الثانية فهي المجد، وبين الحب والمجد أخطار ومصاعب تهد العزائم وتدق الأعناق.

ولا يهمنا في هذا المقام أن نشير إلى منزلة ابن زيدون الوزير، وإنما يهمنا أن نشير إلى منزلة ابن زيدون العاشق، فالوزارة منصب غادر يتنقل من يد إلى يد، كما يتنقل القرش المثقوب من جيب إلى جيب، أما الحب فنفحة روحانية لا بعقب طيها إلا في كرام القلوب.

الحب هو الذي فجّر العبقريّة في صدر ابن زبدون، ولكن أيّ حب ؟ لقد كان ذلك الرجل يحب امرأة حظيرة تجمع بين الحسن والذكاء.

والحسن منحة إلهية نزفها الله إلى من يشاء، وهو خليقٌ بأن يصنع ما يصنع فيُعزّزُ وبُذِلَ، ويرْفَعُ ويضع، ويكْرَمُ ويُهين، ولكن الحسن وحده لا يأسر الفلوب، وإنما يُسَيِّطِرُ ويستطيل حين يحد رفقا من خفة الروح ومن لطف الذكاء.

كان ابن زيدون يحب امرأة جميلة ذكية على جانب من حلاوة السمائل ولطف الوجدان، وهذا النوع نادر الوجود، والمرأة حين تُمنَحُ الجمال والذكاء نحارب بسيفين مرهفين، ونحوّل الدنيا إلى مآتم وأفراح، والشاعر الذي يحب امرأة جميلة ذكية يصبح إحساسه كالقوود الذي يُقدّم إلى النار، ومن قلب العاشق الحساس وذكاء المرأة الجميلة تقوم دنبا الشعر الجميل.

أعرفتم الآن كيف نبغ ابن زبدون ؟

إن لم نعرفوه فاسمعوا هذه الزفرة، وهو ينشوق إلى تلك المحبوبة التي ملكت قلبه، واستأثرت بنبهاته :

هَلْ رَاكِبٌ ذَاهِبٌ عَنْهُمْ يُحْيِي
قَدْ مِتْ إِلَّا ذِمَاءٌ فِي يُمُسِكُهُ
مَا سَرَّحَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنِي وَأَطْلَفَهُ
صَبْرًا لَعَلَّ الَّذِي بِالْبُعْدِ أَمْرَضَنِي
كَيْفَ أَصْطَبَارِي وَفِي كَانُونَ فَارَقَنِي
شَخْصٌ بَذَكَرُنِي فَاهُ وَغُرَّتُهُ
لَعْنٌ عَطِشْتُ إِلَى ذَاكَ الرُّضَابِ لَكُمْ
وَأِنْ أَفَاضَ دُمُوعِي نَوْحُ بَاكِتَةٍ
وَأِنْ بَعُدْتُ وَأَضْطَنَّتِي الْهُمُومُ لَقَدْ
أَوْ حَلَّ عَقْدَ عَزَائِي نَابَهُ فَلَكُمْ
يَا حُسْنَ إِشْرَاقِ سَاعَاتِ الدُّنُو بَدَتْ
وَاللَّهِ مَا فَارَقُونِي بِاخْتِيَارِهِمْ
وَمَا تَبَدَّلْتُ حُبًّا غَيْرَ حُبِّهِمْ
أَفْدِي الْحِسْبَ الَّذِي لَوْ كَانَ مُقْتَدِرًا

إِذْ لَا كِتَابَ يُؤَافِينِي فَيُحْيِينِي
أَنَّ الْفُؤَادَ بِلِقْيَاهُمْ رُجِّي
إِلَّا أَعْتِيَادُ أَسَى فِي الْقَلْبِ مَسْجُونٍ
بِالْقُرْبِ بَوَّما يُدَاوِيهِ فَيَشْفِينِي
قَلْبِي وَهَذَا نَحْنُ فِي أَغْقَابِ تَشْرِبِنِ
شَمْسُ النَّهَارِ وَأَنْفَاسُ الرِّيحَيْنِ
قَدْ بَاتَ مِنْهُ يُسْقِينِي فَيُروِيْنِي
فَكَمْ أَرَاهُ يُغَيِّنِي فَيُشْجِينِي
عَهْدُهُ وَهُوَ يُدِينِي فَيُسْلِينِي
حَلَلْتُ عَنْ خَضْرَاهِ عَقْدَ الثَّمَانِينِ
كَوَاكِبًا فِي لَبَالِي بُعْدِهِ الْجُونِ
وَأَمَّا الدَّهْرُ بِالْمَكْرُوهِ بِرَمِينِي
إِذَا تَبَدَّلْتُ دِينَ الْكُفْرِ مِنْ دِينِي
لَكَانَ بِالنَّفْسِ وَالْأَهْلِينَ يَفْدِينِي

ولنسارع فنذكر أن هذه المحبوبة هي ولادة بنت المستكفي التي يقول فيها ابن خاقان :

« كانت من الأدب والظرف، وتيسر المسمع والطرف، بحيث تختلس القلوب والألباب، ونعيد الشيب إلى أخلاق الشباب ».

كانت ولادة فاتنة الجمال، وكانت أديبة تنظم الشعر البارع، وتذكر أسرار الكلام البليغ. والشاعر الذي يهوى فتاة أديبه ينعم مربي، ينعم بالحب، وينعم بالشعر، والشعر لا يقوى وبنضج إلا إذا عرف الحب أنه يوجه أنغامه إلى أدب سميع وقلب يذوق.

وإليكم هذا القصيد في خطاب تلکم الأديبة الحسنة :
 إِنِّي ذَكَرْتُكَ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَاقًا
 وَالْأَفُقُ طَلَقٌ، وَمَرَأَى الْأَرْضَ قَدْ رَاقَا
 وَلِلنَّسِيمِ اعْتِلَالٌ فِي أَصَائِلِهِ
 كَأَنَّهُ رَقٌّ لِي فَاعْتَلَّ إِشْفَاقَا
 وَالرَّوْضُ عَنِ مَائِهِ الْفِضِّيِّ مُبْتَسِمٌ
 كَمَا شَقَّقْتَ عَنِ اللَّبَاتِ أُطْوَا
 يَوْمَ كَأَيَّامٍ لَذَاتٍ لَنَا انْصَرَمَتْ
 بَنَيْنَا لَهَا حِينَ نَامَ الدَّهْرُ سُرَاقَا
 نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهْرٍ
 جَالَ النَّدى فِيهِ حَتَّى مَالَ أُعْنَاقَا
 كَانَ أَعْيُنُهُ إِذْ عَايَنْتَ أَرْقِي
 بَكَتْ لِمَا بِي فَجَالَ آلَدمُعَ رُفُوقَا
 وَرَدَّ تَأَلَّقَ فِي ضَاحِي مَنَائِلِهِ
 فَارْدَادَ مِنْهُ الضُّحَى فِي الْعَيْنِ إِسْرَافَا
 سَرَى يُنَافِحُهُ نَيْلُوفَرٌ عِبَقُ
 وَسَنَانُ نَبِّهِ مِنْهُ الصُّبْحُ أَحْدَاقَا
 كُلُّ يَهِيحُ لَنَا ذِكْرَى تَشْوُقُنَا
 إِلَيْكَ لَمْ يَعُدْ عَنْهَا الصَّدْرُ أَنْ ضَاقَا
 لَا سَكَنَ اللَّهُ قَلْبًا عَنْ ذِكْرِكُمْ
 فَلَمْ يَطِيرْ بِجَنَاحِ السَّوْقِ خِفَافَا
 لَوْ شَاءَ حَمَلِي نَسِيبُ الصُّبْحِ حِينَ سَرَى
 وَافَاكُمُ بِفَتَى أَضْنَاهُ مَا لَاقَا
 لَوْ كَانَ وَفَى الْمُتَى فِي جَمْعِنَا بِكُمْ
 لَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْأَيَّامِ أُخْلَافَا

كَانَ التَّجَارِي بِمَحْضِ الْوُدِّ مِنْ زَمَنِ
مَيْدَانِ أَنْسِ جَرِيئًا فِيهِ أَطْلَاقًا
فَالآنَ أَحْمَدَ مَا كُنَّا (لِعَهْدِكُمْ)
سَلَوْتُمْ وَيَقِينَا نَحْنُ عُشَاقًا

— ٢ —

لا يمكن أن يتسع الحديث لتفصيل غرام ابن زيدون، وإنما أردنا أن نهد لتلك النونية البديعة التي نفحنا بها ذلك الغرام الطريف.

ونونية ابن زيدون هذه قصيدة نادرة يحفظها جميع الأدباء في جميع البلاد العربية، وهي في الشعر العربي تذكر بليالي موسيه في الشعر الفرنسي، فكما أن الفرنسيين جميعاً يعرفون ليالي موسيه، فالعرب يعرفون جميعاً نونية ابن زيدون، فإن كان في القراء من يجهل هذه القصيدة فليعرف واجبه نحو لغته وقوميته، فإنه لا يليق بشاب مثقف أن يجهل نونية ابن زيدون التي سارت مسير الأمثال.

وقد يكون في القراء من يقول : إنها قصيدة في الحب، وما هو الحب ؟ والمجال لا يتسع مع الأسف لبيان خطر الحب الذي لا يعرف غير قلوب الفحول من الرجال، وإنما نشير إلى أن رواية الأدب الحق الذي يصدر عن صدق المشاعر والقلوب، هي في ذاتها متعة ذوقية لا يَصْدِفُ عنها إلا العاقلون.

وإلى آذانكم وقلوبكم نسوق هذه القصيدة العصماء^(١) :

أَصْحَى التَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِيَا وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيَانَا تَجَافِيَا
أَلَا وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبَحَنَا حِينَ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِيَا
مَنْ مُبْلَغُ الْمُلْبِسِينَ بِانْتِزَاجِهِمْ حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَبْلَى وَيُئِيلِيَا

(١) رأينا أن نسوق هذه النونية كاملة لأنها في غرض واحد لا يظهر جماله. إلا وهي مؤلفة الشمل ولا كذلك نونية شوقي، فانها مختلطة الأغراض، وستكشف الموازنة عن نقل شوقي من فن إلى فن ونفاذه من مسلك إلى مسلك.

أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَارَالَ يُضْحِكُنَا
غَيِّظَ الْعِذَاءَ مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى فَدَعُوا
فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِنَفْسِنَا
وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْسَى تَفَرَّقْنَا

أُنْسًا بِفُرْبِهِمْ وَدَّ عَادَ يُكِينَا
بِأَنَّ بَغْضَ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا
وَأَنْتَ مَا كَانَ مَوْضُوعًا بِأَبْدِينَا
فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا بُرِّجَى تَلَاوِينَا

بَالَيْتَ بِسُعْرِي وَلَمْ نُعْتَبِ أَعَادِبُكُمْ
لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ لَكُمْ
مَا حَقَّقْنَا أَنْ تُقَرُّوا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ
كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تُسَلِّبُنَا عَوَارِضُهُ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا
نَكَادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا
حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَعَدَتْ
إِذْ جَانِبَ الْعَيْشِ طَلَّقَ مِنْ تَالَفْنَا
وَإِذْ هَمَصْنَا فُنُونِ الْوَصْلِ دَانِيَةً
لِيُسْقَ عَهْدُكُمْ عَهْدُ السُّرُورِ فَمَا
لَا تَحْسَبُوا نَايَكُمْ عَنَّا بُغَيْرُنَا
وَاللَّهِ مَا طَلَبْتَ أَرْوَاحَنَا بَدَلًا
يَا سَارِي الْبَرْقِ غَادِرَ الْقَصْرِ فَاسْقَ بِهِ
وَأَسْأَلُ هُنَالِكَ هَلْ عَنَى تَذَكُّرُنَا
وَيَانِسِيهِم الصَّبَا بَلَّغْ تَحِيَّتِنَا
فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ بِفَضْلِنَا مُسَاعِفَةً

هَلْ نَالَ حِطَاءً مِنَ الْعُتْبَى أَعَادِينَا
رَأْيَا وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا
بِنَا وَلَا أَنْ نَسْرُوا كَاسِحًا فَمِنَا
وَقَدْ يَسُّنَا فَمَا لِلْيَأْسِ بُعْرِينَا
شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا حِفَّتَ مَا قِينَا
بِقَضِي عَلَيْنَا الْأُسَى لَوْلَا تَأْسَبُنَا
سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضًا لَالِبِنَا
وَمَرْبَعُ اللَّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
قُطُوفُهُ فَجَنِينَا مِنْهُ مَا شِينَا
كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِبَاحِينَا
إِذْ طَالَمَا غَيْرَ اللَّائِي الْمُحِبِّينَا
مِنْكُمْ وَلَا انْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِنَا
مَنْ كَانَ صَرْفَ الْهَوَى وَالْوَدَّ بِسُقْبِنَا
إِلْفًا نَدْكُرُهُ أَمْسَى بُعَيْنِنَا
مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَيَّى كَانَ يُحْيِينَا
مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَبًّا تَقَاضِينَا

رَبِّبْ مُلْكَ كَأَنَّ اللَّهَ أَنْشَأَهُ
أَوْ صَاغَهُ وَرَقًا مَحْضًا وَنَوَّحَهُ
إِذَا تَأَوَّدَ آدَنُهُ رِفَاهِيهِ
كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِلًّا فِي أَكْلَتِهِ

مُسَكَّا وَفَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا
مَنْ نَاصَعَ النَّبْرَ إِبْدَاعًا وَنَحْسِينَا
نَوْمُ الْعُقُودِ وَأَدْمَتُهُ الْبَرَى لَبِنَا
بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَابِينَا

كَأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِي صَحْنٍ وَجْتِهِ زُهِرَ الْكَوَاعِبِ تَعَرُّبُداً وَتَرْبِيسَا
مَا صَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ سَرَفاً وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَايُفِيسَا

يَا رَوْضَةً طَالَمَا أُحْنَتْ لَوَاحِظَتَنَا وَرَدّاً جَلَاهُ الصَّبَا غَضّاً وَنَسْرِبَنَا
وَيَا حَيَاةً تَمَلَّيْنَا بِزَهْرَتَيْهَا مُنَى ضُرُوباً وَلَذَاتٍ أَفَايِنَا
وَيَا نَعِيماً خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ فِي وَشْيٍ نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا
لَسْنَا نُسَمِّيكُ إِحْلَالاً وَتَكْرِمَةً فَقَدَّرُكِ الْمُعْنَى عَنْ ذَلِكَ يُغْنِينَا
إِذَا انْفَرَدْتَ وَمَا شُورَكَ فِي صِفَةٍ فَحَسْبُنَا الْوُصْفُ ابْضَاحاً وَتَبْيِينَا

يَا حَنَّةَ الْحُلْدِ أُبْدِلْنَا بِسُلْسِلَيْهَا وَالْكَوْثَرَ الْعَذْبَ زَقُوماً وَغَسْلِينَا
كَأَنَّمَا لَمْ نَبْتَ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَحْفَانِ وَإِسِينَا
سِرَانٍ فِي حَاطِرِ الظُّلَمَاءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى تَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْتِسِنَا
لَا غَرَوْفِي أَنْ ذَكَرْنَا الْحُبَّ جِيزَنَهْتَ عَنْهُ اللَّهُي وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِيسَا
إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ النَّوَى سُوراً مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ نَلْقِينَا
أَمَّا هَوَاكُ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ شِرْباً وَإِنْ كَانَ بَرُوبَنَا فَبُظْمِينَا
لَمْ نَجْفُ أَفَقَ جَمَالِ أَنتِ كَوَكْبِهِ سَالِسِينَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِبَا
وَلَا اخْتِياراً تَجَنَّبْنَاهُ عَنْ كَثْبِ لَكِنْ عَدَّتْنَا عَلَى كُرْهِ عَوَادِينَا
نَاسِي عِلْبِكَ إِذَا حُتَّتْ مُنْعَشَعَةً فِينَا الشُّمُولُ وَغَنَانَا مُعْنِينَا
لَا أَكُؤْسُ الرَّاحِ تُبْدِي مِنْ سَمَائِلِنَا سِبْمَا أَرْيَاحٍ وَلَا الْأَوْبَارُ نُلْهِينَا
دُومِي عَلَى الْعَهْدِ مَا دُمْنَا مُحَافِظَةً فَالْحُرُّ مَنْ دَانَ إِنْصَافاً كَمَا دِينَا
فَمَا اسْتَعْصَمْنَا خَلِيلاً مِنْكَ يَحْبُسُنَا وَلَا اسْتَعْدَدْنَا حَبِيباً عَنْكَ يُثْنِينَا
وَلَوْ صَبَا نَحْوَنَا مِنْ غُلُوِّ مَطْلَعِهِ بَذَرُ الدُّخَى لَمْ يَكُنْ حَاسَاكِ بُصِينَا
أُبْلَى وَفَاءً وَإِنْ لَمْ نَبْدِلْ صِلَهُ فَالطَّيْفُ يُفْعِيسَا وَالذِّكْرُ بَكْفِينَا
وَفِي الْجَوَابِ مَسْأَلٌ إِنْ شَفَعْتَ بِهِ بِيضَ الْأَنَادِي النَّيِّ مَازِلِ نُولِينَا

تلکم ہی النونیة التي شغلت الناس نسعه هرون.
ومن الظلم للحق أن نحکم بأن ابن ربدون وفف هواء علی تلك الحساء

هيهات فلن يمكن أن يكون مثله هوىً واحد، وكيف وهو رجل طامع القلب،
مُرْهَف الإحساس.

ولكن التاريخ لم يتحدث إلا عن تلك المليحة الحسناء، ولو أنه دون جميع
مأطاف بقلب ذلك العاشق لحدثنا عمن قال فيه ابن زيدون هذه الأبيات :

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُجِبُّ وَدَّعَكَ	ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوْدَعَكَ
يَقْرَعُ السَّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ	زَادَ فِي تِلْكَ الْخُطَى إِذْ شَيَّعَكَ
يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءٌ وَسَنَاءٌ	رَجِمَ اللَّهُ زَمَاناً أَطْلَعَكَ
إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكُمْ	بِتُ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكَ

البحث الخامس والثلاثون

الموازنة بين القصيدتين

— ١ —

عرفنا ابن زيدون العاشق الذي يحسن التحدث عن مآسي القلوب، ويكاد يعرف أسرار النفوس، فماذا نقول عن شوقي؟ لقد طال الحديث عن هذا الشاعر في فصول هذا الكتاب، ونخشى أن يتحيّف حُقُوق من عرضنا لهم من الشعراء، ولكن كيف نستكثر القول في شوقي، وقد ندّ ابن زيدون؟ إن نونية شوقي أعجوبة من الأعاجيب، وقد أرسلها من الأندلس في أعقاب الحرب العالمية فضجّ لها شعراء مصر وأجابه إسماعيل صبري، وحافظ إبراهيم، وعبد الحليم المصري، ولكنهم عجزوا جميعاً عن الجري في ميدانه، ولم يُؤثّر لهم في معارضته شيء ذو بال بالقياس إلى نونية أمير الشعراء.

ابتدأ ابن زيدون نونيته بشكوى البين والأعداء والزمان، وكانت الأبيات السبعة التي تحدث بها عن جواه زفرة محرقة لم يعبّها ما وشيت به من الزخرف، ولكن أين هي من بداية شوقي حين خاطب الطائر الحزين في وادي الطلح بضاحية اشبيلية؟ لقد تمثل الطائر شبيهاً به في لوعته وجواه فاندفع يقول:

با نَائِحِ الطَّلَحِ أَسْبَاةَ عَوَادِنَا نَسْجِي لَوَادِبِكَ أَمْ نَأْسِي لَوَادِنَا
 مَاذَا نَقْصُ عَلَيْنَا غَيْرَ أَنَّ سِدَا قَصَّتْ جَنَاحَكَ جَالَتْ فِي حَوَاشِينَا
 رَمَى بِنَا الْبَيْنُ أَيْكََا غَيْرِ سَامِرْنَا أَحَا الْغَرِيبِ وَطَلًّا غَيْرِ نَادِينَا
 كُلُّ رَمْتُهُ التَّوَى، رِيَشُ الْفِرَاقِ لَنَا سَهْمَا، وَنُلَّ عَلَبُكَ الْبَيْسُ سَكِينَا
 إِذَا دَعَا الشَّوْفُ لَمْ تَبْرَحْ بِمُنْصَدِعِ مَنِ الْجَوَاحِبِينَ عَيَّ لَا تُبَيِّسَا
 فَإِنَّ يَكُ الْجِنْسُ بَا آتَيْنِ الطَّلَحِ فَرَقْنَا إِنَّ الْمَصَائِبَ بِحُمُومِ الْمَصَابِينَا
 لَمْ تَأَلْ مَاءَكَ تَحَنُّنًا وَلَا ظُلْمًا وَلَا آذَكَارَا وَلَا سَجَّوَا أَفَانِسَا
 تَجَرُّ مِنْ فَنَنِ ذَبْلًا إِلَى فَنَنِ وَتَسْحَبُ الذَّيْلُ تَرْتَاذُ الْمُوَاسِينَا
 أَسَاةَ جِسْمِكَ شَتَّى حِينَ تَطْلُبُهُمْ فَمَنْ لِرُوحِكَ بِالتُّطُسِ السَّادُونَا

والشاعر في هذه الأبيات حيران، يجعل الطائر في حالين : حال المعرب
 وحال المفهم، فما تدري أيكي من الغربة أم ينوح من فقد الألف، ومع
 حيرة الشاعر وضلاله عن تحديد ما يريد براه بلغ غايته الرفق حين قال :
 تَجَرُّ مِنْ فَنَنِ ذَبْلًا إِلَى فَنَنِ وَتَسْحَبُ الذَّيْلُ تَرْتَاذُ الْمُوَاسِينَا

وهي حال نشهدها في الطائر الحزون، فقد نرى الطائر يتنقل على غير
 هدى من أيلك إلى أيلك، فنعرف أنه يبحث عس بواسيه، ولكن أين من
 يواسي الطائر الحزين ؟ إن شوقي نفسه أخطأ حين قال :
 أَسَاةَ جِسْمِكَ شَتَّى حِينَ تَطْلُبُهُمْ فَمَنْ لِرُوحِكَ بِالتُّطُسِ السَّادُونَا
 فإن الطائر لا يجد من يأسو جسمه، وإنما حد من بأذجه وبشويده، والناس
 ألام من أن يطلُّوا لطائر جريح !

وانقل ابن زيدون من شكوى البين والأعداء والزماء إلى معانة حبيبته
 فذكر أنه لم يستمع وشاية ولم يعنقد إلا الوفاء، أما سُوفي فقد انقل من
 خطاب الطائر إلى بكاء الأندلس والحنين إلى مصر، فقال :

وَاهَاً لَنَا نَارَ حَيِّ أَيْكِ بِأَنْدَلُسِ وَإِنْ حَلَلْنَا رَفِيفًا مِنْ رَوَابِنَا
 رَسْمٌ وَقَفْنَا عَلَى رَسْمِ الْوَفَاءِ لَهُ نَجِيشُ بِالْدَّمْعِ وَالْإِجْلَالِ يُنْبِنَا

لِفِتْيَةٍ لَا تَنَالُ الْأَرْضَ أَدْمَعُهُمْ وَلَا مَفَارِقَهُمْ إِلَّا مَصْلَيْنَا
لَوْ لَمْ يَسُودُوا بِدِينٍ فِيهِ مَنَبْهَةٌ لِلنَّاسِ كَانَتْ لَهُمْ أَخْلَاقُهُمْ دِينًا
لَمْ نَسْرِ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمٍ كَالْخَمْرِ مِنْ بَابِلٍ سَارَتْ لِدَارِنَا
لَمَّا نَبَا الْخُلْدُ نَابَتْ عَنْهُ نُسَخَّتْهُ تَمَانِلُ الْوَرْدِ حِيرِيًّا وَنَسْرِينَا
نَسْقِي ثَرَاهُمْ ثَنَاءً كُلَّمَا نُثِرَتْ دُمُوعُنَا نُظِمَتْ مِنْهَا مَرَاثِينَا
كَادَتْ عَيُونُ قَوَائِنَا تُحَرِّكُهُ وَكَدَنَ يُوقِظُنَ فِي الثَّرْبِ السَّلَاطِينَا

وللقارئ أن يتأمل الحسن في هذه الأبيات، فالتساعر يغلبه الدمع، وهو يتذكر ملوك الأندلس، ولكن الإجلال يثنيه عن البكاء، لأنه في ديار قوم لم تل الأرض أدمعهم ومفارقتهم إلا عند السجود، فهم لم يعرفوا الخشوع لغير الله، وذلك من أبعد الغايات في الشاء.

ويأبى شوقي إلا أن يحرص على المعاني الشعرية، فهو في الأندلس لا يسري من حرم إلا إلى حرم، ولكن كيف؟ كالخمر سارت من بابل إلى دارين! وهدية الخمر لا تجوز في غير مذاهب الشعراء.

ثم قال في الحنين إلى وطن النيل :
لَكِنَّ مِصْرَ وَإِنْ أَعْصَتْ عَلَى مِقَّةٍ عَيْنٌ مِنَ الْخُلْدِ بِالْكَافُورِ تَسْقِينَا
عَلَى جَوَانِبِهَا رَفَتْ تَمَائِمُنَا وَحَوْلَ حَافَاتِهَا قَامَتْ رَوَاقِينَا

وهذا معنى قديم سبقه إليه من قال :
أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنَعَجٍ إِلَيَّ وَسَلَمَى لَوْ يَصُوبُ سَحَابُهَا
بِلَادٌ بِهَا نِيطَتْ عَلَيَّ تَمَائِمِي وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِسْمِي ثَرَابُهَا
والبكر هو قول شوقي :

مَلَايِبٌ مَرَحَتْ فِيهَا مَارِبُنَا وَأَرْبَعٌ أُنِسَتْ فِيهَا أَمَانِينَا
ولنما كان هذا معنى بكرة لما فيه من طرافة الخيال، رأيتم كيف نمرح المآرب، وكيف تأنس الأماني؟

لقد رأيت شوقي أول ما رأيته سنة ١٩٢١، وكان دعائي للغداء عنده بالمطرية

مع الأصدقاء الأكرمين مصطفى القشاشي، وسعيد عبده، وأحمد علام، فعجبت يومئذ لذلك المبتسم الساحر، وسألت نفسي : كيف كان ذلك الملاك في صباه ! إن حنين شوقي إلى مصر حنينٌ عميق، وإنما كان كذلك لأن الشاعر شهد في مصر دنيا من الحب والمجد لم يظفر بها إلا الأقلون، ودنيا شوقي لم تكن مثل دنيا الناس في هذا الزمان، كانت الدنيا في شباب شوقي تفيض بالبشر والإيناس، وكان الشاعر يعيش فيها عيشة مُضمَّخةً بالسحر والفتون، وكان للجمال قدسيّة، وكان للصبأ سلطان، وكانت خطوط الزمن لا تهدّ النفوس كما تفعل في هذه الأيام.

ومن البكر أيضاً قول شوقي :

بَنَّا فَلَمْ نَحُلْ مِنْ رَوْحِ يُرَاوِحُنَا مِنْ بَرِّ مِصْرَ وَرِيحَانِ يُعَادِينَا
كَأَمْ مُوسَى عَلَى اسْمِ اللَّهِ تَكْفُلُنَا وَبِاسْمِهِ ذَهَبَتْ فِي الْيَمِّ تَلْقِينَا
يريد أن يقول : إن مصر لم تلقه في يَمِّ النّفي إلا خوفاً عليه من كيد فرعون، فرعون القرن العشرين المستر جون بول !

— ٢ —

تذكرون قول ابن زيدون :

يَا سَارِي الْبَرْقِ غَادِ الْقَصْرِ فَاسْقِ بِهِ مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوُدِّ بِسْقِينَا
وَأَسْأَلُ هُنَالِكَ هَلْ عَنِّي تَذَكُّرُنَا إِنْهَا تَذَكُّرُهُ أُمْسَى يُعْنِينَا

وهذا شعر جميل، ولكن انظروا كيف عارضه شوقي فقال :

يَا سَارِي الْبَرْقِ يَرْمِي عَنْ جَوَانِحِنَا بَعْدَ الْهُدُوءِ وَيَهْمِي عَنْ مَا قِينَا
لَمَّا تَرَقَّرَقَ فِي ذَمْعِ السَّمَاءِ دَمَاءُ هَاجَ الْبُكَاءُ فَخَضَّبْنَا الْأَرْضَ بَاكِينَا
اللَّيْلُ يَشْهَدُ لَمْ نَهْتِكْ دِيَارِيهِ عَلَى نِيَامٍ وَلَمْ نَهْتِفْ بِسَالِينَا
وَالنَّجْمُ لَمْ يَرَنَا إِلَّا عَلَى قَدَمِ قِيَامِ لَيْلِ الْهَوَى لِلْعَهْدِ رَاعِينَا
كَزَفَرَةٍ فِي سَمَاءِ اللَّيْلِ حَائِرَةٍ مِمَّا نُرَدِّدُ فِيهِ حِينَ بَضُونَا
بِاللَّهِ إِنْ جُبَّتْ ظُلُمَاءُ الْعُبَابِ عَلَى نَجَائِبِ الثُّورِ مَحْدُودَا (بَجْرِينَا)

تَرُدُّ عَنْكَ يَدَاهُ كُلُّ عَادِيَةٍ إِنْسَاءٌ يَعْتَنُ فَسَاداً أَوْ شَيْطَانِيَا
 حَتَّى حَوَتْكَ سَمَاءُ النَّيْلِ عَالِيَةً عَلَى الْغُيُوثِ وَإِنْ كَانَتْ مَيَامِينَا
 وَأَحْرَزَتْكَ شُفُوفُ اللَّازُورِدِ عَلَى وَشَيْءِ الزَّبَرْجَدِ مِنْ أَفْوَافِ وَادِينَا
 وَحَازَكَ الرَّيْفُ أَرْجَاءَ مُورَجَةٍ رَبَّتْ خَمَائِلَ وَاهْتَزَّتْ بَسَائِينَا
 فَتَقِفَ إِلَى النَّيْلِ وَاهْتِفَ فِي خَمَائِلِهِ وَأَنْزَلَ كَمَا نَزَلَ الطَّلُّ الرِّيَاحِينَا
 وَأَسِرَ مَابَاتٍ يَذْوِي مِنْ مَنَازِلِنَا بِالْحَادِثَاتِ وَيَضْوَى مِنْ مَعَانِينَا

انظروا، ابن زيدون يسأل البرق أن يسقي القصر، وشوقي يسأل البرق أن يأسو المنازل الداوية، والمغاني الضاوية، والمعنيان مقتربان، ولكن شوقي أعطانا صورة شعرية لتنقل البرق من أفق إلى أفق، وانحداره من أرض إلى أرض، وأعطى صوراً من ريف مصر وخمائل النيل لا تشوق إلا شاعراً ودَّعَ دنياه حين ودَّعَ النيل.

وقال ابن زيدون :

وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتِنَا مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَيٌّ كَانَ يُحْيِينَا

عارضه شوقي فقال :

وَيَا مُعْطَرَةَ الْوَادِي سَرَتْ سَحْراً فَطَابَ كُلُّ طُرُوحٍ مِنْ مَرَامِينَا
 ذَكِيَّةَ الذَّلِيلِ لَوْ حِلْنَا غِلَاقَتَهَا قِمِيصَ يَوْسُفَ لَمْ نُحَسِبْ مُعَالِينَا
 جَشِمْتَ شَوْكَ الشَّرَى حَتَّى أَتَيْتَ لَنَا بِالْوَرْدِ كُتُباً وَبِالرَّيَا عَنَاوِينَا
 فَلَوْ جَزَيْنَاكَ بِالْأَزْوَاجِ غَالِيَةً عَنْ طِيبِ مَسْرَاكِ لَمْ تَنْهَضْ جَوَارِينَا
 هَلْ مِنْ ذُبُولِكَ مِسْكِي نُحْمِلُهُ غَرَائِبَ الشُّوقِ وَشَيْئاً مِنْ أُمَالِينَا
 إِلَى الَّذِينَ وَجَدْنَا وَدَّ غَيْرَهُمْ دُنْيَا وَوُدَّهُمُ الصَّافِي هُوَ الدِّينَا

إن ابن زيدون لم يزد على أن قال : « يَانَسِيمَ الصَّبَا »، وهو تعبير ورد في مئات القصائد، أما شوقي فراح يَفْتَنُ افْتِنَاناً يدلّ على قوة الشاعرية، وبراعة الخيال، فوصف السمة بأنها معطرة الوادي وأنها سارت في السحر فطاب بمسراها كُلُّ مَرْمَى سَحِيقٍ، وأنها ذَكِيَّةُ الذَّلِيلِ كأنها قميص يوسف، وأنها جَشِمْتَ شَوْكَ

السرى حتى أتت بالورد مُجسماً في رسائل، وأتت بالرّيا مُمثلةً في عناوين، وشكر لها النُعمى فقال :

فَلَوْ جَزَيْنَاكَ بِالْأَرْوَاحِ غَالِيَةً عَنْ طِيبِ مَسْرَاكِ لَمْ تَنْهَضْ جَوَازِينَا

وابن زيدون يقول « بَلَّغْ تَحِيَّتَنَا » وهي عبارة جافية، لأنها وردت في صورة الأمر، أما شوقي فيترفق، ويقول :

هَلْ مِنْ ذُبُولِكَ مِسْكِيٍّ نَحْمَلُهُ غَرَائِبَ الشَّوْقِ وَشَيْئاً مِنْ أُمَالِينَا

وابن زيدون يصف أحبابه بالقدرة على إحيائه لو أسعفوه بتحية، وشوقي يجعل كل هوى غير هوى أحبابه بمصر صورة من الدنيا، أما هوى أحبابه الذين يتشوق إليهم فهو، في صفاء الدين.

ولا ننكر أن بعض أخيلة شوقي مقتبس من ابن زيدون، فقول شوقي :

يَا سَارِيَّ الْبَرْقِ يَرْمِي عَنْ جَوَانِحِنَا بَعْدَ الْهُدُوءِ وَيَهْبِي عَنْ مَآفِينَا

اِخْتَلَسَ بَرْقِي وَحِذْقِي مِنْ قَوْلِ ابْنِ زَيْدُون :
بِتُّنَّمْ وَبِتْنَا فَمَا أَتَيْتُ جَوَانِحُنَا شَوْقاً إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَآفِينَا

والمعنى الذي عرضه ابن زيدون في ثلاثة بسطه شوقي في ثمانية عشر بيتاً، وإنما اتفق له ذلك لأنه كان يعارض ابن زيدون، فكان لا بدّ له من توسية بارعة تُعفى على النظرة الفطرية في أبيات ابن زيدون. ولابن زيدون فضل السبق، ولشوقي فضل البراعة في تلوين الصور الشعرية، وهو فضل ليس بالقليل.

— ٣ —

وأراد ابن زيدون أن يتذكر أيام الأُنس فقال :

حَالَتْ لِفَقْدِكُمُو أَيَّامُنَا فَعَدَّتْ سُدُوداً وَكَانَتْ بِكُمْ بَيْضاً لِيَالِينَا
إِذْ جَابُ الْعَيْشِ طَلَقٌ مِنْ تَأَلَّفِنَا وَمَرْبَعُ اللَّهِو صَافٍ مِنْ نَصَافِينَا
وَإِذْ هَضَرْنَا فُنُونُ الْوَصْلِ ذَابَةٌ قُطُوفُهُ فَجَنِينَا مِنْهُ مَاشِينَا
لِيُسْقَ عَهْدُكُمْ عَهْدُ السُّرُورِ فَمَا كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَاحِينَا

وهذا شعر صافي الديباجة، رائع المعاني، ولكن انظروا كيف عارضه شوقي
فجمع بين الأسى والفخر حين قال :

سَقِيًّا لِعَهْدٍ كَاكُتَافِ الرُّبَا رِفَةً^(١) أَنَّى ذَهَبْنَا وَأَعْطَاكِ الصَّبَا لِينَا
إِذِ الزَّمَانُ بِنَا غَيْنَاءُ زَاهِيَةً تَرَفُّ أَوْفَاتُنَا فِيهَا رَبَّاحِينَا
الْوَصْلُ صَافِيَةٌ وَالْعَيْشُ نَاقِيَةٌ وَالسَّعْدُ حَاشِيَةٌ وَالْدَّهْرُ مَاثِيَنَا
وَالشَّمْسُ تَخْتَالُ فِي الْعَقِيَانِ تَحْسِبُهَا بَلْقَيْسُ تَرْفُلُ فِي وَسْطِ الْيَمَانِينَا
وَالنَّيْلُ يُقْبَلُ كَالدُّنْيَا إِذَا احْتَفَلَتْ لَوْ كَانَ فِيهَا وَفَاءٌ لِلْمُصَافِينَا
وَالسَّعْدُ لَوْ دَامَ وَالْدُّنْيَا لَوْ أَطْرَدَتْ وَالسَّيْلُ لَوْ عَفَّ وَالْقَدَارُ لَوْ دِينَا
الْقَى عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى رَدَّهَا ذَهَبًا مَاءٌ لَمَسْنَا بِهِ الْإِكْسِيرَ أَوْ طِينَا
أَعْدَاهُ مِنْ يَمِينِهِ (التَّابُوتِ) وَآرْتَسَمَتْ عَلَى جَوَانِبِهِ الْأَنْوَارُ مِنْ سِينَا
لَهُ مَبَالِغُ مَا فِي الْخُلُقِ مِنْ كَرَمٍ عَهْدُ الْكِرَامِ وَمِيثَاقُ الْوَفِيِّينَا
لَمْ يَجْرِ لِلدَّهْرِ إِعْذَارٌ وَلَا عُرْسٌ إِلَّا بِأَيَّامِنَا أَوْ فِي لِيَالِينَا^(٢)
وَلَا حَوَى السَّعْدُ أَطْعَى فِي أَعْتَبِهِ مِنَّا جِيَادًا وَلَا أَرْخَى مِيَادِينَا
نَحْنُ الْيَوَاقِيتُ خَاضَ النَّارَ جَوْهَرُنَا وَلَمْ يَهْنُ يَدِ الشَّشْتِيتِ غَالِينَا
وَلَا يَحُولُ لَنَا صِبْغٌ وَلَا خُلُقٌ إِذَا نَلَوْنَا كَالْحَرْبَاءِ شَانِينَا

والقارئ حين يوازن بين هاتين القطعتين لا يدري أبهما أجود، لأن ابن
زيدون على قصر نفسه في هذا الشوط بلغ غاية الرشاقة حين قال :
وَإِذْ هَضَرْنَا فُنُونَ الْأُنْسِ دَائِيَةً قُطُوفُهُ فَجَنِينَا مِنْهُ مَاثِيَنَا
وبلغ غابة الدقة حين قال :

إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَقَ مِنْ تَأَلُّفِنَا وَمَوْرِدُ اللَّهِوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
والدقة في هذا البيت تؤخذ من صدق التعليل، فالعيش لم تتسع جوانبه إلا
بفضل التألف، تألف القلبين، واللهو لم يصف موره إلا بفضل التصافي تصافي

(١) الرفه : الضره.

(٢) الإعدار : طعام ينحد لأيام السرور.

الحبيبين، والدنيا لا كَدَّرَ فيها ولا صفاء، وإنما تصفو حين تصفو النفوس، وتقسو حين تقسو القلوب، فالزهر الذي ييسم لك لا ييسم لك وحدك، وإنما تراه يخصك بالرفق لأن الدنيا صَفَتْ لك، وقد يراه غيرك في ابتسامة صورة من صور العبوس، والنهر الذي تنظر إليه في الليالي القمرية فتراه عاشقاً يغازل القمر ويتلقى دعابته في حنان، هذا النهر لا يتمثل لك كذلك إلا لأنك تشاهد أُمواجه الفضية بقلبٍ مَرِحٍ وحسنٍ طروبٍ، وهو نفسه قد يبدو للمحزون صورة من صور الاكتئاب. و يروقنا قول شوقي :

سَقِيًّا لِعَهْدٍ كَأَكْنَفِ الرُّبَا رِفَةً أَنِّي ذَهَبْنَا وَأَعْطَاكِ الصَّبَا لِينَا
إِذِ الزَّمَانُ بَنَى غَيْثًا زَاهِيَةً تَرَفُّ أَوْقَاتُنَا فِيهَا رَيَّاحِينَا
الْوَصْلُ صَافِيَةٌ، وَالْعَيْشُ نَاعِيَةٌ وَالسَّعْدُ حَاشِيَةٌ، وَالذَّهْرُ مَا شِينَا
وَالنَّيْلُ يُقْبَلُ كَالدُّنْيَا إِذَا احْتَفَلَتْ لَوْ كَانَ فِيهَا وَفَاءٌ لِلْمُصَافِينَا

يروقنا هذا الشعر، لأن الشاعر جعل عهده في نضرة الزهر الذي يتفتح في أكفاف الربوات، ولأنه رأى اللين في أيام الأنس شبيهاً باللين في أعطاف الصبا، وأعطاف الصبا جوهرٌ نبيل لا يعرف طيب لينها إلا شاعرٌ أمكنته من أعطاف الصبا سَوْرَةُ الصَّبَوَاتِ، و يروقنا أيضاً لطرافة هذا الخيال :

« تَرَفُّ أَوْقَاتُنَا فِيهَا رَيَّاحِينَا »

ورفيف الأوقات معني يعرفه العشاق الذين دار بهم الزمن في أَرْجُوحةِ اللهو الجموح.

ويروقنا هذا الشعر مرة ثالثة لأن الشاعر يرى إقبال النيل كالدنيا حين تحتفل، وانظروا كيف تكون الدنيا حين تحتفل، ثم تأملوا روعة هذا الاستدراك :

« لَوْ كَانَ فِيهَا وَفَاءٌ لِلْمُصَافِينَا »

ولكن هذه الطرافة في أخيلة شوقي لا تنسينا براعة ابن زيدون حين جعل محبوبته كلَّ شيء حين قال :

يَا رَوْضَةً طَالَمَا أُجِنْتُ لَوَاحِظَتَا وَزَدَا جَلَاهُ الصَّبَا غَضًّا وَنَسْرِينَا

وَيَا حَيَاةَ تَمَلِّينَا بِزَهْرَتَيْهَا مُنَى ضُرُوباً وَلَذَاتِ أَفَانِينَا
وَيَا نَعِيماً خَطَرْنَا مِنْ نَضَارَتِهِ فِي وَشِي نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ جِينَا

إن لم يكن هذا هو الشعر فما عسى الشعر أن يكون ؟ أترون العذوبة في الهاتف بالروضة التي « طَالَمَا أُجِنْتُ وَرَدّاً جَلَاهُ الصَّبَا » تأملوا عبارة « أُجِنْتُ لَوَاحِظْنَا » وانظروا كيف تغزونا الروضة فتقهرنا على تذوق جناها المرموق، والشاعر لا ينتظر حتى تهفو نفسه إلى مناعم الروضة، وإنما تهجم الروضة عليه فتعلمه كيف يهصر الأفنان، وكيف يجني القطوف. وعبارة « جَلَاهُ الصَّبَا » ما رأيكم فيما تحويه من سحرٍ أخاذٍ ؟ ثم ما هذا التعبير الطريف :

« مُنَى ضُرُوباً وَلَذَاتِ أَفَانِينَا »

أتعرفون كيف يكون للمنى ألوانٌ وللذاتِ أفانين ؟ إن هذا خيال شاعر غرق مرةً في كُوثر الوصال.

وانظروا هذا البيت :

وَيَا نَعِيماً خَطَرْنَا مِنْ نَضَارَتِهِ فِي وَشِي نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ جِينَا
أُتَحْسُون قوة هذا المعنى ؟ ألا يُريكُم الخيال صورة فتىٍ منعمٍ يسحب ذيل النعيم ؟ إن ابن زيدون في هذه الأبيات أقوى من شوقي في الحسر على ما ضاع من دنيا الهوى المفقود.

— ٤ —

واشترك شوقي وابن زيدون في التفجع والحنين، أما ابن زيدون فيقول :

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أُبَدِّلْنَا بِسَلْسَلِهَا وَالْكُوثرِ الْعَذْبِ زَقُوماً وَغَسْلِينَا
كَأَنَّا لَمْ نَبْتَ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا وَالذَّهْرُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَأَشِينَا
سِرَّانٍ فِي خَاطِرِ الظُّلَمَاءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى بَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا
لَا غَرَوْ أَنَا ذَكَرْنَا الْحُبَّ حِينَ نَهَتْ عَنْهُ التُّهَى وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا
إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى بِوَمِ النَّوَى سُوراً مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا

أَمَّا هَوَاكَ فَلَمْ نَعْدَلْ سَمْتَهُ
لَمْ نَجِفْ أَفْقَ جَمَالِ أَنْتِ كَوَكَبُهُ
وَلَا اخْتِبَارًا نَجْمَيْنَاكَ عَنْ كَثَبٍ
لَكِنْ عَدَّتْنَا عَلَى كُرْهِ عَوَادِنَا

والشاعر في هذه الأبيات بصف أبام الوصل أحمل وصف، ويرى نفسه انقل
من كوثر الخلد إلى الزقوم والغسلين ويرى ورد الهوى القديم شرباً لا يعدله
شرب، وإن كان يرويه فيظلميه. ونعيم الوصل يُرهف الحس فيزيد القلب ظمأً
إلى ظمأ والتياغاً إلى التياغ. وتحدث الشاعر عن البين فذكر أنه لم يقع عن سلوة
ولا صدود، وإبما أكرهته العوادي.

وبروقنا هذا التعبير المونق :
« لَمْ نَجِفْ أَفْقَ جَمَالِ أَنْتِ كَوَكَبُهُ ».

فكان الدنيا لعنده أفقاً من المفاتن، وكانت محبوبته كوكب ذلك الأفق المطلوب
بأنداء الفتون.

هذا جزع من صنع الدهر صرخ به ابن زيدون، وعارضه شوقي يصف قسوة
الليل وفسوة الفراى :

وَنَابِغِي كَأَنَّ الْحُسْرَى آخِرُهُ
نَطْوِي دُحَاهُ بِجُرْحٍ مِنْ فِرَاقِكُمُو
إِذَا رَسَا النَّجْمُ لَمْ تَرَقًا مُحَاجِرُنَا
بُنَا نِقَاسِي آلِدَوَاهِي مِنْ كَوَاكِبِهِ
تَمِثُّنَا فِيهِ ذِكْرَاكُمُ وَتُحْيِينَا
يَكَادُ فِي غَلَسِ الْأَشْحَارِ يَطْوِينَا
حَتَّى بَزُولٍ وَلَمْ تَهْدَأْ نَرَايُنَا
حَتَّى مَعَدْنَا بِهَا حُسْرَى نَفَاسِنَا
لِلشَّامِيبِ وَيَأْسُوهُ نَأْسِينَا
بَدَّوْا النَّهَارُ فَيُخَفِّبُهُ بَجَلْدُنَا

وهذا من الشعر الرفيع، ومن العجز أن لا نجد غير هذا الوصف، وإلا فكيف
نصل إلى بيان الفتنة في هذا البيت :

نَطْوِي دُحَاهُ بِجُرْحٍ مِنْ فِرَاقِكُمُو
يَكَادُ فِي غَلَسِ الْأَشْحَارِ يَطْوِينَا
أنرون كيف يطوى الدجى بالجرح ؟ أنرون كيف نكون الجراح أعظم من
ظلمات الليل ؟

ثم ما هذه الوثبة الشعرية حين يقاسي الشاعر بقاء الكواكب، ثم ينظر فيراها
ابْتَلَيْتْ به فباتت تقاسه، وهي حسرى لواغب؟ والشاعر قد يَعْظُم سلطانه على
الوجود فيرى الدنيا تجزع لجزعه ونأسي لأساه.

وكان الشعراء الأقدمون برون النهار يبدد الأشحان بفضل ما فيه من التواغل،
أما شوقي فيرى أشجانه لا تهدأ نهراً إلا بفضل التأسي والنجلد للسامتين.

— ٥ —

بقي النظر فيما نفرد به الشاعران.

ونحن نرى ابن زيدون نفرد بهذين البيتين في خطاب حبيبته التي أفصاه عنها
الزمان :

نَأْسِي عَلَيْكَ إِذَا حُتَّتْ مُسْعِنَعَةٌ فِينَا الشُّمُولُ وَغَنَانَا مُعْنِيْنَا
لَا أَكُوسُ الرَّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنَا سِبْمَا ارْتِيَا حِ وَلَا الْأُوتَارُ نُلهِينَا

وهذا من أدق المعاني النفسية، فالشراب والغناء يهيجان العواطف الغافة،
ويبعثان الوجد الدفين، وللشوق في أمال هذه اللحظات لذعات أعنف من الجمر
المشبوب، وأين الحمر محانب ما بتور في القلب عند الشراب والسماع؟ إن هذه
لحظات تكتشف المُقَنَّع من سرائر النفوس، وتصنع ما نصنع الحمى العاتية حين
تنطق المحموم بأسماء لم يهد بها لسانه ولا وجدانه منذ سنين.

وقول ابن زيدون :

وَلَوْ صَبَا نَحْوَنَا مِنْ غُلُوِّ مَطْلَعِهِ بَدَرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاسَاكَ نُصْبِينَا

هو أصل المعنى الذي ساقه شوقي في السينية :

وَطَنِي لَوْ سُبِغْتُ بِالْخُلْدِ عَنْهُ نَارَعَتَنِي إِلَهِي فِي الْخُلْدِ نَفْسِي

وهو أخذ رفیق لا بُحَاسَبِ على مثله الشعراء

وتفرد شوقي بالفخر، الفخر بنفسه وبأجماد النيل، فقال :

لَمْ يَجْرَ لِلدَّهْرِ إِغْدَارٌ وَلَا غُرْسٌ إِلَّا بِأَيَّامِنَا أَوْ فِي لَنَالِينَا

وَلَا حَوَى السَّعْدُ أُطْعَى فِي أُعْنِيهِ
نَحْنُ الْيَوَاقِيتُ خَاصَ النَّارِ جَوْهَرُنَا
وَلَا يَحُولُ لَنَا صِبْغٌ وَلَا خُلُقٌ
لَمْ تَنْزِلِ الشَّمْسُ مِيدَانًا وَلَا صَعِدَتْ
أَلَمْ تُؤَلِّهِ عَلَى حَافَاتِهِ وَرَأَتْ
إِنْ غَازَلَتْ شَاطِئِيهِ فِي الضُّحَى لِبْسًا
وَبَاتَ كُلُّ مُجَاجٍ الْوَادِ مِنْ شَجَرٍ

مَنَا جَيَادًا وَلَا أُرْخَى مَيَادِينَا
وَلَمْ يَهْنُ بِيَدِ التَّشْتِيتِ غَالِينَا
إِذَا نَلَوْنَ كَالْجِرْبَاءِ شَانِينَا
فِي مُلْكِهَا الضَّخْمِ عَرْشًا مِثْلَ وَادِينَا
غَلِيهِ أُنْبَاءُهَا الْغُرَّ الْمِيَامِينَا
خِمَائِلِ السُّنْدُسِ الْمُؤَسِّيَةِ الْغِينَا^(١)
لَوْافِظِ الْقَزِّ بِالْخِيطَانِ تَرْمِينَا

وهذا دافع الشاعر عن الوثنية المصرية أجمل دفاع، وهل عبد المصريون الشمس إلا لأنهم عرفوا فضل الشمس ؟ وما الدنيا بدون الشمس إلا وجود تافه سخيف !

وشوقي لم يعن إلا نفسه حين قال :

نَحْنُ الْيَوَاقِيتُ خَاضَ النَّارِ جَوْهَرُنَا
وَلَمْ يَهْنُ بِيَدِ التَّشْتِيتِ غَالِينَا

وقد صدق، فقد قامت في وجه الرجل أحداث تهد الجبال، وانتاشه الخصوم أسوأ انتياش، ولكن من كان يملك مثل قلبه وإحساسه وشاعريته يصعب هدمه، وإن تكاثرت المعاول واستحصدت سواعد الهادمين.

وتفرد شوقي بالحديث عن الأهرام فقال :

وَهَذِهِ الْأَرْضُ مِنْ سَهْلٍ وَمِنْ جَبَلٍ
وَلَمْ يَضَعْ حَجَرًا بَانٍ عَلَى حَجَرٍ
كَأَنَّ أَهْرَامَ مَصْرَ حَائِطٌ نَهَضَتْ
إِيوَانُهُ الْفَخْمُ مِنْ غُلْيَا مَقَاصِرِهِ
كَأَنَّهَا وَرِمَالٌ حَوْلَهَا التَّطَلَّمَتْ
كَأَنَّهَا تَحْتَ لَأْلَاءِ الضُّحَى ذَهَابًا

قَبْلَ الْقَبَاصِرِ دَنَاهَا فِرَاعِينَا
فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى آثَارِ بَانِينَا
بِهِ بَدَأَ الدَّهْرُ لَا بُنْيَانُ بَانِينَا
يُفْنِي الْمُلُوكَ وَلَا يُبْقِي الْأَوَاوِينَا^(٢)
سَفِينَةٌ غَرَقَتْ إِلَّا أُسَاطِينَا
كُنُوزُ فِرْعَوْنَ غَطَيْنَ الْمَوَازِينَا

وللقارئ أن يتأمل هذه الأبيات، له أن يتأمل قوة الفخر في هذا البيت :

(١) العن : جمع أعين، وهو الأحضر، والمؤث عياء.

(٢) الأواوين : جمع إوان.

وَلَمْ يَصْنَعْ حَجَرًا بَانَ عَلَى حَجَرٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى آثَارِ بَانَيْنَا

وله أن يعجب من روعة الخيال في هذا البيت :
كَأَنَّ أَهْرَامَ مِصْرٍ حَائِطٌ نَهَضَتْ بِهِ يَدُ الدَّهْرِ لَا بُنْيَانَ بَانَيْنَا

وله أن يتأمل دقة التشبيه في هذا البيت :
كَأَنَّهَا وَرِمَالاً حَوْلَهَا التَّطَلَّمَتْ سَفِينَةٌ غَرِقَتْ إِلَّا أَسَاطِينَا

ذلك شوقي، وتلك آياته البينات

— ٦ —

وتفرد ابن زيدون بوصف الجمال الإنساني، وتفرد شوقي بوصف الجمال الطبيعي، أعطى ابن زيدون محبوبته صورة هي تحفة في الصور الإنسانية، وأعطى شوقي مفاتن النيل صورة هي غرة في الصور الطبيعية، أما صورة النيل فقد رآها القارئ من قبل، وأما محبوبه ابن زيدون فقد صورها بهذه الأبيات :

رَيْبُ مُلْكٍ كَانَ اللَّهُ أَنْشَأَهُ مِنْ نَاصِعِ الثَّيْرِ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينًا
أَوْ صَاغَهُ وَرَقًا مَحْضًا وَتَوَجَّهُ مِنْ نَاصِعِ الثَّيْرِ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينًا
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رَفَاهِيَّةً تَوْمَ الْعُقُودِ وَآدَتُهُ الْبُرَى لِينًا
كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظَفْرًا فِي أَكْلَتِهِ بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَايِينَا
كَأَنَّمَا أَثْبَتَتْ فِي صَحْنٍ وَجَنَّتِهِ زُهرُ الْكَوَكِبِ تَعْوِيدًا وَتَزِينًا
مَا ضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرَفًا وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَايِينَا

وهذه نظرة شاعر يعرف جواهر الصبابة. وفي الحسن ألوف من الأفانين يعرفها الراسخون في علم الجمال، فالجمال المنعم غير الجمال المحروم، والزهر النضير الذي يضحك الشمس في حديقة غناء بقصر من قصور الملك غير الزهر الظمآن المنسي الذي يتفتح وهو مهجور في ربوة قاصية لا يعرفها غير الذئب. إن جواهر الجمال تختلف أشد الاختلاف، ولكل لون من ألوان الجمال وحي خاص. وجوهر الشعر يتبع جوهر الجمال، وهل يمكن أن يكون ما يوحيه الجمال

المُحَجَّب شبيهاً بما يوحيه الجمال المباح ؟ إن الطبيعة قد يبدو لها أحياناً أن تُكادِ الناس فتُنشئ من الحسن في حيّ بولاق ما تغيظ به الناعمس في حيّ القصر العالي^(١). ولكنها لا نفلح، فالجمال الذي ينبت في البيئات السُوفية يظل سوقيّ الشمائل والنوازع، أما الجمال الذي يتفتح في البيئات المعمة فيظل ملحوظاً المشارب والميول.

فمعشوقة ابن زيدون ربيبة مُلك، وربيبة الملك تألف السيطرة منذ أيام المهدي، ويظل دلالها طول الحياة دلالاً سماوياً بأخذ فيضه من قوة الطبع، لا من لؤم التمتع، وينزل رضاها على القلب نزول الطل على الریحان. وابن زيدون يتمثل محبوبته خلقت من المسك، ويرى الناس ما عداها خلُقوا من طين، وكلمة (طين) وقعت قبيحة في شعر ابن زيدون، إلا أن يكون أراد الإشارة إلى بعض الناس، والمرء حين يغضب يرى الناس خلُقوا من طين، وإن كان الطين أشرف من بعض من نرى من المخلوقات، والطين تُربةٌ يحيا بها الزهر وينغذى منها الشوك، وفوقه تتخطر الطباء، وعليه تزحف الأفاعي والضلال.

وبلغ ابن زيدون نهاية الترفق حين قال :
إِذَا تَأَوَّدَ آذَنُهُ رَفَاهِيَّةً تُومُ الْعُفُودِ وَأُدْمَتُهُ الْبُرى لِيَا
والجمال الذي تؤذيه العقود والدمالج والأساور والخلاخيل جمال غُضُّ رقيق يشبه في رفته نواظر العيون، ولفائف القلوب، وهذا الجمال منثور في المدائن نثر الزهر واللؤلؤ، ولولا وجوده في هذه الدنيا لما عرف شاعر قيمة النعمة العظيمة، نعمة البصر والحس والذوق، لولا الجمال المنعم المصنوع الذي لا يطمع في تَفْيُؤِ ظلاله غيبي ولا لئيم لأَقْفَرَتِ الدنيا من الشعر وخلت من الأنفاس العطرة أنفاس الشعراء، لولا الجمال المنعم المصنوع الذي لا يطمع في تَفْيُؤِ ظلاله غيبي ولا لئيم لما اسنطاب شاعرٌ سَهَرَ الليل، وألم الجفون، وهل يُعنى القلب في سبيل الجمال المبتدل الذي نرنو إليه جميع العيون ؟ إن الجمال المبتدل سبيه بالكوكب المتهالك

(١) القصر العالي . حي بالقاهرة يشارف السل، وسعبه السحفاء « حاردين سني ».

الذي لا تألم من النظر إليه عَيْنٌ رَمَدَاءُ، أما الجمال المنعم المصون فشبهة بالشمس لا يقوى على النظر إليه إلا الفحول من الشعراء، والأقطاب من الكتّاب، هو الجمال الفرد، ولا يصاوله إلا الرجل الفرد، وإن كان يتواضع فيقول :
 ما ضَرُّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرَفًا وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَاثُفِنَا
 هذا تَوَاضَعٌ، فإن جوهر الحب في قَلْبِ الشاعر أنْفَسَ من جوهر الحسن في وَجْهِ الجميل، وهل تُعْرَبُ معاني الصباحة في الوجه الملبح كما تُعْرَبُ عرائس الشعر في قلب الشاعر الذي يلقي الأنوار والظلمات وحوله جَيْشٌ من الهوى المتمرد والوجد المشبوب ؟

إن قلب الشاعر جوهر نفيس، ولولا فضله على الدنيا ما عرف أحدٌ جمال الصبح المشرق، ولا تنبه مخلوق إلى لَمَحِ الكواكب ولألاء النجوم، ولا نلف باحث إلى شعر ابن زيدون، وقد طمره الزمن بتسعة أحجار تسمى تسعة قرون.

— ٧ —

ثم ماذا ؟ بقي أن نَشْرَبَ صُبَابَةَ الكَأْسِ من نونية سُوقِ، وكل صباية في الكَأْسِ صاب، بقي أن نَتَوَجَّعَ لبلواه وهو يتشوّق إلى مصر فيقول :
 أَرْضُ الْأُبُوقَةِ وَالْمِيلَادِ طَيِّبُهَا مَرُّ الصَّبَا فِي ذُيُولِ مِنْ تَصَابِيهَا
 كَانَتْ مُحَجَّلَةً فِيهَا مَوَاقِفُنَا غُرًّا مُسْلَسَلَةَ الْمَجْرَى قَوَافِينَا
 فَآبَ مِنْ كُرَّةِ الْأَيَّامِ لِأَعْبَا وَثَابَ مِنْ سِنَةِ الْأَحْلَامِ لَاهِينَا
 وَلَمْ نَدْعُ لِلْيَالِي صَافِيًا فَدَعَتْ (بِأَنْ نَعَصَّ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينًا)
 لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَخُصْنَا الْجَوَّ صَاعِقَةً وَالْبَرَّ نَارَ وَغَى وَالْبَحْرَ غَسِيلًا
 سَعْيًا إِلَى مِصْرَ نَقْضِي حَقَّ ذَاكِرِنَا فِيهَا إِذَا نَسِيَ الْوَافِي وَبَاكِينَا

أرأيتم هذا الشعر ؟ أرأيتم الخيال في هذا البيت :
 فَآبَ مِنْ كُرَّةِ الْأَيَّامِ لِأَعْبَا وَثَابَ مِنْ سِنَةِ الْأَحْلَامِ لَاهِينَا
 أرأيتم صورة الهول المفتحم في هذا البيت :

لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخُصْنَا الْجَوَّ صَاعِقَةً وَالْبَرَّ نَارًا وَغَيَّ وَالْبَحْرَ غَسِيلِينَ

ثم ماذا ؟ بقي ختام القصيدة، وهي أبيات ما قرأتها إلا بكيت على أمي يرحمها الله، وانظروا كيف هفا قلب الشاعر إلى أمه في حلوان :

كَتَرْتُ بِحُلُوانَ عِنَاءَ اللَّهِ نَطْلُبُهُ خَيْرَ الْوَدَائِعِ مِنْ خَيْرِ الْمُؤَدِّيَنَا
لَوْ غَابَ كُلُّ عَزِيزٍ عَنْهُ غَيَّبْتَنَا لَمْ يَأْتِهِ الشُّوقُ إِلَّا مِنْ نَوَاحِينَا
إِذَا حَمَلْنَا لِمَضَرَ أَوْ لَهُ شَجْنَا لَمْ نَذِرْ أَيَّ هَوَى الْأَمِينِ شَاجِينَا

طيب الله ثراك أيها الشاعر، ورحم والدي ووالديك، فالدعاء في أعقاب شعرك كالدعاء في أعقاب الصلوات.

البحث السادس والثلاثون

معارضات أبي نواس

نعقد هذا الفصل للنظر في معارضات أبي نواس، ونريد بهذه المعارضات ما وقع له من المناقضات مع معاصريه، وما أبدع الشعراء من بعد في معارضة قصائده المشهورات، وهذا وذاك يدلان أبلغ الدلالة على سيطرة العبقرية النواسية على أخيلة الشعراء.

ومن الكلام الجيد في تقويم المعارضات الشعرية ما قاله الدكتور أحمد زكي أبو شادي في الجزء الثاني من مجلة (أدبي) :

« ليس تعمد معارضة الشعر من الفن الصحيح في شيء، بل هو محض صناعة، والشعر قبل كل شيء عاطفة فكرية عميقة الجذور، لا بهرج سطحي زائف، وقد نقرأ عن بعض الشعراء الممنازين أنه حاول محاكاة شاعر آخر بقصيدة معينة، ولكن الحقيقة أنه تأثر بموسيقاه أو بموضوع القصيدة، فأثار ذلك نفسه الشاعرة، مثال ذلك معارضات البارودي للشعراء المتقدمين، ومعارضة كيتس لسبنسر، وقد كانت تلك المعارضة أول تجربة شعرية لكيتس، فإن تلك المعارضات هي نتيجة الإعجاب بالآثار السابقة، وأثر وحيها في النفس ».

ومعنى هذا الكلام أن الشاعر الموهوب لا يصنع القول حين يعارض شاعراً، وإنما تتفجر المعاني من نبع القلب، وذا كلام عرفنا صحته حين وازنا بين المعارضات،

فمن العسير أن نتصور الشاعر مستعبداً لمن يعارضه، وإن تأثر خطوانه في الوزن والقفية والموضوع، والمعارضة في صميمها هي تلاقي روحين، وانثلاف فلبس، أو اصطدام نفسين، واقتتال عبقريتين.

فمن المعارضات التي وقعت بائثلاف الذوق والقلب ما وقع بين أبي نواس والخرّاز، فإن أبا نواس لما قال :

يَا رَيْمُ هَاتِ الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَا	أَكْتُبْ شَوْقِي إِلَى الَّذِي ظَلَمَا
مَنْ صَارَ لَابْعُرْفُ الْوِصَالِ وَقَدْ	زَادَ فُؤَادِي فِي حُبِّهِ وَنَمَا
عَضْبَانٌ قَدْ عَزَّنِي هَوَاهُ وَلَوْ	يُسْأَلُ مِمَّا غَضِبْتَ مَا عَلَمَا
فَلَيْسَ يَنْفُكُ مِنْهُ غَاشِقُهُ	فِي جَمْعِ عُذْرٍ مِنْ غَيْرِ مَا آجَرَمَا
لَوْ نَظَرْتُ عَيْنَهُ إِلَى حَجَرٍ	وَلَدَ فِيهِ فُتُورُهَا سَقَمَا
أَظْلُ يَقْظَانُ فِي تَذْكَرِهِ	حَتَّى إِذَا نَمْتُ كَانَ لِي حُلَمَا

لما قال أبو نواس هذه الأبيات عارضه الخرّاز، فقال :

إِنْ بَاحَ قَلْبِي فَطَالَمَا كَتَمَا	مَا بَاحَ حَسِي جَفَاهُ مِنْ ظَلَمَا
وَكَيْفَ يَقْوَى عَلَى الْجَفَاءِ فَتَى	فَدُمْتُ أَوْ كَادَ أَوْ أَرَاهُ وَمَا
أَشْكُ أَنْ الْهَوَى سَبَقْتُنِي	مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَلَا يُرْبِنُ دَمَا
كَيْفَ آحْتِيَالِي لِشَادِنِ غَنَجٍ	أَصْبَحَ بَعْدَ الْوِصَالِ قَدْ صَرَمَا
مَا قُلْتُ لَمَّا عَلَا الصُّدُودُ بِهِ	يَا رَيْمُ هَاتِ الدَّوَاةَ وَالْقَلَمَا
لَكِنْ سَفَحْتُ الدُّمُوعَ مِنْ حَزَنِ	لَمَّا تَمَادَى الصُّدُودُ ثُمَّ نَمَا
إِنَّ الرُّسُولَ الَّذِي أَتَاكَ بِمَا	أَنَاكَ عَنِّي قَدْ حَرَفَ الْكَلَمَا

وأبيات أبي نواس من الشعر الكريم، وهي من الملمع المستنوع، وفيها ومضات من السحر المبين، وأيّ غزل أرق وأظرف من هذا البت الذي يعد من أدق ما قبل في تلون الملاح :

عَضْبَانٌ قَدْ عَزَّنِي هَوَاهُ وَلَوْ يُسْأَلُ مِمَّا غَضِبْتَ مَا عَلَمَا
وفوله في فنك العيون :

لَوْ نَظَرْتُ عَيْنَهُ إِلَى حَجَرٍ وَلَدَ فِيهِ فُتُورُهَا سَقَمَا

وقوله في أخذ الهوى بأحلام الحب :
أُظْلُ يَقْظَانُ فِي نَذْكُرِهِ حَتَّى إِذَا نِمْتُ كَانَ لِي حُلْمًا
أما أبيات الخراز فهي من الشعر المقبول، ولبست من الشعر الجيد، وقد ربط
فيها بعض المعاني ببعض على طريقته لم تألفها الأذواق العربية، ولولا أنها قيلت
في معارضة أبي نواس لما نقلها راوية، ولا حفظها كتاب.

ومن المعارضة التي جرت مجرى المطارحة ما وقع بين أبي نواس وبين العباس
ابن الأحنف، وكان بين هذين الشاعرين مودة قوية أساسها تبادل الثقة
والإعجاب. والحق أن أبا نواس والعباس كانا يقبسان من شعلة واحدة، فقد جمع
بينهما العزل والظرف، وصفاء الروح، بالرغم من اختلاف المذهبين، فقد كان أبو
نواس متلونا في الحب ينتقل من فنن إلى فنن، على حين كان ابن الأحنف قد
وقف قلبه على هوى واحد، هو محبوبته « فوز » التي خلد اسمها على الزمان.

حدث حمزة الأصفهاني قال : اجتمع أبو نواس مع العباس بن الأحنف في
مجلس فقام عباس لحاجة، فسئل أبو نواس عن رأيه فيه وفي شعره فقال : هو
أرق من الوهم، وأنفذ من الفهم، وأمضى من السهم، ثم عاد عباس وفام أبو
نواس كذلك فسئل عنه عباس، وعن رأيه فيه وفي شعره، فقال : إنه لأقر للعين
من وصل بعد هجر، ووفاء بعد غدر، وإنجاز وعد بعد يأس. فلما صارا إلى النبيذ
أعلم كل واحد منهما قول الآخر فيه، فقال أبو نواس :
إِذَا ارْنَدْتَ فَتَى الْكَاسِ فَلَا تَعْدِلْ بِعَبَّاسِ

فقال العباس :

إِذَا نَازَعْتَ صَفْوَ الْكَاسِ يَوْمًا أَخَا ثِقَةٍ فَمِثْلَ أَبِي نَوَاسِ
فَتَى يَشْتَدُّ حَبْلُ الْوُدِّ مِنْهُ إِذَا مَا خُلَّةٌ رَنَّتْ لِنَاسِ

فتناول أبو نواس قدحاً وقال :

أَبَا الْفَضْلِ أَشْرَبُنْ ذَا الْكَاسِ سَإِي شَارِبُ كَاسِي

فقال العباس :

نَعَمْ يَا أَوْحَدَ النَّاسِ عَلَى الْعَيْنَيْنِ وَالرَّاسِ

فقال أبو نواس :

فَقَدْ حَفَّ لَنَا الْمَجْلُ سُبُ بِالْتَّسْرِيبِ وَالْآسِ

فقال العباس :

وَإِخْوَانٍ بِهَالِكٍ سَرَاةٍ سَادَهُ النَّاسِ

فقال أبو نواس :

وَسُودٍ لَذَّةِ الْمَسْمُوعِ عِ مِنْ لِ الْعُصْنِ الْكَاسِي

فقال العباس :

وَقَدْ أَلْبَسَهَا الرَّحْمُ نُ مِنْ أَحْسَنِ الْبَاسِ

فقال أبو نواس :

فَقَدْ زِينَتْ بِإِكْلِيلِ يَوَاقِيتٍ عَلَى الرَّاسِ

فقال العباس :

فَلَا تَحْبِسْ أَخِي كَأْسًا فَإِنِّي غَيْرُ حَبَّاسِ

قال الأصفهاني : فكان مانسي من معارضتهما أكثر مما حفظ.

ويذكرنا بهذه المطارحة ما وقع بين إسماعيل صبري، وخليل مطران، فقد مضى يوماً صبري باشا بأحد شوارع القاهرة، فرأى مطران يشرب الصهباء على قارعة الطريق، فقال صبري باشا : يا مطران، لا يليق بمثلك أن يشرب تحت أبصار الناس، فابتدعه مطران، وقال :

وَهَلْ يَضِيرُ الْمَجْدَ أَنْ أُشْرَبَا وَأَجْعَلَ الْحَانَةَ لِي مَلْعَبَا

فطرب صبري باشا، وقال :

وَأَنْ بَرَانِي كُلُّ مَنْ مَرَّ بِي وَسَطَ الدِّيَاغِي حَامِلَا كَوَكْبَا

كذلك حدثنا الأستاذ إبراهيم الدباغ، فلما لقيت الشاعر مطران سألته عن القصة، فقال : كان يقع لنا من ذلك شيء كثير، أما أنتم يا شعراء هذا العصر،

فقد بددت الشواغل أحلامكم، ولم يبق لكم من روعة المطارحة نصيب.. وقد
صدق مطران !

واتفق يوماً أن لقي مسلم بن الوليد رسولاً لأبي نواس يحمل رقعة إلى عنان،
وفيها هذه الأبيات :

لَا تَأْمِنَنَّ عَلَى سِرِّي وَسِرِّكُمْو غَيْرِي وَغَيْرِكَ أَوْطَيَّ الْقَرَّاطِيسِ
أَوْ طَيْرَ فَيْرُودَجٍ^(١) إِنِّي سَأُبْعَثُهُ قَدْ كَانَ صَاحِبَ تَأْلِيفٍ وَتَدْسِيسِ
وَكَانَ هُمْ سُلَيْمَانُ لِيَذْبَحَهُ لَوْلَا قِيَادَتُهُ فِي أَمْرِ بَلْقِيسِ

فأخذ مسلم الرقعة من الرسول وخرقها فانصرف الرسول إلى أبي نواس فأخبره
بما صنع مسلم برقعته، فقال أبو نواس:

لَمْ يَقَوْ عِنْدِي عَلَى تَخْرِيقِ قِرْطَاسِي إِلَّا فَنَى قَلْبُهُ مِنْ صَخْرَةٍ قَاسِي
إِنَّ الْقَرَّاطِيسَ فِي قَلْبِي بِمَنْزِلَةِ كَمَوْضِعِ السَّمْعِ وَالْعَيْنَيْنِ وَالرَّاسِ
لَوْلَا الْقَرَّاطِيسُ مَاتَ الْعَاشِقُونَ مَعًا هَذَا بَعْمٌ وَهَذَا كُمْ بَوْسَوَاسِ
فَلَيْتَ أَنَّ إِمَامَ النَّاسِ سَلَّطَنِي فَلَمْ أَدْعُ خَارِقًا فِيهِمْ لِقِرْطَاسِ
حَتَّى أَصْبَحَهُ مِنْ حَيْثُ مَا مَنُهُ كَأَسَا مِنَ الْمَوْتِ لَمْ يَسْلَمْ لَهُ حَاسِي
مَا أَعْجَبَ الْحَارِقَ الْقِرْطَاسَ أَقْرَاهُ يَأْسًا فَحَرَقَهُ مِنْ حَيْرَةِ الْيَاسِ
مَاذَا عَلَيْكَ إِذَا أَحْبَبْتَ كَاتِبَهُ مَا كَانَ فِي بَطْنِهِ يَا أَحْمَقَ النَّاسِ
أَلَيْسَ قَدْ مَشَقَّتْ فِيهِ أَنَامِلُهُ وَجَازَ أَقْلَامُهُ فِيهَا بِأَنْفَاسِ

وبلغت هذه الأبيات مسلماً فعارضه فقال :

يَا مَنْ يُلُومُ عَلَى تَخْرِيقِ قِرْطَاسِ كَمْ مَرَّ مِثْلُكَ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَاسِي
الْحَزْمُ تَخْرِيقُهُ إِنْ كُنْتَ ذَا حَذَرٍ وَإِنَّمَا الْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ
فَشُقُّ قِرْطَاسٍ مِنْ تَهْوَى صَيَانَتِهِ قَرُبٌ مُفْتَضِحٍ فِي خَطِّ قِرْطَاسِ
إِذَا أَتَاكَ وَقَدْ أَدَّى أَمَانَتَهُ فَاجْعَلْ كَرَامَتَهُ فِي بَطْنِ أَرْمَاسِ
وَشُقُّ قِرْطَاسٍ مِنْ تَهْوَى وَكُنْ فُطِينًا كَمْ ضَيَّعَ السَّرُّ فِي حِفْظِ لِقِرْطَاسِ

(١) هو الهدهد بالمارسية.

فأجابه أبو نواس :
مَاذَا أَرَدْتَ إِلَى تَخْرِيقِ قِرْطَاسِي
هَلْ كَانَ عِنْدَكَ فِي الْقِرْطَاسِ مِنْ بَاسٍ
سَبَّيْتَ كَاتِبَهُ مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبٍ
هَلْ كَانَ فِيهِ سِوَى شَكْوَى إِلَى نَاسِي
كَتَبْتُ أَشْكُو بِلِيَّاتِي فَسَاءَ كُفُو
مَا يَذْكُرُ النَّاسُ مِنْ شَوْقٍ إِلَى النَّاسِ

وهذه المعارضة تبدو تافهة لمن ينظر فيها وهو خالي الذهن من ألوان الحياة
لذلك العهد، ولكن الذين سايروا تطور التقاليد الأدبية يرون مسألة الرسائل
الغرامية كانت يوماً من المشكلات، حتى صح لمثل أبي محمد بن حزم أن يعقد
لها فصلاً في طوق الحماسة، ولو كانت هذه المسألة من التوافه لما اهتم بها ذلك
الإمام الجليل.

والحق أن تاريخ الأدب عرضة للطمس إذا حكمنا فيه ذوق الناس في هذا
العصر، فأهل هذا الزمن يتصنعون الوقار، ويتكلفون الاحتشام، وتبدو منهم
بدوات تنقلهم إلى عوالم لا تعرف المجون مع أن حياتهم في صميمها ملوثة بعيب
أشنع من المجون، وهو الرياء.

ولكن مهلاً. من الذي يحكم بأن من العبث أن يكون للرسائل الغرامية
أدب يحرص عليه مثل مسلم بن الوليد ؟ ألسنا نرى في أباونا هذه كيف
تقدم الرسائل الغرامية إلى المحاكم لتكون من أفوى الأسانيد، وتثبت بها حقوق
تصل أحياناً إلى المواريث ؟

إن النفس الإنسانية ستظل مجهولة ما لم تكشف عنها الصغائر في حيوات الناس،
وأكثر من ترون من العظماء هم أطفال في عالم الحب، وقد تكون تلك الطفولة
هي أساس العظمة عند من يفقهون.

ألم تر كيف كان فيكتور هوجو يتكلف الحب ليعرف بعض ما يجهل من أسرار
القلوب ؟

ألم تر كيف كان جوته يتكلف الحب ليعرف المستور من خلائق النساء ؟
ليس العلم كل العلم أن نرعى في بيتك طائفة من الحشرات لتعرف كيف
تصح، وكيف تمرض، وكيف نحس، وكيف تعقل، وكيف تحيا، وكيف
تموت. ليس هذا كل العلم، وإن ضاعت فيه أعمار وبددت في سبيله أموال،
وأنشئت من أجله معاهد وكليات. للعلم ميادين أعلى وأشرف، هي ميادين
السرائر والقلوب، وهي ميادين لا يعرفها غير الشعراء.

البحث السابع والثلاثون

بين أبي نواس وابن المعتز والخليع

كان من حظ أبي نواس أن يسيطر على أهل عصره، وأن يتخطى زمانه فيسيطر على أخيلة الشعراء من جيل إلى جيل، وكان أهم ما اشتهر به وصف الصهباء، وإنما برع في هذا الفن لأنه نشأ في العراق، والعراق منذ الزمن القديم قطر مرح طروب، استطاع أن يكون ملتقى الروحين العظميين : روح العرب وروح الفرس، ولو نشأ أبو نواس في بلد مثل مصر لما استطاع أن يظفر بكل هذه النهرة الأدبية : لأن مصر لم تكن من الأقطار ذوات الخطر في صنع الخمر، ولم يكن أهلها يوماً من كبار الشاربين، وإن زعموا أنها تفردت بشراب « المربوطيك » الذي أسكرت به كيلوباترة من أسكرت من عشاقها الابطال.

ولم يكن لمصر شأن يذكر في زراعة الأعناب، لأن جوّها لا يصلح كثيراً لصنوف العنب الجيد الذي يحمل أهلها على الاهتمام بصناعة الخمر، على نحو ما بنفق ذلك في بعض الأقطار الشرقية والغربية، ومن أجل هذا ظل المصريون أجيالاً طوالاً وهم لا يعرفون من الخمر إلا صنوفاً رديئة يحتفظ بها جماعة من الأقباط نوارثوها عن أجدادهم، فكانوا شرّ ورثة لأتبع ميراث !

ولا كذلك العراق، فقد عرف الخمر منذ عهد الآشوريين والكلدانيين وظل يُفَنّن في تقطيرها أظرف افتنان. وقصائد ابن الرومي في وصف العنب ندل على

أن العراقيين كانوا ينظرون إلى العنب نظرة تقديس، لأنهم كانوا يتمثلون فيه ما يضمّر من أسرار الصهباء.

وحرمان مصر من جيد الخمر يشرح جانباً مهماً من حياتها العقلية، فقد نبغت مصر نبوغاً عظيماً في التأليف، وكانت هي القطر الإسلامي الوحيد الذي أنتج أعظم المؤلفات في الأدب واللغة والتاريخ والتشريع، وإنما كان الأمر كذلك لأن «الصحو» من أقوى الشواهد على سلامة العقل، أما الأفطار العربية التي عرفت الخمر، فكانت لها ميادين غير التأليف، كان لها الشعر والخيال، على نحو ما نرى في الأندلس، والشام، والعراق.

وهذا الحكم لا نريد به التعميم، فمن التعسف أن نقول إن الشعر انعدم في مصر، أو إن التأليف انعدم في غير مصر، لا، وإنما نحكم بأن الخصائص الأساسية تختلف هنا وهناك، فالمصريون يعيشون في بلد محافظ على التقاليد منذ خلق، فلم يكن فيهم فاجر، ولا زنديق، على نحو ما توثب الفجور واستطارت الزندقة في بلد مثل العراق.

والشاهد أمامي واضح صريح : هو هذه الهمزيات الثلاث لابن المعتز والخليع، وأبي نواس، ففي هذه القصائد أخيلة يجهلها المصريون.

ولايكم الحديث.

وصف أبو نواس الخمر فقال :

دَغَّ عَنكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءٌ وَدَاوِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

وعارضه الخليع فقال :

بُدِّلْتُ مِنْ نَفَحَاتِ الْوَرْدِ بِالْآءِ^(١) وَمِنْ صَبُوحِكَ دَرَّ الْإِبِلُ وَالشَّاءُ

وعارضه ابن المعتز فقال :

أُمَكْنْتُ عَاذِلْتِي مِنْ صَمْتِ آبَاءِ مَا زَادَهُ التَّهْيُّ شَيْئاً غَيْرَ إِغْرَاءِ

(١) الآء : ثمر شجر، واحده آءة. قال الفيروزابادي : وأوت الأديم دبغته به، والأصل : أوت فهو مؤء، والأصل مأووء.

والشاهد هنا هو المشكلة التي أثارها الهمزية النواسية، فأغلب الظن أن أبا نواس لو خاطب بها أهل مصر لخاطبهم بما لا يفهمون، ولكنه خاطب أهل العراق فخاطب قوماً يعرفون من الخمر ما يعرفون.

كانت همزية أبي نواس من المشاكل العراقية، وكانت الموازنة بينها وبين همزية ابن الضحاك مما يشغل الناس، ومضى الحديث إلى مكة، مكة المكرمة التي شرعت للعالم بغض الصهباء، نعم في مكة وجدوا فقيها يفصل بين همزية ابن الضحاك، وهمزية أبي نواس.

انظروا في هذا، واسألوا أنفسكم : أيمكن نقل الحديث من مكة المكرمة إلى الأزهر الشريف ؟

هيهات، هيهات !

وإنما جاز في مكة ما لم يجر في مصر، لأن مصر كما حدثنكم لا تعرف الخمر، وإن كان الخواجة خرايبو فتح فيها عشرات الحانات.

مصر فضولية في شرب الشمول، ومن الخير أن تقف حيث أقامها الله، فلا تقول : هات وهاك !

لا تحسبوني أمزح، فالمصري لا ينقع غلته غير الماء القراح، وقد نرونه في مجالس السلاف يصرخ فجأة في طلب كوب من الماء، والطبيعة الأصلية تميز خصائص الشعوب.

ما هذا ؟ أتصدقون أنني أهرب من الهمزيات الثلاث، لأنني لا أجِد من الحماسة لنقدها بعض ما وجد أدباء العراق.

ولنواجه الموضوع فنقول :

همزية أبي نواس لا تزيد على عشرة أبيات، ولكنها تحدثنا عن أمور جوهرية في حياة العراق، تحدثنا أولاً عن قيمة الخمر في العلاج، وهي عادة عراقية، وجدت من قبل عند العرب في الجاهلية، فقد رووا أن الأعشى قال :

وَكَاَسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذْفٍ وَأُخْرَى نَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وكان الأعشى شاعراً فاجراً عرف الخمر والنساء. ومشيت به شهواته إلى الحدود الفارسية فنقل من تقاليد الفرس ما شاء.

فجاء أبو نواس وأفصح عن عادات قومه أبرع إفصاح حين قال :

دَع عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِي بِالْيَمِينِ كَأَنَّ هِيَ الدَّاءُ

وبين الأعشى وأبي نواس تفلسف مجنون بني عامر فقال :

تَدَاوَيْتُ مِنْ لَيْلَى بِلَيْلَى مِنَ الْهَوَى كَمَا يَتَدَاوَى شَارِبُ الْخَمْرِ بِالْخَمْرِ

والتداوي بالخمر يراه أهل مصر من المشكلات، وله فتوى في العدد الأخير من مجلة الأزهر ختمها المفتي بعبارة « والله أعلم » كأن الله لم يهد خلقه إلى بعض أسرار الصهباء.

وتحدثنا الهمزية ثانياً عن عادة اجتماعية كان لها خطر في بغداد، وتلك العادة هي إلباس الجوّاري ملابس الغلمان، والظاهر أنَّ الفتنه في عالم الجمال لم يكن يراها البغداديون المترفون إلا في تلك الثياب، فكانت الجارية لا تملح إلا مذكّرة، ولهذه النزعة المقلوبة بقايا في أدب أهل الشرف والغرب فقد حدثنا الأستاذ لطفي جمعة في رواية (عائدة) التي نشرها في (البلاغ) أن محبوبته في السوبس لبست ثياب الفتى فبدت له جميلة جداً، واندفع يقبلها بعنف حتى أدمى خديها بالتقبيل. وقد رأينا بأعيننا بعض الفتيات في أوربا يلبسن ملابس الفتيان، فإن لم يكن هذا بدعاً حديث العهد، فهو إذن بقيه من عبث أهل بغداد القدماء الذين أطغاهم الغنى والملك.

وهذا بيت أبي نواس :

مِنْ كَفِّ ذَاتِ حِرٍّ فِي زِيٍّ ذِي ذَكَرٍ لَهَا مُجَبَّانِ لُوطِيٍّ وَزَنَاءُ

والدعارة واضحة في هذا البيت، ولكن ناقل الكفر ليس بكافر، وناقل الفسق ليس بفاسق.

وتحدثنا الهمزية ثالثاً بأن فسقة بغداد كانت عندهم نزعة صوفية ترمي إلى الاعتقاد على عفو الله، ومن الصوفية من يرى من الإثم أن تتخوف من الذنوب :

لأن التخوف من الذنب يشعر بأنك تعتد بالأعمال، والاعتداد بالأعمال ينافي أدب الأبرار، وذلك ما عناه الفاجر أبو نواس حين قال :
لَا تَحْظُرِ الْعَفْوُ إِن كُنْتَ أَمْرًا حَرَجًا فَإِنَّ حَظْرَكَ بِالَّذِينَ إِزْرَاءُ
تلك هي الأمور التي أفصح بها أبو نواس عن بعض الأحوال الاجتماعية في بغداد، فلم يبق إلا النص على ما في قصيدته من المعاني الشعرية :

ونبادر فنذكر أن النقاد القدماء أجمعوا على سبقه بهذا البيت :
صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانُ سَاحَتَهَا لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتُهُ سَرَاءُ

أما نحن فنستجيد قوله في الراح :
فَأُرْسِلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيقِ صَافِيَةٌ كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ
جَفَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى مَا يُلَاثِمُهَا لَطَافَةٌ وَجَفَا عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ
فَلَوْ مَزَجَتْ بِهَا نُورًا لَمَازَجَهَا حَتَّى تَوَلَّدَ أَنْوَارٌ وَأَضْوَاءُ

وهذه الأبيات في غاية من الجودة، وللقارئ أن يتأمل هذه الشطرة :
« كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَيْنِ إِغْفَاءُ »

فهي كلمة شاعر مبدع يتمثل الصور الشعرية تمثل الشاعر الفنان.
وفي البيتين الآخرين تنزيه للخمر عن ملابسة الماء، ورجعها إلى التوافق مع عنصر أشرف هو عنصر النور، وهذا معنى لا يلتئم إلا مع خمر الفردوس.

أما قوله :
ذَارَتْ عَلَى فِتْيَةٍ دَانَ الزَّمَانُ لَهُمْ فَمَا يُصِيبُهُمْ إِلَّا بِمَا شَاؤُوا
فهو صورة لجماعة من الندمان الفتيان الذين مكهم الغنى والشباب من ناصية الزمان، وأبو نواس الفاجر يرى أعداء الراح من الجاهلين، ويقول :
فَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي فِي الْعِلْمِ فَلْسَفَةً حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ
وهي سخرية لم يوجه مثلها إلى أهل التقى والعفاف.

تلك همزية أبي نواس، فماذا قال الخليل الحسين بن الضحاك ؟

لقد بدأ فسخر من العرب الذين يقنعون بالبلان الإبل والشاء بين أشواك البادية، فقال :

بُدِّلَتْ مِنْ نَفَحَاتِ الْوَرْدِ بِالْآءِ وَمِنْ صَبُوحِكَ دَرَّ الْإِبِلُ وَالْشَّاءُ
مَا يَبْنِي بَطْنَ ثَبِيرٍ إِنْ حَلَلْتَ بِهَا إِلَى الْفَرَادِيسِ إِلَّا شَوْبُ أَقْدَاءِ
فَعَدَّ هَمْلِكَ عَنْ جِلْفٍ تُمَارِسُهُ جِلْفٍ تَلْفَعُ طِمْرًا يَبْنِي أَحْنَاءِ

والسخرية من العرب ومعايش العرب نزعة شعوبية كان لها في ذلك العهد مجال، فكان أبو نواس وندماؤه من شياطين بغداد لا يملون القدح في شمائل الأعراب، وكانت السخرية من الأزهار البدوية والأشواك البدوية هي الفاتحة والخاتمة لكل قصيد، وكذلك صح للخليع أن ينقل نديمه إلى حياة الحضارة فيقول :

فَفِي غَدٍ لَكَ مِنْ زَهْرَاءَ صَافِيَةٍ بِطَيْرٍ نَابِاذَ مَاءٍ لَيْسَ كَالْمَاءِ
مِمَّا تَخَيَّرَ أَوْلَاهَا وَأَوْدَعَهَا رَبُّ الْخَوَرَنَقِ فِي جَوْفَاءِ مَيْثَاءِ
رَاحَ الْفَرَاتِ عَلَيْهَا فِي جَدَاوِلِهِ وَبَاكَرَتْهَا سَحَابَاتُ بَانُوءِ

وقد أطل الخليل في قصيدته اطالة مملة تملأنا نحن المصريين، ولكنها تمتع أمثال العراقيين. فقد وصف تنقل الراح من عهد إلى عهد، وسره أن تدفن في الأرض، وأن تمر عليها أزمان وهي سر مكنون، فلننس ما لا نعرف من تلك العهود، ولننتقل إلى عهدها الأخير بعد أن رأت نور الوجود :

فُضِّتْ خَوَاتِمُهَا فِي نَعْتٍ وَأَصِفِهَا عَنْ مِثْلِ رَقْرَقَةٍ فِي جَفْنٍ مَرَّهَاءِ^(١)
لَمْ يَبْقَ مِنْ شَخْصِهَا إِلَّا تَوْهُمُهُ فَالْشَيْءُ مِنْهَا إِذَا اسْتَشْبَتْ كَالْإِلَاءِ^(٢)
تُمَارِجُ الرُّوحَ فِي أَخْفَى مَدَاخِلِهِ كَمَا تَمَازِجُ أَنْوَارٍ بِأَضْوَاءِ
لَا يُدْرِكُ الْحِسُّ مِنْهَا حِينَ تَبْعُثُهَا إِلَّا التَّنَسُّمُ أَوْ لَدَغُ الْبَاحْشَاءِ
يَحْكِي تَطَوُّقَهَا بِالْكَاسِ مِنْ ذَهَبٍ طَوْقًا أَطَافَتْ بِهِ وَأَوَاتُ عَسْرَاءِ

(١) المرهء، هي التي ابصت حماليق عيها.

(٢) اللاء هنا السراب.

ثُمَّ اسْتَحَالَ لَهَا دُرٌّ فَعَرَّشَهُ حَتَّى اسْتَقَلَّ لَهَا عَرْشٌ عَلَى الْمَاءِ
عَرْشٌ بِلَا طُنْبٍ مِنْ فَوْقِهِ زَبَدٌ قَدْ جَلَّ عَنْ صِفَةٍ فِي حُسْنٍ لِأَلَاءِ
لَا يَسْتَطِيعُ سَنَا نُورِ لَهَا نَظْرًا حَتَّى تَعُودَ لَهُ لِحَظَاتُ حَوْلَاءِ
كَأَنَّ تَأْلِيفَ مَاخَاكَ الْمَزَاجُ لَهَا سَلَخَ تُحَلُّهُ عَنْ ظَهْرِ رَقَشَاءِ
لَا شَيْءَ أَحْسَنُ مِنْهَا فِي تَصَرُّفِهَا مِنْ كَفِّ مُخْتَلِجِ الْأَعْطَافِ وَضَاءِ

هذه الأبيات تخيرناها تخيراً، ولو عرضنا هذه القصيدة كاملة لبدت فيها أشياء لا يفهمها أهل هذا الجيل.

ونحن لا نستسيغ اليوم وصف الخمر بأنها بدت « مثل رفرقة في جفن مرهء » ولا يسرنا أن يكون الحب ألف فوقها صورة تسبه ظهر الحية الرقشاء، ولكنها نستظرف وصف الراح بأنها تمازج الروح في أدنى مداخلة ممازجة الأنوار للأضواء، ولعل هذه الصورة هي أجمل ما في قصيدة الخليع.

ولا ننس النص على أن الخليع ختم قصيدته بغمز العرب فقال .
هَذَا النَّعِيمُ وَلَا عَيْشٌ نَكُونُ بِهِ هِنْدٌ بِرَأْيَةٍ مِنْ بَعْدِ أَسْمَاءِ^(١)
فكانت الفاتحة والخاتمة من النزوات الشعوبية.

بقي ابن المعتز، فماذا قال :

إن ابن المعتز جرى في همزته مجرى الفك فانطلق يتحدث عن صباه حديث الغوي المفتون، ويقول :

أَمْكَنْتُ عَاذِلَتِي مِنْ صَمْتِ آبَاءِ مَا زَادَهُ النَّهْيُ شَيْئًا غَيْرَ إِغْرَاءِ
أَتَيْنَ التَّوَرُّعَ مِنْ قَلْبٍ يَهِيمُ إِلَى حَانَاتِ قُطْرُبُلٍ بِالْعُودِ وَالنَّاءِ^(٢)

(١) أسماء اسم امرأة أصلها « وسماء » من الوسامة وهي الحسن الباب. فلت الواو هره هور-ها فعلاء.

(٢) الناء هو الناي.

وَصَوْتُ فَتَانَةِ التَّغْرِيدِ نَاطِرِهِ
جَرَتْ ذُيُولُ الثِّيَابِ الْبَيْضِ حِينَ مَشَتْ
وَقَرَعَ نَاقُوسُ دَيْرِيٍّ عَلَى شَرَفِ
وَكَّاسٍ حِيرِيَّةٍ شَكَّتْ بِمِيزْلِهَا
بِعَيْنٍ ظَبْيٍ يُرِيدُ النَّوْمَ حَوْرَاءِ
كَالشَّمْسِ مُسِيلَةً أَذْبَالَ الْأَلَاءِ
مُسَبِّحٍ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ دَعَاءِ^(١)
أَحْشَاءَ مُشَعَّرِهِ بِالْفَارِ جَوْفَاءِ

والبيت الأول مولد من صدر قصيدة أبي نواس، والبيت الثالث بيت عذب والمعنى فيه قديم، ولكنه ورد في معرض طريف، أما البيت الرابع فهو تحفة لأنه جعل محبوبته في الثياب البيض كالشمس تسبل أذبال اللألاء، وفي البيت الخامس حنين إلى النواقيس، ولكن أي حنين؟ أهو حنين الخاشعين؟ هيهات، إنه حنين الفجرة الذين كانوا يتخذون الديرة ملاعب صباهه ومجالس سلاف.

ثم مضى يذكر أعمار الخمر فقال :

جَاءَتْ بِهَا حُفْلُ الْأَثْمَارِ يَانِعَةً
تَرْفُو الظَّلَالِ بِأَغْصَانٍ مُهْدَلَةٍ
أَجْرَى الْفُرَاتُ إِلَيْهَا مِنْ سَلَاسِلِهِ
وَطَافَ بِكُلُّوْهَا مِنْ كُلِّ قَاطِفَةٍ
مُوَكَّلٌ بِالْمَسَاحِي فِي جَدَاوِلِهَا
فَآبَ فِي آبَ بَجْنِيْهَا لِعَاصِرِهَا
فَظَلَّ بَرَكُضُ فِيهَا كُلِّ ذِي أَشْرٍ
ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ وَعَيْنُ الشَّمْسِ تَلْفَحُهَا
حَتَّى إِذَا بَرَدَ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ لَهَا
صَبَّ الْخَرِيفُ عَلَيْهَا مَاءَ غَادِيَةِ
بَطِيرِنَا بَاذَاؤُ كُوشَى وَسُورَاءِ^(٢)
سُودِ الْعَنَاقِيدِ فِي خَضِرَاءِ لَفَاءِ
نَهْرًا تَمَسْنِي عَلَى جَرَعَاءِ مِثْيَاءِ^(٣)
رَاعٍ بِعَيْنٍ وَقَلْبٍ غَيْرِ نَسَاءِ
حَتَّى بَدُلَ عَلَيْهَا حَيَّةَ الْمَاءِ^(٤)
كَأَنَّ كَفِّهِ قَدْ عُلِبَ بِحَنَاءِ
قَاسٍ عَلَى كِبِدِ الْعُنُقُودِ وَطَاءِ
فِي بَطْرِ مَخْتُومَةٍ بِالطِّينِ كَلْفَاءِ
وَبَلَّهَا سَحَرٌ مِنْهُ يَانِدَاءِ
أَقَامَهَا فَوْقَ طِينٍ نَعْدَ رَمَضَاءِ

(١) دعاء . كثير الدعاء

(٢) كل هذه أسماء أماكن.

(٣) الحرعاء : الرملة الطيبة المست والمشاء اللينه.

(٤) المساحي : الأراضي المهيأة للزرع.

تِلْكَ الَّتِي إِنْ تُصَادِفَ قَلْبَ ذِي حَزَنِ تُجْزِلَ عَطِيَّتُهُ مِنْ كُلِّ سَرَاءٍ
يَسْقِيكَهَا خَنِثُ الْأَلْحَاطِ ذُو هَيْفٍ كَانَ أَجْفَانُهُ أَفْرَقْنَ مِنْ دَاءٍ

وجملة القول ان هؤلاء الشعراء ركضوا في ميدان واحد فوصفوا الخمر
والسقاة وصفاً يختلف بعض الاختلاف، وكان أقصرهم نفساً أبو نواس، ولكنه
كان أعرفهم بأسرار الصهباء.

والقصيدة الوحشية هي قصيدة الخليج فقد أكثر فيها من التعمل والافتعال،
فظلت سجيئة لا يعرفها من الناس غير أهل العراق، وقد وقع ابن المعتز
في بعض ما وقع فيه الخليج، فأخذ يؤرخ الخمر يوم كان لها تاريخ، فأصبحت
قصيدته غريبة في زمن تكتهل فيه الصهباء وهي بنت يوم واحد لأن أهل
هذا الزمن عرفوا من العناصر، ما لم يعرف الأقدمون واستطاع آثمهم أن يكوي
الصهباء فيردها ناراً تأكل الهشيم من أحلام الرجال.

أما أبو نواس فقد وقف عند المعاني الفطرية التي يعرفها الناس في جميع
البلاد، وكذلك ظلت قصيدته موصولة الأواصر بأرباب الأذواق. وأجود الشعر
ما استطاع مداعبة القلوب في كل أرض وفي كل جيل.

البحث الثامن والثلاثون

أقطاب الموازين

— ١ —

رأى القارىء طائفة من الآراء في نقد الشعر والموازنة بين الشعراء، وهي آراء ذاتية لمؤلف هذا الكتاب.

فمن الخير أن نضيف إلى هذه الطبعة فصلاً نبيّن به فضل من سبقونا إلى الموازنة بين الشعراء، وأظهر أولئك الباحثين رجلاً : أحدهما من رجال القرن الرابع، وثانيهما من رجال القرن الرابع عشر.

أما الأول فهو أبو الحسن الآمدي صاحب كتاب « الموازنة بين الطائيين : أي تمام والبحري » وهو باحث عظيم فصّلت الكلام عليه تفصيلاً في الجزء الثاني من كتاب « النثر الفسي^(١) » فليرجع إليه القارىء إن شاء، فمن تبديد الوقت أن أعيد هنا ما فصلته هناك.

وأما الثاني فهو أستاذي، وصاحب الفضل عليّ : المغفور له الشيخ محمد المهدي بك، وكان أديباً نادر المثال، ولكن لم ينشر له شيء، وقد فصّلت آراءه

(١) انظر الصفحات ٨٢ — ٩٣.

الأدبية في الجزء الأول من كتاب « البدائع »^(١) ولكن بقي مجالاً للقول في ذلك الباحث الجليل، فأني لم أكتب عنه في « البدائع » إلا الصور الرائعة من أسلوبه في الدرس، ومذهبه في الحياة الاجتماعية، وهنا أستطيع أن أبين كيف كان يوازن بين الشعراء، وأستطيع أن أنشر إحدى موازناته في هذا الكتاب، لأن آثاره مع الأسف لن تنشر أبدأ، ولن يفرغ تلاميذه من شواغل دنياهم حتى يقدموا لذكره ما يجب من الوفاء كان الشيخ المهدي يوازن في دروسه بين الكتاب والخطباء والشعراء، وكان يوازن بين العصور الأدبية.

أما موازناته بين الشعراء فكانت كثيرة جداً وأظهرها الموازنة بين زهير والأعشى^(٢)، وأما موازناته بين الخطباء فأذكر منها قوله في الموازنة بين قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي، وهو يقول : « الموازنة بينهما من جهات » :

الجهة الأولى : الموضوع، ونرى أن موضوع قس لا يكاد يتخطى الموعظة بالموت، وتوجيه الناس إلى توحيد الله، ونبذ ما هم عليه من عبادة الأصنام وأما أكثم فإنه يزيد عن هذا نصيح قومه في مسائل الدنيا، ونصح ذريته، وتوجيههم إلى طرق الخير مفصلة.

الجهة الثانية : العبارة، والفرق فيهما بينهما ظاهر، فإن عبارة قس عبارة البديهة، وإن كانت مسجوعة، فهي العبارة الصالحة للدهماء، وهي بمقام الخطبة أليق : لسهولة، ووضوح معناها، وأخذ بعضها بحجز بعض في طريق المقصد الذي يريده، وهي تكاد تكون مغسولة من الأمثال والحكم.

وأما عبارة أكثم فهي عبارة متنافذة يكثر فيها المجاز والكناية والأمثال والحكم، فهي مجموعة مختارات جيدة تكاد تكون عديمة النظر؛ فهي أشبه بكلام الحكماء، ولا غرو فقد كان أكثم حكيماً محكماً عالماً بالأنساب، وقد أثر عنه ما قال في آخر حياته وهو خلاصة تجاربه، فعبارته في نظر عشاق المعاني والبلاغة والإيجاز

(١) انظر الطلعة الثالثة ح ١ ص ١ — ١٨.

(٢) عديب صوره من هذه الموازنة.

أعلى ، وعبرة قس في نظر الخطباء وأهل الدعوة أليق وأبلغ. وإن شئت قلت :
عبرة قس أخطب، وعبرة أكنم أحكم.

الجهة الثالثة : المعاني — والفرق بينهما جليّ أيضاً، فإن معاني قس عامة قليلة،
نظرية، ليس فيها توليد، ولا كذلك معاني أكنم : فإنك تجدها كثيرة مفصلة في
ضروب عدة، وكلاهما يكرر المعنى ويرادف، وهذا شأن الخطباء : إذا أرادوا
تثبيت ما يدعون إليه.

الجهة الرابعة : حال الخطيبين — فإن قسا كان يخطب للعرب كافة وهو راكب
حمله، ويشير بيده وبالخصرة، ويفصل الكلام بـ (أما بعد) ويتقلب في البلاد
لهذا، حتى طار ذكره، واشتهر في الخافقين قدره؛ وكان من أمره أن ذكره النبي
ﷺ، وقرظه.

وأما الثاني فقد كان يخطب قومه، ويتحرى العقلاء مهم، ويقول « لا تحضروني
سفيهاً » ولم يؤثر عنه ما أثر عن قس في موقفه ولباسه، واستعداده — فيما أعلم
— من هذه الجهة أعرق في الخطابة.

الجهة الخامسة : أن قساً كان يقول الأستعار من روح خطبته سهلة متقبلة
لتحفظ إذا لم يحفظ الكلام، وكان أكنم يستعين بالأمثال لحماها وقصرها، وبالرائع
من الحكمة كذلك، ولا يخفى أن الشعر البين السهل إنما هو للدهماء، وهو أليق
بمقام الخطابة، وأن الأمثال الحكمة التي تحتاج إلى روية في فهمها إنما هي للخاصة،
وهي لا تفيد إلا في الخطب الخاصة، وعلى هذا يكون قسّ أخطب، وأكنم أحكم،
وكذلك لم تكن هنالك غرابة في شهرة قس بالخطابة، مع أن كلام أكنم فيها أبلغ
في نظر الحكماء، ومن بتعشقون الجزل الموحز الدقيق المعنى، الرصين المبس.

ثم أشار الأستاذ رحمه الله إلى أنه كان يود أن يقارن بين الكلام المشترك ولكنه
لم يجد من الشواهد ما يروي الغلة، فاكتفى بالحكم بأن الأول كان يتكلم عن
سجية، وأن الثاني كان يتفنن ويدقق ويحكم، وكذلك كان لكل منهما مزع
وطريق.

وأما موازناته بين العصور الأدبية فهي كثيرة جداً، وليس تحت يدي الآن إلا كلمة قصيرة عن بيان حال الشعر في زمن البعثة، والخلافة الراشدة. قال :

إذ أردنا أن نتعرف حال الشعر في صدر الإسلام وجب علينا أن نلمح ما كان له من المكانة قبل ذلك، ثم نكشف عن مكانته الثانية، لتتجلى صورتاه في المكانتين، ويعرف شأنه في الزمانين، فنقول :

كان الشعر في الجاهلية يسير مع السيف في الدفاع عن الأعراس والأحساب والذود عن البيضة، فكما يغير الفارس برمح وحسامه، يُغير الشاعر بقافيته وإنشاده، فإذا فت السيف في الأعضاء، فتّ الشعر في القلوب، وإذا أصاب النبال بنبلة الجسوم، أصاب الشاعر بكلماته النفوس بتخذيل الأعداء، وتعميس الأولياء، فإذا نظرنا إليه بعد الإسلام من هذه الجهة وجدناه ماثلاً فيها لم يتزحزح عنها.

فقد روي أن النبي ﷺ قال ليلة وهو في بعض أسفاره : أين حسان بن ثابت ؟ فقال حسان : بُيِّك يا رسول الله وسَعْدِيكَ. قال أخذُ فجعل يُنشد ويُصغي إليه، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى فرغ من نشيده، فقال عليه الصلاة والسلام : لهذا أشدّ عليهم من وقع النبل.

وقد كان حسان ينافح عنه، ويشجع قومه، ويخذل عدوه.
وقد بلغ من أمر حسان أن بنى له النبي ﷺ منبراً في مسجده ينشد عليه الشعر.

وكذلك القول في عبد الله بن رَوَاحَةَ الذي شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها إلا الفتح، ومات في غزوة مؤتة، فقد كان النبي ﷺ يرتجز ببعض رجزه في تلك الغزوة، وهو قوله حينما أصيبت إصبعة :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيَتْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِينِ
يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي هَذِي حَيَاضُ الْمَوْتِ قَدْ ضَلَيْتِ

وَمَا تَمَنَّيْتُ فَقَدْ لَقِيتُ إِنَّ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدَيْتُ^(١)

وكذلك الشأن في كعب بن مالك الأنصاري الذي كان يعارض ابن الزُبَيْرِ من شعراء المشركين، ويدافع مدافعة من ملأ قلبه اليقين، ومنه قوله في قصيد طويل ذكره ابن هشام في سيرته في يوم الخندق :

وَمَوَاعِظُ مَنْ رَبَّنَا نَهْدِي بِهَا بِلْسَانٍ أَزْهَرَ طَيِّبِ الْأَنْوَابِ
عُرِضَتْ عَلَيْنَا فَاشْتَهَيْنَا ذِكْرَهَا مِنْ بَعْدِ مَا عُرِضَتْ عَلَى الْأَحْزَابِ
حَكْمًا يَرَاهَا الْمُجْرِمُونَ بِزَعِيمِهِمْ حَرَجًا وَيَفْهَمُهَا أُولُو الْأَلْبَابِ
جَاءَتْ سَخِينَةُ كَيْ تَغَالِبَ رَبِّهَا وَلِيُغْلِبَنَّ مُغَالِبُ الْمُغْلَابِ

مراده بسخينة قریش، لأنها كانت تأكلها، وهي حساء من دقيق، والأمثلة من هذا النوع مستفيضة.

فإذا نظرنا اليه من ناحية أنه كان يجاز عليه في الجاهلية وجدناه في صدر الإسلام كذلك بيد أن كثيراً من الشعراء رغبوا عن الجوائز إلى ثواب الله، وكثر في كلامهم ذكر الجنة وما أعد الله لعباده من النعيم المقيم، فأما الجوائز في الإسلام فقد بدأ بها رسول الله ﷺ، فإنه أعطى كعب بن زهير برده حينما جاءه تائباً بعد أن هجاه وأنشد بين يديه في مسجده قصيدته التي مطلعها :

بَانَ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولُ مَتِيمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ

يقول فيها بعد أن تغزل ما شاء في سعاد على عادة الشعر الجاهلي يذكر حيرته من ذنبه وانصراف الأخلاء عنه وتأمله العفو :

وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمْلُهُ لَا إِلَهِيكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْعُولُ
فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَالُكُمْ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ
أَنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
مَهْلًا هَذَا الَّذِي أُعْطَاكَ نَافِلَةً أَلْ قُرْآنٍ فِيهَا مَوَاعِظٌ وَتَفْصِيلُ
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أَذْنِبُ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلِ

(١) يريد صاحبه اللدين استشهدا قلبه، وهما : زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب.

وكذلك جباقرة بن هبيرة وكساة بُردثين وحمله على فرس بعد أن أسلم وهو من الشعراء، فقال يذكر ذلك في قصيد طويل ويمدحه :

حَبَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ إِذْ نَزَلَتْ بِهِ وَأَمَكْنَهَا مِنْ نَائِلٍ غَيْرِ مُفَنَّدٍ
فَمَا حَمَلْتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا أَبْرَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ
وَأَكْسَى لُبْدِ الْحَالِ قَبْلَ آتِنْدَالِهِ وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِحِ الْمُنْجَرَّدِ^(١)

فإن قال قائل إن هذا العطاء للتألف لا للشعر، قلنا له : ومن التألف أن يعطي الشاعر وهو ما نريد في مقالنا هذا.

وإن نظرنا إليه في الجاهلية فوجدناهم يكبرونه ويرفعون درجته عن المنور، ويبالغون في إعظام شأنه إلى حد أن ينسبوه إلى الجن، وإن كثيراً منه في نظرهم من فوق القدرة الإنسانية لما وجدوه فيه من هز أنفسهم إلى الكرم، والدلالة على محاسن الشيم، وذكر الأيام والمشاهد والمفاخر في أسلوب ساحر، إلى غير ذلك، فإننا نجد في الإسلام لم ينزل كثيراً عن هذه المنزلة، ولم يخض منه أن النبي ﷺ ما علم الشعر وما ينبغي له إلا بمقدار ما تقضي أميته من الكتابة، فكما لا نقول قائل بفضيلة الأمية للناس لأن الرسول كان أمياً لا يقول قائل بفضيلة الجهالة في الشعر لأن الرسول لم يعلمه، ولهذا أكثر الحض على تعلمه واستماعه وروايته على شريطة أن يكون في الحث على فضيلة، أو ذم رذيلة، فقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري بقول له :

« مُرْ مَنْ قَبْلَكَ يَتَعَلَّمُ الشَّعْرَ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى مَعَالِي الْأَخْلَاقِ، وَصَوَابِ الرَّأْيِ، وَمَعْرِفَةِ الْأَنْسَابِ ».

ولقد كانت عائشة رضي الله عنها كثيرة الرواية للشعر، وكان مما نرويه جميع شعر لبيد.

وقد روى الحسن بن رشيق القيرواني أن أعرابياً وقف على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه، فقال إن لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن

(١) هو الحصان.

أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك، فقال عليّ : خطّ حاجتك في الأرض، فإني أرى النصر عليك. فكتب الأعرابي على الأرض إني فقير، فقال عليّ : يا قنبر، ادفع له حلتي الفلانية، فلما أخذها مثل بين يديه فقال .

كَسَوْتَنِي حُلَّةً تَبْلَى مَحَاسِنَهَا فَسَوْفَ أَكْسُوكَ مِنْ حُسْنِ الثَّنَاءِ حُلَلًا
إِنَّ الثَّنَاءَ لِيُحْيِي ذِكْرَ صَاحِبِهِ كَالْغَيْثِ يُحْيِي نَدَاهُ السَّهْلَ وَالْجَبَلَ
لَا تَزْهَدِ الدَّهْرَ فِي عُرْفٍ بَدَأَتْ بِهِ فَكُلُّ عَبْدٍ سَيُجْزَى بِالَّذِي فَعَلَا
فقال عليّ : يا قنبر أعطه خمسين ديناراً، أما الحلقة فلمسألتك، وأما الدنانير فلا أدبك.

فأنت تراه أعطاه لأدبه كما قال بعد أن أعطاه لفقره لما وجده في شعره من شكر النعمة، وتمحيض النصيحة، والترغيب في الآجل.

هذا وقد قال الشعر ورواه آل البيت النبوي الكريم.
ولي من بني عبد المطلب رجالاً ونساء مَنْ لم يقل الشعر حاشا رسول الله،
وناهيك بالعباس فقد كان شاعراً مجيداً وله شعر ماثور معدود في الطبقة العالية،
من ذلك قوله يوم حنين :

أَلَا هَلْ أَتَى عِزِّي مَكْرِي وَمَوْقِي بَوَادِي حُنَيْسٍ وَالْأَيْسَنُ تُشْرِعُ
وَقَوْلِي إِذَا مَا النَّفْسُ حَاشَتْ لَهَا قَدَى وَهَامَ تَذْهَدَى وَالسَّوَاعِدُ تُقْطَعُ
وَكَيْفَ رَدَدْتَ الْحَيْلَ وَهِيَ مُغِيرَةٌ بِزُورَاءَ نُعْطَى بِالْيَدَيْنِ وَتَمْنَعُ^(١)

وكذلك كان الخلفاء الراشدون والجلّة من الصحابة والتابعين.
وكانوا يتغنون به ولهم في ذلك أخبار طويلة، فمن ذلك ما رواه السائب بن يزيد : بينا نحن مع عبد الرحمن بن عوف في طريق إذ قال لرباح بن المغترف غساً، فقال له عمر بن الخطاب : فإن كنت آخذاً فعليك بشعر صرار بن الخطاب (وضرار هذا من أجلاء الصحابة فارس معوار، وشاعر مفلح مقدم على ابن

(١) لعلها تعطي السهام، وتمنع العدو.

الزبعرى فهو أشعر قريش) ومن شعره :

يَا نَبِيَّ الْهُدَى إِلَيْكَ لَجَا حَيْدٌ رَى قُرَيْشٍ وَلَاتَ جَيْنَ لَجَاءِ
حِينَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ سَعَةُ الْأَرْضِ ضَوْعَادَاهُمْ إِلَهُ السَّمَاءِ
وَأَلْتَقَتْ خَلْقَتَا الْبَطَانِ^(١) عَلَى الْقَوِ مَ وَنُودُوا بِالصَّيْلِمِ الصَّلْعَاءِ^(٢)
إِنَّ سَعْدًا يُرِيدُ قَاصِمَةَ الظُّهْرِ بِرَ بِأَهْلِ الْحُجُونِ وَالْبَطْحَاءِ
فَأَنْتَهِيه فَإِنَّهُ أَسَدُ الْأَنْسِ دَ لَدَى الْعَابِ وَالْعِ فِي الدَّمَاءِ
إِنَّهُ مُطَرِّقٌ يُرِيدُ لَنَا الْأُمِّ رَ سَكُوتًا كَالْحَيَّةِ الصَّمَاءِ^(٣)

وقد كان ضرار قالها يوم فتح مكة يسترحم رسول الله ﷺ على قومه وأراد بسعد سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي، وقد كانت راية رسول الله يوم الفتح بيده. فإن نظرنا إليه من جهة أنه يستشفع به في حقن الدماء، فقد كان الأمر في الإسلام على ما كان عليه في الجاهلية كما رأيت في هذا الحديث. وإن كان من جهة الاستغاثة والنجدة فكذلك وهو في الإسلام أشد أثراً منه في الجاهلية لما داخله من المعطفات الدينية.

فقد روى سعيد بن المسيب أن عمرو بن سليم الخزاعي وفد على رسول الله ﷺ وكانت خزاعة حلفاء له فلما كانت الهدنة بينه وبين قريش أغاروا على حي من خزاعة يقال لهم بنو كعب فقتلوا فيهم، وأخذوا أموالهم فاستنجد بالنبي ﷺ وأنشده بين يديه :

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا حَلَفَ أَيْبُنَا وَأَيْبُهُ الْأَنْلَدَا^(٤)
نَحْنُ وَلَدْنَاهُمْ فَكَانُوا وَلَدًا ثُمَّتْ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَا وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا
وَنَصَبُوا لِي فِيكَ دَاءً رَصَدَا وَبَيَّتُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّجَا
وَقَتَّلُونَا رُكْعًا وَسُجَّجَا وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتَ تَدْعُو أَحَدَا

(١) البطان : حزام يجعل تحت بطن البعير وهو مثل في بلوع الأمر شديده.

(٢) أي الداهية الشديدة.

(٣) أي التي لا تقبل الرقية.

(٤) الأنلد : صفة للحلف، ومعناه القدم.

وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقْلُّ عَدَدًا فَانْصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَبَدًا
وَأَذْغُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدًا فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا
إِنْ سِمْ خَسَفًا وَجْهَهُ تَرَبَّدَا^(١) فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزِيدًا

فدمعت عينا رسول الله ﷺ، وخرج بمن معه لنصرهم. فإذا نظرنا إليه من ناحية ثلم الأعراض والفخر بما لا يحل كالخمر والميسر، فإن الإسلام أثر في الشعر من هذه الجهة أثراً صالحاً، فقد كان الرسول وأصحابه يعاقبون الهجائين عقاباً صارماً حتى إنهم أهدروا دم ناس من الشعراء كانوا يصدون عن سبيل الله، ويظاهرون أعداءهم عليهم، فأما غيرهم فقد كان عقابهم التعزير بالحبس ونحوه كما فعل عمر بالخطيئة حتى كثرت أشعاره في الاسترحام والتوبة، وكان من استرحامه قوله :

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِذِي مَرَخٍ زُغِبَ الْحَوَاصِلَ لَامَاءٌ وَلَا شَجَرُ
الْقَيْتِ كَأَسْبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلَمَةٍ فَأَغْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ
ولهذا كان الشعر في صدر الإسلام أنزه منه قبله، وإن لم يسلم من عيوب الجاهلية سلامة تامة.

فأما النظر من حيث جودة السبك، وغزارة المعنى، وتشخيصه، فهو في صدر الإسلام أعلى منه قبله على الجملة إذا نظرت في مجموع ما ورد في العصرين، لأن العصر الثاني غزر معناه بالكتاب والسنة، وما وصل إلى الأمة من آثار الأمم الأخرى، ومال كثير من الشعراء إلى وضوح المقصد خصوصاً منهم الشعراء العشاق، وشعراء الحكم والأمثال. فأما من جهة المثانة، وصفاء العربية، فإن الجاهلية ما زالوا أصحاب هذين.

وأما من حيث الموضوعات فهي في الإسلام أوسع منها في الجاهلية خصوصاً الموضوعات الدينية. هذا، ولا يفوتنا أن نبين أن ناساً تنسكوا وزهدوا في الشعر، وزهدوا فيه الناس، أخذوا بظاهر ما جاء في الكتاب العزيز من قوله تعالى ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ وما

(١) تربد : تغير.

ورد من الأخبار في ذم الشعر، ولم يفتنوا إلى أن هذا محمول على الشعر الضار كالهجو والغزل فيما لا يباح، وكإثارة الأحقاد به وغير ذلك مما لا يجوز أن يؤدي لا بنثر ولا بظلم، وقد نغالي بعضهم حتى ظن أن رواية الشعر في رمضان نقض الوضوء فكان ابن عباس وابن سيرين بنهيان الناس عن ذلك، وقد قبل لسعد ابن المسيب إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر، فقال : نسكوا نسكاً أعجمياً، ولكن هذه الحالة لم تلبث أن زالت في عصر بني أمية.

وملخص الفوارق :

أن الجائزة عليه في الإسلام دونها في الجاهلية.

أن درجته في الإسلام دون درجته في الجاهلية لأن الكتاب زاحمه.

أنه في الإسلام أنزه منه في الجاهلية.

أنه في الإسلام أعلى من جهة غزارة المادة، وتشخيص المعنى.

أنه في الإسلام أوسع موضوعاً.

أنه في الإسلام دون الجاهلية في المتانة.

أنه في الإسلام دون الجاهلية في صفاء العربية.

أن الرغبة فيه في صدر الإسلام دونها في الجاهلية.

فأما من جهة النجدة به فهو في الإسلام أظهر.

وهذه الفروق كلها متفاربة لا يكاد يميزها إلا كثير الاطلاع المنذوق

لكلام العرب.

هذا وقد لا حظت أن أكثر نلاميد الشيخ المهدي أولعوا بالمواريث الشعرية فقد نشر الأستاذ الشيخ عباس الجمل بحثاً في الموازنة بين أبي عامر وشوقي، وهي نزعة وصلت إليه من ذلك الباحث العظيم. والأستاذ الشيخ عباس الجمل من أظهر تلاميذ المهدي، ومن الذين يستظهرون أكثر نواذره الأدبية، وقد حصرت منذ أشهر وهو يلقي محاضرة في جمعية الاقتصاد السياسي فرأيت إشارات ونبراته صورة جديدة من الشيخ المهدي، وإن لم نفتن لذلك. والأسناد العظيم هو الذي يطبع نلاميده بطابعه فيكونون خلفاءه في عالم الفكر والبيان.

الفهرس

٥	مقدمة
٧	البحث الأول: أهواء النقاد
١٥	البحث الثاني: عود إلى أهواء النقاد
٢٢	البحث الثالث: أنفس الشعراء
٣٠	البحث الرابع: شعراء الأحزاب
٣٧	البحث الخامس: نفسية الناقد
٤٥	البحث السادس: الحاسة الفنية
٥٦	البحث السابع: خطر الإبهام والغموض
٦٣	البحث الثامن: الصور الشعرية
٦٨	البحث التاسع: أهمية الصور الشعرية
٧٧	البحث العاشر: اختلاف الصور الشعرية
٨٣	البحث الحادي عشر: الصور الشعرية في القرآن
٩٣	البحث الثاني عشر: المعاني والأغراض
١٠٢	البحث الثالث عشر: الحصري وشوقي
١١٣	البحث الرابع عشر: البحري وشوقي
١٢٥	البحث الخامس عشر: نكاء الممالك عند البحري وشوقي
١٣٢	البحث السادس عشر: حنين شوقي إلى مصر
١٤٢	البحث السابع عشر: بين البحري وشوقي

البحث الثامن عشر: الفصل بين البحري وشوقي	١٤٩
البحث التاسع عشر: البوصيري وشوقي	١٥٧
البحث العشرون: بين البوصيري وشوقي والبارودي	١٦٦
البحث الحادي والعشرون: أسلوب البارودي	١٧٧
البحث الثاني والعشرون: التخلص والاقتضاب	١٨٥
البحث الثالث والعشرون: المعجزات	١٩٤
البحث الرابع والعشرون: وصف القرآن	٢٠١
البحث الخامس والعشرون: أبو نواس وابن دراج	٢١٢
البحث السادس والعشرون: نفحة من الأدب الأندلسي	٢٢١
البحث السابع والعشرون: حياة ابن دراج	٢٢٣
البحث الثامن والعشرون: بين صبري ومطران	٢٤٣
البحث التاسع والعشرون: الموازنة بين النونيتين	٢٥٢
البحث الثلاثون: بين البارودي وأبي نواس	٢٦٥
البحث الحادي والثلاثون: بين البارودي وأبي فراس	٢٧١
البحث الثاني والثلاثون: الموازنة بين الكراثيتين	٢٨٠
البحث الثالث والثلاثون: بين أبي نواس وعبد الباقي ابراهيم	٢٩٣
البحث الرابع والثلاثون: بين شوقي وابن زيدون	٣٠١
البحث الخامس والثلاثون: الموازنة بين القصيدتين	٣٠٩
البحث السادس والثلاثون: معاصرتي أبي نواس	٣٢٥
البحث السابع والثلاثون: بين أبي نواس وابن المعتز والخليع	٣٣٢
البحث الثامن والثلاثون: أقطاب الموازين	٣٤١

ولد الدكتور زكي مبارك في الخامس من أغسطس سنة ١٨٩١. وقال : « ولدتني أمي في الخامس من أغسطس، فأضيف الى الوجود خيرٌ جديد وشرٌ جديد » .

ورحل زكي مبارك الى عالم البقاء في الثالث والعشرين من يناير ١٩٥٢ .

وللدكتور زكي مبارك مئات المقالات لم تجمع حتى الآن من الصحف والمجلات.

وللدكتور زكي مبارك الاديب والناقد عشرات الكتب في الادب والنقد والفلسفة منها على سبيل المثال : « النثر الفني في القرن الرابع الهجري، التصوف الاسلامي، الاخلاق عند الغزالي، ليلى المريضة في العراق، عبقرية الشريف الرضي، اللغة والدين والتقاليد والمدائح النبوية » .

وللشاعر زكي مبارك عدة دواوين منها : ديوان زكي مبارك، الحان الخلود، اطياب الخيال احلام الحب وقصائد في التاريخ » .